الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي

الحِكَمُ العَطائِيَّة

شَرحٌ وتحليل

الجزء الثاني

دارُ الفِكرِ المعاصر
بيروت - لبنان



دارُ الفِكر
دمشق - سورية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحكم العطائية

شرح وتحليل

الجزء الثاني

دار الفكر
٢٠٠٣ الطفولة أمانة ومستقبل

الرقم الاصطلاحي: ١٣٩٨,٠١١-٢
الرقم الدولي: ISBN: 1-57547-961-3
الرقم الموضوعي: ٢٦٠
الموضوع: التصوف والأخلاق
العنوان: الحكم العطائية شرح وتحليل
التأليف: د. محمد سعيد رمضان البوطي
الصف التصويري: دار الفكر - دمشق
التنفيذ الطباعي: المطبعة العلمية - دمشق
عدد الصفحات: ج٢=٥٢٨ ص
قياس الصفحة: ١٧×٢٥ سم
عدد النسخ: ٣٠٠٠ نسخة

دار الفكر بدمشق
برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد
ص.ب: (٩٦٢) دمشق-سورية
فاكس: ٢٢٣٩٧١٦
هاتف: ٢٢٣٩٧١٧ - ٢٢١١١٦٦
Http://www.fikr.com
e-mail: info@fikr.com

إعادة
١٤٢٤هـ=٢٠٠٣م



مقدمة الجزء الثاني

الحمد للّه الذي بنعمته تتم الصالحات.

ولست أعلم في الصالحات التي وفقني الله لإنجازها، أصلح من هذا الكتاب الذي سيرني الله في طريق إنجازه، إن خلصت النية وصفا القصد.

والحمد للّه الذي مدّ في عمري إلى أن يسر لي إخراج الجزء الثاني من هذا الشرح الذي قد يكون فريداً في منهجه وفي تبسيط معانيه والتركيز على أهم ما قد يحتاج إليه المسلمون اليوم منها. وإني لآمل من كرم الله وجوده أن يبسط في عمري، حتى أوفق لإخراج ما قد تبقى من أجزائه. على النحو المفيد، وبالمضمون الذي يُرضي ابن عطاء اللّه ويتفق مع مقصوده.

وأقرّ وأعترف بأني، في كل ما قد كتبت إلى الآن من شرح هذه الحكم، إنما بسطت على الورق المعاني التي ألهمنيها الله تعالى وبثها في روعي، ساعة الإقدام على تدوينها. ولم يكن لاستعدادي العلمي دور إلا من حيث وزن المعاني والأفكار بميزان الشريعة، واستحضار ما تيسر استحضاره من دلائلها في القرآن والسنة.

ولعل مما يفيد القارئ ويزيده ثقة بالصالحين، لا سيما أصحاب هذا المشرب، أن أخبره بالقصة التالية لا أتزيّد فيها ولا أحور منها.

عندما وصلت في دروس الحكم التي ألقيها بجامع الإيمان في دمشق، مساء كل اثنين، إلى الحكمة الخامسة والسبعين، وأولها «ما العارف من إذا أشار وجد

الحق أقرب إليه من إشارته...» إلخ توقفت في فهم معناها، وغمض عليّ المراد منها، على الرغم من طول التأمل والبحث. فاعتذرت للحاضرين عن شرحها بسبب جهلي بمضمونها الذي ينبغي أن يكون فوق مستوانا. وتجاوزتها إلى الحكمة التي تليها.

ولما وصلت بعد ذلك، بشهرين تقريباً، إلى هذه الحكمة ذاتها، أثناء كتابتي للجزء الثاني من شرح هذه الحكم، توقفت بسبب المشكلة ذاتها. فلم أهتد إلى وجه من الكلام سليم في شرح هذه الحكمة!..

وفي تلك الفترة شاء الله أن أُدعى إلى القاهرة لحضور مؤتمر، لم يكن من المتوقع أن أُدعى إليه. فتركت مواصلة الكتابة واتجهت إلى القاهرة لحضور المؤتمر المذكور.

وهناك انتهزت الفرصة فزرت بعض كبار العلماء والصالحين من سلف هذه الأمة: الإمام الشافعي، والعز بن عبد السلام، وابن دقيق العيد، وابن الفارض، وابن عطاء الله السكندري، رحمهم الله جميعاً ونفعنا بهم. ولما زرت ضريح ابن عطاء الله جلست فتلوت ما تيسر لي من القرآن، ودعوت بما ألهمنيه الله، وناجيت الله في سري قائلاً: أللهم إنك تعلم أنني عجزت عن فهم الحكمة التي وصلت إليها في شرحي الذي أنا ماضٍ فيه كتابة وإلقاء، فأسألك اللهم ببركة من أنت في حضرته صاحب هذه الحكم، أن تلهمني المعنى المراد منها، وأن تقدرني على المضي فيه.

ولما عدت إلى دمشق، أقبلت في اليوم الثاني إلى أوراقي، وعدت إلى الحكمة التي وقفت عندها واستعصى عليّ فهمها، وإذا بي أمام معان عجيبة تنزلق إلى فكري، لتُسَجَّل على أوراقي. وتابعت كتابة هذه المعاني التي ترد إلى خاطري مرتبة متتابعة، فما أقبل مساء ذلك اليوم حتى كنت فرغت من كتابة ما تلقيته من معاني تلك الحكمة. وأشهد أني تلقيتها تلقي التلميذ من معلمه، ثم كتبتها ككتابة التلميذ لوظيفته.

وذلك هو شأني في كل ما قد كتبته إلى الآن من شرح هذه الحكم، واردٌ يكرمني الله به ببركة ابن عطاء الله الذي قضى الله أن أشرح للناس كلامه، غير أن شأني في شرح هذه الحكمة، أنه، أي الوارد، جاء بعد توقف واستعصاء، على خلاف ما كان من شأني مع غيرها.

وإني لأعدّها تربية سامية من الله عز وجل لي: أغلق فكري عن إدراك ما حاولت فهمه، حتى إذا استبد بي اليأس، أكرمني بفتح مغاليق الفكر وألهمني ما كنت تائهاً عنه، كي أتنبّه إلى أن ما قد تمت معرفتي له من معاني الحكم الأخرى، هو أيضاً إنما كان بفتح من الله وإلهام منه ولم يكن جهدي بين مصدر الإلهام وأفكار الناس إلا كجهد ساعي البريد إذ يسعى بما قد حُمِّلهُ بين الصادر والوارد بأمانة الاستلام والتسليم.

وإني لأسأل الله عز وجل أن يأخذني من نفسي إليه، وأن لا يجعل نصيبي من هذا الكلام قولاً أرصفه أو أفكاراً أتجمل بها.

ثم إني آمل من كرم الله وسعة فضله أن يلحقني بمن قال عنهم: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صالِحاً وَقالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٤١/٣٣].

ولئن كان تقصيري وسوء حالي لا يرقى بي إلى أن أكون في مصافّهم، فإن في سعة عفو الله وفضله ما يجعلني ملحقاً بهم.

اللهم اغفر لي ذنبي، واستر لي عيبي، وأصلح لي حالي، واجعلني بمنك وإنعامك ممن أحببتهم فأحبوك، وألهمني شكر نعمتك كلها. والحمد لله رب العالمين.

دمشق في ١ جمادى الأولى ١٤٢٢هـ

٢٢ تموز (يوليو) ٢٠٠١م

محمد سعيد رمضان البوطي

الدكتور
محمد سعيد رمضان البوطي

الحكم العطائية

شرح وتحليل

الجزء الثاني



الحكمة الثامنة والعشرون

((ما استودع في غيب السرائر ظهر في شهادة الظواهر))

هذه الحكمة مبنية على قول رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح ((ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب)).[1] والمراد بالقلب هنا ما يستبطنه الإنسان من المشاعر والمقاصد والتوجهات والوجدانات.

ومعنى الحديث، أن الذي يقود الإنسان في سلوكه، ويدفعه إلى ما يتخيره من الأعمال إنما هو تلك المشاعر والوجدانات التي يستبطنها. ونظراً إلى أن هذه المشاعر والوجدانات، إنما تنعكس على القلب، كما ينعكس الفكر والإدراك على الدماغ، فقد كان الشأن، على الأغلب، أن ينسب ذلك كله إلى القلب.

إذن، فالظاهر الذي يتجلى من الإنسان في لسانه وأعضائه وحركاته وسكناته، ليس إلا جنداً يأتمر بأوامر القلب، ويستجيب لتطلعاته وأحكامه، وليس العكس.

---

(١) متفق عليه من حديث النعمان بن بشير. وأوله: ((إن الحلال بيّن وإن الحرام بيّن...)).

فإذا كان باطن الإنسان سليماً نقياً من الشوائب عامراً بتقوى الله تعالى، فلابد أن يتجلى ذلك على ظاهره، من حيث الالتزام بأوامر الله، والتخلق بالأخلاق الحميدة.

وإذا كان الباطن منه منطوياً على الزغل بعيداً عن السلامة والنقاء، فالشأن أن تسري ظلال ذلك إلى الظاهر، وأن تصطبغ أنشطته وأعماله وعلاقاته بالآخرين، بالصفات ذاتها.

غير أن في هذا الفريق الثاني من الناس، من يحاول أن يستر ظاهره بغطاء النفاق، محاولاً أن يحجب بذلك سريرته السيئة عن أنظار الناس ومداركهم.. غير أن هذه المحاولة قلما يكتب لها النجاح. ذلك لأن الفضائل الظاهرة إن لم تكن موصولة بجذور من العوامل الباطنة، تفقد رواءها وتغيب عنها جاذبيتها، ويتلقاها الناس ثقيلة عليهم سمجة في مرآهم. إذ لابدّ أن تمتدّ عليها غاشية مما يفرزه الباطن من رعونات وآفات. وصدق الشاعر إذ قال:

ومهما تكن عند امرئ من خليقة   وإن خالها تخفى على الناس تُعلم

* * *

ولننتقل من هذا البيان أو الشرح النظري الموجز لهذه الحكمة، إلى تفصيل يتمثل في عرض نماذج من وقائعها التطبيقية:

إن الحب شعور خفي يهيمن على قلب الإنسان وسريرته. ولكنه لابدّ أن يطفح بآثاره ومقتضياته على ظاهر سلوكه وتصرفاته. فإن رأيت من يدعي أنه يحب الله ورسوله، فتتبّع دليل ذلك في سلوكه

وأعماله، فإن رأيته ملتزماً، جهد استطاعته، جادة الشرع منضبطاً بقواعده وأحكامه، مبتعداً جهد استطاعته عن المحرمات، فذلك هو الدليل على صدقه. وإن رأيته شارداً عن صراط الله تعالى، متقلباً في تيه المعاصي والآثام، فاعلم أنه كاذب في دعوى محبته.

ولاحظ أنني أقول: «جهد استطاعته» لتعلم أن محبة الله عز وجل لاتستلزم العصمة ولا الكمال. فلربما اندفع المحب إلى الانضباط بكل الأوامر والآداب الإلهية الإسلامية، ثم تعثر عن بلوغ مداه، بسبب ما قد ركب فيه من ضعف، وما قد قضى الله عليه به من تسلّط آفات الغريزة والأهواء، وبسبب قصور إمكاناته عن بلوغ سائر آماله وأحلامه.

ولله حكمة باهرة في أن جعل قلب الإنسان مهيأ لاستيعاب أقدس حب لأعظم محبوب، ألا وهو الله عز وجل، ثم جعل طاقاته الجسمية والغريزية متقاصرة عن القدرة على الوفاء بحقوق هذا الحب.

والحكمة هي أن يسير العبد في طريق الوفاء بحقوق حبه لله عز وجل، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، حتى إذا اصطدم بجدار ضعفه وعجزه وبسلطان غريزته، لزم جادة العبودية، فشكى إلى الله عجزه، وقدم بين يدي ماقد كبل به من الغرائز والنقائص البشرية مشاعر حيائه وخجله من الله عز وجل، إذ يناجيه منتشياً بلواعج حبه، ثم يستسلم مغلوباً للواعج غرائزه وضعفه.

فبهذا الذي شاءه الله عز وجل، تمتزج نشوة الحب مع ذل العبودية لله عز وجل. ولا يصلح حال العبد مع الرب إلا هذا المزيج.

لو أتيح للإنسان الذي فاض قلبه حباً لله عز وجل، أن يؤدي حقوق حبه له كاملة بدون نقصان: إذن لتحول شأنه مع الله عز وجل إلى ما يشبه حال بطل أوتي قدرات خارقة، فهو يتحدى بها الصعاب. وهذا يتعارض مع حقيقة العبودية التي أقام الله الإنسان عليها، والتي تتجلى في شدة ضعفه وافتقاره إلى الله.

فتلك هي الحكمة من أن الله أقدر الإنسان على أن يجعل قلبه وعاء لأقدس حب لأعظم محبوب، ثم لم يقدره على الوفاء بحقوق هذا الحب... الحكمة هي أن تنقدح من تلاقي نشوة الحب مع واقع العجز والضعف البشري، مشاعر العبودية لله عز وجل.

والثمرة السلوكية لهذا التلاقي أن المحب في هذه الحالة، يظل في جهاد وصراع مع نفسه وغرائزه، مع الاستعانة الدائمة بالله عز وجل. يبذل كل ما يملك للانضباط بالأوامر والآداب، والابتعاد عن المنهيات والمكروهات، فإذا أدركه العجز التجأ إلى الله واستمدّ منه العون.. فإن غُلب على أمره وتمردت عليه أهواؤه وغرائزه طرق باب التوبة نادماً متحسراً عازماً على الإقلاع وإصلاح الحال.

فهذا الظاهر المتمثل في مزيج من السعي إلى الانضباط بأوامر الله، عند القدرة، والتجلبب بذل العبودية لله توبة وندامة وحياء من الله والتجاءاً إليه عند العجز، أقول: هذا المزيج من هذا وذاك هو الحال التي يجب أن يكون الإنسان عليها مع الله، وهو الظاهر المنسجم مع باطن الحب لله عز وجل والدينونة له بذل العبودية المطلقة.

* * *

الخشوع حالة قلبية تعني الخضوع والسكون، يقال خشعت الأرض إذا سكنت واطمأنت. ويقال خشع في صلاته إذا أقبل بقلبه عليها بعيداً عن الشواغل الأخرى.

فإذا خشع القلب، لابدّ أن تظهر آثار ذلك على الظاهر من الكيان، إذ الأحوال الباطنة هي القائد - كما علمنا - للأحوال الظاهرة. ومن ثم لابدّ أن يسري الخضوع والسكون القلبي إلى ظاهر الإنسان الخاشع.

فإن رأيت إنساناً يصلّي، وهو يعبث بيديه وثيابه، ويلتفت ذات اليمين واليسار، فاعلم أن لانصيب لقلبه من الخشوع، واعلم أن المشاغل التي تتجاذب ظاهر أعضائه، هي ذاتها المشاغل التي تتجاذب قلبه وتشغل باله. وإنها لحالة عجيبة يتلبس بها كثير من المصلين في بعض بلادنا العربية. يكون أحدهم هادئاً ساكناً لايذكره خاطره بأي التفاتة أو حركة أو بحث، حتى إذا قام إلى الصلاة، وكبّر للدخول فيها تكبيرة الإحرام، هجمت عليه دواعي الحركات المتنوعة، ورغبة البحث عن الساعة التي في يده والدراهم التي في جيبه، والطمأنينة إلى رتابة الثياب التي عليه.

فهل تتصور أن ذلك كله يكون بمعزل عن القلب الذي هو الدافع إلى ذلك كله، والذي هو الباعث لحركة الأعضاء عند العبث، والبحث في الساعة عن الزمن، وفي الجيب عن المحفظة والمال؟

لو كان القلب بمعزل عن ذلك الظاهر كله، إذن لما صح قول رسول الله - وهو الصادق المصدوق- «ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب».

وليت أن هؤلاء الذين يحاربون كل ما لايروق لأمزجتهم بدعوى البدعة يحكمون بها عليه، يتذكرون هذه البدعة الخطيرة من نسيان، ويتنبهون إلى أنهم يركنون منها إلى نقيض ما قد دعا إليه الله عز وجل إذ قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ، الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣/١-٢].

* * *

في الناس اليوم من يستهين بضوابط الشرع وأحكامه، محتجاً بأن العبرة بالقلب وسلامته من الأدران، وبأن استقامة الأخلاق وحسن المعاملة مع الآخرين هما الأساس.

إن هذا الكلام يتناقض بشكل حاد مع ماهو ثابت من أن صلاح السرائر لابدّ أن يترك أثره في صلاح الظواهر. وهي الحقيقة التي استقاها ابن عطاء الله من كلام رسول الله في الحديث الذي سبق ذكره.

إن القلب الطاهر النقي من الرعونات والأدران، لابدّ أن يكون وعاء لمحبة الله تعالى، ومرآة لتجلياته. إذ هو إما أن يتجه بوجداناته إلى الأدنى والأحط، فتنعكس عليه محبة المال والشهوات والأهواء وتحتله مشاعر العصبية والرعونات، وإما أن يتجه بوجداناته إلى الأعلى فيتوهج بمحبة الله وتعظيمه. وقد سبق بيان هذا مفصلاً في شرح بعض الحكم السابقة.

وفي هذه الحالة الثانية لابدّ أن يندفع صاحب هذا القلب إلى أداء حقوق الله والتقيد بأوامره، والابتعاد عن نواهيه... كيف لا والمفروض أن يحبه ويبجله ويعظمه؟!.

فإن أهمل حقوقه واستهان بأوامره، وعكف على المحرمات التي نهاه عنها، فذلك دليل قاطع على أن مرآة قلبه منكسة إلى الأدنى، ومن ثم فهي فارغة من محبة الله وتعظيمه ومهابته، مشغولة بمحبة المال والشهوات والأهواء والعصبية للذات.

والإنسان الذي فاض قلبه بهذه الشواغل لابدّ أن يصبح أسير أهوائه ورعوناته، ومن ثم فإنه لايخون الله وحده في رعاية حقوقه، بل لابدّ أن يخون إخوانه وأقرانه في ذلك من باب أولى.

كيف يستقيم أن يكون الإنسان خائناً في تعامله مع الله، مهدراً لحقوقه مستخفاً بأوامره، ثم يكون أميناً مع عباد الله يرعى حقوقهم ويحفظ عهودهم؟!.. وهل في الناس من يملك قلبين اثنين يخون الله بأحدهما لأنه منصرف إلى حب الشهوات والأهواء وحظوظ النفس، ورعوناتها، ويفي مع الناس بثانيهما لأنه طاهر من الرعونات نقي عن الشوائب؟ صدق الله القائل: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ [الأحزاب: ٣٣/٤].

* * *

تتكاثر اليوم، في ظل الصحوة الإسلامية، فئة أخرى، يظهر أفرادها من الغيرة على الإسلام وشرائعه ما يجعلك تتخيل أن الله ابتعثهم في هذا العصر لتصحيح أخطاء الرسل والأنبياء، وللتحذير من ضلالات السلف الصالح وسقيم تفسيراتهم وآرائهم.

يخوضون في تفسير كتاب الله خوضاً لم يسبقهم إليه رسول ولا صحابي ولا تابعي ولا ذو بصيرة بكتاب الله معظم لحرمات الله!. ويخبطون في أحكام الله عز وجل خبطاً لم يجرؤ عليه من قبلُ خادع ولا متقول.

يقدمون على ذلك كله باسم الغيرة على دين الله، والسهر على حماية شرعه والعمل على إغنائه وتجديده!..

فما الذي يبصرك بهوية هؤلاء الغيارى، والمصلحين المتحمسين؟

إن الذي يبصرك بهوياتهم وحقيقة أمرهم، أن تراقب سلوكهم وأن تتبين مدى موافقته أو مخالفته لما هو متفق عليه من مبادئ الدين وأحكامه. ولسوف تجد أن شرائع الله وأحكامه في واد، وسلوكهم في واد آخر.

حرم الله الخمرة، يشربونها!.. أمرهم بالصلاة، يعرضون عنها!.. نهاهم عن الفواحش، يمارسونها، فإذا استنكرت وذكرت، قالوا لك: العبرة بالباطن. وربما استهشد أحدهم بحديث رسول الله: ((إن الله لاينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم))[١] فقرأه محرفاً دَأبَ كثير من الناس، إذ يحفظونه هكذا ((إن الله لاينظر إلى صوركم وأعمالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم)).

إن هذه الحكمة التي نحن بصدد شرحها، والتي استقاها ابن عطاء الله من حديث رسول الله الذي سبق ذكره، تضع الحيارى من الناس

---

(١) رواه مسلم وابن ماجه من حديث أبي هريرة.

العوام أمام الميزان الذي يكشف عن زغل هؤلاء المفتئتين على كتاب الله والعابثين بأحكامه.

تتبع حال هؤلاء الناس وتأمل في سلوكهم، فإن علمت أنهم خاضعون لتعاليم الله منفذون لشرائعه وأحكامه، وفي مقدمتها الصلاة، وأنهم رقباء على أنفسهم أن لايرتكبوا محرماً ولا يركنوا إلى فسوق، فاحمل ما قد ترى من أفكارهم وآرائهم على محمل الخير وسلامة القصد، حتى وإن خالفت آراؤهم الثابت من أحكام الله وشرعه، فربّ صاحب قصد حسن تخونه المعرفة ويتنكب عن معرفة الحق.

وإن رأيت عكوفهم على المعاصي والآثام، وتهاونهم في الواجبات والعبادات، فكن منهم على حذر، واعلم أنهم يعبثون بشرع الله ويدجّلون على عباد الله، تحت أقنعة من مظهر الغيرة على الإسلام والعمل على تجلية أحكامه ومبادئه.

إذ لوصفت بواطن هؤلاء الناس، لتجلت آثار هذا الصفاء على سلوكاتهم، ولدفعهم ذلك الصفاء إلى الالتزام بأوامر الله والابتعاد عن نواهيه.. قل لي كيف تنسجم الغيرة على دين الله مع العكوف على الخمرة التي هي أم الخبائث ومع الإعراض عن الصلاة التي هي أول ما يحاسَبُ به العبد يوم القيامة[١] ؟!.

رحم الله مالكاً إمام دار الهجرة فقد كان يظل يقول: ((إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم)).

---

(١) حديث ((أن أول ما يحاسَبُ به العبد يوم القيامة من عمله الصلاة..)) رواه الترمذي من حديث أبي هريرة.

والمقياس الذي يجب أن يتم النظر على أساسه، هو هذا الذي قلناه، فهو الذي يعرّي الدجال من أردية ختله ونفاقه، ويكشف عن صدق المستقيم على صراط الله وأوامره.

* * *

لعلك تستشكل فتقول: ولكن في الناس من تنحرف سرائرهم وينحرفون في منزلقات المعاصي الخفية، فلايبدو شيء من ذلك على ظواهرهم، بل يظلون في كنف من ستر الله عز وجل، أليس في هذا ما يناقض كلام ابن عطاء الله؟

والجواب أن المراد بالسرائر أحوال القلوب وما استكنّ فيها من القصود والمشاعر والرغائب. فذلك هو الذي لابدّ أن يطفو على ظواهر أصحابها.

أما المعاصي التي يجترحها الإنسان في الخفاء، ويتوارى بها عن الناس، فليست هي المعنية بالسرائر هنا، بل هي من الظواهر التي سترها الله على صاحبها. ومن أجلّ مظاهر ألطاف الله بعباده، أنه ينشر الجميل من أفعالهم ويبعث لها عبقاً بين الناس مهما قلّ ذلك الجميل أو خفي عن أنظارهم، ويستر القبيح منها مهما كثر أو تكرر.

وما دامت المعاصي التي يقترفها الإنسان في الخفاء، ليست لها جذور متصلة بالقلب متمثلة بالقصد والإصرار، والتبرير أو العناد والاستكبار، فهي تعدّ من الظواهر التي ابتلي بها بعامل الضعف وتغلب الغريزة عليه، ومن عادة الله عز وجل أن يبقيها سراً بين العبد

وربه، وأغلب الظن أنه جل جلاله سيغفرها له يوم القيامة، ولسوف تدركه التوبة منها قبل الموت.

فأما إن كانت تلك المعاصي أثراً لقصود سيئة جاثمة في النفس أو ثمرة استكبار وعناد، فلابدّ أن تفوح رائحتها الخبيثة بين الناس، إذ هي دخان لنيران تلك السريرة، ولابدّ أن يتصاعد الدخان عند شبوب النيران.

والكلام، على الوزان ذاته يجري في الطاعات والقربات. فمن أقبل على الطاعات والقربات، دون أن تكون لها جذور من الإخلاص لله وسلامة القلب عن التوجه إلى ما سوى الله، فهي في الحقيقة وواقع الأمر ليست من الطاعات في شيء، ومن ثم فلن يكون فيها شيء من نور الطاعات وعبقها، إذ هي مُنْبَتَّةٌ عن معين القلب مفصولة عن جذور القصد المتجه إلى الاستجابة لأمر الله والتطلع إلى مرضاته، فلايسري فيها شيء من روح الطاعات ومعناها.

والشأن في صور الطاعات هذه أن تكون مكشوفة الحقيقة واضحة الهوية للناظرين، وقلّ أن تجد من يغتر بها ويؤخذ منها بمجرد الصورة والمظهر، إلا إن كان من الغفلة بحيث لايفرّق بين حقيقة الإنسان وتمثاله.

وهكذا فكما أنّ المعصية التي ليست لها جذور من القصد والعتوّ والاستكبار، تذوب على الأرجح في وهج من عفو الله وغفرانه، كذلك الطاعة التي ليست لها جذور من الإخلاص لوجه الله والبحث

عن مرضاته والتقرب إليه، تذوب في ضرام من رقابة الله وإطلاعه على كل خفي في سرائر عباده.

إذن، فالقاعدة التي يقررها ابن عطاء الله في هذه الحكمة ثابتة ومطردة، ولا يوجد فيها إشكال أو شذوذ.

* * *

الحكمة التاسعة والعشرون

((شتان بين من يستدلّ به ويستدلّ عليه. المستدل به عرف الحق لأهله وأثبت الأمر من وجود أصله. والاستدلال عليه من عدم الوصول إليه، وإلا فمتى غاب حتى يستدلَّ عليه، ومتى بعد حتى تكون الآثار هي التي توصل إليه؟)).

أيهما يدلّ على الآخر: الأصل على الفرع، أم الفرع على الأصل؟ النبع على الجدول والساقية، أم الساقية والجدول على النبع؟.. الشجرة على الثمرة أم الثمرة على الشجرة؟

في الناس من يبدأ فيتعرف على الأصل، ثم إن الأصل يهديه إلى الفروع والنتائج، وفيهم من يبدأ من النتائج والفروع، ثم إنه يستهدي بها إلى الأصل الذي انبثقت منه. والذي يتحكم بالأمر في هذا التقسيم، هو الخفاء والظهور، فالظاهر هو الذي يدلّ دائماً على الغائب أو الخفي.

ربما كانت الشجرة غائبة عنك، ولم يظهر أمامك إلا ثمارها. إذن فالثمرة التي هي الفرع تدلّ على الشجرة التي هي الأصل.. وربما

كانت الثمرة غائبة عنك، وكانت الشجرة هي الماثلة أمامك، إذن فالشجرة التي هي الأصل تدل على الثمرة التي هي الفرع.

والاحتمالان في المخلوقات والمصنوعات وارد. ولكن هل يرد الاحتمالان في المخلوق مع الخالق، في موجد الكون مع الكائنات؟

ولاحظ أننا عندما نقول: الخالق أو الموجد، نعنى موجد كل شيء والخالق لكل شيء، ومن جملة الأشياء العقل الذي به تدرك والنور الذي به تبصر. ألا وإن هذا الخالق هو الله عز وجل.

إذن فهل يرد الاحتمالان هنا أيضاً على السواء، كما وردا في دلالة الأصل على الفرع والفرع على الأصل ضمن حدود المخلوقات؟

إذا تأملت، ستعلم أن الاحتمالين هنا غير متساويين.

ذلك لأنك عندما تبعث ببصرك في المكونات والمخلوقات لتتعرف عليها، إنما تدركها وتتعرف عليها بنور من الهداية الربانية، فبه تدركها وبه تراها وبه تسبر غورها.

إذن فدليلك الهادي إلى وجود المخلوقات وحقيقتها هو الله. فكيف ينقلب الدليل، وهو الله، ليصبح مدلولاً عليه، وينقلب المدلول عليه وهو هذه المصنوعات، ليصبح دالاًّ؟!

دعني أضعك من هذه الحقيقة أمام مثال.

رجل أقبل في ظلام ليل دامس إلى مصباح، فحمله ودخل به داراً مظلمة، فرأى على ضوء المصباح أمتعة شتى، وأثاثاً، وأطعمة ونقوداً.. ترى أيهما كان الهادي الدالّ، وأيهما كان المهديَّ إليه والمدلول عليه؟

هل في العقلاء من يجهل أن المصباح المضيء هو الدليل الهادي، وأن كل ما كشفته أشعة المصباح هو المهدي إليه وهو المدلول عليه؟

إنك بالله ترى الدنيا التي من حولك، وبالله تعقلها وتدرك ما تدرك من أسرارها، وهذا بعض من معنى قول الله عز وجل: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَالأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥/٢٤] إذن فالله هو دليلك على كل ما سواه.

وقد مرّ بك شرح الحكمة التي يقول فيها ابن عطاء الله: «الكون كله ظلمة، وإنما أناره وجود الحقّ فيه».

فأما المقربون أصحاب الشهود، فقد رأوا المصباح أولاً.. رأوا الله نور السماوات والأرض أولاً، ثم إن رؤيتهم له بصّرتهم بالآثار، بصّرتهم بمخلوقاته ومصنوعاته، بصّرتهم بآثاره، وقد أيقنوا أنه لولا مؤثر لما وجدت الآثار.. لولا الصانع لما وجدت المصنوعات، لولا نور الهادي لما انكشف لك شيء من ظلمات المكوّنات.

ولاداعي لتكرار ما قد أوضحته لك من قبل، من أن الله لايحجبه شيء، وإن غاب عنك بعض ما أطلت في بيانه آنذاك، فعد إليه بقراءة متدبرة ثانية، تنجلى لك كل خافية في هذا الموضوع.

أما الذين غرقوا بين سحب الآثار، وحجبوا أنفسهم بالصور عن المصور، فقد راحوا يبحثون عن المصباح بالأشياء التي كشفها لهم ضياء المصباح، وإنه كما ترى لشيءٌ مضحك.. ولكن تلك هي حال أولئك الذين نسوا الله الذي هو صاحب الوجود المطلق، وأقول: نسوا الله، ولا أقول: حُجِبَ الله عنهم، إذ ليس في الكون كله ما يحجب

الله عن الإنسان، وكم هو دقيق التعبير القرآني القائل ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنساهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ [الحشر: ٥٩/١٩].

على أن البحث عن المصباح سعي مبرور على كل حال، إذ هو خير من الإعراض عنه ونسيانه، ومن ثم إنكار وجوده.

وهذا شأن عامة التائهين عن الله ببوارق الملهيات والمنسيات ورغائب الأهواء والشهوات. ويبدو أننا من هذا الفريق الثاني. فشأننا عندما نذكّر بوجود الله ونعرض الأدلة الناطقة بوجوده، أن نجعل مما عرفناه بنور الله وهدايته دليلاً على وجوده.. نقول: إن المكونات مغموسة بظاهرة العلة الغائية التي تدلّ على التدبير والقصد، والتدبير لابدّ فيه من مدّبر، ومدبر الكون هو الله. وننسى في غمار هذا الاستدلال أننا إنما أدركنا معنى العلة الغائية ودلالتها بنور من الهداية الربانية، أي فنحن بالله عرفنا ما نعتبره دليلاً عليه.

وما أكثر ما يتيه أحدنا عن وجود الله، في غمرة البحث عن أدلة وجوده، والاهتمام بترتيبها، وطريقة عرضها، وسبك الصياغة الدالة عليها، إذ تغيب الغاية وتحلّ الواسطة، وهي البحث والنظر، محلّها. وتكثر هذه الحال في غمار المجادلات الكلامية والبحث عن أقوى الدلائل وأوضحها على وجود الله عز وجل، إذ توظف النفس البشرية هذه المجادلات والأدلة التي تعرض، لرغائبها وحظوظها.

وتنظر إلى من أشرق وجود الله عز وجل على بصيرته، ممن تحرروا من شواغل الأهواء والشهوات، وأعرضوا عن المنسيات والملهيات، فتراه دائم الحضور مع الله، والتذكر له، دون حاجة إلى رصف أيّ من

تلك الأدلة والبراهين، فهو مشغول عنها بحضوره مع الله، ذاهل عنها بل عن وجودها بشهوده القلبي لله.

إن في الصالحين وأولياء الله تعالى من السلف الصالح، من لم يجتازوا إلى معرفة الله وشهوده أياً من طرق الاستدلال عليه بالمكونات وظواهر الموجودات والآثار، بل عرفوا الله واستغرقوا في شهوده وتجلياته دونما حاجة إلى شيء من ذلك.. نظروا إلى المخلوقات المحيطة بهم، فلم يجدوا فيها إلا مظهر وحدانية الله عز وجل وعظيم صفاته، فلم ينتقلوا خلال التأمل فيها من دليل إلى مدلول، بل غاب عنهم الدليل وتجلّى لهم المدلول. غابت عنهم الوساطة والطريق ورأوا أنفسهم مباشرة أمام الغاية والمطلوب، إذ لم يكن ما نراه نحن واسطة وسبيلاً أقرب إليهم من الغاية والمطلوب ألا وهو الله عز وجل.

وقد يبدو عسيراً علينا فهم هذا الكلام، نظراً إلى أننا تعودنا الانتقال من رؤية الوجود الظلّي أو التبعي إلى وجود الله، واليقين به. بل نظراً إلى أننا نعيش بأبصارنا وأفكارنا سجناء في أقطار هذا الوجود الظلي الذي ليس له وجود حقيقي وذاتي قط.

ولكن الذين تحرروا من هذا السجن، لم يقيموا لهذه الظلال الكونية أي وزن، ومتى كان الظل أكثر من امتداد لأصله؟.. ومن ثم فإنهم رأوا الوجود الحق، أي الوجود الذاتي أولاً، ثم استدلوا به على الموجودات الظلية المتفرعة عنه. فهم، كما قال ابن عطاء الله: «...عرفوا الحق لأهله، وأثبتوا الأمر من وجود أصله».

أما نحن العوام، بالنسبة إلى أولئك الربانيين، فقد بدأنا فنظرنا إلى المكونات أولاً، ثم إننا توهمنا لها وجوداً حقيقياً وذاتياً ثانياً، ثم استشكل الأمر علينا عندما تساءلت عقولنا بمقتضى قوانين المنطق: فمن الذي أوجد هذه الموجودات، ومن الذي أقامها متناسقة على هذا النظام الهادف؟.. ثم انتهينا، بعد طول نظر ومحاكمات عقلية ومنطقية، إلى أنها، كأي بناء ذي نسق مقام للاستمتاع والسكنى، لابدّ أن له صانعاً ومنسقاً، واكتشفنا بعد طول هذه الرحلة الفكرية العقلية والمنطقية إلى أنه الله عز وجل، بديع السماوات والأرض.. ثم إنه أتيح لنا، في نهاية المطاف، أن نستبين الخطأ الذي توهمناه من قبل، إذ كنا قد ظننا أن هذه المكونات ذات وجود حقيقي ذاتي، وأن نشطب عليها أخيراً بيد التمحيص والتصحيح، ونعلم أنها إنما تتمتع بوجود ظليّ تبعي للوجود الذاتي الحق ألا وهو وجود الله وحده.

ومعنى قولنا: الوجود الذاتي، الوجود الصادر من ذاته، والذي لم يأت بفيض أو بتأثير من غيره. وصاحب هذا الوجود واحد، لاثاني له، هو الله عز وجل، فهو وحده الذي أضغى صفة الوجود على كل ما قد قضى بإيجاده، فدخل بهذا القضاء تحت اسم المكوّنات أي المخلوقات.

وهذه الطبقة الثانية، هي الأخرى على خير ورشد، مادامت قد انتهت من رحلتها الفكرية والتأملية هذه إلى اليقين الذي أكرم الله به الطبقة الأولى منذ البداية، ودون حاجة إلى هذه المخاضة ولا إلى تصحيح أخطاء، مع فارق الرتبة كما قال ابن عطاء الله.

ولكن المصيبة تحيق بأولئك الذين لم يعرفوا الله من أول الطريق، ولم يهتدوا إليه في نهاية النظر والبحث!..

يمرّ بهم دهر طويل دون أن يسائلوا أنفسهم: من خلق هذه المكونات وأقامها على هذا النظام الهادف، حتى إذا واجههم من يحدثهم عن الله ودلائل وجوده، تذكروا هذا السؤال الذي ظل غائباً عن فكرهم إلى ذلك الحين، وقالوا لهم: فمن خلق الله؟

هذه المكونات العجيبة في وظائفها، الدقيقة في تكوينها، والتي لاتملك من أمر نفسها شيئاً، ليس من المشكل منطقياً وعلمياً أن لايكون لها خالق.. أما الإله الذي ثبتت له صفة الألوهية، والذي بيده الخلق والأمر، فمشكلة كبرى عندهم أن لايكون له خالق!!.. أفيبلغ الاستهتار بالعقل إلى أذلّ وأحطّ من هذا الدون؟!..

والأعجب من هذا، أنّ أحدهم يصوغ سؤاله بهذا التعبير: «من خلق الله» فهو ينعته بالألوهية ويسأل في الوقت ذاته عمن خلقه، دون أن يدرك أن الكلمة الأولى من سؤاله، وهي «خلق» تناقض الكلمة الثانية فيه وهي «الله»!.. المخلوقية شأن الكائن الضعيف الذي لايملك من أمر نفسه شيئاً، و«الله» اسم للإله الذي بيده كل شيء وإليه كل شيء، وجوده من ذاته وليس فيضاً من غيره، وإلا لم يكن إلهاً، ومن ثم لم يكن أهلاً ليقال عنه: الله.

ولو أن أحدنا جارى هذا الملحد المغفل، في سؤاله، فقال: إن الذي خلق الله هو فلان، فالشأن في جهالته الحمقاء، أن يسكت وتحلّ المشكلة التي في رأسه.. ولكنه إذا صحا إلى شيء من المحاكمة العقلية

في ذهنه، فمن المفروض أن يقول: وفلان هذا من خلقه؟ ولابدّ أن يمتدّ السؤال عن خالق الخالق الثالث فالرابع وهكذا.. إلى ما لانهاية. وعندئذ لامناص للعاقل من الأخذ بإحدى نتيجتين: إما أن ينكر وجود هذا العالم كله ويجزم بأن عينيه لاتريه إلا الأوهام بل هو أيضاً غير موجود، لأنه جزء من العالم الوهمي الذي لاوجود له، وإما أن يجزم بأن وراء سلسلة الموجودات التي يحتاج كل منها إلى من يوجدها من العدم، كائناً يتمتع بوجود ذاتي ومن ثم فهو لايحتاج إلى أي موجد له. ولابدّ أن يتمتع هذا الكائن عندئذ بكل صفات الكمال من القوة والحكمة والتدبير والعلم والإحاطة... إلخ.

ونظراً إلى أنه ليس في العقلاء من ينكر عقله لينكر وجود ذاته ووجود العالم الذي من حوله، إذ هو موجود فعلاً بدليل الحسّ والمشاهدة، فليس ثمة مناص - في قرار العقل وحكمه - من اليقين بوجود مَعِينٍ لهذا الوجود الكوني. والمَعِينُ (إن جاز التعبير) هو الله عز وجل.

والذين يفرّون من هذا القرار العقلي الذي لامناص منه، يلزمون أنفسهم بدعوى أن الموجودات العاجزة التي لاتملك من أمر نفسها شيئاً لاتحتاج إلى موجد، في حين أن الإله الخالق المدبر هو الذي يحتاج إلى من يوجده ويدبر أمره!!.. فهل بوسعك أن تحترم ذرة من عقلك ثم تجنح إلى هذا التخبط والخلط؟.. هل بوسعك أن تحترم عقلك وتعتدّ بوجوده ثم تسأل قائلاً: هذا الغنيّ المترف من أين يأكل ويشرب؟!..

* * *

نعود فنؤكد ما قلناه من أن الله لايكلف نفساً إلا وسعها. فالذين لم يتسّن لهم الرقيّ إلى مستوى الخلّص من عباد الله، أولئك الذين عرفوا الله بل شاهدوه ببصيرتهم دونما حاجة إلى برهان، لاحرج عليهم في أن يسلكوا مسالك الاستدلال على وجود الصانع عز وجل وعلى أنه المدبر لشؤون هذا الكون كله، ليس على الأعرج حرج في أن يستعين بالعصا.. والمأمول أن يشفيه الله ويستقيم في السير على قدميه. وعندئذ يتخلّى عنها، إذ تنتهي حاجته إليها.

ولكن المصيبة التي لايستبين لها علاج، تتمثل في حال أولئك الذين لم يعرفوا الله من أول الطريق، ولايريدون أن يصلوا إلى معرفته والإيمان به في نهاية الطريق، ولايريدون أن يستعينوا بعصيّ الدلائل والبراهين. لمعرفة الحق ثم التعامل معه خلال رحلتهم المعيشية في هذه الحياة كلها.

والآن، نعود إلى نص هذه الحكمة لنستبين معناها المباشر أو القريب، ثم لنعلم مدى انطباق هذا الذي قلناه عليها.

يقول ابن عطاء الله: **شتان بين من يستدل به**، أي بالله عز وجل على ما دونه من المكوّنات، **ويستدلّ عليه**، أي يستدّل على الله تعالى بما دونه من المكونات. ثم يوضح الفرق بينهما فيقول: **المستدل به عرف الحق لأهله، وأثبت الأمر من وجود أصله**، أي فهو يتبع في ذلك مقتضى المنطق والعلم إذ ينطلق من الأصل إلى الفرع، ويستدلّ بالنبع على الجداول والسواقي المتفرعة منه. ثم يقول: **والاستدلال عليه، من عدم الوصول إليه.** أي إنما يحتاج إلى الأدلة على وجود الله من كان غائباً

عنه، غير واصل بالمعرفة والهداية إليه، فهو يحتاج إلى ما يوصله إليه ويعرّفه به من البراهين والأدلة الكونية المتفرعة عن وجوده. ثم يتابع فيقول: **وإلاّ فمتى غاب حتى يُستدَلَّ عليه، ومتى بعد حتى تكون الآثار هي التي توصل إليه.** أجل، فالبحث إنما يكون عن الغائب، وتلمّس الدلائل والآثار إنما يكون لمعرفة المجهول وتقريب البعيد. وجلّ الله عز وجل عن أن يكون غائباً أو بعيداً. الفطرة الإنسانية شاهدة على قربه، وحنين الروح إليه شاهدة على وجوده. وليس لأي منهما: الفطرة والروح، من حاجة إلى وساطة دليل أو قبس برهان.

ولكن لا حيلة لمن غمست حياته في الملهيات والمنسيات واستغرق في حمأة الشهوات والأهواء، من أمثالنا، إلاّ أن يستعين، للتخلص من حجاب بعده، بالبراهين والأدلة الكونية المتناثرة أمامه على الطريق. وإنه لجهاد مبرور ومأجور. وصدق الله القائل ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٢٩/٦٩].

وإذا اجتمع الصديقون السابقون، مع هؤلاء المجاهدين اللاحقين، فأنعم بها من نهاية يفوز فيها الجميع برضوان الله وبما أعدّ لهم من منازل النعيم والقرب، على اختلافها وتفاوت درجاتها.

وهذا ما يشير إليه ابن عطاء الله إذ ينقلنا إلى الحكمة التالية.

* * *

الحكمة الثلاثون

«(لينفق ذو سعة من سعته) الواصلون إليه، (ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله) السائرون إليه»

عندما فرق ابن عطاء الله بين من يستدل بالله على ما سواه، وبين من يستدل بما سوى الله من المكونات عليه، وبيّن مدى سموّ الدرجة الأولى على الثانية، على نحو ما قد تم بيانه، أراد في هذه الحكمة أن يستدرك وأن يبيّن أن في كل منهما خيراً. فقال ما معناه:

الواصلون الذين عرفوا الله، دون احتياج منهم إلى دليل من مخلوقاته يبصرهم به ويعرّفهم عليه، ينطبق عليهم قول الله تعالى: ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ﴾ [الطلاق: ٧/٥٦] شكراً لله تعالى وعرفاناً منهم بمدى تفضله عليهم، والإنفاق المأمور به هنا يتمثل في الشكر الذي يترجمه القيام الدائم بكامل حقوق الله، ومن أبرز هذه الحقوق وأهمها الدعوة إلى الله والعمل الدائب على غرس محبة الله في القلوب. وصدق الله القائل:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صالِحاً وَقالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٤١/٣٣].

وأما السائرون إليه، وهم الذين يسعون إلى إزالة ما تكاثف عليهم من غبار الأهواء ومشاغل الدنيا وحظوظ النفس، ذلك الغبار الذي أبعدهم عن الله وأحوجهم إلى قطع مسافات واجتياز عقبات للسير إليه، وأنهضهم إلى تجميع الأدلة الكونية عليه، فينطبق عليهم قول الله عز وجل: ﴿وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتاهُ اللَّهُ﴾ [الطلاق: ٦٥/٧].

وهذا الإنفاق يترجمه أيضاً شكر الله عز وجل على التوفيق الذي متعهم به لمجاهدة أنفسهم ونفض غبار الدنيا ومشاغلها عن كواهلهم، والسعي جهد الاستطاعة إلى حرق المسافات الوهمية بينهم وبين الله تعالى، بالوقوف على الآيات الكونية التي تنطق بوجوده وتشهد على وجدانيته، وتتحدث عن باهر صفاته وآلائه.

ومهما اختلف هذان الفريقان في أول الطريق، فإنهما يلتقيان عند نعيم معرفة الله، وإن كان أحدهما متأخراً في الوصول عن الآخر، كما يلتقيان في الخطاب المتجه إليهما معاً من الله تعالى والآمر لهما بالإنفاق أي الآمر لهما بالشكر على النعمة الغالية التي أسداها الله عز وجل إليهما، نعمة تعريفهما على ذاته وتبصيرهما بربوبيته وعظيم سلطانه.

وهل في نعم الدنيا كلها نعمة أجلّ وأبقى، من أن يكرمك الله بمعرفة ذاته، ومن أن يذيقك لذة القرب منه والتحبب إليه؟

وسواء أعرّفك الله على ذاته العلية، بادئ ذي بدء، مخترقاً بك محطات الدلائل والبراهين وموازين المنطق والحجاج، أم سار بك إلى النهاية القدسية ذاتها من خلال شواهد الآيات وموازين الحجج

والبينات الكونية والعلمية المتنوعة، ففضله عليك ثابت ومننه في عنقك راسخة، والشكر الحقيقي على ذلك واجب.

تذكرني هذه الحكمة بكلمة تنقل عن العالم الغربي «باسكال» يقول: السعداء من الناس فريقان اثنان، فريق عرف الله فهو يبحث جهد استطاعته عن سبيل مرضاته، وفريق جادّ في البحث عن الله، أما الأشقياء فهم أولئك الذين لم يعرفوا الله، ولم يجدّوا في البحث عنه.

وإنه ليخيل إليّ أن هذا كلام إنسان مسلم ربما يخفي إيمانه وإسلامه.

* * *

بقي أن علينا أن ننبه أنفسنا، نحن الذين نعتمد في إيماننا بالله ومعرفتنا له، على الأدلة والبراهين الكونية وعلى منطق الحجاج والأقيسة العلمية، إلى أن علينا إذا وصلنا إلى المطلوب من وراء البحث والاستدلال فآمنا بالله واهتدينا إلى وجوده ووحدانيته، أن نتجاوز الأدلة والبراهين ونقلع عن الاشتغال بها والوقوف عندها، وأن نفرغ عقولنا وأفكارنا للمدلول والمبرهن عليه، ألا وهو الله عز وجل.

لقد صحبك الحادي أو دليل الركب طوال الطريق، ليدلك على النهج ويبعدك عن المتاهات والمنعرجات.. والآن وقد وصلت إلى مبتغاك بسلام، عليك أن تشكر الدليل ثم تتركه وتتجاوزه لتتجه بكليتك إلى مبتغاك الذي طال ارتقابك له واشتياقك إليه.

طالما وقفت تحدّق في الجدران تتأمل النور المنعكس إليها، لتستبين منها الدليل على الضياء الهابط إليها من الشمس.. والآن وقد هداك

نور الجدران إلى الشمس وضيائها، فقد آن أن تتناسى الجدران وتدير ظهرك إليها، لتتعرف على الشمس الساطعة في كبد السماء ولتدرك أنها مصدر كل ضياء، ولتتعامل معها لا مع الأشباح التي تستنير بضيائها وتلتمع تحت شعاعها.

لقد ساعدتك الأدلة العلمية التي تعاملت معها، إلى أن أوصلتك إلى ساحة اليقين، فعش الآن مع هذه الساحة ولا تعكر صفاء يقينك فيها بعودٍ إلى الأدلة والأقيسة المنطقية تجترها دونما حاجة إليها. فإنك لاتدري متى يفجؤك الموت.. وإذا داهمك الموت وأنت تشتغل بالأدلة وتبحث عن مزيد منها، فلسوف يكون ذلك شاغلاً لك عن الهدف الذي أنفقت حياتك كلها ابتغاء الوصول إليه، وابتغاء معانقته في هذه اللحظات التي تنفض فيها يديك عن الدنيا مقبلاً على الله عز وجل.

ألا، قدّس الله روح العالم الرباني الشيخ عبد القادر الجيلاني، فقد قيل في ترجمته أنه صاح في إحدى خلواته صيحة أفزعت من كان حوله، خاطب فيها الشيطان قائلاً: أغرب عني أيها الملعون فأنا أعرف الله بدون دليل.

إنني لأقول، مستعيناً بالله أن لا أقولها إلا بصدق:

اللهم إني أعرفك اليوم دون أي وساطة من دليل، فثبتني اللهم على هذه المعرفة الصافية عن شواغل الأقيسة والبراهين، ساعة ارتحالي من دنياي هذه إلى رحابك، وأكرم بمثلك ذلك كل من يلتجئ إليك بمثل هذا الدعاء.

* * *

الحكمة الحادية والثلاثون

((اهتدى الراحلون إليه بأنوار التوجه والواصلون لهم أنوار المواجهة. فالأولون للأنوار. وهؤلاء الأنوار لهم لأنهم لله لا لشيء دونه، قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون))

هذه الحكمة، واللتان قبلها، تدور على محور واحد، والمراد بالراحلين إليه السالكين الذين هم في طور النظر والبحث، فهم من الذين يبحثون عن الدليل على الله.. والمراد بالواصلين الذين تجاوزوا مرحلة البحث والنظر، فهم من الذين يستدلّون بالله على ما سواه.

والمراد بأنوار التوجه، وسائل البحث وموازين العلم والمنطق، وهي الأدوات التي لابدّ منها للسالكين والباحثين.

أما المراد بأنوار المواجهة، فالتجليات الوافدة إليهم من الله عز وجل. والمؤمن في هذه المرحلة من شأنه أن يغيب عما سوى الله عز وجل بالشعور والاهتمام، وأن كان يتعامل معه في حدود الاستجابة لما قد أمر الله به من التعامل مع الأسباب.

وأعتقد أن فيما قلناه، عند شرح الحكمتين السابقتين، ما يغني عن الإطالة والتكرير، في نطاق الموضوع ذاته.

الحكمة الثانية والثلاثون

((تشوفك إلى ما بطن فيك من العيوب، خير من تشوفك إلى ما حجب عنك من الغيوب))

للشيطان إلى قلوب الناس وسلوكاتهم وسائل متنوعة شتى. فله إلى التائهين الضالين البعيدين عن محجة الهداية، السبيل الذي يناسب حالهم، ويغلب أن يكون سبيله إليهم دفعهم إلى مزيد من المحرمات والموبقات، وإبعادهم عن جواذب الهداية وعن فرص اليقظة والانتباه.

وله إلى الملتزمين جهد استطاعتهم بأوامر الله، من عامة الناس، سبيل آخر يناسب وضعهم الذي هم فيه، فهو لايطمع منهم بالذي يطمعه من أولئك الضالين والتائهين. وإنما يضع أمامهم منزلقات أخرى لاتستبين لهم خطورتها، قد توصلهم في النهاية إلى حال الضالين من الفئة الأولى.

وله إلى من كان مثلي (ممن يرون أنفسهم، يتبوؤن سدّة التوجيه والإرشاد، وقد أقامهم الله على ثغور الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) أسلحته ووسائله الأخرى التي تختلف عن وسائله في الحالين السابقين.

ويغلب أن تكون وسيلته إلى هذه الفئة الثالثة، لفتَ النظر إلى ماله من مكانة وأهمية بين الناس، وينسج الشيطان لذلك أسباباً كثيرة متنوعة يضعها أمامه ويوحي بها إلى نفسه. من أهمها وأخطرها إبراز كل ما يمكن أن يكون دليلاً على مكانته وقربه من الله عز وجل، أمام المريدين وعامة الناظرين. كدعوى الكرامات والخوارق والأمور العجيبة التي يمكن أن تجري على يديه.

وربما استقر في ذهن واحد من هؤلاء أن ذلك هو السبيل الأمثل إلى جذب التائهين وهداية الضالين، إذ يخيل إليه الشيطان مستعيناً بنوازع النفس والهوى أن ظهور العجائب والخوارق على يد المرشد هو الذي يغرس الثقة به في نفس المريد والتلميذ، ومن ثم يزداد تعلقاً به وانقياداً له.

وسرعان ما يحمله هذا التصور على أن يجعل معظم مجالسه التي يجلسها للتعليم والإرشاد، مدبجة بالحديث عن كراماته والعجائب التي يجريها الله على يديه. وربما ساقه ذلك إلى الحديث عن مناماته التي يرى فيها رسول الله، وربما بالغ فأكد أنه يراه بين الفينة والأخرى يقظة.

ومن آثار هذا المنهج الذي يسلكه بعض الذين يمارسون وظيفة التوجيه والإرشاد، على تلامذتهم ومريديهم، أنهم إذ يتشبعون بهذا التصور الذي يتلقونه، يحسبون أن مقياس قرب أحدهم من الله، وارتفاعه إلى درجة العارفين والربانيين، إنما يتمثل في خوارق تجري على أيديهم وكرامات يمتعهم الله بها بين الحين والآخر. ومهما وفق

للانضباط بأوامر الله والابتعاد عن نواهيه، فلايرى لشيء من ذلك قيمة ما لم يشعر أنه قد أوتي كشفاً لايتمتع به الآخرون، أو قدرات خارقة ميزه الله بها عن غيره.

والشأن في حال كثير من هؤلاء أنهم يلازمون أورادهم ووظائفهم اليومية من العبادات والأذكار، ولكن لا ابتغاء أداء ما افترضه الله عليهم وأداء حقوق العبودية في أعناقهم، وإنما ابتغاء أن يصلوا من وراء ذلك إلى مرحلة «الكشف» وظهور الخوراق، فإن داوموا على وظائفهم تلك دون أن يصلوا إلى هذا الذي ابتغوه، أيقنوا في أنفسهم أنهم لم يصلوا إلى مرحلة العرفان بعد.

ألا فلنعلم جميعاً أن هذا التصور المخالف لموازين الإسلام وهديه، من أخطر رقى الشيطان ووساوسه. إن أوامر الله لنا بالطاعات والأذكار والترفع على المحرمات لم تكن الغاية منها في يوم ما رؤية الأنوار، أو كشف الغيوب أو تحول الحصى في قبضة اليد إلى قطع من السكر، وإنما الغاية منها أن تتطهر القلوب من غوائلها وأمراضها التي تقصي العبد عن الرب، كالكبر والعصبية للذات والمذهب والحسد والتكالب على الدنيا وحب الرئاسة والشهرة.. إلخ.

إن أئمة التصوف المنضبطين بكتاب الله وسنة رسوله من أمثال الجنيد البغدادي والإمام المحاسبي، ثم الإمام القشيري صاحب الرسالة المشهورة، عندما يذكروننا بضرورة الإكثار من تلاوة القرآن وأوراد الصباح والمساء، والإكثار من نوافل الطاعات بعد فرائضها، يحذروننا في الوقت نفسه من الافتتان بعوارض الخوارق والوقوف عندها بأي

غبطة أو اهتمام، مؤكدين أن الاستقامة على أوامر الله وطاعته هي الكرامة الحقيقية.

وهكذا، فإن علينا عندما نلزم أنفسنا بما يوفقنا الله له من الطاعات والأوراد والمبرات أن نتذكر الداء ونعلم الدواء.. إن الداء هو هذا الذي يتراكم مع الزمان على نفوسنا من الأمراض التي ذكرت طائفة منها، والدواء هذه الطاعات والأذكار والالتجاءات إلى الله عز وجل.

والمطلوب مني ومنك يا أخي القارئ إذا التجأنا إلى الدواء أن نتشوف إلى أن يشفينا الله به، من هذه العيوب الخفية المتراكمة على قاع نفوسنا، لا أن نتشوف من خلال استعماله إلى كشف ما قد أخفاه الله عنا من أسرار الغيوب.

وهذا ما ينصحنا به ابن عطاء الله إذ يقول: ((تشوفك إلى ما بطن فيك من العيوب، خير من تشوفك إلى ما حجب عنك من الغيوب)).

إن الله عز وجل يهيب بنا في كثير من آي كتابه أن نزكيّ أنفسنا، يقول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ، وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ [الأعلى: ٨٧/١٤-١٥]، ويقول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكّاها ، وَقَدْ خابَ مَنْ دَسّاها﴾ [الشمس: ٩١/٩-١٠]، ويقول: ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى ، وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾ [النازعات: ٧٩/١٨-١٩].

فهل التزكية أن أتمتع بالكرامات وأن تجرى على يدي الخوارق، فأبتلع الزجاج وأمسح الحجر فيتحول إلى سكّر؟

ليست هذه هي التزكية، ولم تشرع الطاعات والقربات من أجل شيء من هذا، وإنما شرعت ليداوي بها العبد أمراضه القلبية الخفية

التي سماها الله «باطن الإثم» فإن رأى أنه قد عوفي منها، أو استطاع أن يتغلب عليها، فليستبشر بأنه قد وصل إلى مرتبة الصديقين، حتى ولو لم تجر على يديه أي خارقة، ولو لم تسطع أمامه الأنوار، ولو لم ير رسول الله في يقظة ولا منام.

أما إن رأيت أنك ما تزال معجباً بنفسك متسامياً على الآخرين تحسد ذوي النعمة، وتنقم على من سبقك في الرئاسة أو الشهرة، تتكالب على المال وتتصيّده من أي سبيل تأتىّ لك، فاعلم أنك بعيد عن الله محجوب عن ألطافه ورحمته، حتى ولو كانت الخوارق كلها طوع يدك، إنها استدراج وليست كرامة، إذا نظرت إلى المريدين وهم يتكاثرون من حولي (أنا ليس لي مريدون، ولكني أضرب المثل) وأجدهم يبالغون في تقديري ويتسابقون إلى يدي ليقبلوها، فشعرت بالنشوة تطوف بنفسي والاعتزاز يسري في كياني، فلأعلم أنني قد غدوت بذلك شراً من الفسقة والتائهين عن صراط الله عز وجل، ذلك لأنهم ينقلبون فيما سماه الله «ظاهر الإثم» أما أنا فأتمرغ من هذه المشاعر المهيمنة على كياني فيما سماه الله «باطن الإثم» وفرق كبير بين ذلك الظاهر الذي يمحوه لسان التوبة وهذا الباطن الذي لايقوى اللسان ولا العزم على امتلاخه، وإنما يمتلخه ويزيله منهاج مستمر وطويل من الأخذ بعلاج التزكية، وإنه لعلاج يحتاج إلى ممارسة طويلة وجهاد دائب.

لابدّ أن ألفت النظر هنا إلى خطأ كبير يتورط فيه بعض المرشدات إذ يقعن في نقيض ما يوصي به ابن عطاء الله، خلال وظائفهن الإرشادية أو التوجيهية التي يؤدينها، سعياً إلى تربية مريداتهن.

كثيراً ما يحلو للواحدة منهن أن تفاجئ طالباتها أو مريداتها، خلال الدقائق الأولى من جلوسها إليهن، بأنها تشم رائحة معصية تسود المجلس، ونظراً إلى أنها لاتستطيع الركون إلى ظلمات هذا الجو الذي قد يسري بالظلام إلى قلبها، فإنّ عليها أن تغادر المجلس، ريثما تتوب صاحبة المعصية من معصيتها.

دعك من الأثر النفسي الذي يهيمن، من جراء هذا التصرف، على التلميذات أو المريدات، إذ تقع كل واحدة منهن تحت ضغط شديد من القلق النفسي والتخيلات الجامحة، بحثاً عن المعصية التي ارتكبتها وأطلع منه هذه الوليّة الصدّيقة عليها.. لعلها النظرة التي بدرت منها إلى شاب صادفته في طريقها، أم لعلها المسلسل الماجن الذي تابعت جزءاً منه في سهرتها مع الأسرة بالأمس، أم يبدو أن الأمر يتمثل في نومها الذي امتدّ على خلاف العادة، فحرمها من قيام الليل!.. وكم من فتيات هيمن عليهن هذا الاضطراب المرهق ثم تحول إلى وسواس نفسي، ثم تحول الوسواس إلى مرض نفسي عضال!..

أقول: دعك من هذا الأثر النفسي ونتائجه، ولكن انظر إلى المعنى الذي يوحي به هذا التصرف، إنه يوحي إلى المريدات بأن المرشدة بصيرة بسرائرهن، خبيرة بالخفي من أوضاعهن، إذ إنها تتمتع بصفاء روحي ونوراني، يمتعها بالكشف ويرفع عنها الحجب، ويعرّي أمامها الحقائق.

فمتى كان المرشدون الربانيون، بدءاً من الرسل والأنبياء، يوحون إلى أتباعهم هذه الدعوى، ويزجونهم في هذا القلق المهلك.

إن المرشد كلما ازداد معرفة لله وتقرباً منه، ازداد اتهاماً لنفسه وشعوراً بتقصيره وخوفاً من عواقب هذا التقصير ومن ثم فإنه يوقن بأن الفتح الذي يكرمه الله به إذ يجلس إلى مريديه إنما هو ببركتهم، وأن الضيق أو الانغلاق الذي ينتابه، إنما مردّه إلى سوء حاله، وهو لايرى في عمله الإرشادي إلا وظيفة أقامه الله عليها.

إنني أقول لكم بحق: كثيراً ما آتي إلى هذا المجلس فأشعر أنني أجرّ الكلام جراً، وأن المعاني الحاضرة تغيب عن ذهني فلاأشك في أن السبب في ذلك سوء حالي، والإنسان كما قال الله عز وجل بصير بحاله ﴿بَلِ الإِنْسانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ [القيامة: ١٤/٧٥]. وقد آتي فأجلس إليكم للحديث، دون تحضير للمعاني التي ينبغي أن أقولها، فما هي إلا لحظات وإذا بمعان تلقى على جناني ويخف في التعبير بها لساني، فما أشك في أن هذا الفتح المفاجئ إنما ورد إليّ ببركة بعض الصالحين الذين يفيض بهم هذا المسجد.

ومصدر الخطأ الذي يقع فيه بعضنا أننا نظن بأن مهمة الإرشاد والتوجيه إذ ينهض بها أحدنا، دليل على أنه يتبوأ مكانة متميزة عن الآخرين عند الله عز وجل.

وإنه لظن باطل، بل إنه لخطأ قتال.

النهوض بمهام الدعوة والإرشاد، ليس أكثر من وظيفة يسخر الله للقيام بها من يشاء، وللحكمة التي يشاؤها.. ربما كانت ابتلاء، وربما كانت تربية وتهذيباً للمرشد الداعي أكثر من أن تكون نصيحة للناس الذين يرشدهم، وكم من مرشد ضلّ من خلال فتنة الإرشاد، واهتدى

مريدوه بمعرفة الحق الذي تفتحت قلوبهم لإدراكه.. ولاأشك أن في المرشدين من سيدخلهم الله يوم القيامة في شفاعة بعض مريديهم.

وقد حدثني والدي رحمه الله عن واحد ممن كان يعرفه من العلماء المرشدين الصالحين، أنه كان يخدم مريديه، ويغسل، دون أن يعلموا، ثيابهم، وكان إذا اتخذ مجلسه معهم للتوجه، حسب أصول الطريقة النقشبندية، حذرهم من المبالغة في احترامه، ومن الانخداع بظاهر حاله، وأقسم بالله أنه لايرى نفسه خيراً من أي واحد منهم، ثم يقول متأثراً: ولكنها وظيفة أقامني الله عليها، ولايسعني إلا أن أنهض بها.

هذا هو المرشد، يؤدي وظيفته التي أقامه الله فيها، ثم يعود إلى نفسه فيندب حاله ويبكي على خطيئته.

واعلم أن من أعاجيب حكمة الله تعالى أنه لم يجعل لغير الرسل والأنبياء حظّاً في العصمة من المعاصي والآثام، ليكون ذلك بمثابة عصا التأديب، تلوح أمام كل من أعجبته نفسه، ثم تهوي على ظهره إن هو استمرأ مشاعر هذا الإعجاب، ورأى نفسه، وهو في موقع التوجيه والإرشاد خيراً من بقية عباد الله.

اللهم لاتجعل من احترام الناس لي وحسن ظنهم بي سَكَراً ينسيني سوء حالي وعظيم تقصيري في القيام بحقوقك.. اللهم لاتجعل نعمة سترك لي سبباً لغرور ينتابني، أو سبباً لنسيان سوئي الذي أثبتّه في علمك وأخفيْته عن عبادك..

أما إنه لطريق وعر مخيف، أن يُزج بأحدنا في مهمة التوجيه والدعوة والإرشاد، فيحدق به الناس حباً وتقديراً وإعجاباً، ويتسابقون إلى يده

يقبلونها، وإلى ثيابه يتمسحون بها، ثم يكون مع ذلك بصيراً بشأنه عالماً بتقصيره وسوء حاله، دائم الالتجاء إلى الله أن يغفر له ذنبه ويصلح له حاله، وأن لايجعل من حسن ظن الناس به فتنة له في دينه.. ولكنه يغدو يسيراً وقصيراً في حق من عالج نفسه بدوام الالتجاء إلى الله والتذلل على أعتابه، يسأله أن يقيه شر نفسه وأن لايبعده عن جنى رحمته وأن يذيقه برد إحسانه ولطفه. فلسوف يجد نفسه بين يدي رب كريم يجيب السائلين ويكشف السوء عنهم ويقيهم عن غوائل نفوسهم مع سترهم في الدنيا والمغفرة لهم يوم القيامة.

* * *

بقي أن فينا من قد يقول: أليس الربانيون من عباد الله عز وجل، أولئك الذين عالجوا أمراض نفوسهم حتى شفاهم الله منها، واجتازوا مراحل السعي إلى الله حتى تقبلهم الله في عداد الواصلين، فلماذا تستبعدون أن نكون منهم؟ ولماذا تضيقون سبيلاً أو تغلقون باباً فتحه الله؟

والجواب أن الربانيين هم أكثر الناس خوفاً على أنفسهم من الغوائل، وهم أشد الناس اتهاماً لها. ألم تسمع حديث الله عنهم إذ يقول: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣/٦٠].

وسبب ما يلازمهم من التخوف واتهام النفس، أمران اثنان:

أولهما: أن الصالحين من الناس، مهما ساروا ثم تجاوزوا مدارج السالكين، فإن نفوسهم تظل نفوساً بشرية، وتظل الشهوات محببة إليها

مزينة عندها، كما أخبر الله عز وجل، ولكن ذخر الطاعات والعبادات وملازمة المراقبة والأذكار يلجمها بضوابط الحب والحياء والخوف، فهم في كل أحوالهم وجلون، إذ يعلمون أنهم من أنفسهم على خطر، إذ لايبعد أن تجمح بهم إلى أي من الأهواء المحرمة إذا ما غابت عنهم حماية الله ورعايته. وذلك أمر ممكن لايستطيعون أن يكونوا في مأمن منه، وكيف يأمنونه على أنفسهم وهم يرددون قول الله عز وجل: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاّ الْقَوْمُ الْخاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧/ ٩٩].

ثانيهما: أن الإنسان كلما ازداد قرباً من الله ومعرفة له ازداد تبصراً بعظيم حق الله عليه، ومن ثم ازداد شعوراً بتقصيره في جنب الله عز وجل، وتنبهاً إلى ما يراه من سوء حاله. ومن ثم فقد كان الربانيون من عباده سبحانه وتعالى هم أشد الناس خوفاً منه وتعظيماً له واتهاماً لأنفسهم. فمتى وأنى يستبشرون ويطمئنون بأنهم قد تطهروا من غوائل النفس واستقروا في شاطئ الأمان؟ ألا ترى إلى عمر، وهو من المبشرين بالجنة، كيف كان شديد الخوف على نفسه عظيم الاضطراب من مآله، يخيل إليه إذ يمشي بين الناس أنه يحمل على ظهره أوقاراً من الذنوب؟ ألا ترى إلى عليّ وهو ابن عم رسول الله وواحد من أخصّ أصفيائه، كيف كان يتأوه في جنح الليل تأوه الملدوغ، ويخاطب الدنيا قائلاً: «إليك عني غرّي غيري، طلقتك ثلاثاً بتتك ثلاثاً..» ثم يتحسر قائلاً: «آه من قلّة الزاد وبعد الشقّة ووحشة الطريق». وقد كان هذا شأن جلّ أصحاب رسول الله ﷺ، وأنت تعلم أنهم الصفوة من عباد الله بعد الرسل والأنبياء.

إلا فلنعلم جميعاً أن المحجوب عن الله، هو الذي يأمن مكر الله، ويطمئن إلى أنه من الواصلين الذين زكيت نفوسهم وسلمت قلوبهم، فغدا همه الواصب وشغله الشاغل، أن ينال حظوته من الخوارق والكرامات، وأن يحدث الناس بها، يرفع لنفسه بها شأنا ويتخذ منها أداة نصحه ومادة توجيهاته وموعظته.

إذن فلنجعل همنا في كل التقلبات والأحوال، التشوف إلى ما بطن فينا من العيوب، لنسعى سعينا للتخلص منها، بدلاً من أن نتشوف إلى ما حجب عنا من الغيوب، لنتباهى بمعرفتها ومزية الإطلاع عليها. والله هو الموفق.

* * *

الحكمة الثالثة والثلاثون

((الحق ليس بمحجوب، وإنما المحجوب أنت عن النظر إليه إذ لو حجبه شيء لستره ما حجبه. ولو كان له ساتر لكان لوجوده حاصراً. وكل حاصر لشيء فهو له قاهر، وهو القاهر فوق عباده)).

ثمة فرق كبير بين قولك: الشمس محجوبة عني، وقولك أنا محجوب عن الشمس. فالقول الأول يصدق بما لو كان على صفحة الشمس سحاب يحول دون رؤيتك لها، والقول الثاني يصدق بما لو كانت على عينيك غشاوة حالت هي الأخرى دون رؤيتك لها.

في الحالة الأولى الشمس محجوبة عنك، إذ لادخل لك في الحجاب الذي أخفاها عنك، وفي الحالة الثانية أنت محجوب عنها، إذ الحجاب عائد إليك ولعله جزء منك.

فهل في الكون حالة أو زمان أو مكان يصدق أن يقال فيه: الله محجوب عن الإنسان أو عن كائن ما من المخلوقات؟

إذا تأملت في الفرق الذي بدأت به شرح هذه الحكمة، علمت أنه لايتأتى في أي حال أو زمان أو مكان أن يكون الحق جل جلاله محجوباً بشيء ما عنك أو عن غيرك.

ذلك لأنه لو حُجب عنك بشيء ما لكان الحاجب له متسلطاً عليه بحكم الحجب والستر، إذ هو الفاعل المحذوف للفعل المبني للمجهول، ويصبح المفعول الذي يسمى في الإعراب نائباً عن الفاعل، هو الله عز وجل، تنزه الله وتعالى عن ذلك علواً كبيراً.

وهذا هو المعنى ذاته الذي عبر عنه ابن عطاء بقوله: «إذ لو حجبه شيء لستره ما حجبه، ولو كان له ساتر لكان لوجوده حاصراً».

أي إن الساتر لشيء ما، يرسم حدود وجود ذلك الشيء ويحصره داخل دائرته أو نطاقه، وإلا لما غاب وجوده عن أنظار الذين هم خارج ذلك النطاق. ولاشك أن الساتر لايكون له هذا الشأن في الحصر والتحديد، إلا وهو قاهر للمستور.

ثم إن الشأن فيما يحصره الساتر أو يحيط به أن يكون وجوده في جهة دون غيرها، وعندئذ يكون الساتر فاصلاً بين الجهة التي يوجد فيها المستور والجهات الأخرى التي لايوجد فيها. وكل ذلك مستحيل في حق الله عز وجل.

* * *

إذا تبيّن هذا، فإن ابن عطاء الله يرمي من وراء هذه الحكمة إلى حقيقتين اثنتين، إحداهما تدخل في نطاق العقيدة، والأخرى تدخل في مجال التربية والسلوك.

أما ما يدخل منهما في نطاق العقيدة فهو ما ينبغي أن تعلمه من أنه لايجوز ألبتة أن تقول: إن الله محجوب عني أو عن عباده، ذلك لأنك

تجعل الذات الإلهية بهذا التعبير اسم مفعول، وهذا يعني أن ثمة فاعلاً تحكم به وهيمن عليه.

والله عز وجل منزه عن ذلك بالبداهة التي لاتخضع لأي نقاش. ولأنك تقرر بهذا التعبير أن وجود الله محصور في جهة بعينها وليس له وجود فيما وراء تلك الجهة، وهو أيضاً محال في حق الله عز وجل بحكم البداهة. إذ إن مما هو ثابت بالضرورة أن الله كان وليس معه شيء كما قال رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح الذي سبق ذكره وتخريجه في حكمة سبقت. فالجهات كلها كانت معدومة ثم أوجدها الله عز وجل، فهي المحتاجة إليه وليس هو المحتاج إليها، ويا للعجب، كيف يكون الخالق محتاجاً إلى المخلوق ومحاصراً في أقطاره!!..

وأما ما يدخل منهما في مجال التربية والسلوك فهو ما ينبغي أن تعلمه من أن الإنسان في فطرته التي أنشأه الله عليها متصل بربه عز وجل عالم به نزاع إليه بالحنين والحب ليس في كينونته ما يحجبه عنه. فلما خاض في متاهات الدنيا وانغمس في ملهياتها ومنسياتها وركن منها إلى الشهوات والأهواء، نسج له من ذلك كله حجاب أسدل على قلبه وأحاسيسه، زجّه في النسيان بعد الذكرى وفي الجهل بعد العلم، وابتلاه بالبعد بعد القرب. فأصبح هو المحجوب عن الله بداء سرى بعد العافية في كيانه.

وأنا أعلم أن في الناس من قد يقول: أين هي هذه الفطرة؟ إنني لم أرها ولم أشعر بها في أي مرحلة من حياتي.

فإن استوقفته على كلام الله عز وجل، إذ يقول لعباده منبهاً ومذكراً ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٧/١٧٢] قال لك: ها أنا ذا أسأل كياني وأحاسيسي كلها عن ذلك المشهد ويومه، فلا أذني تذكر أنها سمعت، ولا عيناي تذكران أنهما رأتا، ولا خاطري يحفظ شيئاً من هذا الحوار.

والجواب الذي ينبغي أن يقال لهذا الغافل السادر، هو أن نسيج هذا الحجاب الذي تكاثف مع الأيام وغشّى على فؤادك فأنساك الله عز وجل وزجّك في وادي الجهالة به والبعد عنه، هو ذاته الحجاب الذي أنساك ذاتك إذ كنت في نشأتك الأولى قريباً منه موقناً به تركن إليه بالتعظيم والحنين.

إن إنكارك له وجهلك به اليوم، ليس شيء منهما صادراً عن ذاتك الإنسانية ودخيلتك العقلية، ولكنه صادر عن ركام التصورات الجانحة التي تلقيتها والتيارات الفكرية والاجتماعية التي استهوتك، والعقد والعصبيات والأهواء التي ترسخت في قاع نفسك. ويوشك إن جاءتك مصيبة قاصمة أخذت منك بالخناق، أن ينتفض من وقع ذلك كيانك فيتساقط منه هذا الذي تراكم عليه، فتعود فطرتك الإيمانية إلى الظهور بعد طول احتجاب أو غياب، وتسمع نداء قلبك - حتى ولو لم يلهج به لسانك - بجأر إلى الله بالاسترحام والشكوى والتوبة

ﺑ لاستغفار.. وانظر إلى واقع الدنيا من حولك تجدها مليئة بالأمثلة ـ الة على ما أقول.

أما إنكارك للعهد القديم، عهد ((ألست بربكم)) بحجة أنك تسأل ذنيك عن ذلك الخطاب فلا تذكران أنهما سمعتا شيئاً، وتسأل عن ذ ت عينيك، فلا تذكران أيضاً أنهما أبصرتا ما يدلّ على شيء من ذ ك، فإن هذا الاحتجاج من الغباء بمكان:

أفكانت لك أذن أو طبلة صماخية في ذلك العهد القديم الذي لم تكن الأشباح البشرية قد خلقت فيه بعد، حتى تسألها عن مشهد لم تكن مخلوقة فيه؟ أم هل كانت لك عين أو حدقة آنذاك حتى تستشهدها هي الأخرى في أمر لا وجود لها فيه؟

إن الحديث آنذاك كان مع الأرواح، تلك الأرواح التي انسكبت خيراً في أجسادها يوم خلقها الله عز وجل. ولقد استوعبت الأرواح نذاك ذاك الحديث مباشرة، دون احتياج إلى وساطة أذن تسمع أو عين ترى، أو دماغ يدرك. وإذا أردت اليوم أن تستنهض شيئاً من كيانك لتذكر ذلك العهد، فاستنهض لذلك روحك السارية في كل ذرة من كيانك، ولا تسأل الدار الجسدية التي استُودعت وأسكنت فيها بالأمس، وستفارقها عما قريب.

وما من إنسان اخترق حواجز الحجب التي رانت مع الأيام على نفسه، وساءل روحه عن ذلك العهد القديم، إلا وبعثت فيه شجواً من آثار تلك الذكرى، وحدثته عن وقع ذلك الحوار المطرب الأخاذ،

وأكدت له نسبتها بالعبودية والمملوكيـة إلى ذلـك الإلـه الخـالق المبـدع الودود، واشتياقها اللاهب إلى يوم الرجوع إليه والوقوف بين يديه.

وربما تلقى أحدنا من الروح هذه المشاعر كلها فأحسّ بهـا دون أن يستوعبها ويـدرك مصدرهـا ومعناهـا. إذ تكـون الرعونـات النفسـية والشهوات الغريزية جاثمة لها في الطريق. فما تكاد تتناهى إلى مراكـز الإحساس من صاحب هـذه الـروح، حتـى تصادرهـا تلـك الرعونـات والأهواء الغريزية لحسابها، وتترجمها لغةً ناجزةً للتعبـير عـن مبتغياتهـا. فلايتلقاها أحدنا إلا على أنها زفرات شهوانية تعبر عن رغـائب النفـس وطموحاتها وأهوائها الهابطة المتمثلة في متع الجسد والأرض.

إنها فطرة ربانية تلـك التـي تجعـل الـروح تتعشـق الجمـال سـواء في أشكاله المرئية أو أصواته المسموعة، وإنما هو فيض مـن جمـال الله عـز وجل أدركته يوم كانت تسبح في عالمها العلـوي القديـم، وطربـت لـه يوم اتجه إليها بخطابه الحلو الأخاذ: ((ألست بربكم)).

ولكن الروح إذ تهمس إليك بتأثراتها لذلك الجمال العلوي وطربها لذلك الحديث الربـاني، يسـتقر لديـك الشـعور بذلـك دون أن تـدرك مصدره وجذوره، فما تكاد تبصر صـورة مـن صـور الجمـال الأرضـي والبشري، حتى يذهب بك الخيال إلى أن الجمال الذي تتعشقه روحك هو هذه الصور، وما تكاد تسمع لحناً رائعاً ينبعث من صوت شجي أو أوتار عود أو نفثات ناي، حتى يؤكد لك الوهم أن هذا هـو الصـوت الذي تستعذ به وتسكن إليه روحك.

يوم تأملت، وتحررت من سلطان غرائزك وشهواتك الأرضية ساعة، علمت أن الصور التي استهوتك إنما هي مرآة تجلّى عليها أثر من آثار جمال الرباني الذي تعشقته الروح، ولأدركت أن الأصوات التي طربت إنما هي صدى لحديث الرب إلى الروح، يوم تفضل عليها بسمعها كلامه وأطربها بخطابه وجميل نجواه. وإنما مصدر طرب الروح اليوم، ذلك الخطاب المطرب القديم، لا هذا الصدى الذي يذكّر به ويحمل بصمات منه[1].

* * *

والآن، وقد أدركت هذه الحقيقة، ينبغي أن تعلم أن أهم ما يجب أن يشغل الإنسان به حياته في هذه الدنيا، العمل الدائب على أن يزيح مما بينه وبين روحه هذه الحجب الكثيفة التي تراكمت على نفسه فأقصته عن مشاعر فطرته الإيمانية، وشغلته عن الإصغاء إلى حديث الروح وحنينها إلى عالمها العلوي الذي أهبطت منه لتستقر حبيسة إلى حين في هذا الجسد، وأعمته عن رؤية النور الرباني الذي ملأ فجاج الكون، والذي به تحقق كل شيء واستقام كل شيء، على نحو ما قد تم بيانه في شرح الحكمة التي يقول فيها ابن عطاء الله رحمه الله «الكون كله ظلمة وإنما أناره وجود الحق فيه..».

(١) ينبغي أن تعلم أنني أتحدث عن طرب الروح، ذلك الذي يبعث الشجو في الفؤاد، ولست أتحدث عن الطرب الإيقاعي الوافد الذي يخاطب الغرائز ويستثيرها بعيداً عن الروح وأشواقها. وهو ليس طرباً ولكنهم يسمونه اليوم طرباً على سبيل التجوز والمشاكلة.

وليس السبيل إلى إزاحة هذه الحجب، محاربة الغرائز النفسية والانقطاع عن الحاجات الجسدية، كما هو الشأن عند متصوفة الهند وبعض المتفلسفين عن ثنائية الروح والجسد.

وإنما السبيل إلى ذلك عقد مصالحة حقيقية بين الروح وأشواقها، والجسد وحاجاته، على أن يكون الجسد بكل ما يحتاج إليه في خدمة الروح دون العكس. ذلك لأن الروح هي الحقيقة الباقية، والجسد آيل إلى الاضمحلال فالزوال.

وفي يوم البعث والنشور يخلق الله للروح وعاء من جسد جديد، يتفق في إمكاناته وطاقاته وحاجاته مع نظام ذلك العالم الجديد.

ومنهج هذا الصلح مثبت ومرسوم في كتاب الله عز وجل.

والأداة إليه تتمثل في منهاج طويل من أخذ النفس بالكثير من ذكر الله ومراقبته وقراءة القرآن بدراية وتدبر، وتغذية القلب بالمزيد من عوامل محبة الله تعالى وتعظيمه والمخافة منه. والغذاء الأول والأقوى لذلك كله، هو ربط النعم دائماً بالمنعم، وتذكر الإله المتفضل عند كل أعطية وفضل.

ومن المعلوم أن تعظيم الجليل، وهو الله، أقصر طريق إلى تحقير القليل وهو الدنيا.. فإذا عظم الجليل في قلبك، هانت الدنيا وصغرت في نفسك، وعندئذ ترتفع الحجب وتزول الغشاوة، وترى الله بعين قلبك ليس دونه أي حجاب يستره عنك. إذ كان الحجاب سحباً أفرزتها رعونات نفسك، فلما غاب سلطان الدنيا عنها، وحلت في

مكانه محبة الله وتعظيمه والثقة التامة به، تبدّدت تلك السحب في وهج ذلك الحب والتعظيم.

فإن تعسر عليك أن تأخذ نفسك بهذا المنهاج، وتغلبت أهواء نفسك عليك، وصدّك الشيطان عن سبل مجاهدة النفس، فالعلاج الأيسر والطريق الأقصر، هو كثرة الالتجاء إلى الله والتبتل على أعتابه والإقبال إليه بالتضرع والدعاء أن يأخذك من نفسك وأن يقيك من سوء حالك وأن يرفع الحجب المسدلة على عين قلبك. فإنك إن ثابرت واستقمت على هذه الحال أكرمك الله بالاستجابة وأذاقك برد إحسانه ولطفه وأنقذك من رعونات نفسك مهما كانت عاتية، ومزّق عنك حجب أهوائك مهما كانت متراكمة وكثيفة.. والذي أختاره لي ولك أن نجمع بين هذين العلاجين فنسلك السبيل إلى مجاهدة النفس، ونقرع في الوقت ذاته، بيد من الذل والانكسار، باب الرحمة الإلهية، داعين متضرعين أن يقبلنا ويصلح حالنا، وأن يرفع عن قلوبنا حجب الغفلة والنسيان، حتى نذكره بالحب والتعظيم ولا ننساه، وأن يسدل علينا ستر رحمته ولطفه، كي لايطلع على تقصيرنا في جنبه وعلى سوء حالنا معه أحدٌ سواه.

* * *

الحكمة الرابعة والثلاثون

((اخرج من أوصاف بشريتك عن كل وصف يناقض عبوديتك، لتكون لنداء الحق مجيباً، ومن حضرته قريباً))

أوصاف البشرية هذا الجسم الترابي الذي كون الله الإنسان منه، بالإضافة إلى جملة الطبائع والغرائز التي ركبت في كيانه. وهي طبائع وغرائز كثيرة متنوعة، منها ما هو محمود ومنها ما هو مذموم.

فمن هذه الصفات أو الطبائع فطرة الشعور بمعنى العبودية لله، وحاجة الإنسان إلى الطعام والشراب والمأوى، وغريزة حب التملك، واستئناسه بأخيه الإنسان والتطلع إلى التعاون معه، وركون الجنس إلى الجنس.. ومن الصفات المذمومة التي من شأنها أن تتسرب إليه، استعداده للعجب بنفسه والاستكبار على الآخرين، والتكالب على المال، والحسد والضغينة والشحناء والبغضاء، والعصبية للذات أو القوم أو الجماعة..

تلك حقيقة معروفة وملموسة، يعرفها كل منا في نفسه، ولقد وصف الله الإنسان بجملة هذه الصفات، بعبارة جامعة، وذلك في قوله عز وجل: ﴿وَنَفْسٍ وَما سَوّاها ، فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها﴾ [الشمس: ٩١/٧-٨].

وجاء التعبير عن هذا المعنى ذاته، ولكن بشيء من التفصيل أو المستند العلمي، في قوله عز وجل: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾ [الإنسان: ٢/٦٧] أي إن النطفة التي قضى الله أن يخلق الإنسان منها، تحتوي على أخلاط من الطبائع والصفات المختلفة، هي في داخل النطفة مجرد بذور ذات رموز وإشارات، فإذا تكامل الخلق، وتحولت النطقة إلى بشر سويّ، تفتحت البذور الخفية، وتكونت منها الطبائع الظاهرة الجلية، ويتبع الله عز وجل هذا البيان العلمي بالكشف عن حكمته عز وجل من تحميله الإنسان كل هذه الطبائع والصفات التي كثيراً ما تكون متعارضة بل متقادمة، وهي أن يزجّه الله عز وجل من ذلك كله في حالة من الامتحان والابتلاء.

وأنت تعلم أن كل ما يقوله العلماء اليوم عن الشريط الوراثي «الكروموزومات» لايعدو أن يكون شرحاً لهذا الذي يقرره بيان الله عز وجل.

إذا تبين هذا، فلنعد إلى هذه الحكمة الجديدة التي يخاطبنا بها ابن عطاء الله. إنه يقول: انظر إلى ما ركب فيك من أوصاف البشرية، وتبيّن كل ما لايتفق مع عبوديتك لله منها، فابتعد عنه وأخرج نفسك منه أي أبعد ذاتك عنه.

ويتبين لك بهذا أن «من» في قوله «من أوصاف بشريتك» للبيان وليست بمعنى التجاوز، لأن المعنى الذي يرمي إليه هو: انظر إلى ما تراه من أوصاف بشريتك، فأخرج نفسك عن كل ما يتناقض مع

عبوديتك لله منها. أو تكون من بمعنى التجاوز، على أن يكون قوله: «عن كل وصف مناقض لعبوديتك» بدل بعض عن كل، أي يكون بدلاً عن قوله: «من أوصاف بشريتك». وهذا كما لو قلت: تحرر من صفاتك، من كل صفة سيئة منها.

إذن، فلسنا بصدد الحديث عن الصفات والطباع التي لاتتناقض مع عبودية الإنسان لله، مما يتوقف عليه أصل الحياة أو كمالها، بل المطلوب من الإنسان أن يرعى تلك الصفات ويحافظ عليها. إذ المحافظة على الحياة، برعاية ضرورياتها وحاجياتها وتحسينياتها مقصد من المقاصد الكبرى للشريعة الإسلامية، والمحافظة على ما به تستقر وتكمل الحياة، يدخل حكمها في المحافظة على الحياة ذاتها.

غير أن المهمة الخطيرة التي يجب أن ينهض بها المسلم، تتمثل في ضرورة التخلص من الطباع والصفات التي لاتتفق ومسالك عبودية الإنسان لله عز وجل كالكبر والعجب، والحسد والحقد والشح والتكالب على المال أي المبالغة في حبه بحيث يندفع إلى الحصول عليه أينما لاح ومن أي السبل أمكن.

ولعلك تسأل: أفتعد هذه الصفات، صفات جبلية فطر الله الناس عليها، أم هي صفات مكتسبة تتسرب إلى الإنسان لأسباب عارضة؟

والجواب أن الإنسان مفطور على قابليات واستعداد لها، يدل على ذلك قوله عز وجل: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾ [الإنسان: ٧٦/٢] وقد مرّ بيان معناه، وقوله تعالى:

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوّاها ، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْواهَا﴾ [الشمس: ٩١/٧-٨] وقوله عز وجلّ ﴿وَأُحْضِرَتِ الأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾ [النساء: ٤/١٢٨].

ومعنى قولنا: إن الإنسان مفطور على الاستعداد لها، أن التربية والظروف الاجتماعية من شأنها أن تلعب دوراً كبيراً في ترسيخها أو القضاء عليها.

وربما سأل بعضهم فقال: فلماذا فطر الله الإنسان على هذه الصفات المرذولة، ثم أمره بالتخلص منها؟

ولايتكامل الجواب عن هذا السؤال إلا بشطرين اثنين:

الشطر الأول أن جوهر هذه الصفات، بقطع النظر عن الغلو فيها أو سوء استعمالها، ذو أثر إيجابي مفيد في حياة الإنسان الفردية والاجتماعية. فلولا سريان شعور الأنانية في كيان الإنسان لما اهتم بذاته ورعاية حاله، ولما توجه إلى امتلاك مال ولا إلى الدفاع عن حق.. ولولا شيء من الشح يتغلب عليه لأنفق كل ما قد تعب في تحصيله وجمعه.. ولولا حبه للمال لما بحث عنه ولما حصل على شيء منه، وما تعمر عندئذ أرض ولاتستقر الحياة. ولولا غضب يدافع به المظلوم عن حقه لاستشرى الظلم وضاعت الحقوق. ومن المعلوم أن الكبر والعجب والحسد والحقد، كل ذلك من فروعٍ وآثارِ أساسِها الأم، ألا وهي الأنانية.

إذن فمادّة هذه الصفات لها فائدة ودور إيجابي في حياة الإنسان وعلاقاته الاجتماعية. ولله حكمة باهرة في تجهيز الإنسان بها.

غير أن فقد التربية وغياب عوامل ضبطها وتهذيبها، مع تسليط الرعونات النفسية عليها، يجعلها تتجاوز حدودها الصالحة وتتحول من جرعات دوائية مفيدة، إلى سموم قاتلة، وإنما تعدّ هذه الصفات مذمومة في ميزان الإسلام عندما تتحول من حدود الماء المحيي إلى الطوفان المهلك، وعندما ينسى الإنسان أنها جرعات محدودة من دواء للعلاج، فيقبل إليها على أنها غذاء للشبع.

الشطر الثاني من الجواب أن هذا السؤال ينبغي أن يصدر ممن لايعلم أن الله سيحشر عباده غداً لنيل الجزاء، إن خيراً فخير وإن شراً فشر.. أما الذي يعلم أن الإله الذي فطر الإنسان على هذه الصفات المذمومة، ثم أمره بالتخلص منها، قد أعدّ له الجزاء الأوفى يوم القيامة، نعيماً وسعادة للمحسنين وعذاباً وشقاء للمسيئين، فسؤاله من العبث بل الخلطِ الذي يتنزه عن الخوض فيه العقلاء.

إذا كان المطلوب أن لايكلَّف الإنسان بجهد يتحمله للتحرر من هذه الصفات الذميمة، ففيم يكون على موعد مع الأجر والجزاء؟

إذا كانت مقدمات التكليف في هذه الدنيا لا معنى ولا موجب لها، ومن ثم تستشكلها، فلماذا لا تستشكل نتائج الأجر والجزاء التي هي الأخرى لا معنى ولا موجب لها؟ لماذا تعلم كيف تمدّ يدك إلى الأجر الذي تناله، ولا تعلم كيف تؤدي الجهد الذي يستوجبه؟

متى عرفت أن هذه الدنيا دار تكليف، وأنها قاعة امتحان زُجَّ فيها الإنسان، وتأملت في البيان الإلهي القائل: ﴿يا أَيُّها الإِنْسانُ إِنَّكَ كادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ﴾ [الإنشقاق: ٦/٨٤]، أدركت لماذا يكلَّف

هذا «المكلف» بجهد التخلص من صفاته الذميمة، وعلمت أن حياة الإنسان فوق الأرض بدون هذا التكليف الذي يستتبع نتائجه وآثاره، عبث لا معنى له.

هذا بالإضافة إلى أن التخلص المطلوب من هذه الصفات لايكون بامتلاخها من جذورها والقضاء عليها، فإن هذا لايتأتى ما دام الإنسان إنساناً، وما دامت إنسانيته تعني أن يكون مفطوراً على هذه الصفات التي علمنا في الشطر الأول من الجواب عن هذا السؤال، أنها في جوهرها الذاتي ومادتها الأساسية، ليست صفات سيئة، ولكنها تحتاج إلى إخضاعها لمنهاج من التربية والتهذيب كي لاتتجاوز حدّها، ولكي لاتتحول في حياة صاحبها من دواء يسعفه إلى سمّ يهلكه.

إن تهذيب هذه الصفات، وضبطها بالكوابح التي تقطع شرَّتها وتقضي على ضراوتها، هو المعنيّ بالتزكية التي يطالبنا بها البيان الإلهي بأساليب شتى وفي مواقف متكررة. وهو المعني بكلمة «الجهاد» في السور المكية حيثما وردت.

والمنهج إلى ذلك وإن كان داخلاً في معنى التكليف، ومتوقفاً على شيء من الجهد، إلا أنه ليس خارجاً عن وسع الإنسان وليس داخلاً في حدود العسر المحرج. وآثاره الحميدة في حياة الفرد والمجتمع تفوق أتعابه المتطلبة. وذلك هو شأن التربية أياً كانت وأياً كان نوعها، في حياة الإنسان.

* * *

ثم إن الذين يطرحون هذا السؤال، ويستشكلون السبيل إلى التخلص من هذه الصفات الذميمة، يغيب عن بالهم أن العقيدة الإسلامية إذا ترسخت في العقل وغذّيت بغذاء العبادة والطاعات والأذكار، تكفلت هي وحدها بتهذيب هذه الصفات وقطع شرّتها، وإعادتها إلى حدود المصلحة والاعتدال.. وعندما يغيب عن بالهم هذا العلاج الذي لابدّ أن يأخذ كل عاقل نفسه به، بقطع النظر عن وجود هذه الصفات وخطورتها، يخيل إليهم أن معالجة هذه الصفات أو الطباع لتهذيبها وإعادتها إلى حدّ الفائدة والاعتدال، جهد ضائع وسعي غير مفيد، وربما استشهدوا في هذا بما يزعمه بعض المتفلسفين من أن الأخلاق غير قابلة للتبدل.

ولعلّ أحدهم يقول لك، مؤكداً ضياع أي جهد يُبذل في سبيل التخلص من هذه الطباع أو الأخلاق البشرية، إن سائر علماء الفلسفة والأخلاق بدءاً بأقدمهم من أمثال أبيقور وزينون، إلى فلاسفة العصر الحديث من أمثال هوبز وكانت وستوارت ميل، بذلوا جهوداً كبيرة للتصعيد بالأخلاق الإنسانية وتهذيبها وتقويم المعوج منها، فلم يصلوا من جهودهم إلى أي نتيجة.

ونحن نقول لهم: حقاً إن جهودهم ضاعت سدى ولم تأت بأي نتيجة، ولكن لأنها لم تتجه إلى حيث العلاج الذي رسمه الله تعالى لهذا الأمر، لا لأنه يستعصي على المعالجة والإصلاح.

والعلاج الذي حدثنا الله عنه وأمرنا به، هو ما تضمنته الرسالات الإلهية التي جاءت تتوالى إلى الناس منذ فجر الحياة الإنسانية فوق هذه

الأرض، من التنبيه إلى فطرة العبودية لله والكامنة في نفوس الناس جميعاً، والأمر الصادر إليهم بوضع هذه العبودية لله، من حياتهم الاعتقادية والسلوكية موضع التنفيذ، مع التنبيه إلى ضرورة تغذية معاني هذه العبودية بغذاء الطاعات والعبادات المتنوعة التي شرعها الله عز وجل، فبذلك ينتقلون من معرفة أنفسهم إلى معرفة الله عز وجل وإلى اليقين بأنه المالك لهم وأنه المتصرف بهم، وأنه وحده النافع والضار، والمعطي والمانع، والمحيي والمميت، وأن مردّهم إليه للحساب ثم الجزاء.

فما الذي تتصوره من آثار هذا اليقين إذ يهيمن على العقل، ثم يزداد رسوخاً بغذاء العبادات والأذكار والطاعات المستمرة؟.. في كل صلاة يلهج اللسان بالتوحيد، ويعلن عن وحدانية المعبود بالحق، ويعترف بضعف العابد وعجزه وحاجته إلى المعونة الدائمة، قائلاً: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥/١].

إن الأثر الذي لابدّ أن يحققه هذا اليقين في نفس صاحبه، مع استمرار هذا الغذاء، هو أن تتنامى فيها مشاعر عبوديته ومملوكيته لله فتتحرر بذلك من أحقادها وأضغانها، وتتساقط منها حوافز الكبر والأنانية، وتصفو من كدورات الأهواء الجانحة، ذلك لأن يقين الإنسان بكونه عبداً مملوكاً لله عز وجل، خلقه الله ليمارس هذه العبودية له عملاً وسلوكاً مع بني جنسه، يتناقض بشكل حادّ مع هذه الأخلاق الذميمة التي من شأنها أن تتسرب إلى النفس الإنسانية في غفلة عن التنبه لهويتها وعن معرفة ذاتها.. ومن ثم فإن الإنسان ما يكاد يصحو

إلى عبوديته لله عـز وجـل، ثـم يعمـد فيغـذي هـذا الصحـو، بـل هـذه المعرفة، بوظائف العبادات، حتى ترتد هذه الصفـات والكـدورات عـن نفسه شيئاً فشيئاً، لتعود إلى خط الاعتدال ولتقف عنـد حـدود الفطـرة الصالحة للإنسان. وتلك هي التزكية التي يتحدث عنها الفاطر الحكيم، ويأمر بها، في كثير من المناسبات، من مثل قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ، وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ [الأعلى: ٨٧/١٤-١٥]، وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكّاها ، وَقَدْ خابَ مَنْ دَسّاها﴾ [الشمس: ٩١/٩-١٠].

* * *

وفي قول ابن عطاء الله «لتكـون لنـداء الحـق مجيبـاً، ومـن حضرتـه قريبـاً» إلمـاح إلى أن المسـلم مهمـا أكـثر مـن الطاعـات وداوم علـى العبادات، لا تدنيه طاعاته وعباداته من حضرة الحـق جـل جلالـه، إن بقي مثقلاً بتلك الصفات التي تتعارض مع عبوديته لله عز وجل.

وإنما يتمتـع صـاحب هـذه الصفـات المرذولـة، مـن تلـك الطاعـات والعبادات بصورهـا ومظاهرهـا فقـط، إذ لـو امتـدت لهـا جـذور مـن الإخلاص لله عز وجل إلى القلب، لتحقق لها من تلك الجـذور حـرارة بل حرقة تقاوم تلك الصفات الذميمة حتى تذيبها وتقضي عليها.

فالصلاة التي يعبّر بها المصلّي عن عبوديته لله عز وجل، ثم يواظـب عليها مندفعاً إليها ينسب عبوديته له عز وجل، لابدّ أن تنمّـي مشـاعر عبوديته هذه من خلال صلواته وركوعه وسجوده، وإذا اصطبغ الكيان

بحقائق العبودية لله عز وجل، لم يبق للشعور بالاستكبار في القلب مكان.

كذلكم سائر الطاعات والعبادات على اختلافها وتنوعها، إن مارسها الإنسان بنية خالصة وقصد متجرد، لابدّ إذن أن تقضي على هذه الصفات السيئة أو تقضي على شرّتها وتعيدها إلى حدود الفائدة والصلاح. وبذلك يكون العبد لربه مجيباً ومن حضرته قريباً.

وإن لم يمارسها الإنسان، أو أداها على غير وجهها، أو أداها مجتثّة من جذور الإخلاص لله عز وجل، فلسوف تكون عوناً على رسوخ تلك الصفات عنده، بدلاً من أن تكون أداة للتخلص منها، ومهما داوم على صور هذه الطاعات فلن يكون لنداء الله مجيباً ولن يكون من حضرته قريباً.

ثم إن هذه الحقيقة تؤكد ما هو ثابت ومقرر، من أن الإسلام بأصوله الاعتقادية، وفروعه السلوكية من عبادات وتشريعات، إنما شرّف الله به الإنسان، ليستعين به في التخلص من هذه الطباع والانعتاق من أسرها.. وبذلك يرقى الإنسان إلى سدّة التكريم التي ارتضاها الله له.

فإن هو بقي مستسلماً لتلك الطباع، يركن إليها ويخضع لسلطانها، لم تنفعه مظاهر طاعاته وقرباته الشكلية، ولابدّ أن تهبط به تلك الطباع إلى شر من الدرك الذي تعيش فيه الوحوش والسباع، وهذا الفريق هو الذي عناه البيان الإلهي بقوله عز وجل: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ﴾ [التين: ٩٥/٥].

إذا تبين لك هذا، فاعجب معي ممن يمعن في تجميل ظاهره با(لديكورات) الإسلامية، بياناً وفصاحة في اللسان، وعبادات يروض لها الأعضاء، ومعارف يرددها عن تاريخ الإسلام وعظمة الإسلام، وغيرة يهتاج بها، على حدوده أن تضيع، وسلطانه أن يتقلص، فإذا اخترقت هذا الظاهر منه، رأيت إعجابه بنفسه، واستكباره على الآخرين، وتلهفه على المال وسعيه إلى جمعه بشتى السبل، وتنظر فإذا هو يجتر مشاعر الحسد والشحناء تجاه الآخرين، ولايتردد في التعبير عنها كلما انعقد مجلس لغيبة وسنحت بذلك الفرص.

والقلب السليم الذي دعا به خليل الرحمن لنفسه، يتناقض مع هذا كله مناقضة حادّة. ألم يدع الله عز وجل، فيما حكى الله عنه، قائلاً: ﴿..وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ، يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَلا بَنُونَ ، إلاّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٢٦/٨٧-٨٨].

اللهم طهر قلوبنا من كل وصف يبعدنا عن مشاهدتك ومحبتك، وأدم علينا عين عنايتك، واسترنا بسترك الجميل في الدنيا والآخرة.

* * *

الحكمة الخامسة والثلاثون

((أصل كل معصية وغفلة وشهوة، الرضا عن النفس. وأصل كل طاعة ويقظة وعفة، عدم الرضا منك عنها، ولأن تصحب جاهلاً لايرضى عن نفسه خير لك من أن تصحب عالماً يرضى عن نفسه. فأي علم لعالم يرضى عن نفسه، وأي جهل لجاهل لايرضى عن نفسه))

خلاصة ما ترمي إليه هذه الحكمة، أن السبيل إلى مرضاة الله يتمثل في اتهام السالك نفسه وعدم رضاه عنها، وأن السبيل إلى سخط الله يتمثل في إعجاب السالك بنفسه ورضاه عنها.

ولكن ما هي النفس؟ وما المراد بها في هذا المقام؟

تطلق النفس على أكثر من معنى في اللغة، تأتي بمعنى الروح، وذلك في مثل قولهم: فاضت نفسه، أي خرجت روحه، وتأتي بمعنى الدم، ومن ذلك قول الفقهاء: يعفى عن كل مالا نفْس له سائلة، أي ليس له دم يجري عند خروجه. وتأتي بمعنى ذات الشيء، من ذلك قول أحدهم: رأيت المِلك نفسه.

إلا أن مراد ابن عطاء الله بالنفس هنا، الغريزة الحيوانية المركبة في كيان الإنسان، والتي تجمح به إلى الانقياد لما فيها من الأهواء والشهوات.

ويبدو أنه مصطلح ديني مأخوذ من مثل قول الله تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاّ ما رَحِمَ رَبِّي﴾ [يوسف: ١٢/٥٣] إذ لم أجد من أثبت لها هذا المعنى، من علماء اللغة.

وعلى كل فإن المراد بالنفس، في هذه الحكمة، هذا المعنى حصراً، أي المعنى الجامع للشهوات وللأهواء الغريزية التي يشترك الإنسان فيها مع كثير من الحيوانات الأخرى[1] وهي مصدر الطبائع الذميمة التي مرّ الحديث عنها في الحكمة السابقة.

ونبدأ الآن فنسأل:

أولاً: من أين لابن عطاء الله أن أصل كل معصية وغفلة وشهوة الرضا عن النفس؟ ومن أين له نقيضها؟

ثانياً: ما السبب في أن يكون هذا هو أصل كل معصية.. إلخ.

ثالثاً: كيف السبيل إلى أن يكون المسلم غير راض عن نفسه، حتى لايتورط في هذه المنزلقات؟

ونقول في الجواب عن السؤال الأول: إن مصدر هذا الذي يقوله ابن عطاء الله، قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشاءُ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ [النساء: ٤/٤٩] والاستفهام هنا

---

(١) انظر إحياء علوم الدين للإمام الغزالي ٣/٤.

استنكاريّ، أي ألا ترى إلى قباحة شأنهم، إذ يمدحون أنفسهم ويعبرون عن إعجابهم بها ورضاهم عنها!!..

وأصرح من هذا، في التعبير عن المعنى ذاته قول الله عز وجل: ﴿فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٥٣/٣٢]، أي لاتحكموا لها بالصلاح والسمو عن الزغل والشوائب، ولا تمدحوها وتثنوا عليها بما قد تتوهمون.. فإن الله أعلم بما في نفوسكم منكم.

وتعبيراً عن هذا المعنى ذاته يقول رسول الله ﷺ: ((ثلاث مهلكات، شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه))[١] وهو المعنى الذي أكده رسول الله في حديث آخر إذ قال: ((إذا رأيت شحاً مطاعاً، وهوى متبعاً، ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخاصة نفسك..))[٢]، وليس بين الرضا عن النفس والإعجاب بها أي فرق.

* * *

ثانياً: ما السبب في كون الرضا عن النفس أصل كل معصية؟

زيادةً في تحديد المعنى المراد بكلمة النفس هنا، وتوطئة بين يدي بيان السبب، نذكّر بالفرق الذي ينبغي أن نتبينه بين السلوك، أي العمل الذي يصدر من الإنسان، والنفس الكامنة بين جوانح الإنسان.

فالسلوك هو النتيجة العملية لصراع الإنسان مع مشاعره ودوافعه النفسية: وقف بين اختيارين لا ثالث لهما، أحدهما يرضي الله عز وجل، ويخالف النفس والهوى، وثانيهما يرضي الرغبة النفسية ومشتهياتها ويخالف أمر الله

---

(١) أخرجه البزار والطبراني وأبو نعيم والبيهقي في شعب الإيمان، بسند ضعيف.

(٢) أخرجه أبو داود وابن ماجه والترمذي، وحسنه.

ورضاه، وبعد تردد وصراع بين دواعي استجابته لله وحوافز رغباته ومشتهياته النفسية، آثر الانقياد لحكم الله عز وجل، فقام ينفذ أمره، أو ربما آثر العكس فقام ينفذ ما دعته إليه غرائزه الشهوانية. فهذا الانقياد العملي هو السلوك. وهو كما ترى نتيجة تطبيقية، للصراع الذي يظل دائراً بين الفطرة الإيمانية والغريزة الحيوانية في كيان الإنسان.

أما النفس فهي - كما قد عرفت - مجموعة الرغائب الشهوانية الغريزية التي تجمح بالإنسان وتدفعه إلى الاستجابة العملية لها. فهي إذن وضع كامن في طوايا الكيان، وليس السلوك العملي إلا أثراً من آثار هيمنتها وجموحها.

إذا تبين لك الفرق، فلتعلم أنه لاحرج ولا مانع من أن ينال السلوك من صاحبه شعور الرضا أو شعور نقيضه، بل المطلوب من الإنسان أن يرضى عن العمل الصالح الذي وفقه الله له، وأن يكره العمل السيء الذي تورط فيه، وقادته النفس إليه.

وعندما يرضى المسلم عن عمل صالح يسّره الله له وهداه إليه، فهو لن يترجم لدى التحقيق إلا بشكر الله عز وجل على ذلك، ومن ثم فإنه أبعد ما يكون عن الإعجاب الذي نهى الله تعالى عنه، وأبعد ما يكون عن الرضا عن النفس. وإذا لم تتوافر لدى المسلم حوافز الرضا عن العمل الصالح الذي وُفِّقَ إليه، فلن تتوافر لديه إذن حوافز الكراهية للعمل القبيح الذي قد يتورط فيه.. إذ يسقط بذلك، في تقديره، الفرق بينهما.

غير أن على من رأى أن الله يوفقه للأعمال الصالحة ويحببها إليه، ن لاينسب الفضل في ذلك إلى نفسه، فيزعم أنها تسامت فوق شهواتها وأهوائها، وأصبحت مبرّأة من النقائض والغرائز الحيوانية. بل عيه أن يعلم أن النفس ما تزال أمارة بالسوء، وأنه على خطر من وساوسها وحوافزها، وإنما تداركه الله فأقدره على مخالفتها والتحرر من سلطانها. وبذلك يستغرق في مشاعر قدسية وعلوية من شكر الله عز وجل.

ألم تقرأ قول الله عز وجل: ﴿وَأُحْضِرَتِ الأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨] ألا ترى كيف أن الحكم جاء بهذه الصفة القبيحة على عموم لأنفس دون استثناء ولا تخصيص؟ وعندما أثنى على من تساموا بسلوكهم عن هذه الصفة، لم ينسب ذلك إلى نفوسهم، بل نسبه إلى وقاية الله لهم، مع بقاء نفوسهم على ماهي عليه، فقال: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٥٩/٩].

أو لم تقف على قول الله عز وجل، في وصف بعض الصالحين من عباده، وثنائه على أعمالهم، إذ قال: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً﴾ [الإنسان: ٧٦/٨] ألا ترى إلى قوله «على حبِّهِ» كيف أوضحت أن نفوسهم ما تزال على حالها من الشراهية وحب المال والتكالب عليه، ولكنهم بتوفيق من الله عز وجل جاهدوا أنفسهم وتساموا على أهوائهم ورغائبها سعياً إلى مرضاة الله عز وجل.

أو لم تقف أيضاً على قول الله عز وجل: ﴿زُيِّنَ لِلنّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّساءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ

وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: ١٤/٣].

فأين هو مكان هذه الزينة والحب لهذا كلّه في كياناتهم؟.. إن مكانه النفس التي كانت ولاتزال أمارة بالسوء.. ومؤدى هذا التقرير الرباني أن الناس.. كل الناس فطرت نفوسهم على حب هذه الشهوات التي شاء الله عز وجل أن يزينها لهم، للحكمة التي تم بيانها خلال شرح الحكمة السابقة. فمهما صعد المسلم أو هبط في التزاماته السلوكية، فلسوف تظل نفسه التي بين جنبيه نزاعة إلى هذه المشتهيات وغيرها مما ذكره الله في أماكن أخرى من كتابه المبين، كالكبر والعجب، والانطواء على الضغائن والأحقاد.

لايصحّ أن يقول أحدهم: ولكني بقيت دهراً طويلاً أجاهد نفسي وأمعن في تربيتها وترويضها، حتى استطعت أن أسمو بها عما كانت عليه من التعلق بهذه المشتهيات والطبائع الذميمة، فهي اليوم لاترغب إلا فيما يرضي الله، ولاتنفر إلا عما لايرضي الله.

يجب أن يقال لصاحب هذه الدعوى: إن صح ما تقول فإن بشرّيتك قد غاضت بل غابت عنك، وتحولْتَ إلى ملك من الملائكة الذين يجوبون في ملكوت الله عز وجل. وهذا ما يخالف الوصف الذي وصف الله به الإنسان، الإنسان أياً كان، كما أنه يخالف الآيات التي مرّ ذكرها الآن، وكلها تأكيد للرغائب الشهوانية الغريزية التي أثقل الله بها نفس الإنسان.

ويقال له: إن صح ما تقول، فأنت لم تعد مكلفاً من قبل الله بشيء، لأنك لن تشعر بأي كلفة فيما يأمرك به، إذ أصبحت نفسك سباقة بكامل رغبتها وسرورها إلى هذا الذي يأمرك الله به. ولابدّ أن يصبح أمره عندئذ عبثاً وثوابك عليه باطلاً.. ولكنّ أمر الله عز وجل نافذ وسيظل نافذاً في حق عباده أجمعين، وثوابه جار ومهيأ لجميع المحسنين. ولايكون ذلك إلا لأنهم جميعاً مكلفون، ولايكونون مكلفين إلا عندما تكون التكاليف الإلهية مخالفة لرغبات نفوسهم متشاكسة مع تطلعاتها وأهوائها.

وإن جميع الربانيين من عباد الله الصالحين، وأوليائه المقربين، ظلّوا في جهاد دائب مع أنفسهم حتى أتاهم اليقين الذي نقلهم إلى رحاب مولاهم الجليل. وإنما كان مصدر الأجر الذي وعدهم الله به وادّخره لهم مخالفتهم الدائبة لأهواء نفوسهم وتطلعاتهم الشهوانية.

حتى الرسل والأنبياء الذين يجب أن نثبت لهم العصمة من سائر المعاصي والزلات، إنما تمثلت عصمتهم في سلوكهم (وقد أوضحت لك الفرق بينه وبين ما قد يستكن في طوايا النفس) وإنما تحققت مكانتهم الرفيعة بسبب تحرر سلوكاتهم من سلطان نفوسهم البشرية. وإنما تحقق لهم هذا التحرر، بعناية من الله عز وجل أولاً، وبتغلب مشاعر حبهم وتعظيمهم لله على نوازع نفوسهم ثانياً. وربما غابت هذه النوازع في ضرام حبهم وتعظيمهم له، ولكنها موجودة وإن خفيت على كل حال.

إذن فالنفس البشرية تظل نزاعة إلى شهواتها وأهوائها، ما دامت الحياة باقية، مع تفاوت في ذلك من حيث الكمّ والنوع، مابين الطفولة والشباب والكهولة والهرم.

فإذا كان الإنسان راضياً عن نفسه، فليس يعني رضاه عنها إلا انقياده لما تحبه وتدعوه إليه، ولابدّ أن تورده عندئذ المهالك. وأول هذه المهالك إعجابه بنفسه الأمارة بالسوء، وادعاؤه أنها مزكّاة عن النقائص، متسامية على الرذائل والقبائح من الطباع، وهو نقيض ما قد أمر الله به أو نهى عنه إذ قال: ﴿فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢/٥٣].

فقد صدق إذن أن «أصل كل معصية وغفلة وشهوة، الرضا عن النفس» وهذا يستلزم العكس وهو أن «أصل كل طاعة ويقظة وعفة عدم الرضا منك عنها».

وقد عرّف الشيخ أحمد رزوق رحمه الله، في شرحه لهذه الحكم، المعصية بأنها مخالفة أمر الله الواجب، والشهوة بأنها الاسترسال مع النفس في طلب الملذات، والغفلة بأنها إهمال الحقوق المندوبة والواجبة بالاسترسال مع دواعي الهوى.

وعرّف الطاعة بأنها موافقة أمر الله واجباً كان أو مندوباً، وعرّف العفة بأنها ترك الدناءة من كل شيء، واليقظة بالانتباه لأوامر الله عز وجل[1].

---

(١) شرح الحكم للشيخ أحمد زروق ٩٩-١٠٠، بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود، والدكتور محمود بن الشريف.

ثالثاً: كيف السبيل إلى أن يكون المسلم غير راض عن نفسه حتى لايتورط في الانقياد لها؟

وأقول لك في الجواب: إن الله عز وجل قد وضع - وهو اللطيف الحكيم الرحيم - بين يديك الدواء، وليس عليك إلا أن تقبل عليه فتستعمله. وضعه بين يديك عندما قضى بأن تكون هابطاً عن مستوى العصمة، متورطاً بين الحين والآخر في الخطأ. وهو ما قد أخبر به رسول الله ﷺ في الحديث الذي يقول فيه: «كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون»[١].

وإنما يكون الإنسان خطاء، لأن الله ابتلاه بالضعف أمام جموحات نفسه، فهو كثير التأثر بها سريع الاستجابة لها. وصدق الله القائل: ﴿وَخُلِقَ الإِنْسانُ ضَعِيفاً﴾ [النساء: ٢٨/٤] ومهما جاهد ذاته في التغلب عليها والتحرر من أسرها، فلابدّ أن يبقى لها سلطان سارٍ عليه، يتجلى أثره بين الحين والآخر في انزلاقات يتورط فيها وأخطاء تبدر منه.

فإذا تأملت في هذه الحال التي أقامك الله عليها، وتنبهت إلى الأخطاء التي تزينها لك نفسك، وتدفعك إليها من حيث تعلم أو لاتعلم، فلسوف تكون شديد البغض لها والحذر منها. اللهم إلا إن كنت ممن يتبرم بشرائع الله وأحكامه، يعافها ولايرى فيها إلا أعباء ثقيلة لا جدوى منها ولا خير فيها، فعندئذ لابدّ أن يترجَم تبرُّمك وسخطُك هذا، بالرضا عن نفسك التي تدعوك إلى ما يروق لك من الآثام والانحرافات!.. وأسأل الله أن لاتهوي إلى هذا الدرك الذي يدفنك في ظلام الكفر والهلاك.

---

(١) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه، والحاكم من حديث أنس رضي الله عنه.

وإذا تأملت، تبينت عظيم حكمة الله وواسع رحمته ولطفه، في هذا الذي قضى به، إذ جعل الإنسان ضعيفاً بين يدي جموحات نفسه. إنه لون دقيق وعجيب من التربية الربانية للعبد، تجعله دائم الحذر على ذاته من نفسه، وتبعده عن الإعجاب بها أو الركون إليها، وتسوقه - خائفاً قلقاً - إلى موقف الضراعة والتذلل بين يدي الله، يدعوه أن يقيه شر نفسه وأن يحصّنه ضد عواصف شهواته وأهوائه.. فمنذا الذي يتلقى هذه التربية من مولاه الحكيم الرحيم، ثم يرضى عن نفسه ويعجب بها أو يركن إليها.

* * *

ثم إن ابن عطاء رحمه الله، يبني على هذه القاعدة التي أحسب أنه قد اتضح شرحها وتجلت لك حقيقتها، نتيجة هامة تتعلق بالعلم، وإنها لمن الأهمية بمكان:

ليس في العقلاء من يجهل قيمة العلم، وليس فينا من لم يقرأ في كتاب الله تعالى الآيات التي ينوه فيها بشرف العلم ويرفع فيها من شأنه، ويدعو دائماً إلى الاحتكام إليه.

ولكن فلتعلم أن العلم يظل وسيلة، ولايرقى إلى أن يكون غاية في أي من الأحوال. فإذا صادف العلم إنساناً صافي الفطرة سليم الطوية سامي القصد، كان العلم مصباحه المنير والهادي له إلى الحق المطلق والدافع له إلى الانضباط به، والسير على سننه، ولابدّ أن يصل من وراء ذلك إلى سعادتي دنياه وعقباه معاً.

أما إن صادف العلم شخصاً ملتوي الفطرة، فاسد الطوية، هابط القصد، فلسوف يكون العلم تحت سلطانه لسان دعوة وتبرير لطويته الفاسدة ومقاصده السيئة، وكلما ازداد علماً ازداد بذلك قدرة على الدجل والمكر والخداع وإيذاء الآخرين، وصدق من قال: ((زيادة العلم في رجل السوء كزيادة الماء في أصول الحنظل، كلما ازداد رياً ازداد مرارة)).

ومنبع الاستقامة والرشد في الإنسان أن يكون دائم الخوف على ذاته من نفسه، وأن يكون غير راض عنها. وعندئذ تكون علومه ومعارفه مصابيح هداية ورشد له، ولكل من يصحبه، وحتى لو كان جاهلاً، فإنّ تخوفه من نفسه وحذره الدائم منها، يكون دليل خير ولسان موعظة وعبرة للآخرين.

ومنبع الانحراف والضلال بأنواعه في الإنسان، أن يكون راضياً عن نفسه معجباً بها مبرراً لجموحاتها. وعندئذ لابدّ أن تتحول معارفه وعلومه كلها مهما كثرت وتنوعت، إلى جنود خاضعة لسلطان نفسه، ولابدّ أن تصبح ألسنة تبرير لأهوائها وانحرافاتها.

فهذا هو معنى قول ابن عطاء الله: ((ولأن تصحب جاهلاً لايرضى عن نفسه، خير لك من أن تصحب عالماً يرضى عن نفسه. فأي علم لعالم يرضى عن نفسه، وأي جهل لجاهل لايرضى عن نفسه)).

وانظر إلى هذه الآيات التالية من كلام الله عز وجل، في سورة الأعراف كيف تعبر عن هذا المعنى الذي يذكره ابن عطاء الله، بأبلغ بيان، مجسّداً بمثال إنسان لم ينفعه علمه الغزير الذي منحه الله إياه،

عندما انساق وراء نفسه، واستسلم لمشاعر غروره، بل تحول علمه إلى وبال عليه، انظر وتأمل في هذه الآيات:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ، وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٧/١٧٥-١٧٦].

وسواء أكان الذي يعنيه بيان الله تعالى في هذا المثل الذي يضربه «بلعام بن باعوراء» على ما ذهب إليه جمهور المفسرين ومنهم الحافظ ابن كثير، أو غيره، فإن المعنى ينطبق على كل من أوتي علماً فصادف منه إنساناً أخلد إلى هواه واستسلم لغرائزه الشهوانية، لابدّ أن يتحول العلم في رأسه إلى سَكَرٍ يحيل إنسانيته إلى وحش ضار لايتقن إلاّ فن الفتك بالآخرين.

وما أشدّ ما ينطبق ذلك على قادة المجتمعات الغربية اليوم، ألا ترى كيف أصبحت العلوم التي في رؤوسهم، أسلحة فتك ودمار مشرعة أو مشهرة في أيديهم، ألا ترى كيف يلهثون بطمع لايعرف الاكتفاء ولا الشبع، وراء كل مكاسب الدنيا أينما لاحت وحيثما وجدت، ليدخلوها في ممتلكاتهم ويخضعوها تحت سلطانهم، وعلى الذين يقفون في طريق (مصالحهم) إليها أن يبتعدوا عن طريقهم إلى مكان قصيّ أياً كان المصير أو الهلاك الذي ينتظرهم فيه.

ألا فليعلم الناس جميعاً أن النفس الإنسانية إن لم تتهذب فلسوف يكون أصحابها أحطّ من الوحوش في بغيهم، ومضرب المثل في عسفهم وجورهم، ولن يهذب النفس الإنسانية شيء إلا رقابة الله عز وجل، ولاتأتي هذه الرقابة إلا من سيطرة الإيمان الحقيقي بالله على القلب بعد العقل.

فإذا استيقظت مشاعر الرقابة الإلهية في القلب، عاش صاحبها حياته كلها، عدواً لنفسه، خائفاً منها، متهماً إياها، إلى أن يرحل من دنياه مكلوءاً بالخاتمة الحسنة التي هي مطمح أبصار السالكين بل العارفين والمقربين. وعندئذ فقط يتحقق معنى النفس المطمئنة، وينطبق عليها قول الله عز وجل: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ، ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ، فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ، وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٩/٢٧-٣٠].

* * *

الحكمة السادسة والثلاثون

((شعاع البصيرة يشهدك قربك منه، وعين البصيرة يشهدك عدمك لوجوده، وحق البصيرة يشهدك وجوده، لاعدمك ولا وجودك))

هذه الحكمة تتضمن بيان ثلاث رتب، يتدرج في طريقها المؤمن إذ يسعى للوصول إلى درجة الإحسان التي نوّه بأهميتها، وأهمية الجهاد للوصول إليها، رسول الله ﷺ.

عبّر ابن عطاء الله عن أول هذه الرتب وأدناها، بكلمة ((شعاع البصيرة)) وعبّر عن الرتبة الثانية التي تليها، بكلمة ((عين البصيرة)) وعبّر عن الرتبة الثالثة والأخيرة بكلمة ((حق البصيرة)).

وقد نوّه بيان الله عز وجل في كتابه المبين، بهذه الرتب الثلاث، ومزية كل منها، وتفاوتها من حيث درجة القرب من الله عز وجل، كما سيتبين لك فيما بعد.

ولنشرح كل رتبة من هذه الرتب الثلاث على حدة، مع بيان أثر كل منها في حياة صاحبها، مستدلين على ذلك بكتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ، وسيرة سلفنا الصالح رضوان الله عليهم.

الرتبة الأولى، هي تلك التي يعتمد فيها الإنسان على «شعاع البصيرة» فما البصيرة؟ وما شعاعها؟..

المراد بالبصيرة العقل والإدراك، يقال: فلان يتمتع ببصيرة ثاقبة أي بإدراك أو ذكاء حاد.

وشعاع البصيرة، أي العقلِ، نوره. ومن المعلوم أن نور العقل يتزايد ويقوى بواسطة العلم وقواعده. بل إن بينهما تفاعلاً دائماً، فالعقل يقوى بواسطة العلم، والعلم أيضاً يتنامى ويزداد بواسطة العقل، وكل منهما سند دائم للآخر.

فالمرتبة الأولى التي يتبوؤها السائرون في هذه الحياة إلى معرفة الحقيقة الكونية وكشف أسرارها، هي مرتبة اليقين بوجود الله ومعرفة صفاته، تحت أشعة العقل الهادي إلى العلم والعلم الدال على العقل.

هذه المرتبة تشكل الجامع المشترك لكل المؤمنين بالله عز وجل على اختلاف فئاتهم وتفاوت درجاتهم، إذ لابدّ للناس جميعاً أياً كانوا إذا أرادوا التعرف على الله والقرب منه، أن يسلكوا الطريق إليه من خلال باب واحد لاثاني له هو تحكيم العقل الهادي إلى العلم. وهذا هو السبب في أن الله عز وجل يحاكم الناس جميعاً (إذ يدعوهم إلى معرفته وإلى الإيمان به) إلى العقل والعلم، ويأمرهم أن يتخذوا منهما الأساس أو المنطلق إلى كل شيء. فهو يقول مثلاً منوهاً بأهميتهما معاً:

﴿وَتِلْكَ الأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنّاسِ وَما يَعْقِلُها إِلاّ الْعالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٩/٤٣].

ويقول محذراً من اتباع ما لادليل عليه من العلم الذي هو شعاع العقل، ﴿وَلا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤادَ كُلُّ أُولَئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ [الإسراء: ١٧/٣٦].

ويقول، مستنهضاً الناس إلى إعمال العقل في كل ما يُدعون إليه، وفي كل ما يلوح أمامهم من المشاهد الكونية المتنوعة:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِما يَنْفَعُ النّاسَ وَما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ ماءٍ فَأَحْيا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَبَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّياحِ وَالسَّحابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّماءِ وَالأَرْضِ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٢/١٦٤].

ويقول مهدداً أولئك الذين يطوون عقولهم عن النظر والتفكير والوصول بها إلى النتائج السليمة:

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها وَلَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها أُولَئِكَ كَالأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ﴾ [الأعراف: ٧/١٧٩].

ما هي المرتبة التي ينالها، أولئك الذين يعتمدون في سيرهم إلى الله على «شعاع البصيرة» على حدّ تعبير ابن عطاء الله، أي على الدلائل العلمية المنبثقة من بصيرة العقل؟

تتلخص هذه المرتبة، في اليقين بوجود الله إلهاً مبدعاً خالقاً لهذا الكون، قائماً بأمره، مهيمناً على شؤونه. يلي هذا اليقين التعرف على

صفاته، وأولها وأهمها صفة الوحدانية. فإذا استقر لديه هذا اليقين، واصطبغ فكره وشعوره بصفاته عز وجل، أدرك عندئذ قربه الدائم من الله عز وجل، أينما حلّ وحيثما ارتحل، إذ قد علم من خلال ما عرفه ووعاه من صفات الله عز وجل أنه لايحده مكان ولايحصره زمان، إذ هو ربّ الزمان والمكان، ومنشئ كل منهما، وعاش مع قوله سبحانه ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنا الإِنْسانَ وَنَعْلَمُ ما تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦/٥٠] وأدرك معنى قوله عز وجل: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَما كُنْتُمْ﴾(١) [الحديد: ٤/٥٧].

ومن أولى وأهم ثمرات هذه الرتبة الأولى، تنامي مراقبة العبد للرب جلّ جلاله. أي إن يقينه بقربه الدائم من الله عز وجل، يجعله يصطحب شعوراً يساوره على الدوام بأن الله يراه.. يراه في سائر تقلباته وأطواره، بل يراه في خواطره وأفكاره التي تطوف برأسه، ولابدّ أن يحمله شعوره بهذه الرقابة الإلهية على الابتعاد عما نهى الله عنه وتنفيذ كل ما قد أمر به جهد استطاعته، فإذا جمحت به الغريزة وتغلبت عليه فانحرف إلى محرم أو قصر في واجب، طاف به من ذلك طائف من الخجل والخوف والندم، يدفعه إلى أن يترامى، بذل وانكسار، على أعتاب رحمته وكرمه، يلحف بالدعاء والرجاء أن يغفر ذنبه وأن يستر عيبه، وأن يرحم ضعفه الذي جرّه إلى ما قد تورّط فيه.

وما أكثر ما أراحت هذه الرقابة الإلهية، إذ تعمل عملها في كيان الإنسان نتيجةً لإيمانه هذا، الحكام في قصورهم، والقضاة في محاكمهم،

---

(١) سبق أن فصلت القول في معنى قرب الله من العبد في هذه الآية وأمثالها، في الجزء الأول من هذا الكتاب، انظر الصفحة ٢٤٤ ومابعدها.

والشرطة في دوائرهم. وعصر أصحاب رسول الله ﷺ، ثم عصور السلف الصالح من بعده، خير شاهد على هذه الحقيقة. ولعلنا جميعاً لانزال نذكر ما حفظناه من دروس التربية الدينية والأخلاقية التي كنا نتلقاها بجد واهتمام، في المرحلة الابتدائية، من أن الهرمزان لما قدم المدينة يسأل عن القصر الذي يقيم فيه أمير المؤمنين عمر، دلوه على أرضٍ عراء كان يتمدد فيها، متوسداً نعله، بعد جهد طويل بذله إذ كان يهنأ! إبل الصدقة ((يطليها بالقطران)) فوقف ذاهلاً متعجباً، ثم أفاق من ذهوله قائلاً: ((عدلت فأمنت فنمت ياعمر))[١].

ولم يكن عدل عمر متمثلاً في فنّ اخترعه أو فلسفة اجتماعية ابتدعها، ولكنّ عدله كان ظلاً لما يثمره الإسلام في نفس صاحبه المسلم، إذ يوقظه إلى مراقبة الله عز وجل، فترتكز من ذلك محكمة ربانية تستقر جاثمة في طوايا قلبه.

والإسلام الذي أقام هذه المحكمة في نفوس المسلمين بالأمس، لايزال يقيم هذه المحكمة ذاتها في نفوس المسلمين الصادقين اليوم.. دعك من المسلمين التقليديين الذين يمتطون صهوة الإسلام بحثاً عن مصالح ومغانم شخصية لهم، ولكن قف معي أمام المسلمين الذين صدقوا مع الله في إسلامهم، ثم غذوا إيمانهم العقلي بهذا الذي سماه ابن عطاء الله ((شعاع البصيرة)) تجد عجيب تفاعلهم مع رقابة الله لهم في خلواتهم وجلواتهم وخطراتهم؛ كم وكم تلوح أمامهم فرص نادرة

---

(١) كم وكم تشبعنا في مدارسنا الابتدائية آنذاك بما تفعله التربية الإسلامية في النفوس، وكم خدمت كتب ((القراءة)) هذه الحقيقة في تعليمنا وكم حفرت معاني رائعة في نفوسنا.. سقى الله تلك الأيام، وأعاد إلينا مشرقها على أحسن حال.

لكسب غير مشروع، فيشيحون بوجوههم عنها، ويترفعون فوقها، تحسباً لرقابة الله لهم. وكم فيهم من عادت به رقابة الله إلى أيام شروده عن حماه وابتعاده عن صراطه ، فأخذ ينقب عما تسرب إلى جيبه آنذاك من المال الحرام، يلتقطه ويعود به إلى أصحابه، أو يضعه في مصالح المسلمين إن لم يعرفهم أو لم يتمكن من إعادته إليهم.

والعجيب أنك قد ترى الرجل يلحد في ذات الله وآياته، ولايقيم وزناً للدين ولا لأهله، فإذا احتاج إلى من يرعى له مصلحة مالية، أو يمسك له دفاتر حسابية، أو يأتمنه على صفقة تجارية، بحث للنهوض بهذه المهمة عن أكثر الناس تديناً والتزاماً بأوامر الشرع وأحكامه، ووضع ثقته فيه من دون الناس كلهم. فما سرّ هذه المفارقة؟.. وكيف يستقيم أن يستخف العاقل بالدين وأهله، ثم لايثق إلا بالمتدين الصادق ولايطمئن إلا إليه؟..

فهذه هي الرتبة الأولى، على صعيد معرفة الله والإيمان به والالتزام بأمره. إنها رتبة الاعتماد على العقل مشفوعاً بما يشع به من نور الحقائق العلمية.

* * *

أما الرتبة الثانية، فهي التي عبر عنها ابن عطاء الله بقوله: «وعين بصيرة يشهدك عدمك لوجوده». وإليك خلاصة ما يعنيه بهذا الكلام:

الاستدلال على وجود الله ووحدانيته وصفاته، بالأدلة العلمية، مرحلة لابدّ منها، كما قد سبق بيانه في شرح بعض الحكم السابقة.

فإذا أخذ صاحب هذه الاستدلالات نفسه، بعد ذلك، بـورد دائـم مـن الأذكار المأثورة، وألزم نفسه بزاد دائـم مـن العبـادات والنوافـل يثـابر عليها ويستزيد منها، وفطم فمه عن تناول المال الحرام، وبذل ما يملـك من جهد للابتعاد عن المعاصي على اختلافهـا، تشـربت نفسـه حقـائق الإسلام وعقائده، وغدا الإيمان بالله وصفاته جزءاً لايتجزأ مـن كيانـه، ويقيناً مهيمناً على قلبه ووجدانه.

وإذا استقرّ به الأمر عند هـذه الحـال، لـم يعـد بحاجـة إلى مقدمـات منطقيـة يصوغهـا، ولا إلى أدلّـة يعتمـد عليهـا، إذ كـان دور الأدلـة والمقدّمـات المنطقيـة متمثـلاً في ردّ غائلـة الشـكوك وإبعـاد الشـبهات. ولكنه اليوم، وقد ثابر على التزود بما قد ذكرت، تحـرر مـن كـل تلـك الشكوك والشبهات، إذ غدا إيمانــه باللـه وصفاتـه روحـاً ثانيـة تسـري داخل روحه، ففيم يبحث عن عصّي الدلائل والبراهين ليعتمـد عليهـا، وقد عوفي من العرج وعادت قدماه تحملانه بكـامل مـا قـد أودع فيهـا من قوة؟![1]..

إذن، فالفرق بين هذه الرتبة والتي قبلها، أن الأولى تتمثـل في اليقـين العلمي، أما هذه فتتمثل في الشهود العملي.

أما المزية التي ينالها صاحب هـذه الرتبـة، فهـي أن الوجـود الذاتـي للمكونـات، يتلاشـى أمـام ناظريـه، إذ إنـه تجـاوز المرحلـة التـي كـان الوجود الذاتي للمكونات، مع الله عز وجل، مظهراً لثنائية الدليـل مـع

---

(١) ذكرت تفصيلاً لهذا الكلام يغني عن إعادته في شرح الحكمة الرابعة عشرة في الجزء الأول من هـذا الكتـاب.

المدلول، أمام بصيرته.. إنه اليوم لم يعد يرى في المكونات شيئاً ذا وجود مستقل حتى يرى فيه الدليل المستقل عن المدلول، ومن ثم يرى فيه البرهان الدال عليه. إنه الآن، وفي ظل هذه الرتبة، أصبح كلما نظر إليها، لم يجد فيها إلا صفات الخالق عز وجل.. إن نظر في النجوم والأفلاك المتلالئة في السماء، أو تأمل في البحار والأمواج التي تهدر بها المحيطات، أو نظر في الرياحين والزهور والنباتات والثمار، أو أتبع بصره حياة الوحوش والحيوانات العجماوات في الأدغال، لم يجد في شيء من كل ما يراه إلا صفات الله عز وجل. فهو يرى بعينيه المخلوق، ولا تريه بصيرته من ذلك إلا الخالق.. وهذه هي الرتبة التي يتبوؤها أصحاب وحدة الشهود، وقد سبق التعريف بها مفصلاً في شرح الحكمة الرابعة عشرة.

والمهم أن تعلم أن المؤمن يتجاوز في هذه المرحلة الحاجة إلى وساطة الأدلة، إذ لايجد بعين بصيرته أمامه إلاّ المدلول وهو الله عز وجل أما المكوَّنات التي كان يرى فيها مظهر البرهان والدليل، فهي الآن في حكم بصيرته معدومة.

وليس المراد هنا بالعدم، العدم الذاتي، وإنما المراد به عدم الفاعلية والجدوى، ذلك لأن المخلوقات لاتكون مخلوقات إلا وهي موجودة، ولكنها مجرد أشباح لاحراك بها ولا فاعلية لها ولا قوة فيها.

وهذه عقيدة كل مؤمن سار في معتقده على هدي القرآن والسنة. ولكن المؤمن إذ يكون في الرتبة الأولى التي مرّ بيانها، يخزن هذا

الاعتقاد في عقله، وينساه عند الخوض في معترك الدنيا والتعامل مع المكوّنات. أما في هذه المرحلة الثانية، فإن عقيدته هذه تظل مهيمنة على وجدانه ومشاعره في أحواله وتقلباته كلها. ومن ثم يظل في كل أحواله وأوضاعه وتقلباته الدنيوية والمعيشية، أمام مشهود واحد هو الله عز وجل. وبعبارة أخرى: إنه مهما تقلب في أموره الدنيوية والمعاشية لايتعامل إلا مع الله ولا يرى أمامه إلا فاعلية الله وسلطانه. وربما هيمنت عليه هذه الحال فزجته فيما يسمونه «الفناء» أي الفناء حتى عن ذاته، أي زجته في حالة من عدم الشعور بها وبالآخرين.. وهذه الحال إذ تهيمن على صاحبها، إنما تكون مظهراً من مظاهر الضعف التي ينبغي أن يتجاوزها السالك إلى الله عز وجل.. وعندئذ يرقى إلى المرتبة الثالثة التي سنتحدث عنها بعد قليل، والتي يسمونها «البقاء».

ومصدر هذه الرتبة بشطريها في السنة النبوية حديث رسول الله الذي رواه مسلم بسنده من حديث عمر بن الخطاب إذ تحدث عن الإحسان، وعرفه بقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

ذلك لأن هذا الإحسان أثر من آثار وحدة الشهود التي نحن بصدد بيانها وشرحها. فإن الحجاب الذي يحول دون بلوغ المسلم رتبة: «أن تعبد الله كأنك تراه» رؤيته للمكونات موجوداتٍ ذات أهمية وفاعلية. إنه، والحالة هذه، مهما وقف متبتلاً في المظهر بين يدي الله، ومهما خاطبه بقوله: ﴿إِيّاكَ نَعْبُدُ وَإِيّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ١/٥] لابدّ أن يشرد به الفكر والخيال إلى هذا الذي يقوم أمام ناظريه من الحجب الكونية

الكثيفة، المتمثلة في الدار والأهل والتجارة والمال.. ونحو ذلك. ومن ثم فلن يستطيع أن يعبد الله مشدوداً ببصيرته وفكره ومشاعره إليه، كأنه يراه.

ولكن إذا أخذ العبد نفسه بما قد ذكرته من الوظائف التربوية والسلوكية، واستقام على ذلك مدة من الزمن، استيقظت بصيرته لصاحب الوجود الحق الذي لاثاني له، وغابت فاعلية الموجودات الوهمية أو الظلّية كما يقول علماء هذا الشأن، عن بصيرته، واضمحلت كثافتها، وارتفع معنى الحجاب عنها، إذ تغدو عندئذ أمام ناظريه مجرد مظهر لصفات الله عز وجل. فإذا وقف يناجي الله في عباداته، خاطبه متجهاً إليه بكل مشاعره وكيانه، كأنه يراه. وربما أوقعه الضعف تحت سلطان هذه الحالة في الفناء عن الذات، كما قلت، إلاّ أنه أمر عارض، يمرّ ويزول، ولسوف يستقر به الحال عند الوضع الذي كان عليه رسول الله، غياباً عن الأغيار مع الشعور بالوجود الظلي لها.

فإن قلت: فهل كانت حياة رسول الله العملية في أصحابه، خاضعة أو متأثرة بوحدة الشهود هذه بقطع النظر عن حالتي الفناء والبقاء؟ ألم يكن يتعامل مع الدنيا ويتقلب في غمارها، كأي واحد من عامة الناس؟ أقول لك في الجواب:

إن المهمة التشريعية التي كلف الله رسوله بالقيام بها، والتي شاء الله أن يجعل من رسوله نموذجاً لأصول التعامل الإسلامي السليم والدقيق، مع الكون والحياة، اقتضت أن يكون في علاقاته بالدنيا

وأسبابها، وسيلة إيضاح للنهج الإسلامي السليم الذي ينبغي أن يسلكه المسلمون في حياتهم المعيشية.. وهذا لايتم إلا بإقباله إلى أمور المعايش وأسبابها طبقاً للنهج الذي ترسمه شريعة الله عز وجل، وحسب ما هو داخل في طوق عامة المسلمين؛ وبوسعك أن تعلم أن رسول الله ﷺ، كان يتقلب في غمار الدنيا وشؤونها في ظاهر أمره، تنفيذاً لهذه الوظيفة. أما سريرته الداخلية، فكانت مع الله عز وجل في كل التقلبات والأحوال.

وآية ذلك مواقفه وأوضاعه الشخصية إذ كان ينفرد بها مع ذاته عن الناس، خارج نطاق تعليمهم وإرشادهم، فلو تأملت في مواقفه تلك، لرأيته سابحاً في بحر لا ساحل له من شهود الله عز وجل، لايعكر عليه شهوده ذاك أي من المظاهر والصور الدنيوية التي تحيط به، مع إيمانه بوجود شكليّ لها.

تأمل فيما يرويه البخاري من حديث عبد الله بن المغفل، من وصف حال رسول الله ﷺ، إذ كان على مشارف مكة متجهاً إليها يوم الفتح، كان مستغرقاً في حالة من شهود الله عز وجل، يقرأ سورة الفتح يرجع في تلاوتها، دون أن تجد نشوة النصر والظفر العظيمين إلى نفسه أو مشاعره من سبيل. ويزيد في تصوير هذه الحقيقة ما رواه ابن إسحاق من حديث أنس من أنه ﷺ لما وصل إلى ذي طوى، كان قد طأطأ رأسه تواضعاً لله واستغراقاً في شكره وشهود إنعامه وفضله، حتى إنّ عثنونه ليكاد يمسّ واسطة رحله.. لقد كان مندمجاً بكل مشاعره في حالة من العبودية لله عز وجل، ذاهلاً بل غائباً عن كل

مايبدو حوله من مظاهر النصر النادر الفريد، وصَغار الشرك وصناديد المشركين من حوله وبين يديه... كان مستغرقاً في حالة فاض الزمان كله فيها بمعنى العبودية التامة لله وحده.

فهل تتألق وحدة الشهود التي تترجم معنى الإحسان في كيان مسلم، بأبهى وأجلّ من هذا المشهد؟!.

ثم تأمل في سيرة رسول الله إذ كان يختلي مع نفسه، بعيداً عن المعالجات والعلاقات الاجتماعية، في ليل أو نهار، تجده مستغرقاً في هذه الحالة ذاتها من الشهود والانصراف بكليته إلى الله عز وجل.

أما الصحابة، فيجمعهم جامع مشترك يتمثل فيما اتفق عليه أهل السنة والجماعة، من اتصافهم بالعدالة، ونزاهتهم عن الفسق وموجباته.. ولكنهم يتفاوتون بعد ذلك في هذه الرتب التي يتحدث عنها ابن عطاء الله. لن تجد فيهم من تدانت درجته الإيمانية عن الرتبة الأولى التي تم بيانها وشرحها، ثم فيهم الكثير ممن ارتقى إلى رتبة الإحسان هذه، رأوا الله بعين البصيرة، دون احتياج إلى أي سند من أشعتها أي من البراهين والمقدمات العلمية، التي نحاور ونناقش الملاحدة اليوم بها.. ولعل هذا هو الشأن بالنسبة لأكثرهم.. وفيهم من تبوؤا الرتبة الثالثة التالية التي سنتحدث عنها الآن.

* * *

الرتبة الثالثة هي التي يعبر عنها ابن عطاء الله بقوله: «وحق البصيرة يشهدك وجوده، لاعدمك ولا وجودك».

ينبغي أن تعلم أن هذه هي الرتبة الثانية ذاتها، مع ملاحظة أن يعود صاحبها من الفناء إلى البقاء.. أي أن يعود من حالة الغيبوبة عن ذاته، وعن المكونات التي من حوله، إلى ملاحظة الوضع الواقعي، الذي يتركز مجمله على وجود الله سبحانه وتعالى، قيوماً على كل شيء، إليه وحده الخلق والأمر، تقوم السماوات والأرض بأمره، يمسكهما وما بينهما بحكيم تدبيره أن تزولا، ولئن زالتا إن أمسكهما أحد من بعده. مولياً هذه الحقيقة الكونية إدراكه وفكره كله، غير ملتفت إلى شيء من الظلال والآثار لابحكم وجود عليها ولا بحكم عدم... فإن التفت إليها أو تعامل معها فبأمر من الله يلتفت إليها وتنفيذاً لشرعه يتعامل معها.

وهي الرتبة التي إذا تبوأها الإنسان أصبح رباني المشاعر والنزعة والسلوك. يتعامل مع الدنيا خادماً لديّانها، ويعبّد منها طريقاً يمشي فوقه إلى مرضاة مولاه وخالقه، فكل شيء فيما يراه بعينه وفيما يدركه بعقله من الله مبدؤه وإليه منتهاه، وفي سبيله التعامل معه والإقبال عليه.

وهي الرتبة التي كان الرسل والأنبياء أول المتبوئين لها والمصطبغين بها، يليهم الصديقون والربانيون، الذي كان يفيض بهم عصر السلف الصالح، ثم امتدت منهم قلة باقية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. أولئك هم الذين قال الله عنهم: ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ ، وَقَلِيلٌ مِنَ الآخِرِينَ﴾ [الواقعة: ٥٦/١٣-١٤].

فهؤلاء، لايتجهون في تعاملهم، إلا إلى الوجود الحق الذي هو وجود الله عز وجل، إذ كل ما عداه فهو بالله، ويستحيل أن يكون له

وجود مع الله. وهؤلاء معافون من حالة «الفناء» التي قد تضطرهم إلى قول «ما في الجبة إلا الله» أو ما يشبهها. لأن استغراقهم في شهود الذات الإلهية لم يغيبهم عن المكونات، ولم يبق في نفوسهم أي قيمة أو فاعلية لها. فهم موقنون بوجودها، ولكنهم غائبون عنها.

ومن وعى معنى قول الله عز وجل: ﴿ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٧/٥٤]. أدرك أن كل ما قلته عن هذه الرتبة الثالثة مندرج في هذه الجملة القرآنية الجامعة: له الخلق. والمخلوق موجود.. وله الأمر، والمأمور مغيَّب في حكم الآمر وتدبيره.

اللهم بصّرنا بحقائق كتابك، وأرنا مظاهر خدمتها لشرعك، وحققنا اللهم بذلك يقيناً وسلوكاً، ولاتجعل قصارى نصيبنا من ذلك نصاعة القول وبراعة البيان.

* * *

الحكمة السابعة والثلاثون

((كان الله ولاشيء معه. وهو الآن على ما عليه كان))

أما الفقرة الأولى من هذه الحكمة، فحديث ذكره رسول الله، وهو موجود في الصحاح. وقد أورد البخاري في ذلك ثلاث روايات: إحداها جاءت بلفظ ((كان الله ولم يكن شيء غيره)) والثانية بلفظ ((كان الله تبارك وتعالى قبل كل شيء)) والثالثة بلفظ ((كان الله ولم يكن شيء قبله)) ومن الواضح أن المعنى الذي تدلّ عليه الرواية الثالثة هذه من مستلزمات المعنى الذي تقرره الروايتان الأولى والثانية. فإنا إذا علمنا أن الله كان ولم يكن شيء غيره، علمنا من باب أولى أنه لم يكن قبله شيء. إذ الشيء الذي لاوجود له مع الله، ليس له وجود قبله من باب أولى. إذن فهذه الروايات الثلاث متآلفة متوافقة، ولعله ﷺ أكد هذه الحقيقة الاعتقادية الكبرى، بهذه الصياغات الثلاث ذكرها في مناسبات عدّة.

ثم إن هذه الحقيقة نصت عليها بعبارة كلية جامعة الجملة القرآنية من كلام الله عز وجل: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٣/١٦] [الزمر: ٣٩/٦٢].

وقد أفاض علماء العقيدة في بيان الأدلة العلمية، العقلية والنقلية، على أن كل ما عدا الله عز وجل مخلوق وحادث. وأن القدم صفة ذاتية خاصة بالله عز وجل. وقد أطالوا في بيان أسخف ما توهمه الفلاسفة القدامى، من أن جزئيات الموجودات هي التي تتصف بالمخلوقية والحدوث. أما كلياتها، أي الأنواع التي تفرعت تلك الجزئيات منها، فهي قديمة قدم الله عز وجل، أي إنها كانت ولاتزال موجودة معه منذ الأزل الذي لا أوّل له.

وحسبي أن ألفت نظرك إلى البرهان الذي ما ينبغي أن يغيب عن إدراك عاقل، من أن العجز الذي تعاني منه جزئيات الموجودات، والذي يحوجها إلى موجد ينقلها من ظلمات العدم إلى ساحة الوجود، هو ذاته العجز الذي تعاني منه كليات تلك الأجزاء، بل إن العجز لم يسر إلى الجزئيات إلا من كلياتها.. ثم إن الشادين من طلاب الفلسفة والمنطق، يعلمون أن الكلي لايتقوم إلا بجزئياته. أي فحيثما وجد الكلي لابدّ أن تكون جزئياته ماثلة في قوامه. فإذا صحت دعوى القدم النوعي، أي الكلي، للأشياء، إذن لابدّ أن تتبعها بالضرورة دعوى قدم الجزئيات بل الأجزاء أيضاً، التي لايستقيم وجود ما هو كلّي إلاّ بها[1].

إذن، فالفقرة الأولى من هذه الحكمة، ترسيخ وتأكيد لحقيقة من أهم حقائق العقائد الإسلامية، ولسنا الآن بصدد ذكر أدلتها العلمية التي تتمثل في بطلان تسلسل العلل غير الذاتية إلى ما لانهاية، وفي

---

(١) والعجيب أن ابن تيمية رحمه الله تورط في هذا اللغو الباطل عقلاً والمنكر نصاً وشرعاً. انظر كتابه (نقد مراتب الإجماع) على هامش مراتب الإجماع لابن حزم، وانظر كتابي (السلفية) ص١٦٤.

بطلان الدور، وفي بطلان القول بترجيح الشيء على غيره بدون مرجح. وإن كنت حريصاً على الرجوع إلى تفاصيل هذه البراهين، فارجع إلى بحث «سرمدية العالم ووحدته» من كتابي (نقض أوهام المادية الجدلية)، أو إلى الصفحات من ٧٨ إلى ٩٦ من كتابي (كبرى اليقينيات الكونية).

* * *

أما الفقرة الثانية التي جاءت الأولى تمهيداً وتأسيساً لها، فهي قوله رحمه الله «وهو الآن على ما عليه كان».

أي كما أن الله عز وجل لم يكن معه شيء في ظلمات الماضي القديم، قبل أن توجد المكونات، فهو الآن أيضاً ليس معه شيء. لم يختلف الزمن الحاضر عن الأزل والماضي السحيق في هذه الحقيقة قط، بل لن يختلف الماضي والحاضر في ذلك عن المستقبل الآتي أيضاً.

وأصحاب الاستعراضات السطحية العاجلة لما يقرؤون أو يسمعون، لابدّ أن يستنكروا هذا الكلام، وأن يعدّوه تحدياً باطلاً للمشاهدات المحسوسة. فهاهي ذي السماوات والأرض والأفلاك والحيوانات موجودة أيضاً مع وجود الله عز وجل.

ولكي تتجلّى الحقيقة الكامنة وراء هذه النظرة السطحية العجلى، يجب أن نتساءل: أتشترك المخلوقات التي نراها مع الله عز وجل في صفة الوجود؟ لاتستطيع أن تقول في الجواب: نعم، إنها تشترك معه في صفة الوجود، إلا إن استطعت أن تقول عن الطفل الصغير الذي يوقفه

والده على قدميه بيديه إذ يمسكه بهما: إنه يشترك مع والده في صفة الوقوف على القدمين.

إن من الأمور البدهية أن الطفل في هذه الحال إنما يقف على قدميه بإيقاف والده له، فهو ما دام يمسكه بيده، يشدّه إلى الأعلى، يظهر بمظهر الواقف كأبيه، فإذا تركه خرّ واقعاً على الأرض، إذن فوقوفه متحقق بأبيه، لا مع أبيه. وكم بين العبارتين من الفرق الشاسع الكبير.

فكذلكم المخلوق بالنسبة للخالق، إن الله هو الذي أمدّه بصفة الوجود ابتداء، وهو الذي يمتعه بهذه الصفة دواماً، أي إن استمرار وجود المخلوق أياً كان، باستمرار إمداد الله له بالوجود لحظة فلحظة، فلو تخلّى الله عنه فلسوف يتحول في اللحظة ذاتها إلى هلاك وعدم.. فكيف يكون المخلوق شريكاً مع خالقه في صفة لايملك أن يستبقيها عنده لحظة واحدة؟

ومن هنا قال رسول الله ﷺ: أصدق ما قاله لبيد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل ....

أي كل شيء ما خلا الله في حكم المعدوم، وليس بينه وبين أن يتبين لك هلاكه وبطلانه، سوى أن يتخلّى الله عنه، أي سوى أن ينتهي الإمساك الذي عبرّ عنه بيان الله بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّماواتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا﴾ [فاطر: ٣٥/٤١].

ولكن فما المعنى السلوكي أو التربوي الذي يذكّر به ويدفع إليه ابن عطاء الله، من وراء بيان هذه الحقيقة؟

المعنى التربوي الذي ترسخه هذه الحقيقة في نفس المؤمن، هو حصر الربوبية، ومن ثم الألوهية، في ذات الله وحده، فلا يرجو الخير إلاّ منه، ولايخاف الضرّ إلا منه، وإذن فلايتكل إلاّ عليه، ولا يتخذ لنفسه ولياً من دونه. له وحده كل حبّه، ومنه فقط كل رجائه.

ومن شأن هذا المعنى التربوي، أن لايشغله شيء من المكونات التي يراها حوله عن الله عز وجل، ولايحجبه عنه، بل الشأن فيها أن تذكره بالله عز وجل إن نسيه، وأن يعيش منها مع صفاته ومظاهر آلائه كلما رآها أو تعامل معها.

ولايتحقق العبد بتوحيد الله عز وجل، إلاّ إن أدرك الحقيقة التي يقولها ابن عطاء الله بيقينه العقلي، وهي أنه ليس مع الله أي موجود لا اليوم ولا من قبلُ ولا من بعدْ، ثم اصطبغ وجدانه بهذا المعنى التربوي.

وملاك هذا الأمر أن تكون على بينة من الفرق بين الوجود مع الله وهو باطل ومستحيل، وبين الوجود بالله وهو ثابت وحق.

* * *

الحكمة الثامنة والثلاثون

((لاتتعدّنية همتك إلى غيره، فالكريم لا تتخطاه الآمال))

هذه الحكمة تأتي بعد الحكمة السابقة، كالنتيجة بعد المقدمة.

إذ قد عرفنا لدى تأملنا في الحكمة السابقة ودراستنا لها، أن صاحب الوجود الحق، أي واجب الوجود، واحد لاثاني له هو الله عز وجل. فهو الذي وجوده من ذاته وليس فيضاً من غيره، ومن ثم فهو صاحب الوجود الأزلي الذي لا أول له. ثم عرفنا أنه كان ولايزال المتفرد بالوجود الحق أي الوجود الذاتي الواجب، فمهما رأيت اليوم مكوَّنات من حولك ومن فوقك، فليس لها أي وجود ذاتي مع الله، وإنما هي موجودة لحظة فلحظة بالله أي بمدد سارٍ إليها من الله.

وإذ قد عرفنا ذلك، فلابد إذن أن نعرف بأن سائر المخلوقات التي حولنا، لاتملك بحدّ ذاتها حولاً ولا قوة، ولا نفعاً ولا ضراً. وكيف تملك ذلك أو شيئاً منه، وهي لاتملك وجودها الذي هو مصدر كل المزايا والقدرات. فالناس أياً كانوا بقدرة الله يتحركون، وبسلطانه ينشؤون ويعمرون ويحكمون..

فإذا اصطبغ عقلك بهذا اليقين، واستقر علماً وحقيقة في فؤادك، فذلك هو التوحيد الذي ألزمنا الله به، وهو المعنى المنطوي في الكلمة التي وصفها بيان الله تعالى بالكلمة الطيبة: ﴿لا إِلَهَ إِلاّ اللَّهُ﴾.

فكيف يكون سلوك من ترسخت في عقله حقيقة هذا التوحيد؟

عند الإجابة عن هذا السؤال، يأتي دور النتيجة أو الثمرة التي لابدّ أن تزدهر بها الحكمة السابقة، وهي قول ابن عطاء الله: «لاتتعدَّ نية همتك إلى غيره فالكريم لاتتخطاه الآمال».

إذا علمنا أن ليس مع وجود الله، وليس مع قدرته أي قدرة، وليس مع كرمه أي كرم أو كريم، وليس مع مالكيته أي مالك، وليس مع غناه أي غني.. إن بدا لك وجود شيء من ذلك، فهو من الله وبالله وإليه، أقول: إذا علمنا ذلك، فبمن يجب أن تتعلق آمالنا؟

يجب أن تتعلق بمن يملك وحده كل المعاني والصفات التي ذكرتها.

وقد عرفت أن الذي يملك الوجود وثمرات الوجود واحد لا ثاني له هو الله عز وجل... إذن يجب أن لاتتخطّى الآمال، أياً كان نوعها، وأياً كانت تطلعاتها، يجب أن لاتتخطى الآمال الواحد الأحد، وهو الله عز وجل.

وإذا تعلقت منك الآمال بالرزق، فاتجه بها إلى من بيده وحده خزائن السموات والأرض وهو الله.. وإذا تعلقت منك الآمال بالصحة والعافية فتوجه بها إلى الله الذي قال عنه خليله إبراهيم ﴿وَإِذا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٢٦/٨٠].. وإذا تعلقت منك الآمال بالطمأنينة

والسعادة والأمن، فاتجه بها إلى الله القائل: ﴿مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧/١٦].. وإذا تعلقت منك الآمال بمنعة تتحصن بها ضدّ ظالم أو عدو، فاتجه بها إلى الله الذي خاطب موسى وأخاه هارون قائلاً: ﴿قالَ لا تَخافا إِنَّنِي مَعَكُما أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦/٢٠].

ولعمري إن الذي تتجه منه الآمال، ابتغاء أي من هذه الحاجات، إلى غير الله وحده، مشرك وليس موحداً. ومهما ردّد الكلمة الطيبة ﴿لا إِلَهَ إِلاّ اللَّهُ﴾ فإن ترداد لسانه لها، مع تعلق آماله بغير الله عز وجل، لايجعله من الموحدين.

فإن قلت: فما بال موسى وهارون أعلنا الخوف من فرعون قائِلَيْن: ﴿...رَبَّنا إِنَّنا نَخافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنا أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾ [طه: ٤٥/٢٠] أقول لك: إنهما اتجها بآمالهما في التخلص من طغيان فرعون إلى الله، لا إلى فرعون. إذ كان سؤالهما له ورجاؤهما منه، وكان الأمل الذي توجّها به إلى الله عز وجل، أن لايسلط الله فرعون عليهما بأي إساءة أو طغيان. فكان هذا التوجه منهما بهذا الرجاء منتهى التوحيد لذاته العلية وصفاته السنية، ولذلك طمأنهما الله عز وجل في الجواب الذي خاطبهما به إذ قال: ﴿قالَ لا تَخافا إِنَّنِي مَعَكُما أَسْمَعُ وَأَرَى﴾.

وإذن، فتوحيد الاعتقاد والقول اللساني، لابدّ أن ينبني عليهما توحيد التطلعات السلوكية والعلاقات الاجتماعية. وهو، أي هذا التوحيد الثاني، هو ما أمر وأوصى به رسول الله ﷺ سيدنا عبد الله ابن عباس، إذ قال له - وكان قد أردفه رسول الله خلفه -: ((ياغلام،

إني أعلمك كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك. وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضرّوك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف»[١].

وهما (أي توحيد الاعتقاد والقول اللساني) ليسا توحيدين كافيين في الحقيقة، وإنما هي العقيدة التي يجب أن لاتنفصل عن ثمراتها التطبيقية.

* * *

والآن.. هل في هذا التوحيد الذي يذكرنا به ابن عطاء الله بل الذي يأمرنا به الله عز وجل، ويوصينا به رسول الله في مثل هذا الحديث، ما يتعارض مع الانبعاث في مناكب الأرض للتعامل مع الأسباب الكثيرة المتنوعة؟

بوسعك أن تعرف الجواب من استعمال ابن عطاء الله في حكمته هذه لكلمة «الآمال».. إن المطلوب منك أن لاتتجاوز آمالك المشفوعة بالهمة والنية، الكريم الذي هو الله عز وجل.

فإذا تحقق التوجه بالقصد والأمل إلى الواحد الذي لاثاني له، فالتعامل بعد ذلك مع الأسباب.. أسباب الرزق والعافية والقوة والأمن والطمأنينة والعلم والمعرفة، تنفيذ لأمر الله وجزء لايتجزأ من توحيد الله.

(١) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

وإذا كان هذا واضحاً، فينبغي أن تعلم أنه لافرق بين الأسباب المادية المتمثلة في الكدح للرزق والطعام للشبع والدراسة للعلم.. إلخ وبين أسباب الرحمة الإلهية ووسائلها، كمكانة الرسل والأنبياء، لاسيما خاتمهم محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ومكانة الصالحين المقربين إلى الله من بعدهم.

فإن الله كما أقام من المطر سبباً للنبات، وأقام من الطعام سبباً للشبع وأقام من الدواء سبباً للشفاء، أقام من مكانة رسول الله عند ربه ومن حبه له سبباً لرحمة العباد وشفاعتهم، ألم يقل الله عز وجل: ﴿وَما أَرْسَلْناكَ إلاّ رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧/٢١] ألم يقل: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جاؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوّاباً رَحِيماً﴾ [النساء: ٦٤/٤].

إذن، فكما يجوز للمسلم أن يتوسل بالدواء إلى الشفاء، وبالطعام للشبع، وبالماء للري، وبالكدح للرزق، يجوز أيضاً أن يتوسل برسول الله لاستنزال رحمة الله، والحصول على آماله من الله عز وجل.. على أن لايغيب عن باله أن الوجود الحق الذي لا ثاني له هو وجود الله عز وجل، وأن الخلق له والأمرَ إليه، وأن لاحول ولا قوة لشيء إلا بالله عز وجل. وأن يعلم أنه إنما يتعامل مع هذه الأسباب ويقف عندها، لأن الله أمره بذلك فهو في مشيه في مناكب الأرض باحثاً عن الرزق، وفي إقباله على الطعام عند الجوع، وإلى الشراب عند الظمأ، وإلى الدواء عند المرض، إنما ينفذ أمر الله وشرعته، كذلكم الحال عندما يتوسل برسول الله أن يرحمه الله ويلطف به ويصلح حاله، إنما يتوسل

به لأن الله أقام منه وسيلة لذلك كله تكريماً لـه، أي فالرحمة واللطف وصلاح الحال إنما يأتي ذلك كله من عند الله تعالى. وهل في الخلائق كلها من يملك أن يرحمك أو يصلح حالك أو يرفع عنك الضر، إلا الواحد الأحد جل جلاله!.. ولكنا تلقينا من الله الأمر بأن نتعامل مع النظام الذي أقام كونه هذا على أساسه، وأن ننقاد له طاعة له وتنفيذاً لأمره عز وجل. ولاشك أن هذا الانقياد بهذا القصد جزء لايتجزأ من توحيد الله تعالى.

والعجيب أن تجد في الناس من إذا سمع أحدهم مريضاً يقول لطبيبه، وقد أمضّه الألم، أرجوك أيها الطبيب أن تخلصني من هذه الأوجاع، لايبالي بهذا الكلام ولايستنكره، ولايرى في هذا الطلب من الطبيب ما يخدش التوحيد. فإذا اتجه هذا الإنسان ذاته إلى الله قائلاً: اللهم إني أتوسل إليك بنبيك محمد، ﷺ، أن تشفيني من هذه الآلام، قام في وجه مكفراً ومشرّكاً، وربما أمره أن يجدد إسلامه!...

فما الفرق بين السببية الجعلية التي قضى الله بها في الدواء للشفاء، والسببية الجعلية التي قضى الله بها في مكانة رسول الله والتوسل به للشفاء ذاته؟..

مع العلم، الذي لايجوز أن يغيب عن بال أحد أنها سببية جعلية هنا وهناك، فالله هو الشافي والمعافي، ولكنه شاء لحكمة باهرة، أن يشفي المريض عند تناوله الدواء، أو عند توسله إلى الله للأمر ذاته بحبيبه محمد عليه الصلاة والسلام، أو عند توسله إلى ذلك بشربه من ماء زمزم.

وأعجب من هذا وأغرب، أولئك الذين يفرقون بين حياته صلى الله عليه وسلم ومماته، فيرون التوسل برسول الله مشروعاً في حياته، وغير مشروع بعد وفاته!!..

ولاريب أن هؤلاء الناس يفهمون أن التوسل إنما هو بقوة رسول الله الجسدية وسطوته المادية، ونظراً إلى أن ذلك يزول بوفاته، فإن التوسل به بعد وفاته يغدو شيئاً لامعنى له ولا فائدة منه.

ولاشك أن الذي يتصور أن محمداً عليه الصلاة والسلام يملك قوة ذاتية بها يحقق للناس رغائبهم فهو متورط من ذلك بشرك خطير. إن القوة الذاتية إنما هي قوة الله وحده وصدق الله القائل: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ٣/١٢٨].

من المعروف والثابت بداهة أن التوسل المشروع الذي نتحدث عنه إنما هو بالمكانة التي أولاها الله تعالى لرسوله والمزية التي متعه بها، إذ جعل منه باباً للدخول على الله في طلب مغفرة أو شفاعة، أو شفاء من مرض، أو التخلص من غم وهم، أو نحو ذلك من الحاجات الإنسانية التي ينبغي أن يطرق بها أحدنا باب الله عز وجل.

والمكانة التي يتمتع بها رسول الله، لاتنطوي ولاتنسخ بعد وفاته، معاذ الله، من قال هذا؟ إن مقام رسول الله عند ربه باق مستمر، وهو في علوّ دائم، وما الدعاء الذي ندبنا إليه رسول الله بعد الأذان إلا دليل ناطق بذلك.

* * *

ثم إياك أن تتوهم أن ما نسميه أسباباً فيه قوة مودعة بها تؤثر. فإن هذا الوهم يستلزم أن تكون القوة المودعة المزعومة ذات وجود ذاتي مستقل في الكون، وتقتضي أن الله عمد إليها فأودعها في بعض المكونات لتعطيها القدرة والفاعلية!.. فهل هذا إلا الشرك الصريح الواضح بذاته؟.. ما الفرق بين أن تتخذ الأوثان أو الأشخاص آلهة مع الله، وبين أن تتخذ ما تسميه بالقوة المودعة إلهاً معه؟ ألست تزعم بهذا أن الله عز وجل عثر من هذه القوة النادرة الرائعة، على ما يستعين به لإيجاد الأسباب الكونية وتمكينها من الفاعلة وتحقيق النتائج المطلوبة فأخذها وبثّها في كل هذه الأشياء التي شاء أن يجعل منها أسباباً بفضل هذه القوة الفريدة؟

إما أن هذه القوة هي قوة الله عز وجل، إذن فهي تظل منسوبة إليه ولاتنفصل عنه لتتحول إلى وديعة فيما يسمى بفضلها أسباباً. فنقول إننا شبعنا بقدرة الله وحكمه لدى تناول الطعام، وشفينا بقدرة الله ولطفه لدى أخذ الدواء.. إلخ.

وإما إن هذه القوة ليست قوة الله عز وجل، فعندئذ يتسنى لك أن تتوهم بأنها شيء مستقل عن ذات الله عز وجل، مودَع وموضوع فيما نسميه أسباباً. ولاشك أنك نتخذ عندئذ من هذه القوة الذاتية المأخوذة من هنا والموضوعة هناك، شريكاً مع الله عز وجل. بل إنك لتجعل منها عندئذ الشريك الأقوى الذي لاتتأتى ألوهية الله إلاّ بالاستعانة به، تعالى الله عن هذا الوهم المتهافت الباطل علواً كبيراً، وصدق الله القائل: ﴿وَمِنْ آياتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّماءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾

والقائل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّماواتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زالَتا إِنْ أَمْسَكَهُما مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾ والقائل: ﴿وَآيَةٌ لَهُمْ أَنّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ والقائل: ﴿وَحَمَلْناهُ عَلَى ذاتِ أَلْواحٍ وَدُسُرٍ﴾.

قل لي.. أين بقي مكان القوة المودعة في هذه القرارات التي تقرؤها في هذه الآيات؟!..

ألا إن الكون كله بسائر ما فيه من تحركات وتموجات وأطوار، كبرت أو صغرت، ظهرت أو خفيت، ينشد بين يدي إلهه الحي القيوم تسبيحاً لا يفتر عنه، وتوحيداً لايسكت عنه، إنه نشيد: لا حول ولاقوة إلا بالله.

فاللهم أحينا وأمتنا واحشرنا على هذا النشيد يهيمن يقيناً على عقولنا، ووجداناً في قلوبنا، وذكراً على ألسنتنا، واجعل من ذلك شفيعاً لنا بين يدي كل إساءة وتقصير.

* * *

الحكمة التاسعة والثلاثون

((لاترفعنّ إلى غـيره حاجـة هـو موردهـا عليـك. فكيـف يرفـع غيره ما كان هو له واضعاً؟ مـن لايستطيع أن يرفـع حاجـة عن نفســه فكيــف يســتطيع أن يكــون لهــا عــن غــيره رافعــاً؟))

لاتزال سلسلة هذه الحكم المتلاحقــة تتلاقــى مــن جوانــب متعــددة، وبأساليب شتى، على بيـان وحدانيـة اللـه عـز وجـل في ذاتـه وصفاتـه وأفعاله، وأن الذي يتصرف في الكون كله واحد لاثاني له. ثم ينبه ابن عطاء الله من خلال ذلك إلى أن على العبد أن لاينصرف بآماله وآلامه ورغباته إلاّ إلى هذا الإله الواحد، وأن لايشرد عنه إلى الآخريـن الذيـن هم مثله في العجز والضعف والمملوكية لله عز وجل.

وهو رحمه الله، لايخرج عن هذا التنبيه وهذه النصيحــة، في حكمتـه الجديدة هذه. ولكنه ينطلق هنا إليها من حجة منطقية، وعلمية مجــردة، دون أن يلزمك بقرار غيبي أو نصّ ديني.

إنه يقول: إذا نزلت بك حاجة أو طافت بك مشكلة ما فـابدأ قبـل كل شيء بالبحث عن مصدر تلك الحاجة أو المشكلة، من الذي أنزلها

بك أو ابتلاك بها، فإذا علمت الفاعل أو المتسبب فاتجه إليه، واطلب منه أن يرفع عنك البلاء الذي أنزله بك أو الحاجة التي حمّلك إياها.

ويبين رحمه الله الحجة المنطقية في هذه النصيحة، قائلاً: كيف يتسنى لكائن من كان أن يرفع عنك من الحاجة أو البلاء، ما قد وضعه فيك أو جرّك إليه غيره؟ يقول المنطق: إن الذي ساق إليك واقعة ما، أياً كانت، خيراً أم شراً، هو لاغيره الذي يتمكن من جذبها عنك. إذ إن من بيده قوة الإرسال والدفع، هو الذي يكون بيده قوة الجذب والرفع.

إن الالتزام بهذه النصيحة المنطقية العلمية البعيدة عن غيبيات الدين ودوافع التقيد بالنصوص، يقتضي أن تبدأ فتساءل عقلك.. عقلك المتحرر عن أي أسبقية أو تحيز: ما هو، أو من هو الذي يسري إليك منه الخير بكل أنواعه، والشر بكل صنوفه وألوانه؟

ولقد علمت مما تم شرحه وبيانه من خلال دراسة الحكم السابقة، أن كل ما يتراءى لك من حركة أو فاعلية أو قدرة، في الكون، فإنما هو سارٍ إليه من عند الله عز وجل. وقد علمت أن الله لو قطع حوله وقوته عن هذه المكونات لتحولت إلى حطام وأنكاث. وقد تم بيان ذلك بأدلة منطقية وعلمية، قبل أن نستند فيها إلى معتقدات غيبية أو نصوص دينية.

كما عرفنا أن ظاهرة الأسباب المنتثرة والمنتشرة في الكون، ما ينبغي أن تحجبنا عن إدراك هذه الحقيقة، أو أن تمدّ أي غاشية من الإشكال أو اللبس عليها. إذ قد علمنا أنها أسباب جعلية أي إن الله جعل منها

أسباباً عندما قضى باقترافها لما يخلقه الله عز وجل مما قد شاء خلقه بمحض قدرته وتقديره. بل لقد عرفت أنه ليس فيما نسميه أسباباً أي قوة مودعة فيها لتمارس بها وظيفة السببية، وإنما يخلق الله ما نسميه مسبباً بمحض قدرته، عند اقترانه بما اصطلحنا على تسميته سبباً. والمراجع التوحيدية فياضة بعرض الأدلة التفصيلية العلمية على ذلك.

فإذا استقرت في أذهاننا هذه الحقيقة، علمنا بيقين أن الحاجات التي تنزل بنا، أو المشكلات التي تعترضنا، أو النعم التي نتمتع بها، إنما يفد ذلك كله إلينا من الله عز وجل، بقطع النظر عن البريد الذي قضى الله أن يسخره لحمل هذه الحاجات أو المشكلات أو النعم إلينا.

إذن، فأي باب نطرق، عندما نبحث عمن يقضي لنا الحوائج، أو يزيح عنا المشكلات، أو عندما نبحث عمن نشكره على العطايا والمنح؟

ماذا يقول المنطق في الإجابة عن هذا السؤال؟

يقول المنطق: يجب أن تعود بالحاجة التي تلاحقك، إلى من قد أنزلها فيك وأخضعك لها؟ وأن تعود لحلّ المشكلة التي نعاني منها إلى من قد ابتلاك بها، وأن تعود لشكر النعمة والعطايا إلى الذي متعك بهما. وقد علمت أنه الله وحده، لايشركه في ذلك أحد، وليس من قبله، ولا من بعده، ولا معه من ينوب عنه أو يعينه في شيء من ذلك.

ولكي تقوى على تنفيذ هذا الذي يقضي به المنطق، يجب أن تنسى الوسائط وسعاة البريد، وأن تخترق بعقلك وإدراكك الصور المتحركة إلى ما وراءها.

والعجيب الذي يبعث على التساؤل، أن هذا النسيان للوسائط والأسباب سهل جداً لدى التعامل مع الوسائط والوسائل الدنيوية التي تتحرك مابين الفئات والأشخاص. فليس في الناس من إذا أخذ جائزة مالية من موظف أو ساعي بريد، ينسى الثريّ الذي أرسلها إليه، أو المؤسسة التي اختصته بها، ويتجه بالشكر والحب وعبارات الفرح والامتنان إلى المسكين الفقير ساعي البريد.. وقس على هذا المثال الأمثلة الكثيرة الأخرى.

غير أن هذا النسيان ذاته للوسائط والأسباب يكون في غاية الصعوبة والعسر، عندما تكون هذه الوسائط قائمة بين العبد وربه عز وجل.. تفد إليّ النعمة من الله عز وجل عافيةً، غنىً، ثقافة وعلماً، طمأنينة وأمناً.. إلخ. فيغيب عن فكري المنعم المتفضل، ولا أذكر إلا الوسائط التي أقام الله منها خادماً لمننه وعطائه. فأذكر تجارتي التي ازدهرت بالنجاح، والطبابة الجسيمة والرياضة البدنية التي أكسبتني العافية والنضارة، والانكباب على الدراسة وأسبابها مع نباهتي التي أعتز بها، والتي أكسبتني عمق المعرفة واتساع العلم. وكلها لايعدو في الفاعلية والقيمة عن كونها سُعَاةَ بريد، وخدماً واقفين على تنفيذ أوامر الله.. ولكن يا للعجب!.. إنني مع هذا أنسى المتفضل الفعال، وأذكر في مكانها هؤلاء الخدم الذين لايتأتى منهم إلا تنفيذ الأوامر الصادرة إليهم من المنعم المتفضل الوهاب.

وهذا الذي أقوله عن النعم والأعطيات الوافدة إلينا من الله، ينطبق أيضاً على الابتلاءات والمصائب الوافدة إلينا منه.

تنتقص حقوقنا، وتستلب أوطاننا، فنتذكر الأيدي المستخدمة، والوسائل المرسَلة، ونحدّق النظر فيها، دون أن نتذكر الحقيقة الساطعة التي ما ينبغي أن تغيب عن بال عاقل آمن بالله عز وجل، وهي أن هذه الأيدي المستخدمة والقوى المتحكمة، ليست إلا جنداً يتحركون تحت قهر الله وسلطانه، إيقاظاً وتأديباً لنا، بمقتضى سنة ربانية ماضية أخبرنا عنها وألزم ذاته بها.

تحتبس الأمطار، ويمضي الشتاء أو يكاد، والأرض ما تزال جافة قاحلة، فنتيه عن الإله المتصرف في الكون الفعال لما يريد، ولا نتذكر إلا الوسائط التي لاشأن لها ولا قيمة: هي دورة ثلاثينية تأتي بها الطبيعة في ميقاتها المتكرر على رأس كل ثلاثين عاماً.. أو هي أثر من آثار الخروق التي أصابت طبقة الأوزون.. أو هي من نتائج الوهج الحراري الذي ألحق اضطراباً بالتوازن الطبيعي وعلاقة ما بين الأقاليم.

فهل في العقلاء من يجهل أن هذه الافتراضات كلها، على تقدير صحتها، ليست أكثر من خدّام صغار على مسرح الطبيعة، ينفذون الأوامر الصادرة إليهم من الله؟.. كيف لايغيب عن ذهن العاقل أن محرك السيارة ليس هو الذي يسيرها، وأن المقود الذي فيها ليس هو الذي يوجهها، وإنما الذي يسيرها ثم يوجهها، هو السائق الذي يتحكم بها، وليست الأجهزة التي بين يديه والتي تحت قدميه، إلاّ أدوات تشتغل لحسابه وتتحرك تحت سلطانه؟ حتى إذا وقف أمام المحركات والأجهزة الشكلية التي تبدو وكأنها هي التي تسيّر هذا الكون حبس بصره وبصيرته عندها وغاب عنه مسيّرها الحقيقي الأوحد، وهو الله عز وجل!..

يا للعجب!.. أليس الكون كله، مهما عظم، كهذه السيارة مهما صغرت؟ أليست حركة هذا الكون ووظائفه وتسياره عائدة إلى الإله الذي خلقه ثم نظمه ثم ساسه ودبره، كما أن حركة السيارة ووظائفها عائدة إلى ذلك الجاثم فيها المتحكم بأجهزتها ومقودها، ولله تبارك وتعالى المثل الأعلى؟!..

على أن المراد بضرورة نسيان الوسائط والأسباب الشكلية، ليس الإهمال السلوكي أو الإعراض عن الالتزامات الأخلاقية والأدبية تجاهها، وإنما المراد، أو المطلوب، أن يستقر في يقينك الاعتقادي أنها مجرد وسائط شكلية، لا أثر لها ولا فاعلية فيها.

أما التعامل معها فمطلوب، لأنها مظهر للنظام الذي أقامه الله وارتضاه، والخضوع لهذا الذي أقامه الله وارتضاه، جزء لا يتجزأ من الخضوع لسلطان الله وأمره، وقد سبق بيان ذلك في شرح بعض الحكم السابقة.

ونعود في بيان المزيد من هذا الأمر إلى مثل ساعي البريد، فإنك على الرغم من معرفتك لهويته، ومعرفتك بالجهة التي أرسلت إليك الجائزة المالية، تتجه إلى ساعي البريد بلسان شاكر، وربما أكرمته بشيء من المال.. إنه بعض ما يقتضيه أدب التعامل وذوق التواصل الأخلاقي. والإسلام كان ولايزال سبّاقاً إلى رعاية هذه القيم ألم يقل رسول الله ﷺ: ((من لم يشكر الناس لم يشكر الله))[1].

---

(١) رواه الترمذي وحسّنه من حديث أبي سعيد الخدري، وأخرجه أبو داود وابن حبان من حديث أبي هريرة مرفوعاً.

فإذا تبين لك الآن أنه ما من حاجة تنزل بـك أو مشـكلة أو مصيبـة تحوم (والعياذ بالله) حولك، إلاّ وهي وافدة إليك مـن اللـه عـز وجـل، فإلى من تعود للعمل على قضاء هذه الحاجة، أو حلّ المشكلة أو صرف المصيبة؟

يقول لك العقل، أياً كان صاحب الـرأس الـذي هـو فيـه، يجـب أن تعود، في ذلك، إلى الله. إذ منه وفدت إليك الحاجة أو المشـكلة، ومـن ثم فهو الذي يملك أن يرفعها عنك.

ومعنى العود في ذلك إلى الله، أن لاتعلـق آمـالك إلا بـه، وأن تعلـم مستيقناً أن الوسائط مهما تكاثرت أو تسلسلت، فليس فيها أي فاعلية أو تأثير مع الله عز وجل، وذلك طبقاً لما تم بيانه وتأكيده.

فـإذا علمـت ذلـك، وذابـت مـن أمـام نـاظريك حجـب الأسـباب والوسائط، وظهرت أمامك جلية واضحة فاعلية الله عز وجل، وتجلـى حكمه وسلطانه لك في كـل سـكنة وحركـة، فـأقبل عندئـذ إلى عـالم الأسباب وعاملها طبق ما أقامها اللـه فيـه مـن مظهـر السـببية الجعليـة، والوساطة الشـكلية.. وأشـعر نفسـك أنـك إنمـا تلبـي في ذلـك وظيفـة كلفك الله بها، وأدباً أقامك الله فيه، على أن لاتنسـى للحظـة واحـدة أن قيام الكون كله إنما هو على قراري خلق الله وأمره فبقرار من خلق الله وجـد، وبقـرار مـن الأمـر الربـاني الصـادر إليـه ينشـط ويتحـرك، وصدق الله القائل: ﴿أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْـرُ تَبـارَكَ اللَّـهُ رَبُّ الْعـالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٧/٥٤].

واجعل من هدي رسول الله ﷺ في قصة هجرته قدوة لك، في كلا طرفي السلوك والاعتقاد. تأمل في الوسائط والأسباب الشكلية المادية التي استحضرها وسخرها لنجاح هجرته، في باب اللياقة والأدب مع الله، ثم تأمل في نسيانه لهذه الأسباب ووقوفه بيقينه الجازم أمام حكم الله وتدبيره، عندما قال لأبي بكر وهما مختفيان في غار ثور وقد أحدق المشركون بفم الغار: «يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما..» ثم اجعل من هدي رسول الله هذا قدوة لك في سائر أحوالك وتقلباتك.

واعلم أنك إن تمتعت بهذا اليقين الذي هو واحد من أهم دعائم توحيد الله عز وجل، فمضيت تطرق باب الأسباب بيدك، وتطرق باب المسبب القهار الذي لاثاني له بإدراكك ويقينك، أراك الله عز وجل بين الحين والآخر من مظاهر لطفه بك وحمايته لك، ما يزيدك توحيداً له وتعلقاً به ونسياناً لحواجز الوسائط والأسباب.. من هذه المظاهر أنه كثيراً ما يخرق لك العوائد، ويطوي عنك مقتضيات الأسباب، ويسخر لك ما لاتتوقعه من البديل عنها. تنفيذاً لحاجتك التي طرقت بها باب مولاك وخالقك، لا تتأملها إلاّ منه، ولا تمضي بها إلى إليه.

دعني أضعك أمام مثال يعود إلى خصوصيات حياتي وتعاملي مع الله عز وجل، ليزيدك يقيناً بهذا الذي أقول، إن كنت من أهل هذا اليقين، وليزيل عن بصيرتك غبش الأوهام والشكوك، إن كنت ممن لايزالون يتطوحون في عالم الأوهام ويقبعون في سجون الصور والأشكال.

عدت إلى كلية الشريعة من جامعة دمشق حاملاً شهادة الدكتوراه التي أوفدت للحصول عليها، على نفقة الجامعة، عام ١٩٦٥م، وعينت في ذلك العام مدرّساً فيها.

كنت أحمل ثانوية شرعية قبل أن تصبح معادلة، دون أن تتبين الجامعة ذلك، ودون أن يخطر في بالي أي مشكلة قد تنشأ عنها. وبعد خمس سنوات من تعييني علمت إدارة الجامعة بطريقة ما أن الثانوية التي بنيت شهادتي الجامعية عليها، ومن ثم بني إيفادي عليها للحصول على الدكتوراه غير معادلة.. كان المصير الذي لامحيد عنه هو إلغاء تعييني مع تحميلي سائر التكاليف التي أنفقتها الجامعة على إيفادي.. وكانت الفرصة الزمنية التي أعطيت لي لتدبير أمري المدة الباقية إلى نهاية ذلك العام الدراسي.

عدت إلى نفسي وتأملت في العامل الذي نقلني من عملي أستاذاً في وزارة التربية إلى معيد فمدرس في جامعة دمشق، فتذكرت أنني لم أتكلف لذلك شيئاً، ولم أوسّط لذلك أحداً، ولم يكن الأمر حلماً يراودني أو يؤرقني، وإنما هو الله عز وجل ألهم القائمين على كلية الشريعة آنذاك أن يستقدموني إليها معيداً طبق النظم المرعية.

قلت في نفسي: فإذا كان في قضاء الله الذي شاء أن أعمل في كلية الشريعة هذه السنوات التي خلت، أن أعود إلى ما كنت عليه من عملي في الثانويات العامة، فمرحباً بقضاء الله وحكمه، ولاشك أن له في ذلك حكمة باهرة وإن خفيت عن العقول.

وفي تلك الأيام أخبرني والدي رحمه اللـه ذات صبـاح أنـه رآنـي في الرؤيا، أقبلت إليه قائلاً: لقد سُرِّحت من الجامعة.. ثم غبت عنه، قـال رحمه الله: فما هو إلا أن رأيت أمامي الشيخ عبد القادر الجيلاني قدس الله روحه، في بزة عسكرية يمتطـي صهـوة جـواد، يلـوح علـى وجهـه الغضب قائلاً: لن أتركه!..

تلقيت هذا النبـأ الغريـب مـن والـدي، مـن خـلال رؤيـاه، دون أن أحرك ساكناً أو أن أنهض إلى أي وسيلة أو سبب، إذ كانت الأبـواب كلها موصدة والأسباب غائبة، ولكني تركت الأمر موضوعاً بين يدي الله عز وجل مسبب الأسباب.

وبعد أيام... جاء من يخبرني أن إعلاناً قد علّـق عنـد مدخـل وزارة التربية، يتضمن قراراً وزارياً بعقـد امتحـان خـاص للحصـول علـى مـا يعادل شهادة الثانوية العامة، بوسع كل من يحمل ثانوية غير معادلـة أن يتقدم للاشتراك في هذا الامتحان.

قرار فريد من نوعه، يولد لأول مـرة في تـاريخ وزارة التربيـة، علـى حدّ علمي!.. أقبلت فقدّمت هذا الامتحان الخاص في ميقاتـه، ورأيـت من حولي ثلة قليلـة قـد اشتركوا معـي فيـه.. دون أن أرى أمـامي إلا المدبّر الأوحـد الـذي يسـخر كـل مـا يشـاء لمـا يريـد.. كنـت أذهـب وأجيء.. أقدم الأوراق.. أتابع المعاملـة.. أجلـس في قاعـة الامتحـان.. أكتـب الإجابـات، وأنـا غـائب بذهنـي وفكـري عـن هـذه الأحــوال والتقلبات كلها، وكيف لا أغيب عنها وقد أبصرت يد الله عـز وجـل كيف تسخر خلقه لتنفيذ حكمه وقضاء أمره.

وكان في قضاء الله أن أنجح في الحصول على شهادة الثانوية العامة المعادلة، وأنا دكتور في الجامعة مهدد بالطرد منها!.. ثم كان في قضاء الله أن تكون المعلومة التي وصلت إلى إدارة الجامعة سبباً في ترسيخ تعييني وإزالة الإشكال القائم في مستنده وأساسه.

فما الذي تبصره عيناك من هذا الحدث الذي سمعت، الصورة الشكلية التي سخرها الله، أم القرار الغيبي الذي قضاه الله؟..

أما إنه لايتيه عن الجواب إلا من كان منكراً لوجود الله وقيوميته على هذا الكون، أو ممن يداخله الريب في ذلك. والله هو المسؤول والمستعان أن يكشف عن بصائرنا جميعاً غشاوة الجهالة والريب، وأن يرينا من باهر خلقه وتدبيره، ما يحررنا من سجون الصور والأسباب.

* * *

الحكمة الأربعون

((إن لم تحسن ظنك به لأجل جميل وصفه، حسّن ظنّك به لوجود معاملته معك. فهل عوّدك إلاّ حَسَنا وهل أسدى إليك إلاّ مننا؟))

المؤمنون بالله عز وجل، في تعاملهم معه فريقان، فريق عرف الله إذ آمن بوجوده، ثم أيقن تبعاً لذلك بجميل صفاته، فعلم أن ألوهية الله عز وجل تستلزم اتصافه بسائر صفات الكمال، وسمّوه عن سائر صفات النقصان. ثم وافق النقلُ الذي وضَعَه أمام أسماء الله الحسنى وصفاته الأسنى، العقلَ الذي بصّره بكل ما ينبغي أن يتصف به من صفات الكمال، فعلم أن الله رحمن رحيم، وأنه لطيف ودود، وأنه حكيم عليم، سميع مجيب، كريم رزاق محسن غفور، وهاب شكور.. إلى آخر ما تعلم من صفات الكمال في ذاته العلية عز وجل، وازداد يقيناً بذلك كله.

وفريق آخر لم تستقر في يقينه هذه الصفات حتى رأى آثارها ومصداقها في حياته، فرأى دلائل لطف الله به ورحمته له، ورأى واسع كرمه وعظيم صفحه، رأى كل ذلك في معاملة الله له.

أما الفريق الأول، ويمثل أفراده الصفوة الممتازة من عباد الله الصالحين، فالشأن فيهم أن يحسنوا الظن بالله عز وجل، غيباً، دون حاجة إلى بينة من المعاملة، أو إلى برهان من الوقائع والأحداث. ثم إن المعاملة الربانية لهم تزيدهم يقيناً، وتزيدهم طمأنينة وتأثراً وشكراً.

وأما الفريق الثاني، فالشأن في أفراده أنهم يحفظون أسماء الله الحسنى ويكررونها ربما، ويدركون ما تدلّ عليه هذه الأسماء من جميل الصفات ومعاني الكمال. ولكنها لاتستطيع أن تستقل وحدها (أي بمجرد الإيمان الغيبي بها والإدراك العقلي لها) بالتأثير على نفوسهم، بأن تتجه نفوسهم إلى الله بالحب له، وحسن الظن به، وصدق التوكل عليه والتفويض إليه، اعتماداً على مجرد ذلك إلا الإدراك الغيبي. بل لابدّ لتحقق ذلك من أن يتجلّى مصداق تلك الصفات في معاملة الله لهم وفي الوقائع والأحداث التي تتوالى وتترى من حولهم.

فابن عطاء الله يخاطب المؤمن بالله، أياً كان، قائلاً: إن عجزت أن تكون من الفريق الأول، فلم تر ما يحملك على حسن الظن بالله، لما تعلم من جميل صفاته، فيما حفظته ووعيته من أسمائه الحسنى، فإن بوسعك أن تجد ما يحملك على حسن الظن به من واقع معاملته لك، فهل عوّدك إلا على الإحسان، وهل وصلتك منه إلا جلائل النعم، وهل عاملك إلا بمنتهى الرحمة والحنان؟...

تلك هي خلاصة ما تنطق به هذه الحكمة.

ولكن فلنتجاوز هذا الملخّص إلى شيء من التفصيل الذي يجيب على ما قد يخطر في البال من بعض التساؤلات، أو يحّل ما قد يعرض للذهن من بعض المشكلات:

إننا لانطمع أن نكون من تلك الصفوة التي استغنت بما عرفته من صفات الله تعالى، طمأنينةً ويقيناً غيبيّاً، عن الحاجة إلى برهان المعاملة والتطبيق. ولقد عامل الله عباده في كتابه المبين الذي خاطبهم به، بوصفهم من الفريق الثاني، ضعفاء، يحتاجون لدعم يقينهم الغيبي بالله عز وجل، إلى ما يؤيده من الواقع المشاهد والمعاملة الجارية. فهو لايذكرهم فقط بأسماءه الحسنى وصفاته الأسنى، بل يضعهم أمام براهين إنعامه ومننه ومظاهر لطفه بهم ورحمته لهم.. ألا ترى إلى ما تقرؤه في سورة النحل مثلاً من الحديث عن سلسلة النعم التي يغمر الله بها عباده، إلى جانب الحديث عن بالغ حكمته في الخلق والإبداع، وما سخر لهم من مكنونات الأرض الخفية، ومستولداتها ومعطياتها الظاهرة، وما استخدمه لمعاشهم من أنظمة النجوم والأفلاك، وما أداره لأرزاقهم من الرياح والسحب والأمطار والنبات؟!

فكأن الله عز وجل يقول لعباده: أنا لا أكلفكم بأن تستيقنوا من معاملتي لكم ما تدلّ عليه صفاتي التي تجدونها وتقرؤونها، دون مصداق من الواقع، ولكني أريد منكم أن تعلموا ذلك كله، وأن تستيقنوه من خلال واقع ما أعاملكم به، ومن خلال ما يصل مني إليكم من مظاهر الحماية والرعاية والرحمة والألطاف، في دنياكم هذه التي تتقلبون فيها.

وأنت عندما تستجيب لهذا الذي يلفت البيان الإلهي نظرك إليه من لطف المعاملة ودقة الرعاية ودوام الحماية واستخدامه كل ما حولك من المكونات لما فيه صلاح عيشك، فتنظر إلى هذا الذي أحاطك الله به، من ذلك كله، تجد شيئاً عجباً لايكاد ينتهي الحديث عنه.

ينشّئك الله منذ يوم ولادتك، داخل حماية عجيبة مما يسميه الأطباء «المناعة» ضد كل الأخطار والجراثيم والأوبئة المحدقة، يملأ قلب أمك رحمة بك وحنّواً عليك، فترعاك وتسهر عليك بهذه الرحمة، وتفديك بنفسها، إن اقتضى الأمر، بهذه الرحمة، وإنما هي رحمة الله لك أو دعها في صدر أمك.

يستحضر الله لك (إن جاز التعبير) الغذاء الذي يناسب جسمك ويلبي حاجتك، ويلذّ في فمك، من سماء يأمرها أن تمطر، وأرض يأمرها أن تنبت، وأنعام يسخر لك لحومها وألبانها، ويخضع القويّ منها لتنقلاتك وحاجاتك.

ولكي لاتغرق في بحر متلاطم من الزمن الذي لاشطآن له، سخر لك من حركة الكواكب والأفلاك ما قسم لك هذا الزمن المتشابه المتلاطم إلى سنوات، ثم قسم السنة إلى أشهر، ثم الأشهر إلى ليال وأيام، ﴿ لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسابَ﴾ [الإسراء: ١٧/١٢] يا أيها الإنسان المدلل على الله..

ثم أطال لك ليل الشتاء على حساب نهاره، وأطال لك نهار الصيف على حساب ليله، ليكون كل من الشتاء والصيف أصدق خادم لك ولمصالحك بأمر من إلهك الفاطر الحكيم جل جلاله.

متّعك من الأرض بقرار يجذبك إليها بحنين وودّ، دون التصاق يعوق حركتك عليها، ولا ارتداد يحرمك من ساعات سكونك فيها، ثم ثبتها تحت قدميك، بانياً، زارعاً، حافراً، منقباً، بأوتاد من الجبال الراسية والمَرْسِية، ثم فجرّ لك ينابيعها وأجرى لك أنهارها، لتحيلها كما تحب إلى جنان وارفة الظلال. وصدق الله القائل: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفاتاً[1]، أَحْياءً وَأَمْواتاً، وَجَعَلْنا فِيها رَواسِيَ شامِخاتٍ وَأَسْقَيْناكُمْ ماءً فُراتاً﴾؟ [المرسلات: ٧٧/٢٥-٢٧]. أجل.. إنه يخاطبك أنت يا أيها الإنسان المدلل على الله. بذلك كله، مذكراً متحبباً.

هل أتابع الحديث عن نعم الله من حولك وفي داخل بدنك؟..

هل أخوض بك غمار حديث لا نهاية له عن المسخَّرات الكونية التي أدارها الله منذ فجر وجودك على خدمتك؟

إنها كلمات الفضل والمنن الإلهية التي غمر الله بها عباده.. غمر بها هذا الإنسان المكرَّم والمصنوع على عينه.. وهيهات للدفاتر والكتب أن تحصي مضمون هذه الكلمات وصدق الله القائل: ﴿قُلْ لَوْ كانَ الْبَحْرُ مِداداً لِكَلِماتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنا بِمِثْلِهِ مَدَداً﴾ [الكهف: ١٨/١٠٩].

* * *

(١) أي جاذبة لكم إليها، والكفت الجذب

والآن.. ما هي النتيجة التي ينتهي إليها الإنسان، إذ يتأمل في هذا كله، ويرى سابغ نعم الله عليه، وعظيم رعايته له، وكيفية دوران المكونات والأفلاك التي حوله، كلها، على خدمته وتحقيق مصالحه؟

النتيجة التي لامناص منها، أن يدرك جازماً أن الله لايعامله إذن إلا بما هو خير له، ولايوصيه آمراً أو ناهياً إلا بما فيه مصلحته وسعادته.

ومن ثم لابدّ أن يحسن الظن به في كل تقلباته وأحواله معه عز وجل. سواء علم وجه المصلحة والخير في ذلك أو لم يعلم. لأن الله عز وجل لم يعوّده إلا الإحسان ولم يصل منه إليه إلا المنائح والمنن، فمن أين ولماذا يصدر سوء الظن به بعد ذلك؟

وإليك هذا المثال المقرب، والمخجل: إن الطفل إذ يرى كيف يتلقى من أبويه الرعاية والمحبة والحنان، ويتلقى دائماً منهما ما يسرّه ويبهجه ويحميه من أنواع الأذية والأضرار، يستقر في روعه وفي عقله الغض أنهما لايريدان به إلا خيراً، فمهما نصحاه أو حذراه، يعلم بمقتضى هذا اليقين الذي استقر في روعه، أنهما لا يأمرانه إلا بما فيه خير له ولايحذرانه إلا عما فيه شرٌّ له، عرف وجه الخير والشر في ذلك أم لم يعرف، وحتى عندما يتبرم بأوامرهما ويحجم عن طاعتهما أو طاعة أحدهما، يعلم أنهما لايلاحقانه بهذا الأمر إلا حباً وغيرة عليه.

أليس هذا المثل صورة مصغرة عن نصائح ووصايا الرب عز وجل لعباده؟ أي أفليس مما يقتضيه المنطق البيّن أن يتمتع الإنسان الرشيد الكبير تجاه مولاه وخالقه بمثل الثقة التي يتمتع بها الطفل الصغير تجاه أبويه؟..

إذن أليس مخجلاً حقاً، أن نكون مع فرق ما بيننا وبين الأطفال الصغار في قصور الدراية والعقل عندهم، وكمال كل منهما عندنا، أن نكون غير مدركين من عظيم لطف الله ورحمته بنا، ما يدركه أولئك الأطفال من ذلك في آبائهم وأمهاتهم؟..

دعني أشرح لك هذا المعنى الذي يوقفنا عنده ابن عطاء الله بمزيد من التفصيل، فلعل ذلك يزيد الأمر وضوحاً، ومن ثم يزيدنا خجلاً من الله عز وجل.

إن الله عز وجل يسوس عباده ويربيهم ويرعاهم، بلونين من التوجيهات والأوامر. أحدهما ما يسمى بالأوامر التكوينية، والثاني ما يسمى بالأوامر التشريعية. وهما المرادان بقوله عز وجل: ﴿أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ﴾.

فأمّا الأوامر التكوينية، فتتمثل فيما وجهه الله من الأمر المتمثل بقوله عز وجل «كن» إلى المكوّنات كلها بأن توجد من عدم، ثم بأن يوزع عليها وظائفها ومهامّها، ويُجبرَها بأمره التكويني هذا على النهوض بها على أحسن وجه. وقد عبّر عن ذلك البيان الإلهي بقوله: ﴿إِنّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٥٤/٤٩] وبقوله عز وجل على لسان موسى يخاطب فرعون: ﴿...رَبُّنا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٢٠/٥٠]، وبقوله سبحانه، وهو يتحدث عن الأشياء كلها ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ [النور: ٢٤/٤١] فبهذا الأمر التكويني الصادر من الله عز وجل لمخلوقاته، يتحرك كل شيء منها، صغر أو كبر، طبق المهمة التي كلف بها.. ينطبق هذا الذي أقوله لك على أصغر الجزيئات التي

لاتُرى إلا بالمجهر، وعلى أكبر الأجرام المتمثلة في المجرات والأفلاك ونحوها، كما ينطبق على الوظائف العضوية الداخلية والخارجية التي يفيض بها جسم الإنسان، وعلى الغرائز المثبته في طبائع الأحياء على اختلافها.

وأما الأوامر التشريعية فهي مجموعة الوصايا التي خاطب الله بها عقل الإنسان آمراً... ناهياً.. معلّماً.. ثم وكلها إلى جهده وقدرته التنفيذية لها، بعد أن جهزه، إلى جانب الإدراك، بالاختيار والقدرة على اتخاذ القرار. وأكد له في بيانه الذي خاطبه به أنها ليست إلا الضمانة التي لابدّ منها لخيره وسعادته في عاجل أمره وآجله، فقال له: ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٨/٢٤] وقال له مؤكداً هذا المعنى: ﴿قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتابٌ مُبِينٌ ، يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ٥/١٥-١٦].

وقد كان من اليسير أن يجعلها الله عز وجل هي الأخرى جزءاً من أوامره التكوينية فيغرس أحكامه ووصاياه التشريعية هذه طبعاً في نفوس عباده، فتصبح غريزة ينقادون لها بالطبع والجبلّة دون اختيار، فيكونون في ذلك كسائر الحيوانات الأخرى. ولكنه عز وجل سما بالإنسان عن هذا المستوى الذي قضى به للحيوانات العجماوات، وارتقى به صعداً إلى المرتبة التي أهّله فيها لمخاطبته ونجواه، فخاطب بهذه الشرائع والتكاليف عقله، وحاوره في بيان فائدتها وأهميتها، وبيّن له نتائج

تنفيذها، ومغبّة الإعراض عنها. بل زاد فبيّن له مدى علاقة أوامره التشريعية هذه بنظامه التكويني، موضحاً أن استفادة الإنسان من النظام الكوني الذي سخره الله للإنسان متوقف على اتباعه للنظام التشريعي الذي عرّفه به ودلّه عليه.

وإن البيان الإلهي إذ يلفت أنظارنا إلى أن وصاياه التشريعية ليست إلا تنبيهاً إلى السبيل الذي لابدّ منه لصيانة النظام الكوني والمحافظة على جدواه وخدمته الدائبة للإنسان على الوجه الأمثل، يضعنا من ذلك أمام المثال المكرر المعروف لكلٍ منا.. إنه مثال الجهاز الذي تتلقاه من المعمل الذي أنتجه من خلال إبداع تكويني لاعلاقة لك بإيجاده ولا بمقومات إبداعه، ولكن إدارة المعمل تقرن به إليك كتيباً يتضمن أهمية هذا الجهاز وطرق استعماله، ثم توصيك بمجموعة تعليمات ينبغي التزامها لحماية الجهاز من العطب، ولصيانته، ولضمانة قيامه بالمهمة التي صنع من أجلها على أحسن حال.

إن الجهاز في موضوعنا الذي نتحدث فيه، هو هذا الكون الذي أبدعه الله بأمره التكويني خادماً لنا محققا لمصالحنا.

وإن الكتيب الذي يتضمن التعليمات المتعلقة به (ولله المثل الأعلى) هو هذا التشريع الرباني المنزل في محكم تبيانه. فمنذا الذي يقبل على الجهاز الذي تلقاه هدية ثمينة من صانعه دون أن يقبل على كتاب التعليمات المقرون به، ليرعى من خلال اتباعها جهازه هذا ويحميه من العطب والفساد؟

ياللعجب... بل يا للخجل، ممن يتقلب في أرجاء هذا النظام الكوني مخدوماً مدللاً من قبل كل ما فيه.. بدءاً من وظائفه البدنية إلى قوانين

الأرض التي يمشي عليها والهواء الذي يحيا ويتنفس به، والأفلاك التي تدور على خدمته، والأنواء التي كلفت بتقديم رزقه.. ويرى بأم عينيه وبثاقب بصيرته مظهر لطف الله به ومحبته وتكريمه له في ذلك كله، ثم إنه يسيء الظن بعد ذلك بالنصائح التي يقدمها له والوصايا التي يأمره بها!... فيتأفف، ويجادل، ويستثقل، ويرى أن الله إنما حمّله من ذلك إصراً لا لزوم له، وابتلاه من تلك الوصايا بأعباء يسعد العالم الغربي التائه بالابتعاد عنها والتحرر منها.

يا ابن آدم: كيف تجعل من ألطاف الله التي أنت غريق في بحارها، شجرة تثمر في يقينك سوء الظن به؟.. كيف تجهل، وأنت العاقل الرشيد، ما لايفوت الطفل الصغير علمه؟ حقاً إن الإنسان لظلوم جهول!...

أرأيت إلى الأمانة التي يتحدث البيان الإلهي عن تشريف الله الإنسان بها، والارتقاء به إلى مكانتها، دون سائر الأحياء والمخلوقات الأخرى؟.. إنها هذه الأوامر التشريعية التي حاوره بها، بعد أوامره التكوينية التي متعه بها.. ولكنه - إلا من رحم ربك - ظلم نفسه وجهل قيمة المرتبة السامية التي اختصه الله بها، فأساء الظن بربه من حيث رضي الله له ما به سعادته وخيره!

وصدق الله القائل: ﴿إِنّا عَرَضْنا الأَمانَةَ عَلَى السَّماواتِ وَالأَرْضِ وَالْجبالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وَأَشْفَقْنَ مِنْها وَحَمَلَها الإِنْسانُ إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾ [الأحزاب: ٧٢/٣٣].

فلا تكونن، أيها الإنسان، جهولاً بربك، ظلوماً لنفسك، توردها موارد الهلاك من خلال شرودك عن وصاياه، وإعراضك عن أحكامه وأوامره. تتأفف من ثقلها آناً، وترتاب في جدواها آناً آخر، وتملّ من استمرارها وتقادمها آناً ثالثاً.

كيف تتصور أن يكون الله عز وجل حفياً بك في أوامره التكوينية التي تسعى مجتمعة في خدمتك، ثم ظالماً لك في أوامره التشريعية التي لم يشرعها إلا إتماماً لسعادتك؟!..

وإذا طافت بك هذه الريبة لسبب ما، أفلا يمحوها ويذيبها هذا التحبب الذي تراه واضحاً جلياً، في قوله عز وجل لك: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً﴾ [المائدة: ٥/٣].

﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً﴾!! انظر، كم في هذا الخطاب الذي يتنزل من علياء الربوبية إليك، من معنى التحبب والرعاية والإكرام!..

يقول لك مولاك: ياعبدي، لقد أحببت لك هذه الشرعة، فالزمها.. ثم تسيئ الظن به وتشيح بوجهك عنه، وتناقشه في الفائدة والجدوى، وتتبرم بقديمه الذي شرفك به، لتشقي نفسك بجديدك الذي تتقممه من هنا وهناك!!..

آه من لؤم الإنسان، تجاه مولاه الخالق له، المتفضل عليه، المتحبب إليه، المتودد إليه بقوله: ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاّ الإِحْسَانِ﴾ [الرحمن: ٥٥/٦٠] إذ يقابل ذلك كله بالجحود أو الريب، أو التبرم وسوء الظن.

أما أنت أيها القارئ، فتعال ندخل معاً إلى رحاب مولانا الواحد الجليل، تائبين آيبين، مستعينين به أن يملأ قلوبنا حباً له وثقة بشرعته وحكمه، واستقامة على نظامه وهديه. إنه نعم المولى ونعم النصير.

* * *

الحكمة الحادية والأربعون

((العجب كل العجب ممن يهرب مما لا انفكاك له عنه، ويطلب ما لا بقاء له معه (فإنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور)))

ما الشيء الذي لا انفكاك للإنسان عنه، منذ فجر وجوده، إلى قراره الأخير إن في جنان الخلد، أو في العذاب المقيم؟

إنه الله سبحانه وتعالى، لا انفكاك للإنسان عنه، أياً كان، ملحداً أو مؤمناً أو فاسقاً، وأينما كان في أرض الله الواسعة، مشرقاً أو مغرّبا. وفي أي الأحوال والظروف تقلب وتنقل.. سواء في ذلك حياته التي يعيشها فوق الأرض، وموته الذي ينقله إلى باطنها ، وحياته الثانية إذ يحشر ليوم الحساب.

لا انفكاك لك عن الله في حياتك التي تعيشها اليوم، إذ هو معك أينما كنت، أياً كانت القارّة التي تعيش فيها، وأياً كانت الساعة التي تمرّ بك، وصدق الله القائل: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَما كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٥٧/٤].

ومعنى هذه المعيّة أن الله معك بعلمه، معك برعايته، ومعك بتدبيره، ومعك بالمعنى المطلق للمعية، دون أن تفهم منها قيود التحيز

في مكان، أو الانتقال من جهة إلى أخرى.. إنها معية بكل ما تحمله هذه الكلمة من المعاني، ولكن دون أي تكييف يستلزم التشبيه ويتنافى مع قول الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ٤٢/١١].

أما الشيء الذي لا بقاء له مع الإنسان، فهو كل ما عدا الله عز وجل. كل ما يركن إليه الإنسان مما عدا الله عز وجل، فمآله إلى الانفكاك عنه. إما أن يهلك الإنسان فيتركه، أو أن يهلك الشيء الذي كان يركن إليه، ويبقى الإنسان بعيداً، بل غائباً عنه.

يركن الإنسان إلى الدار التي بناها، وإلى الأثاث الذي زيّنها به، يركن إلى الزوجة والأولاد، يتعلق بالمال الذي جمعه وادخره، بالمركز الذي تبوأه، والشهرة التي نسجت له.

يتعلق بعالم الأسباب وظواهرها، منصرفاً عن المسبب الذي يحركها. يرى المطر الهاطل من السماء، فيناجي السماء ويشكرها، ويمضي يحدث الناس عن رحمة السماء؛ يبعث بصره في الأرض المخضرة والينابيع الثرة فيناجي في ذلك الطبيعة ويشكرها، ويمضي يحدث أصحابه عن فنون الطبيعة وإبداعاتها..

يستطيل بقاءه في الدنيا بغير طائل، يجمع إلى الثروة الطائلة مثلها، ويرهق ذهنه ويتعب نفسه بحثاً عن المزيد.. يبني مع الآخرين صداقات وعلاقات يضحي معها وفي سبيلها بالمبادئ وربما الأخلاق والأوامر الإلهية، يستطيل أمدها ويغيب عن نهاياتها، ركوناً منه إلى شهوات لايريد أن يفارقها، ومتع لايتخيل نهايتها.

ولكن هل تتجاوب أشياء الطبيعة (على حدّ تعبيرهم) مع هذه الأمانيّ في استبقائها له، وفي أن يبقى هو لها؟

لقد أنطق الله (الطبيعة)، وبالتعبير الأدق: أشياء الكون كلها، بالجواب العلمي الواقعي عن هذا السؤال، عندما أقامها على سنة كونية لاتتبدل. إذ قضي بأن تكون مدارج الوجود لكل شيء مؤلفة من بداءة ضعف، ثم من تنقّلٍ في درجات القوة، إلى أن تصل منها إلى الأوج، ثم من تدرج في العود إلى الضعف فالذبول فالانمحاق.

كل شيء في الكون مطبوع بهذا القانون، بدءاً من الإنسان إلى النباتات والزهور والورود والرياحين، إلى الكواكب والأفلاك، إلى الأرض التي نعيش فوقها.. لقد وضعك الله من هذا القانون الكوني العام أمام مثاله المصغر الذي يتجلى في الشجرة وقصة وجودها، تبدأ نواة فشتلاً أو نبتاً صغيراً، ثم يتدرج الشتل في مراحل النمو والقوة. ثم يقف هذا التدرج عند حدّ، ثم ما هو إلا أن تعود متدرجة إلى الضعف فالذبول فالموت، وتعيد لك الحكمة الإلهية هذه القصة بل الحقيقة في الزهرة أو الوردة التي تراها وفي الفصول الزمنية السنوية التي تولد ثم تتنامى ثم تذوي وتغيب، وفي الشمس التي تشرق ضعيفة في مظهرها وفي أشعتها، ثم تتجه إلى القوة والحرارة وإلى مزيد من الضياء والتألق، ثم إنها تعود فتتراجع إلى الضعف، وإلى مثل اصفرارها وذبولها ساعة الشروق.. وتريك الحكمة الربانية القانون ذاته في صورة القمر إذ يولد قوساً دقيقاً لايكاد يُرى، ثم تمتد فيه القوة ويتجه إلى النمو والتكامل، حتى يصل إلى أوج ذلك بدراً يتألق في جوّ السماء، ثم إن السنة

الإلهية تعود به شيئاً فشيئاً إلى مثل الحالة التي بدأ منها، وصدق الله القائل: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٦/٣٩] أي كأصل العذق من النخل، إذ ينقطع العذق منه فيتقوس ويدّق.

فماذا يقول هذا الواقع المتشابه الذي تنطق به أشياء الكون كلها؟ أنه يقصّ عليك قصة النهاية التي سيختفي في مغربها كل هذه المكونات التي تتألق في عينيك ويأخذ الكثير منها بمجامع نفسك، كي لاتغتر بها فتتعلق بها وتركن إليها، تنشد سعادتك وراء اللحاق بها.

وانظر كم يجسد لك البيان الإلهي هذه الحقيقة، ويحذرك من خديعة العين، وغياب البصيرة، عندما يشبه حياتك الدنيوية كلها بالنبات الذي يتفجر غضاً، ثم يخضر زاهياً، ثم يعود ذاوياً، ثم يصبح هشيماً.. تأمل في قوله لك:

﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً﴾ [الكهف: ١٨/٤٥].

وانظر في هذا البلاغ الذي يتجه به الله إليك قائلاً: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٥٧/٢٠].

فهذا الذي يحمل مرآه - من أشياء الكون - في العين ابتداء، ثم يذوي ويتراجع نحو الضعف فالأفول، ينطبق على سائر متع الدنيا ومبتغياتها، وينطبق على مايراه الإنسان أسباباً لرغائب، ووسائط لغايات، ومفاتيح لمبتغيات.

فما الذي يتطلبه المنطق، وما الذي يقرره ميزان العقل، فيما يجب على الإنسان أن يفعله، أمام هذه الحقيقة التي تم بيانها، ولم يبق مجال لأي لبس فيها؟

يقول كل من العقل والمنطق الذي هو ميزانه: شدّ صلتك ومتّن آصرتك بذاك الذي يملك وجوده الذاتي، دون حاجة إلى موجد. ودون تسلّط من معدم، ذاك الذي صدر منه، بالإرادة والخلق، وجود كل الموجودات، وبإمداده المتجدد استمر بقاؤها، وبقدره المحتوم خمدت جذوتها، وانتهى أو ينتهي وجودها. وتعامَلْ مع ما قد تحتاج إليه من هذه الموجودات، على أنها عواري مردودة، ومنح ربانية مستهلكة.

تكن عندئذ مقبلاً إلى هذه الموجودات في الظاهر، ومتعلقاً بموجدها في الحقيقة والباطن.. فإذا وافاها ميقات الانقضاء والزوال، فلن تكون كمن كان مستنداً إلى ركام من ثلج، فلما أشرقت عليه الشمس وذاب من حيث لايشعر، تهاوى إلى الأرض، بل ستجد نفسك عندئذ مع الموجد الذي لا انقضاء لوجوده.. يعوضك عن المتعة التي مرّت بك وتلبثت عندك قليلاً ثم غابت عنك، ويمتعك بما يغنيك عنها... ويخلق لك في مكان السبب الذي سخره لك ردحاً من الزمن، سبباً آخر

يؤدي لك النتيجة ذاتها.. كيف لا وهو خالق الأسباب والمسببات، وهو الذي خلق المتع والرغائب، ثم وجه هواك إليها.. لن يضيرك غياب الجنود وابتعادهم عنك، مادمت قد وثقت الصلة ومتنت العلاقة بقائدهم الأعلى.

كذلك الحال تماماً، إذا وافاك أنت ميقات الانفصال فالابتعاد، عن الموجودات التي كنت تتعامل معها وتستفيد منها، وذلك عندما يدعوك داعي الموت إلى الرحيل من الدنيا، والتوجه إلى الحياة البرزخية التي تفصل، بتنظيم أقامه الله عز وجل، ما بين الحياة الدنيا واليوم الآخر.. فإنك لن تأسى ولن تحزن على فراق شيء منها. إذا كان إقبالك إليها أيام حياتك تعاملا مع الله، وتمتعك بها استلاماً - مع الثناء والشكر - من يد الله. فما الذي فاتك، وما الذي غاب عنك في هذه الحال إلاّ الواسطة أو البريد الذي كان بينك وبين الله. ولاريب أنك ستغدو عندئذ أسعد حالاً من ذي قبل، إذ ترتفع الوسائط ويغيب حاجز البريد لترى يد المنعم المتفضل تغدق عليك ألوان المتع والنعيم ذاتها دون سُتُر من الوسائط والأسباب.

إن الحيّ الذي ظلّ مشدوداً إلى الله في آماله وآلامه، ويقينه بأنه هو الفعال لا العلل والأسباب، لن يختلف الأمر عليه قط، عندما يوافيه الأجل، وينقله الموت إلى عالم البرزخ، إذ كان وهو يتقلب ويتحرك

على ظاهر الأرض، مع الله، وهو إذ يتمدد الآن في قبره من باطن الأرض أيضاً - بل من باب أولى - مع الله[١].

فإذا انقضى ميقات الحياة البرزخية، وحان ميقات قيام الساعة وعودة الأرواح إلى أجسادها، وقام الناس كلهم لرب العالمين، سيظل الأنس بالله مصاحباً له، بل لابدّ أن يزداد شعوراً وسعادة به. فقد كان هذا الإنسان متعلقاً بالله مستأنساً به، يوم كانت صور الملهيات والمنسيات العارضة تتراقص من حوله، ثم أصبح أكثر أنساً به وتوجهاً إليه يوم فارقته وابتعدت عنه تلك السحب كلها متجهاً إلى حياته البرزخية بعد الموت. وهاهو اليوم، وقد حشر مع الناس كلهم إلى الله في ميقات اليوم المعلوم، قد أصبح أقرب إلى الله وأكثر أنساً به وأشد توجهاً إليه وتعلقاً به.

إذن، من الذي صاحب هذا الإنسان في رحلته كلها ذات المراحل أو الفصول الثلاثة المترابطة؟ لم يصاحبه خلال ذلك كله إلا الله عز وجل، وكل ما عداه من متع ورغائب وأموال ومساكن وأقارب وأحباب تخلوا وغابوا عنه، كلٌ في حينه وميقاته الذي قضاه الله عز وجل.

إذا تبين لك أن هذا ما يقوله العقل، ويقرره المنطق الذي هو ميزانه، فلامناص من أن نعجب مع ابن عطاء الله من ذاك الذي يهرب من إلهه الذي لا انفكاك له عنه، متعلقاً بما لابقاء له معه.

---

(١) أنا لا أعني الجسد الذي انفصلت عنه الروح وتعرض للتفسخ والفساد، وإنما أعني الروح التي لاتزال موجودة كما كانت، ولاتزال تتمتع بالشعور والإحساس كما كانت، بل هي مصدر الإحساس للجسد كله.

وإنما يكون الهروب من الله بإنكاره وجحوده، أو بنسيانه والإعراض عنه، والتعامل مع مسخَّراته وجنوده فقط، أو بالتعلق بالنعم والسكر بها والذهول عن المنعم. ومصدر العجب في هذا، أنه يرى بمقتضى بصيرته وعقله أن كل هذه المظاهر التي يتعامل معها ويتعلق بها ويعلق مصيره بها، صور زائلة لا استقرار لها، ويرى بملء قدراته الفكرية أنها مطبوعة بطابع الزوال، كما أوضحنا وفصلنا. ومع ذلك فهو يغيب بفكره وإدراكه عن موجدها والإله المتصرف بها والمسخر لها، ويواصل رحلته في فجاج هذا الدنيا متشبثاً بها، ويسلم مصيره إليها شأن من يأمل منها الاستقرار والخلود.

ثم إن الذي يزيد الأمر عجباً، أنه يرى كل يوم ظاهرة انقطاع هذه المتع وغيابها عن الناس المتعلقين بها واللاهثين وراءها، أو ظاهرة انقطاع الناس وابتعادهم عنها، إذ يتخطفهم الموت، ويمضي بهم مجردين عرايا عن كل شيء.. قد تخلى عنهم، بل تخلوا هم عن كل شيء، اللهم إلا مولاهم الذي لانفكاك لهم عنه، مهما تقلبت بهم الرحلة ومهما طالت بهم الحياة، ويعلمون أن المصير ذاته ينتظرهم، وأنهم يقفون من ميعادهم مع الموت في «الطابور» ومع ذلك فهم يظلون متشبثين بما لابدّ من مفارقتهم له، ويفرون من مولاهم الذي لانفكاك لهم عنه!..

ويزداد الأمر عجباً، إذ يسمع التحذير تلو التحذير، ويأتيه النذير بعد النذير، فيظل معرضاً عن هذا وذاك، ويبقى مستمراً في الاستناد إلى ركام الثلج وهو ماض في الانحلال والذوبان، غير مبال بأنه سيهوي

عما قريب في عمق أعماق الوادي الذي لايفصله عنه إلا ذلك الركام!.. يسمع قول الله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمالُهُمْ كَسَرابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ ماءً حَتَّى إِذا جاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسابِ﴾ [النور: ٣٩/٢٤].

ويسمع قوله عز وجل: ﴿الْمالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَالْباقِياتُ الصَّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾ [الكهف: ٤٦/١٨].

ويسمع قول الله تعالى: ﴿وَما أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَزِينَتُها وَما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [القصص: ٦٠/٢٨].

يسمع هذا كله، فلا يوقظه من سكره، ويظل يعانق الوهم، ويتقلب مع الوهم، ويجعل منه مستند استقراره الذي لامحيد عنه. فإذا وافته المنية رأى عندئذ بأمّ عينيه ما ولّى وأدبر عنه، مما كان يظنه مستند نعيمه وبقائه، ورأى ما بقي ماثلاً أمامه مما ظل غائباً بل محجوباً عنه بوهمه القتال!..

* * *

ثم اعلم أن التعلق بالله عز وجل، من دون سائر الأعراض الزائلة، لايستدعي الإعراض عن التعامل معها والصوم عن التمتع بها، فإن الكريم الذي بسط للناس مائدة عطائه وإكرامه، لايرضيه منهم إعراضهم عنها، ولامعنى لاستغنائهم به عنها. إذن لما كان للكرم معنى يميزه عن الإمساك والشح. ألا تتأمل في قوله عز وجل: ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سبأ: ١٥/٣٤] وفي قوله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَالطَّيِّباتِ

مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيا خالِصَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ﴾ [الأعراف: ٧/٣٢].

ولكن المطلوب من العبد المملوك تجاه ربه الذي لاشريك له في ربوبيته ومالكيّته له، أن يعلم مستيقناً أنه هو لاغيره مصدر كل فضل وعطاء، فلايبتغي رزقه إلا منه، وأنه هو لاغيره مسبب الأسباب كلها، فلا يشرد به الوهم إلى العلل والأسباب الوهمية يتعلق بها ويجعل منها شريكاً مع الله أو مؤثراً من دون الله، وأن يعلم أن كل شيء مما يحلو لعينيه مرآه، أو مما تتمتع به نفسه، أو مما يشعر بالأنس به والحب له والركون إليه، سيتخلّى عنه عما قريب، بل سيؤول إلى الزوال. ولن يبقى من صاحب ولا أنيس ولا سمير ولا أهل ولا حبيب معه إلا الله عز وجل.

والشأن فيمن يعلم كل ذلك أن لايركن إلى ماقد علم أن مآله إلى الهلاك والزوال، بل أن يتعلق بإلَهه الذي لايتخلّى عنه، فيتخذه مصدر أنسه وموئل آماله، ومعين سعادته ونعيمه، وملاذه الوحيد من كل المخاوف والأخطار.

وذلك هو حال المؤمن حقاً بربه والموقن بوحدانيته: يجلس على مائدة الرحمن، ويتناول منها ما لذّ وطاب، وكلما تمتع منها بمزيد ازداد بالله تعلقاً، وازداد له حباً وشكراً. ذلك لأنه يتعامل مع النعم ويتمتع بها، ولكنه لايرى إلاّ المنعم، إذ هو - كما قلنا - المتفضل والمعطي والمسبب والمسخّر.. وإذا ما طاف به كرب أو داهمه سوء أو ألمت به مصيبة، لم يطرق بها إلا باب الله عز وجل. أي إنه إن استخدم

الوسائل والأسباب فإنما يطرق بها، في يقينه ومعتقده، باب الله عز وجل.

هذا الإنسان، لن يكون هوى قلبه إلا لله، ولن يكون مذكوره، كلما طمع في مغنم أو توجس خيفة من مغرم أو تطلع إلى كسب، إلا الذات العلية جلّ جلاله. ولسوف يكون هذا الوضع الملازم له أول مصدر لراحة باله وسكينة نفسه وغياب همه وحزنه، ولعله ينشد مع ذاك الذي كان يتمتع بهذه الحال ذاتها، قوله:

كانت لنفسي أهواء مغرقة فاستجمعت مذ رأتك العين
فصار يحسدني من كنت أحسده وصرت مولى الورى مذ صرت
تركت للناس دنياهم وشأنهم شغلاً بذكرك يا ديني ودنيائي

والعجب كل العجب، أن يدرك أحدنا هذه الحقيقة بعقله وأن يتمثلها بيقينه، ثم ينسى - على الرغم من ذلك - إلَهه الباقي الخالق الرازق المعطي المانع المتصرف بملكوته كما يشاء، ولايتذكر إلا حجارة الشطرنج التي لاتتحرك إلا بتحريك الله، ثم إن مآلها إلى الزوال والاندثار.

أنبأني والدي رحمه الله، أن رجلاً من الصالحين، هاجر من بلده لأمر ديني اقتضاه ذلك، وانتهى به المقام إلى إحدى القرى. فتعرف عليه إمام المسجد الذي كان الرجل الصالح يختلف إليه ويصلي فيه. وسأله فيما سأله عن مورد رزقه، فأجابه مطمئناً: إن الله لاينساه!.. وبعد أيام عاد الشيخ إمام المسجد يسأله عن حاله، ويستوضح منه

مصدر رزقه، فأكد له أن الله يكرمه وأنه لايعاني من أي مشكلة في رزقه.. ولكن الإمام لم يطمئن بالاً وعاد يسأله في لقاء ثالث: ولكن من أين تأتيك أسباب معيشتك؟ فقال له: إن في هذه القرية يهودياً عرفني واطلع على وضعي، فأجرى لي جراية من المال تكفيني وتسدّ حاجاتي. فقال له الشيخ: حسناً، لقد زال القلق الذي كان يساورني عليك!.. قال له الرجل الصالح: ياهذا، لأقضينّ الصلوات التي صليتها وراءك!.. لقد أكدت لك مراراً أن الله قد تكفل برزقي ولن ينساني، فلم يقع ذلك منك موقع الطمأنينة والقول، ولما أخبرتك بأن الذي تكفل برزقي يهودي من الناس، وثقت بكفالته وإكرامه!!..

تلك هي حال كثير من المسلمين اليوم.. تعظم الأسباب الشكلية والوهمية أمام أبصارهم، ثم لاتزال تعظم، حتى تنسيهم خالقها ومسببها، فيعيشون مع الوهم ويذهلون عن الحقيقة. يتعلقون بالسراب الذي لاوجود له، ويعرضون عن المعين الذي هو ملء الكون كله! يعرضون عن خالق السماء وقيومها، ثم يتحدثون عن رحمة السماء!.. يعرضون عن اليد التي تضع ملعقة الطعام بمنتهى العطف في أفواههم، ويتغزلون بالملعقة التي تكرمهم وتفرغ الطعام في أشداقهم!..

إن لم يكن هذا هو الكفران في أحط مظاهره، فقل لي: كيف يكون؟

* * *

وينهي ابن عطاء الله هذه الحكمة مستشهداً بقول الله تعالى: ﴿فَإِنَّها لا تَعْمَى الأَبْصارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤١/٢٢]. ومؤكداً بأن كل من كان يعاني من هذا التيه العجيب، فإنما هو واحد ممن أصيب بعمى القلب. وهو العمى الذي إذا وقع لايمكن أن يستعاض عن ظلامه بأي نور. إذ القلب هو مصدر النور أينما كان تجليه وظهوره، فإذا طمس الله عليه وأفقده نوره، فهيهات لبقية الأعضاء أو الكيان، أن يسري أو يتجلّى فيه قبس أو بصيص منه.. ومهما بقيت العينان مبصريتن، فإنهما تبصران بدون نور، أي بدون إدراك للحقائق مهما كانت جلية ساطعة. وهذا هو مرمى قول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها..﴾ [الأعراف: ١٧٩/٧] أي إن لها رؤية غبيّة غير ذات جدوى.

إذن فالعمى الحقيقي الخطير هو ذاك الذي يبتلى به القلب. ولا جدوى معه لرؤية العين. والإبصار الحقيقي، ذلك الذي يتمتع به القلب، ولاضير معه من عدم الرؤية بالعين.

أجل.. وصدق الله القائل: ﴿فَإِنَّها لا تَعْمَى الأَبْصارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦/٢٢].

* * *

الحكمة الثانية والأربعون

((لا ترحل من كون إلى كون، فتكون كحمار الرحى، يسير والمكان الذي ارتحل إليه هو الذي ارتحل منه. ولكن ارحل من الأكوان إلى المكون)) ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ [النجم: ٤٢/٥٣] **وانظر إلى قول رسول الله ﷺ ((فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه)) فافهم قوله عليه الصلاة والسلام وتأمل هذا الأمر إن كنت ذا فهم))**

الكون كل ماعدا الله، والمكوِّن هو الله. والكون، أو الأكوان وسائط وأسباب، والمكوِّن الذي هو الله غاية الغايات، ومنتهى الآمال.

هل يرتاب في هذه الحقيقة أحد، ممن عرف الله وآمن به؟!..

إذن فالمطلوب من كل من عرف الله وآمن، حقاً، به، أن يجعل من كل مظاهر الحياة الدنيا وأسبابها ومقوماتها، وسائط يسخرها لبلوغ مرضاة الله، وأداء حقوق الربوبية عليه، وأن لايبتغي بالأنشطة

والأعمال التي أقامه الله عليها، إلاّ أداء الوظيفة التي كلفه الله بها، تقرباً وتحبباً إليه.

فإن هو فعل ذلك، وابتغى في كل تحركاته وشؤونه هذا القصد، فقد نسق بين الوسائط، والغاية الكبرى التي هي غاية الغايات، وأعطى كلاً منهما حقه في العمل والاهتمام.

وإن هو تعامل مع الأكوان للأكوان، واستخدم الوسائط للوسائط، وسخر الأسباب لمزيد من الأسباب، دون أن يخرج من هذه الدائرة إلى ما وراءها، حيث الهدف الكلي الذي خلق من أجله، ثم أمضى حياته كلها على هذه الحال، فالشأن فيه كشأن حمار الرحى (أي الطاحون) يمشي دائباً في حركة دائرية ضمن مساحة مغلقة؛ يسير، والمكان الذي ارتحل منه سرعان ما يعود إليه، يكرر ذلك المرة تلو المرة، دون انقطاع.

أجل.. التشبيه دقيق، والمثال ينطبق على الواقع الممثل له دون اختلاف.

بيد أن شأن الدواب من البشر، إذ يجنحون إلى دائرتهم المغلقة هذه، أشنع وأسوأ حالاً، من شأن الدابة التي تؤدي من خلال دورانها هذا عملاً كلّفها به صاحبها لصالح الرحى التي تطوف من حولها.. فهذا الإنسان الذي ينشط في الدوران المغلق ضمن عالم المكونات وأسباب العيش والطعام والشراب، ثم لا يتجاوزه، لايتجه نشاطه المغلق ذاك إلى أي هدف كالذي يتجه إليه نشاط تلك الدابة، بتوجيه من صاحبها وآمرها... وإنما هو السير إلى المتعة والعيش، ثم عود إلى المتعة والعيش،

وهكذا دواليك إلى أن ينتهي قسطه منهما، ويأتي ميقات انتقاله من ساحة هذه الحياة.

ولايصح في العقل والمنطق، أن يقال: إن غاية وجود الإنسان في الدنيا، أن يتقلب في ألوان النعيم، وأن يتناول الطيبات من الطعام، ويسكن في القصور الباذخة، ثم ينفض يديه من ذلك كله، ويتخلّى عنه إلى حيث لايدري، وهو يجترّ من فراقه لكل تلك المتع غصصاً وآلاماً لايقوى على وصفها البيان. ولاتنس أننا إنما نخاطب من كان مؤمناً إيماناً حقيقياً بالله عز وجل. فأما من لايزال يعاني من جحوده بالخالق، ويتوهم أن الإنسان إنما يعيش ليأكل ثم يعيش ليأكل.. بأمر من الطبيعة التي لاتناقَشُ ولاتجادَل ولاتُسأل، ثم تنهي الطبيعة قصة الحياة كلها على هذا المنوال، فليس لنا من سبيل إلى هذا الحديث معهم قط، إنما هو سبيل واحد نسلكه إليهم، هو الدعاء من الله عز وجل لهم أن يوقظهم إلى حقيقة هذا الكون وأن يريهم الحق حقاً ويرزقهم اتباعه والباطل باطلاً وأن يرزقهم اجتنابه.

إذن أعود فأقول: إن كلاً من العقل والمنطق يأبى أن يقال إن الله إنما أودع في هذه الحياة الدنيا مقومات العيش الإنساني وأسباب الرغد فيها، ليجد الناس أسباب سعادتهم ولذائذ عيشهم في جنباتها، دون أي غاية أخرى وراءها.

ذلك لأن حاجة الناس إلى تلك الأسباب إنما تتجلى بعد وجودهم وخلق الله لهم؛ وإذا افترضنا أن ليس لإيجاد الله الإنسان من حكمة وموجب سوى أن يتمتع بما يحفظ حياته وعقله وبنعيم المتع العضوية

المختلفة. فمقتضى ذلك أن تنتهي مقاصد الخلق بطيّ هذه الحياة الدنيا وانقضائها، ومن المعلوم أن حاجة الإنسان إلى متع العيش وأطايبه، إنما تتحقق بعد وجوده؟ ولكن لماذا وُجِد حتى اقتضى وجوده أن توفر له تلك المتطلبات؟ ليس من جواب على هذا السؤال الذي لابدّ أن ينبثق عن هذا التوهم الباطل، إلا أن يقال: إنه قد وجد عبثاً. وهذا ما نفاه الله عن ذاته العلية، إذ قال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعُونَ ، فَتَعالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ٢٣/١١٥].

ولاريب أن ألوهية الله عز وجل ذاتها، هي الدليل الذي لايقبل الريب، على أن الإله الحق أجلّ من أن يعبث.

إذن فالمنطق يقرر أن مقومات العيش التي جهز الله بها مكان الإنسان في حياته الدنيا هذه، إنما هي أسباب لتدبير عيشه وتنظيم حياته.. وليست هي السبب أو الحكمة لأصل حياته ووجوده.

أصل حياته وإيجاده يعتمد على حكمة أخرى، تتلخص في أن الله عز وجل قضت مشيئته أن يقيم خليفة له في الأرض يعمرها على النهج الذي يرتضيه وطبق الشرعة التي أوحى بها إليه، بموجب عقد واختيار، لا بسائق قهر واضطرار. فيكون ذلك العمران القائم على النهج الذي أمره به والمنضبط بالشرعة التي علّمها له، مظهراً آخر من مظاهر ربوبية الله وحكمته وعدله وعظيم تدبيره، ثم ليجزيه بعد ذلك الجزاء الأوفى، إن هو أحسن الخلافة ووفىّ العهد ونفذ الأمر، وإنما الجزاء الأوفى أن يكرمه الله بالخلود الدائم بعد أن يقوم الناس لرب العالمين، في مقعد صدق عند مليك مقتدر مكرّما بكل أصناف السعادة والتكريم.

فالحكمة من إيجاد الله الإنسان، هي هذه، ألم تقرأ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً..﴾ الآيات.

أما الأقوات والأرزاق ومتع الحياة الدنيا ومصالحها، فإنما هي خدّام للإنسان وحاجاته على الطريق، إذ يباشر واجباته وينهض بأداء حقوق هذه الخلافة التي كلفه وشرفه الله عز وجل بها.

إذن فتوجه الإنسان بالحياة إلى رضا الله، بأداء رسالته وتنفيذ شرعته هو الهدف الكلي الأقدس، أما تعامله مع مقومات العيش وأسباب الرزق والمتع التي تزخر بها المكونات، فخدم وحشم أقامهم الله في الطريق إلى تحقيق رسالته وتنفيذ أوامره والنهوض بأعباء الخلافة عنه.

* * *

والآن، بعد هذا الذي تبين لك، تدرك مدى أهمية نصيحة ابن عطاء الله في هذه الحكمة، وتدرك مدى خطورة الشرود عنها. إنه يقول لك: ألا فلتعلم أن المكونات المسخرة لك، إنما هي سبل ووسائط سخرها الله لك، لتستعين بها في التوجه إلى الله، فإياك ثم إياك أن تركن إليها وتحبس نفسك في أقطارها، وتنسى في غمار ذلك رحلتك التي أنت بصددها إلى الله.

والحق أن الداء الوبيل الذي يعاني منه أكثر المسلمين اليوم، متمثلين في أفراد أو هيئات أو مجتمعات أو قيادات ورئاسات، أنهم عن هذه الوصية الكبرى غافلون، وعن الهدف الأقدس الذي خلقهم الله لأجله معرضون. وداخل أقطار الوسائط والأسباب والمتع الكونية قابعون. فهم كما قال ابن عطاء الله يتحركون (بحثاً عن أهوائهم ومتعهم) من

كون إلى كون، يراوحون في أماكنهم، وينسجون من ذلك خيوطاً عنكبوتية تلتف عليهم من حيث لايشعرون، وعاقبة ذلك، الاختناق الذي لامحيص عنه.

ودعني أضعك أمام نماذج من الحياة التي يتقلب فيها اليوم كثير من المسلمين، والتي تشكل مصداقاً دقيقاً لهذا الذي يحذر منه ابن عطاء الله، بل الذي يحذر الله منه مراراً وبأساليب شتى في قرآنه المبين:

هذه النماذج تنقسم إلى قسمين: اعتقادية، وسلوكية.

إليك أولاً هذه النماذج الاعتقادية: ينظر أحدهم إلى الكون فيراه مليئاً بعالم الأسباب والمسببات التي أقامها الله تعالى وقرن بينهما بمحض سلطانه وتدبيره وخلقه، فتزيغ عيناه وتتيه بصيرته داخل هذا العالم ثم لايتعداه ولايتجاوزه إلى المسبب الخالق قط..

يرى السماء وقد تكاثفت فيها الغيوم، فيحلل ذلك ويعلله، ويعيده إلى فاعلية الأكوان وما يسميه الطبيعة، من الأبخرة التي تصاعدت من البحار فتجمعت وتكاثفت.. ثم يعيد هذه الظاهرة الكونية إلى مثلها من عوامل الكون وأسبابه.. فإذا رأى أن الشتاء قد أقبل وحطّ برحاله، وكاد أن ينقضي دون أن يرى الناس أمطاراً هطلت ولا غيوماً تكاثفت، بحث لذلك عن عوامل كونية أخرى كالاحتباس الحراري، أو كخلل في طبقات الأوزون... فإن سئل عن سبب هذه العوامل ذاتها، تلمس لها سبباً كونياً آخر، كفساد البيئة، واختلال التوازن في غازات الغلاف الجوي، وهكذا دواليك، لايبحث عن علّة لظاهرة كونية إلا في ظاهرة كونية مثلها، ويظل يتيه بين هذه الأغصان الفرعية الكونية، دون أن يرحل منها أخيراً إلى المكون جل جلاله.

يرى أمراضاً تتسرب إلى أجسام، ثم تتفاقم الأمراض، فيعقبها الموت وأحياناً الشفاء، فيبحث لذلك كله عن أسباب كونية طبيعية، ثم يتلمس لتلك الأسباب أسباباً وعوامل كونية مثلها، ثم ينشد مصدر ذلك كله، فلا يعود به التيه إلا إلى العوامل الكونية ذاتها، دون أن يتنبه، خلال بحثه هذا إلى أن هذه السلسلة تبدأ من لدن الفاطر الحكيم جل جلاله، الذي خلق كل شيء ثم ربط هذا بذاك فجعل من الأول سبباً ومن الثاني مسبباً، وأخضع الكل لسلطانه وتدبيره.

وإليك هذه الصور من النماذج السلوكية:

يفتح أحدهم عينيه على الحياة التي أمدّه الله بها والنعم التي متعه بها، فيرى العاقبة التي تسري في كيانه، والمال الذي أغدقه الله عليه، والدار التي أسكنه وآواه فيها.. فيبحث لعافيته عن المتع والمشتهيات التي يحكم بها، ويبحث للمال المتراكم عنده عن الحفلات والسهرات التي ينتشي في أجوائها، ويملأ الدار التي آواه الله فيها بأنواع التحف والرياش التي يفاخر ويباهي بها.. فإذا اهتزت أو اضطربت منه العافية لمبالغته في العكوف على المشتهيات هرع إلى الأطباء والعلاجات والمصحات والتحاليل، ليستعيد عافيته وليطمئن إلى أنه سوي الجسم والدخائل العضوية، فيعود إلى التمتع بمشتهياته.. وإذا قلّ المال وتراجع الكمّ الحسابي لديه من جراء الليالي الساهرة والحفلات العامرة، أسرع يغامر ابتغاء مزيد من المشاريع التجارية، ومدّ يده لاهثاً إلى ما يمكن أن تصل إليه من أموال الآخرين وحقوقهم بشتى الطرق الملتوية الممكنة.. وينظر ليجد أن أثاث منزله قد تقادم عليه العهد، وأن النمط الذي كان

قد أعجبه منه قد نسخ، فيضطره الحال إلى أن يعود فيجدد أو يضاعف من نشاطه المالي.

وهكذا، فإن كل جانب من جوانب مبتغياته المعيشية أو الكونية، يسلمه إلى جانب آخر، وما يلبث هذا الجانب الثاني أن يسلمه إلى جانب ثالث، وقد تحولت حاجاته المعيشية كلها إلى هدف كلي، بعد أن جعلها الله له وسائل إلى الوظيفة القدسية التي خلق من أجلها.

فانظر كيف يرحل هذا الإنسان وأمثاله من كون إلى كون إلى كون، ليعود إلى النقطة التي بدأ منها.. ثم يواصل الدوران مرة أخرى، فثالثة فرابعة، حتى توافيه المنية وهو على هذه الحال.

وتأمل في حال هذا الإنسان، كيف حول نفسه من عبد لله موظف لديه، مكلف بإنجاز المهمة التي خلق من أجلها، إلى عبد للإمكانات التي سخرها الله له، يعيش في غمارها، ويحبس نفسه في أقطارها، وقد أصمّ أذنيه وأعمى قلبه عن نداء الله القائل له: ﴿وَابْتَغِ فِي ما آتاكَ اللَّهُ الدّارَ الآخِرَةَ..﴾ [القصص: ٧٧/٢٨] وعن قوله عز وجل: ﴿يا أَيُّها الإِنْسانُ إِنَّكَ كادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦/٨٤] وعن قوله: ﴿إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾ [العلق: ٨/٩٦].

وفي قول ابن عطاء الله «ولكن ارحل من الأكوان إلى المكون» ما يدلك على أن الإنسان ليس مكلفاً بالإعراض عن المكونات التي سخرت له، بل ينبغي أن يلتفت إليها ويهتم بها ويستخدمها، ولكن على أنها مطية ذلول، تنقله إلى رحاب المكوِّن جل جلاله من خلال استخدامه لها واستفادته منها وارتحاله إلى الله منها. العافية مطلوبة،

والمال لابدّ منه، والمسكن الفاره نعمة وأي نعمة، وبناء الأسرة عن طريق الزواج ومتعته خير وأي خير.. والصناعات والتجارات والعلوم والمعارف مفاتيح لابدّ من استعمالها. ولكنها جميعاً يجب أن توضع في خدمة المهمة التي خلق الإنسان من أجلها، وفي عون الأمانة التي حمّله الله إياها.. إنها سلّم ذو درجات من المكونات، يجب أن تستعمل مرقاة لبلوغ مرضاة المكون وتنفيذ أوامره، لا أن تتخذ أداة لصدّ صاحبها عن السير إلى الله وتلمس السبيل إلى مرضاته.

* * *

غير أن الذي هو أسوأ وأخطر من هذا، أن يرحل الإنسان من المكوِّن إلى الأكوان!.. وإنما يكون ذلك بأن يؤدي الوظائف والواجبات الدينية المختلفة من عبادات وقربات مختلفة، ولكنه يتخذ منها مطايا وأدوات لنيل مبتغياته الدنيوية، من جاه أو مال، أو حظوة، أو شهرة، أو غير ذلك من حظوظ النفس.

والنماذج الحية الواقعية لهذا النهج كثيرة:

إن هذه الفصول التي أكتبها في الدعوة إلى الله، والتعريف بآداب السلوك إليه، واحد من هذه النماذج إن أنا ابتغيت منها مالاً أناله، أو شهرة أتمتع بها، أو ثناء أطرب له. والله هو المستعان أن يجعلني في حصنه الواقي من شرّ نفسي وشرّ ما جبلت عليه.

وإن الفتاوى التي تحبك حبكاً مصلحياً، ثم تصدّر أملاً في مغانم أو فراراً من مغارم أو مصانعة لفئات أو جماعات، واحدة من هذه

النماذج، يغيب عنها سلطان الإله المكوّن، ليهيمن عليها سلطان المكوَّنات ذات الألوان والجاذبيات المتنوعة.

وإن الانتصار للرأي الاجتهادي في الدين، واحد من هذه النماذج، عندما تكون العصبية للذات هي العامل الكامن وراء هذا الانتصار، وما أكثر ما تستعمل الاجتهادات الدينية غذاء خفياً للأنانية الفردية أو الجماعية، وأداة سباق في حلبة الصراع بين الفئات أو الأقران.

وإن التجمل بألقاب الدين ومظاهره في الكيان والملبس، وشغل اللسان بأحاديثه وبما يدّل على مشاعر الاهتمام به والغيرة عليه، هو الآخر من هذه النماذج، عندما يبتغى منه ترويج تجارة، أو جذب مزيد من الزبائن، أو إخفاء ما تتم ممارسته من غش المعاملة.

إن الصورة في هذه النماذج كلها، صورة تعامل مع الله، وإقبال على الخالق المكون، ولكن الحقيقة الخفية الكامنة، أنها رحلة من الله إلى الدنيا، وخوض في غمار المكوّنات.

وهذا ما نبه إليه ابن عطاء الله وحذر منه عندما وضعنا من هذا الخطر أمام قول رسول الله ﷺ: «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه» إذ الهجرة في شكلها تعامل مع المكون وتقرب إلى الله بعمل هو من أجلّ القربات والمبرات.. ولكن عندما يغيب القصد الرباني وتختفي الغاية القدسية المتمثلة في بلوغ مرضاة الله تعالى، يهبط هذا العمل بصاحبه إلى ساحة التعامل مع المكونات والسير وراءها والتقوقع داخل أقطارها.

بقي أن كلاً منا، لابدّ أن يتساءل - بعد هذا الذي تم بيانه - عن العلاج.. العلاج الذي إذا أخذ به المؤمن نفسه تحرر من أسر الأكوان وانتقل منها إلى المكون: يدين له، ويتعامل معه، ويستخدم الدنيا كلها لبلوغ مرضاته؟.. أجل، ما العلاج؟

العلاج، أن نعود إلى الحكمة التي قبل هذه مباشرة والتي يقول فيها ابن عطاء الله ((العجب كل العجب ممن يهرب مما لا انفكاك له عنه، ويطلب ما لابقاء له معه))، فنتذكر أن الإنسان مهما عاش وطال به الأمد فوق هذه الأرض، لابدّ أن يوافيه الأجل الذي سيواجهه في ميقاته المحدد، دون تقدم ولا تأخر، والذي سيحمله على أن ينفض يديه من المكوّنات كلها، وعلى أن يتخلّى عنها، متجهاً في أعقاب ذلك إلى المكوِّن جل جلاله.

فإذا استقر في ذهني وذهنك أننا من الدنيا كلها في مستودع، وأننا مشدودون خلال كل لحظة من وجودنا فيها إلى المقرّ، حيث وقفة الحساب بين يدي الناقد البصير جل جلاله، وحيث يطرح على كل منا السؤال القائل: لقد متعتك بعُمُرٍ بماذا ملأته؟ ومتعتك بعافية، فيم صرفتها؟ ومتعتك بمال فيم أنفقته؟ ومتعتك بعلم ماذا صنعت به؟.. فلسوف نحرص اليوم كل الحرص، على أن لايكون جوابنا آنذاك: لقد اتخذت من ذلك كله سجناً قبعت في أرجائه، ومعبوداً اتخذته من دونك، وغاية أنستني لقاءك في هذا اليوم الموعود..

ولسوف نعلم أن سبيلنا إلى ذلك، أن نبدأ فنشدّ صلتنا بالله عز وجل عن طريق الذكر والفكر، نذكر دائماً معيته لنا ومراقبته إيانا،

ونصائحه ووصاياه التي يلاحقنا بها.. ثم نذكر الميقات المحدد الخفي لمفارقة هذه الحياة الدنيا بكل ما فيها، وضجعة الموت التي ستسلمنا إلى الحياة البرزخية، فالحياة الآخرة التي هي دار الخلود والقرار.. ثم نذكر أن الذي يصحبنا خلال هذه المراحل والتقلبات كلها هو الله.. هو أنيسنا، وهو نجيّنا، وإليه وحده مفتاح سعادتنا أو شقائنا.

فأي عاقل، يبقى بعد معرفته لهذا كله، قابعاً متطوحاً في سجن المكوّنات، يراوح في مكانه، ينتظر قضاء الله أن يقذف به إلى الغاية التي تناساها ولم تنسه، وفرّ منها إلى هذا السجن فتابعته ولحقته؟!..

اللهم أيقظنا قبل فوات الأوان، وألهمنا الخروج من سجن المكونات إليك آمنين مطمئنين، قبل أن يخرجنا منه أذلاء نادمين، قضاؤك المبرم في يومك الموعود، إنك الحكيم اللطيف الودود، والسميع المجيب.

* * *

الحكمة الثالثة والأربعون

((لاتصحب من لاينهضك حاله، ولايدلّك على الله مقاله))

كثيراً ما يطرح أحدهم السؤال التالي متلهفاً:

لقد أكرمني الله بالهداية بعد الضلال، والتزمت أوامره بعد طول إعراض وشرود، ولقد عزمت على الابتعاد عن نواهيه، ولكن الغريزة البشرية ما تزال تهتاج بي، وتسوّل إلّي المحرمات، وتدفعني للرجوع إليها، وأجد نفسي ضعيفاً أمام هذا الصراع. فما الملاذ وكيف الخلاص؟

أعتقد أن الجواب عن هذا السؤال، في أكثر الأحيان، واحد، هو هذا الذي يقوله ابن عطاء الله!..

إن المناخ الذي يحيط بالإنسان الذي هداه الله (لاسيما إن كان شاباً) يلعب دوراً كبيراً في تثبيت هدايته أو في بعث عوامل الاضطراب والضعف فيها.

فإن كان الناس الذين من حوله، والذين يشكلون المناخ الذي يتحرك وينشط فيه، من الصالحين المستقيمين على أوامر الله، ومن

الذين فاضت قلوبهم بمشاعر العبودية لله، فلسوف يزداد هداية وحباً للاستقامة، وتقرباً إلى الله عز وجل، وكراهية للحال التي كان عليها من قبل.

وإن كانوا من أصحابه التائهين الذين كان يلقاهم ويسامرهم على موائد اللهو والعصيان، وكانوا لايزالون يتيهون في انحرافاتهم وغيهم، فلسوف يلقى من صحبتهم عنتاً كبيراً، ولسوف يثور بين جوانحه الحنين إلى ماضي فسوقه معهم، ولابدّ أن تمتد من ذلك ظلل من الضيق إلى قلبه وأن تهتاج عاصفة من الرغبات داخل غرائزه، فيقوم من ذلك بين جوانحه صراع، الله أعلم بنتائجه.

والمشكل أن في الناس من لا يعلمون، أن من وراء المادة المرئية أسراراً تدق عن الرؤية والرصد، تفعل أفعالها الهامة والخطيرة في الكيان، وأن لكل من الفسوق الذي يتراكم ويهيمن على النفس، وللتقوى ومشاعر العبودية الواجفة لله إذ تهيمن هي الأخرى على النفس، جاذباً خفياً عجيباً، أشبه ما يكون بالجاذب الذي أودعه الله في هذا المعدن الذي نسميه ((المغناطيس)).

إن لله تجليات على عباده.. له تجليات رحمة يقبل بها على المتحققين بمعاني العبودية له عز وجل، التزاماً وذكراً وتعظيماً ومهابة وحباً، واستغفاراً وتوبة عند كل إساءة وتقصير.. وله تجليات مقت يقبل بها على السادرين في غيهم، العاكفين على فسقهم، المستخفين بشرائع ربهم...

أفتظن أن الرحمة التي يتجلى الله بها على الصنف الأول من عباده، تبقى خفية داخل سرائرهم وفي عمق كياناتهم؟.. إن الأمر ليس كذلك، لابدّ أن تطفح آثار هذا التجلي، أو التوجه، على ظواهرهم وأشكالهم، ولابدّ أن تسري منه أشعة تمتد من نفوسهم إلى أبصارهم، فتخترقها لتسري إلى طوايا نفوس الأقربين منهم والجالسين إليهم، دون أن تدركها الأبصار، إذ هي ليست من نوع الأشعة المحسوسة التي تعكس أنوارها على الجدران والأرض والبقاع، وإنما هي أشبه بتلك الألوان التي تسمى فوق البنفسجية.. وسرعان ما يظهر أثر ذلك على أولئك الذين يجالسونهم ويقبلون إليهم، رقةً في القلب، وانشراحاً في الصدر، وحنيناً إلى الحق جل جلاله.

كذلكم الحال عندما يكون الأمر على النقيض من ذلك: فإذا تجلى الله تجلّي مقت على الفريق الثاني من عباده، فلابدّ أن تطفح آثار ذلك المقت والغضب الإلهي على ظواهرهم، تمتدّ من ذلك قترة على وجوههم وقسماتهم، وتخترق من ذلك المقت أشعةٌ غير مرئية، نفوسهم فأبْصارهم، لتسري إلى نفوس الأقربين منهم والجالسين إليهم، قسّوةً في القلب، وضيقاً في الصدر، وضعفاً واستخذاء أمام الغرائز والأهواء.

إن لتجليات الله قصة وأي قصة، يضيق عن ذكرها البيان، تبرز الصورة الباهرة الأخاذة منها، في تجلّي الله عز وجل لجبل الطور إذ كان يناجي كليمه موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام، فانعكس من آثار ذلك التجلي على موسى الذي لم يكن يرى إلا الجبل، ما جعله يقع أرضاً ويخرّ صعقاً.

وتبرز الصور الملطفة والمصغرة عنها في تجليات الله على قلوب عباده، فما كان منها تجلي تحبب وجذب وألطاف، تنسي صاحب ذلك القلب ذاته والدنيا التي من حوله، وتقذف به في يم من النشوة والنعيم لا ساحل له، وتملأ كيانه رضا، أياً كانت الحال التي هو فيها... وما كان منها تجلي مقت وغضب، يغلّف قلب صاحبه بغلاف من القسوة التي تتجاوز قسوة الحجارة، كما قال الله عز وجل، ويستثير في كيانه أسوأ الغرائز والطباع، ويحجبه عن بوارق الحقيقة اللامعة، وعن آيات الله الباهرة.

والمهم أن تعلم أن لكل من هذين التجليين آثاراً تمتد إلى الآخرين من المجالسين والأقربين، فتجليات الحب والرحمة تسري أنوارها وأشعتها غير المرئية إلى نفوسهم بسائق الرشاش والعدوى، وتجليات المقت والقهر، يمتدّ دخانها وفيح ظلماتها إليهم أيضاً بالسبب ذاته.

وصدق رسول الله القائل: «مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يُحذيك وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحاً طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك أو أن تجد ريحاً خبيثة»[١].

إنك لتلاحظ أن رسول الله ﷺ ينقل آثار التجليات الإلهية بنوعيها، وهي معنوية شعورية، إلى ساحة التجليات المادية والحسية، ليؤكد لك أن آثار الأولى بالنسبة للجليس، ليست أقل أهمية وفاعلية من الثانية.. ولتعلم أن الحقائق العلمية اليوم لم تعد كما كانت في وهم

(١) رواه الشيخان من حديث أبي موسى الأشعري.

الناس، أيام ديكارت وغاليله، محصورة في المادة التي تراها العين أو تخضع للحواس.. إنها اليوم تجاوزت دائرة المادة إلى ماوراءها من دنيا الروح وسلطان العلاقات الشعورية والمعنوية.. إن الأشعة الخفية المنبثقة من النفس من شأنها أن تخترق عيني صاحبها متجهة إلى نفسية الجليس المقابل، دون رؤية منه لها. أما سلطان هذه الأشعة فعائد إلى الله عز وجل، إذ هي في أصلها آتية من عنده منبثقة، كما أوضحنا، من تجلياته..

* * *

فإذا استيقنت هذا الذي قلته لك، وعلمت أنها حقيقة علمية ثابتة، قبل أن تكون خبراً دينياً مجرداً، تجلت لك عندئذ أهمية النصيحة التي يتوجه إليك بها ابن عطاء الله. إذ يقول لك: «لاتصحب من لاينهضك حاله، ولايدلك على الله مقاله».

هما حال ومقال، ينبغي أن يجتمعا ويتحققا فيمن تصاحبه وتجالسه.

أما الحال، فوضع يتلبس كيان الإنسان من جراء ما انتهى إليه باطنه من تزكية النفس، وطهارة القلب، وتحوّله إلى وعاء يفيض بمراقبة الله وتعظيمه والخوف منه والحبّ له. وبالجملة فالحال المعنيّ بها هنا هي تخلُّص الإنسان مما سماه الله باطن الإثم.

صاحب هذه الحال، ينبعث تأثير من كيانه، من نظراته، من قسمات وجهه، من سرّ ينبعث من عموم وضعه، إلى جليسه القريب منه والمقابل له، دون حاجة إلى أن يتكلم وينصح ويناقش.. إذ إن هذا

السرّ الذي سبق أن حدثتك عنه، والذي تنبعث آثاره من باطن الكيان إلى ظاهره، يترك في نفس الجليس من النتائج ما لاتستطيع المواعظ الكلامية أن تحققه. وما أكثر الأعراب الذين انتقلوا خلال دقائق معدودة، من أقصى أودية التيه إلى أعلى درجات الهداية، عندما ضمهم مجلس فيه رسول الله ﷺ، وصافحت أعينهم قسمات وجهه، فسرى من حاله القلبية مع الله عز وجل، إلى نفوسهم، ما أيقظ فيها كوامن الفطرة، وألهب فيها مشاعر الحنين إلى الحق واسقط منها ركام الأهواء والعصبيات.

وكم في أصحاب رسول الله، ثم في التابعين الذين جاؤوا من بعدهم، فالذين جاؤوا من بعدهم، من هدى الله في مجالسهم ضالين وزائغين عن محجة الإسلام، دون أن يتجهوا إليهم بأي موعظة أو يحدثوهم بكلمة. إنما هو الحال التي شعت من داخل نفوسهم إلى أعينهم ووجوههم، فسرى منها تأثير رباني إلى أفئدة أولئك التائهين والزائغين، فكان ذلك منطلق اصطلاحهم مع الله، وانقيادهم لسلطانه وأمره.

تلك هي الحال، ذكرتها لك باختصار، وأما المقال فيتمثل في أن يكون هذا الذي تصحبه وتجالسه، ممن لايألو جهداً في نصيحتك، يأمرك بالمعروف إن نسيته أو أعرضت عنه، وينهاك عن المنكر أن تلبست به، يشدّ همتك إلى مزيد من الإقبال على الله بكل ما يملك من أساليب الإرشاد والتوجيه، يتجه إليك بذلك كله بدافع من الإخلاص لوجه الله عز وجل، متقيداً بالحكمة الحسنة، وبالآداب المعروفة التي يجب أن يتقيد بها المرشد والناصح.

والشأن في هذا الناصح، إن كان متقيداً بهذه الضوابط والآداب، أن يذكّرك بالله ولا يجاملك إن رآك على حالة لاترضـي اللـه عـز وجـل، ولكن تحت مظلة من الستر، كما قد أمر الله عز وجل، وبطريقة محببـة حكيمة، كما هو شأن الرسل والأنبياء والربانيين.

ولايكفي في الصاحب الذي تركن إليه أن يكون ذا حـال صامتـة، لايذكرك بأخطائك ولاينهاك عـن عـثراتك. إن مثـل هـذا الإنسـان إن كان صاحب حال حقاً، فلابدّ أن يكون من أهل الجذب الذين شغلهم حالهم عن النظر في أمر الآخرين والاهتمـام بشـؤونهم.. وعندئـذ فـإن اقتصارك على صحبة من كانوا على هذه الشاكلة خطأ لامبرر له.

كما لايكفي أن يكـون هـذا الصـاحب، ذا منطـق متوهـج بـالنصح والموعظة والإرشاد، إن لم يكن قبل ذلك أو مع ذلك ذا حـال مما قـد وصفت لك. إن مثل هذا الناصح سيتخذ من نصحه إذن سلّم علـوّ في الأرض.. فإن كان دونك في الرتبة بنى لنفسـه مـن نصحـه لـك أمجـاداً أمام الناس، وإن كان فوقك في الرتبـة أغلـظ لـك في النصـح وتسـامى عليك بما ينصحك به ويدلّك عليه، ودرّبك على كيفية توقيره وتعظيمه ومعرفة كبـير حقـه عليـك. وبالجملـة: النـاصح الـذي لايتمتـع بالحـال القلبيـة التـي وصفتهـا لـك، سيجعل مـن أنشــطة نصحــه ومواعظــه وإرشاداته حرفة دنيوية يبتغي مـن ورائهـا حظـوظ النفـس وأهواءهـا.. وهيهات لمثل هذا الناصح أن تسري نصائحه من الآذان إلى القلوب.

فمن هنا يطلب منك ابــن عطـاء اللـه، أن تستعين للاستقامة علـى الرشـد بمجالسـة الصـالحين دون غـيرهم، ثـم يصـف الصـالحين بـأنهم

أولئك الذين اجتمعت فيهم صفتان اثنتان: الحال القلبية مع الله، والنصيحة اللسانية مع عباد الله. فبحاله الصامتة يستنهضك إلى تقويم الاعوجاج والمبادرة إلى التوبة، وبنصحه اللساني، يعرّفك على الطريق ويبصّرك بالأحكام ويبعدك عن الشبهات ومطارح اللبس. ولاتغني واحدة من هاتين الصفتين عن الأخرى.

ولاأشك في أن الذين يتاح لهم الالتزام بهذا النصح، سيجدون منه الحصن الذي يقيهم من وساوس نفوسهم، ومن كيد شياطين الإنس والجن. والصعوبة لاتكمن في صعوبة العثور على الإخوة الصالحين والناصحين، فلايزال في مجتمعاتنا من هذه النخبة كثير بحمد الله عز وجل. وإنما تكمن الصعوبة في أن يظلّ أحدنا - مهما تقلب وقام بأنشطته الدنيوية التي لامناص منها - داخل المناخ الإسلامي الصالح والناصح!.. لابدّ أن تدفعه مصالحه الدنيوية وتحركاته المعيشية إلى الاحتكاك بالآخرين، وأعني بالآخرين، الذين لاينهضك حالهم ولايدلّك على الله مقالهم.

فكيف السبيل للتغلب على هذه الصعوبة؟

السبيل أن تفرق بين الصحبة التي يتحدث عنها ابن عطاء الله، التي ما ينبغي أن يفوز بها منك إلا أولئك الصالحون في أحوالهم الصامتة ونصائحهم الناطقة، واللقاءات العابرة التي تأتي وتمضي بها المصالح العارضة. اجعل صحبتك المقصودة لذاتها مع الذين وصفهم لك ابن عطاء الله، واجعل علاقتك بالآخرين بالقدر الذي تضطرك إليها ضرورات معايشك وواجبات وظائفك.

بقي أن في الناس من يسأل: فكيف السبيل إلى هذه النصيحة الهامة، لمن زجت بهم ظروفهم إلى العيش دواماً أو مؤقتاً، في المجتمعات الغربية، الأوربية أو الأمريكية؟

وأقول: إن مناط الحلّ والحرمة في عمل هؤلاء الناس، يتمثل في المناخ الذي يعيشون ويتقلبون فيه. فإن أتيح لهم أن ينسجوا لأنفسهم مجتمعاً صغيراً يحيط بهم، يتألف من أفراد صالحين ناصحين، لهم حال إسلامية تهيمن على بواطنهم، والتزام إسلامي يضبط أعمالهم وسلوكاتهم، بحيث تتوفر لهم ولأولادهم في ذلك المناخ أو المجتمع الصغير، النشأة الإسلامية والتربية الإيمانية، بعيداً عن المؤثرات التي تعكر عليهم صفو حياتهم الإسلامية، فلاحرج عليهم في أن يقيموا حيثما تحقق لهم فيه هذا المناخ أو المجتمع الصغير.

أما إن لم يتمكنوا من أن ينسجوا لأنفسهم هذا المناخ الذي وصفت، وكان شأنهم هذا الذي نراه غالباً، من أنهم كلما أرادوا إيجاد هذا المناخ لأنفسهم تغلبت عليهم واهتاجت من حولهم التيارات الضالة الفاسدة، فبددت لهم المناخ وفتّت نسيجه، واقتحمت عليهم دُورَهم ومؤسساتهم، وملتقياتهم الأسرية والعائلية، لتلون حياتهم وأفكارهم شيئاً فشيئاً بلون المجتمع الذي يقيمون فيه، ريباً في العقائد الإيمانية، أو إعراضاً عن الالتزامات السلوكية، أو استئناساً وتقبلاً لما يرونه حولهم من مظاهر الفسوق والعصيان، فليعلموا أنهم إذن يخسرون، شيئاً فشيئاً، أثمن وأجلّ ما قد خلقهم الله من أجله.. وليعلموا أن كل ما تسوله لهم نفوسهم من مبررات بقائهم على هذه

الحال، كالضرورات واقتضاء المصالح، ومستلزمات الدعوة، أوهام باطلة لاتقرها موازين الشرع وأحكامه.

أما الفتاوى التي تتوالى بتبرير ذلك كله وإعطائه السمة الشرعية المقبولة عند الله عز وجل، فلاأشك في أنها فتاوى حِرَفية يبتغى من ورائها مغنم دنيوي أو تجاوب مع سياسة مرسومة رعاية لمصلحة فئة أو جماعة.. إن سائر تلك الفتاوى تحبك ثم تدار على محور أو أساس ما يسمونه «الضرورة» وأشهد أن الضرورة الشرعية بمعزل عن ضرورتهم التي يفترضونها أو يتخيلونها. الضرورة الشرعية المعروفة هي تلك التي إن لم يراعها صاحبها، تعرّض هو أو أي من زوجه وأولاده (يقيناً أو ظناً) لهلاك، من جراء جوع أو عري أو شرود في العراء..

ولقد زرناهم في بلدانهم ومناطقهم التي يقيمون فيها، وتعرفنا على أحوالهم وأوضاعهم، فلم نجد أي ضرورة تطبق على أحد منهم أو تتابعه وتتهدده، إنما هي الرغبة في مزيد من المتعة والتوسع. ويأتي ذلك كله - مع الأسف - على حساب الأوامر الإلهية والأحكام الشرعية، نظراً لمقتضيات انسجامهم مع الأنظمة السائدة والتيارات المهيمنة. وهي كلها مناقضة لدين الله وهديه في المنطلق الأساسي وفي السلوكيات الجزئية العملية.

وصفوة القول: أن المناخ أو المجتمع الصغير الذي يحيط بالمسلم، والذي لاينهضه حاله إلى الانقياد لأوامر الله، بل الشأن فيه أن يتخبطه كما يتخبطه الشيطان من المسّ وأن يهوّن عليه سبيل الشرود عن أوامر الله ويبعث في نفسه مشاعر الاستخفاف بمبادئه وأحكامه، ثم لايجد

فيه مقالاً يدله على شرائع الله وأوامره ويحذره من نواهيه، فهو مجتمع سيء آس يجب الإسراع، جهد الاستطاعة، في الابتعاد عنه والتخلص منه سواء كان مجتمعه ذاك جزءاً من دار كفر أو دار إسلام، كي لايقع يوم القيامة تحت طائلة قول الله له ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ واسِعَةً فَتُهاجِرُوا فِيها﴾ [النساء: ٤/٩٧].

أما إن كان المناخ أو المجتمع الذي ينشط ويتحرك فيه، له حال ينهضه إلى الانقياد لسلطان الله وأداء حق العبودية له، وفيه من التذكرة القولية ما يبصره بأحكام الله وحدوده، وأمامه ومن حوله متسع يمكنه من تنفيذ شرائعه وأحكامه وآدابه، فهو مجتمع إنساني مفيد، ولاحرج في الركون إليه والإقامة فيه، سواء كان هو الآخر جزءاً من دار كفر أو دار إسلام. وصدق الله القائل: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَناكِبِها وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ٦٧/١٥].

فالأصل إذن، كما يقول الله عز وجل، الإباحة.. إباحة التنقل والإقامة في بلاد الله الواسعة. ولكن حكم الإباحة يبقى أو يتبدل، حسب الأسباب الطارئة والعوارض المتبدّلة، والمقياس، أو الميزان ليس إلا هذا الذي ذكرته لك.

وإنما يقدر هذا المقياس حق قدره ويعلم مدى أهميته، من عرف نفسه عبداً مملوكاً لله، ودان لما بعد الموت، واتخذ دنياه التي يسعى إليها مطية لدينه الذي خلق من أجله، وبوسعي أن أقول لمثل هذا الإنسان، مطمئناً: استفت نفسك، وإن أفتاك المفتون.

* * *

الحكمة الرابعة والأربعون

((ربما كنت مسيئاً فأراك الإحسانَ منك صحبتُك إلى من هو أسوأ حالاً منك))

هذه الحكمة مرتبطة بالتي قبلها ومتممة لها.

زيد من الناس مؤمن بالله، يمارس إسلامه إجمالاً: يؤدي فرائضه الخمس، وينهض بالواجبات الأساسية من الدين، ولكنه مقصر في جنب الله عز وجل، منصرف إلى دنياه، منغمس في متعه وأهوائه، يصرف جلّ وقته لمصالحه الدنيوية العاجلة... وهو في الوقت ذاته يركن إلى صحبة أناس هم أسوأ حالاً منه، فاسقون، مارقون، لا يؤدون حتى الفروض الأساسية التي يؤديها هذا الإنسان.

إن من شأن هذه الصحبة أن تخيل إلى زيد هذا أنه نموذج للمسلم المستقيم على أوامر ربه، وأنه من النخبة الممتازة في المسلمين، وأنه يؤدي حقوق الله عليه، كاملة غير منقوصة!.. ولاريب أن هذا الخيال، إذ يستحوذ على صاحبه يجرّه إلى أخطر النتائج وإلى أسوأ الأحوال، إذ ينسيه مظاهر عيوبه وتقصيره في جنب الله.

إن المطلوب من الإنسان المسلم أياً كان في واقعه ومستواه، أن يتيقظ إلى نقائصه وعيوبه، وأن يتلمس في الناس الذين يريد أن يصطفيهم لصحبته، من يكون عوناً له في الكشف عن عيوبه ومظاهر انحرافه وتقصيره. وإنما يتيسر له العثور على هذه النخبة، عندما يحرص على أن لايصاحب إلاّ من هو أسبق منه في الاصطلاح مع الله، وأكثر التزاماً بأوامر الله. فإن هو تورط فوقع في نقيض ذلك، أعجبته نفسه بحكم النسبية التي تفرض ذاتها عليه، من خلال صحبته لأقرانه الذين هم أسوأ حالاً منه، فلم يجد ما يحفزه إلى النهوض بنفسه نحو أي إصلاح، بل الشأن فيه أن يتراجع شيئاً فشيئاً إلى التغلب وأن تجنح به النفس إلى حال من اللامبالاة!..

إن ثمة عوامل كثيرة من شأنها أن تدفع مسلماً ما، على غرار زيد هذا الذي وصفته لك، إلى مصاحبة من هم أسوأ حالاً منه. ولكن من أهم وأخطر هذه العوامل، ما يحدّث به هذا المسلم نفسه، من أنه سيتسرب إلى صفوف هؤلاء التائهين، فيصاحبهم، ويخلط نفسه بهم، ويلقاهم على موائد عصيانهم، وفي تقلبات لهوهم، ريثما يستأنسون به ويركنون إليه، وعندئذ يوظف استئناسهم به وركونهم إليه، في توجيههم إلى الله، وإبعادهم عن الآثام والموبقات.

ولكن الذي يحدث أنه يبتلى بأمراضهم، ويصيبه من رشاش انحرافاتهم، وأول هذه الابتلاءات أنه يزداد زهواً بنفسه وإعجاباً بها، كلما اختلط بهم ووقع على المزيد من انحرافاتهم وسوء أحوالهم، إذ يرى نفسه يصلّي ولايصلون، ويصوم ولايصومون، ويترفع عن الموبقات ولايترفعون.

وعندئذ بدلاً من أن يستأنسوا به، يستأنس هو بسوء أحوالهم، وبدلاً من أن يركنوا إليه يركن هو إلى فسوقهم، وإنما يتم ذلك كله في غمار صحبته لهم، وفي ظل إعجابه بنفسه إذ يرى نفسه المتفوق عليهم والمتميز عنهم.

فهذا ما يقوله ابن عطاء الله من خلال حكمته هذه، إنه يقول: ربما خيلت صحبتك لمن هم أسوأ حالاً منك، أنك محسن في الالتزام بأوامر الله، مستقيم في السير على صراط الله، وحجبتك عن شهود نقائصك وعيوبك، وعن تقصيرك في جنب الله عز وجل.. وكلمة ((ربما)) هنا للتكثير، وليست للتقليل، فهي في الدلالة كقول الله تعالى: ﴿رُبَما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر: ١٥/٢].

ولعلك تقول: فإن صح هذا الذي يقوله ابن عطاء الله، فلامجال إذن لتوجه المسلم إلى دعوة التائهين والمنحرفين إلى الله ونصحهم بالاستقامة على أوامر الله.

والجواب أن دعوة الضالين والتائهين إلى الله، لاتستدعي أن يركن إليهم بالصحبة التي يحذر منها ابن عطاء الله، إنها تستدعي الوقوف معهم، والحديث إليهم، ومحاورتهم في أمور الدعوة ومستلزماتها.. وكل هذا يمكن أن يتم دون حاجة إلى أن يمدّ الداعي إلى الله معهم علاقات صحبة.

إذن من شأن هذه العلاقات إغماض العين عن المنكرات، والسكوت على الموبقات، وفاء بحق الصحبة، وحماية لخيوطها أن تتقطع أو تهتز.. أما التوجه إلى التائهين بالدعوة والنصح، فإنما

تستدعي نقيض ذلك، من مفارقة المنكر بعد التنبيه إليه والتحذير منه: وفاء بحق الغيرة على حرمات الله، والشفقة على عباد الله.

وانظر إلى فرق ما بين الحالتين:

إن الشفقة على عباد الله تقتضي ملاحقتهم بالتنبيه والتحذير والنصح، حتى إلى أوكار معاصيهم، وملتقى لياليهم ومجونهم.. أما الغيرة على حرمات الله فتستدعي عدم الاجتماع معهم على منكر، والافتراق عنهم لدى ظهور المحرم.. وانسجاماً مع هذين المطلبين: مطلب الشفقة على عباد الله، ومطلب الغيرة على حرمات الله، لايرى الربانيون والدعاة المخلصون لله في دعوتهم، أي مانع من أن يقتحموا نادياً ليلياً من نوادي المجون واللهو، للتوجه إلى من فيه بالتذكرة والنصح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، على أن يتوجهوا أولاً إلى مدير إدارته أو المشرف على سير برامجه، فيطلبوا منه إعطاءهم فرصة لدقائق محدودة، يتوجهون فيها إلى إخوانهم بشيء من التذكرة والنصح، فيستجيب لهم، وعندئذ يدخلون إلى ذلك الوكر المظلم، غير مبالين بظلامه، ولامبالين بمراكزهم التي تعلو عن الوجود في مثل ذلك المكان، شفقة على إخوانهم من عباد الله.. ولكنهم لايجلسون مع منكر ولايجتمعون معه دون إنكار له وتحذير منه، غيرة على حرمات الله... فذلك هو شأن الدعوة إلى الله، وتقديم النصح لعباد الله.

أما الصحبة التي يحذر منها ابن عطاء الله، فهي فارغة عن كلا القصدين، لاهي منطوية على دافع من الشفقة على الإخوة التائهين، ولا هي مصحوبة بالغيرة الصادقة على حرمات الله عز وجل.

وإنما هي حال من أحوال الصداقة، يُبتغى منها حظ النفس، وإزجاء الوقت، والاستئناس بالغير. وهي أبعد ما تكون عن أداء رسالة أو تنفيذ مهمة، فضلاً عن أن تكون رسالة تقربٍ إلى الله، وتنفيذاً لمهمة التعريف بدينه والاستجابة لأمره.

* * *

وربما استشكل بعضهم سبيل التوفيق بين هذا الذي ينبه إليه ويحذر منه ابن عطاء الله، مما أوضحت معناه ملخصاً، وما قد افترضه الله على عباده من مواصلة الأرحام والأقارب، حتى عندما يكونون أو يكون فيهم التائهون أو الفاسقون الذين هم أسوأ حالاً من قريبهم الذي أمره الله بمواصلتهم.

وسبيل التوفيق مقرر ومعروف. على المسلم أن يصل أرحامه، كما قد أمر الله عز وجل، مهما كان من علوّ المرتبة تمسكاً بأوامر الله واستقامة على نهجه وشريعته، ومهما كانوا من سقوط المرتبة، شروداً عن أوامر الله وعكوفاً على المحرمات.

غير أن صلته الواجبة بهم يجب أن لاترقى إلى درجة الصحبة التي حدثتك عن معناها، وذكرت لك أنها حال من أحوال الصداقة، بل يجب أن تقف عند حدود ما يسمى في مصطلح الشرع «صلة الرحم». وهي أن يلقاهم في المناسبات التي تستدعي التزاور واللقاء، كالأعياد والأفراح والأتراح وأن يقدم لهم العون الممكن عند طروء الحاجات وعوارض الضيق.

فإن وافاهم في أي من هذه المناسبات، وهم عاكفون على معصية متلبسون بإثم، أدى بلقائه إياهم واجب التواصل، ونصحهم بالإقلاع عن المعصية والرجوع إلى جادة الشرع، فإن هم استجابوا فذاك، وإلاّ كرر النصيحة والتذكرة لهم ثم فارقهم، معتذراً بأن الشرع لايخوّ له البقاء معهم على تلك الحال... فإذا جدّت مناسبة أخرى، عاد إلى مواصلتهم وزيارتهم تنفيذاً لأمر الله عز وجل.. فإن رأى في مجلسهم منكراً كالمرة الأولى، عاد إلى نصحهم وتذكيرهم وتحذيرهم من التعرض لسخط الله، فإن لم يجد آذاناً صاغية وبقي المنكر موجوداً، فارقهم معتذراً كالمرة الأولى.

وهكذا دواليك، يكرر المواصلة استجابة لأمر الله في صلة الرحم، ويكرر المفارقة، إن رأى منكراً ولم يتمكن من إزالته، استجابة لأمر الله أيضاً، في مفارقة المنكر وأهله.. وهو في كل ذلك مأجور ومثاب.

وليس هذا من الصحبة التي يحذّر منها ابن عطاء الله في شيء... الصحبة التي يحذر منها أن يتلاقى الأقارب في سهرات عائلية يتجاذبون فيها أسباب المتعة، ويركنون فيها إلى اللهو والأنس المتبادل.. وتلك هي التي يجب أن تنضبط بالآداب التي ينبه إليها ابن عطاءالله في هذه الحكمة والتي قبلها.

* * *

الحكمة الخامسة والأربعون

((ما قلّ عملٌ برز من قلب زاهد، ولا كثر عملٌ برز من قلب راغب))

لعل أجمع كلمة في بيان معنى الزهد أن يقال: إنه الإعراض عن كل ما عدا الله عز وجل.. والمراد بالإعراض عزوف النفس، فمن عزفت نفسه عن كل شيء سوى الله، من مال وجاه وأهل وولد، وشهرة، ومتع بأنواعها، فهو الزاهد حقيقة. وتلك هي الحال التي وصفها الحارث رضي الله عنه في نفسه لرسول الله ﷺ، عندما قال له: ((عزفت نفسي عن الدنيا)) والدنيا كل ما سوى الله مما شغل عن الله.

وعزوف النفس عن الشيء، لايستلزم الابتعاد عنه ونفض اليد منه، فالمنديل الذي تتخلص به من الأقذار، تعافه نفسك وتعزف عنه، بدون ريب، ولكنك تلجأ إليه في الوقت ذاته، كلما رأيت حاجتك إليه.

كذلكم الدنيا، إذ تعزف نفس المؤمن عنها.. تبتعد عن مكان الحب والاهتمام من نفسه، ولكنه يظل يستخدمها فيما قضى الله أن تستخدم فيه. يبني الدار، ويضع فيها الأثاث، ويمشي في مناكب الأرض بحثاً عن

الرزق، له ولأهله وأولاده. يتعب فيأوي إلى أسباب الراحة، وينعس فيوفر لنفسه ما ييسر له طيب الرقاد.. ولكنه لايكون مشدوداً برغائبه وعواطفه واهتماماته وثقته، خلال ذلك كله، إلا إلى الله، فلاتكون دنياه التي يتعامل معها عندئذ إلا كالحذاء إذ ينتعله الإنسان، يتقي به وحل الطريق وأشواكه وأقذاره.

فهذا هو الزاهد، وكذلك يكون الإنسان الزاهد. وعلى هذا المعنى ربى رسول الله ﷺ أصحابه: أن تكون أفئدتهم مطهرة من حب الدنيا بكل مظاهرها المتنوعة، ولا عليهم بعد ذلك أن يمارسوها ويستخدموها لكل من مصالح الدنيا والآخرة.

انظر إلى قوله ومسلكه التربوي هذا، وقد دخل السوق مرة، والناس مكتنفون به يميناً وشمالاً، فمرّ بجدي ميت، فتناوله بأذنه ثم قال: أيكم يحبّ أن هذا له بدرهم؟ فقالوا: ما نحب أنه لنا بشيء، وما نصنع به؟ فقال: والله للدنيا أهون على الله عز وجل من هذا عليكم[١].

وانظر إلى قوله، وهو يركز على توجه القلب إلى الدنيا بالحرص والحب: ((ما ذئبان ضاريان جائعان باتا في زريبة غنم أغفلها أهلها، يفترسان ويأكلان بأسرع فيها فساداً من حب المال والشرف، في دين المرء المسلم))[٢].

---

(١) رواه مسلم من حديث جابر، وأحمد من حديث ابن عباس وأبي الدرداء، بألفاظ متقاربة.

(٢) رواه الترمذي من حديث كعب بن مالك، والطبراني وأبو يعلى من حديث أبي هريرة.

ولقد فعلت هذه التربية فعلها الكبير في نفوس الصحابة والرعيل الأول من المسلمين فطهرت أفئدتهم من التعلق بما سوى الله عز وجل. ولما اندلقت عليهم الدنيا بعد ذلك من شتى الجهات وعلى أعقاب الفتوحات، سخروها لإقامة المجتمع الإسلامي كما يسخَّر الخادم المهين، متحررين من سلطانها، مترفعين فوق ألقها وإغراءاتها.

* * *

فإذا أقبل هذا الزاهد إلى الله بعبادة أو طاعة ما، فإنها مهما كانت قليلة وصغيرة، لاترتفع إلى الله إلا وهي كثيرة وكبيرة.. إن ركعتين يركعهما هذا الذي صفا قلبه من الانشغال بما سوى الله، تنقلانه من دنيا الناس إلى شهود الله عز وجل. فهو إذ يقرأ فاتحة الكتاب، يكون منصرفاً بكل مشاعره وفكره ووجدانه، إلى ما يخاطب به رب العزة من آيات هذه السورة، وهو إذ يتلو بعدها ما قد تيسّر له، يستغرق من ذلك في جوّ من النشوة المنبعثة من شعور قربه إلى الله إذ يناجيه ببليغ بيانه وقديم كلامه.. فإذا ركع ثم سجد، تاه عن الشعور بحركة أعضائه وانحناء جذعه، وتمثل نفسه كتلة عبودية متذللة تترامى على أعتاب مولاها العليّ الأعلى الجليل. وكم يلذّ لهذا العبد، وهو يتمرغ في جنبات هذا الحال، أن يرسل حديث ذله وانكساره وضراعته، من تراب الأرض التي نكّس رأسه ساجداً عليها، إلى علياء ربوبيته وسدّة وحدانيته، مثنياً، شاكراً، معظماً، سائلاً ومستجدياً.

ذلك كله، لأن القلب الذي هو مكمن المشاعر والأهواء والرغبات والمخاوف، سائر معه، بل هو القائد له في الحضور الذي يعمر كيانه،

والخشية التي تنتابه، والتفاعل الذي يسري في مشاعره مع مناجاته لله تعالى إذ يخاطبه في قراءته ودعائه وثنائه.

ولماذا لايكون معه، بل القائدَ له في كل ذلك، وهو فارغ عن كل الشواغل الدنيوية المختلفة، زاهد في كل ما سوى الله عز وجل (وقد عرفت معنى الزهد) وإنما القلب مرآة لابدّ أن تنعكس عليها صُوَرٌ مّا.

وإنما يتجلى على القلب الإنساني، بادئ ذي بدء، حنينه الفطري إلى الله، واستئناسه بمشاعر عبوديته الصافية عن الشوائب لله.. فإذا نشأ محصّناً ضد التوجه إلى مطامع الدنيا بكل ما فيها من زخارف ورغائب، ازدادت مرآته صفاء، وازدادت التجليات الفطرية عليها وضوحاً وتألقا ولم يعد فيه متّسع إلا لمشاعر حبه لله وتعظيمه له ومخافته منه، وحنينه إليه.

وتغدو العبادات والقربات التي يوفق إليها - عندئذ - صاحب هذا القلب، لامجرد غذاء له يقوى ويترعرع عليه، بل مصدر سكره ومبعث نشوته، إذ يزداد بذلك إقبالاً على الله عز وجل.

وقيمة هذه الطاعة، لاتكمن - والحالة هذه - في كميّتها العددية، بل في كيفيتها هذه التي وصفت. فقد تبدو هذه الطاعة؛ إذ يوفق إليها صاحبها، صغيرة من حيث الكم الذي ترصده العين، ولكن الله لاينظر إليها بهذا الاعتبار الذي هو مقياس الموازين البشرية، وإنما ينظر إليها من خلال مدى يقظة القلب لها وتفاعله معها، وتأثره بها. ومن ثم فإن هذه الطاعة التي تبرز صغيرة في أعين الناس واعتباراتهم لاتصل إلى الله عز وجل إلاّ وهي كبيرة كبر القلب الذي قاد إليها، واندمج

بمشاعره العلوية معها. فركعتاه التي وفق هذا العبد إليهما على النحو الذي وصفت، تعدل كنوز الدنيا كلها، وتعدل قيام ليال كثيرة متوالية، عندما تكون الصلاة فيها حظاً من حظوظ الجسد والأعضاء ويكون القلب بمعزل عنها، مثقلاً برغائبه وأحلامه وأمانيه الدنيوية المسيطرة. فكيف إذا أصبح هذا القليل، بتوفيق الله كثيراً، قبل أن يصعد إلى سدّة القبول الرباني؟!.

* * *

أما القلب الراغب، على حدّ تعبير ابن عطاء الله، فهو ذاك الذي استهوته الدنيا، فاثّاقل من ذلك إلى الأرض، وتحول حبه الفطري السابق لله إلى حب الشهوات والأهواء، وتعلق بالمال وجمعه، أو بالرناسة والمجد، أو بالزخارف والمبتغيات الأرضية التي يتنافس عليها المولعون بكل ماعدا الله، من المتع العاجلة التي تهفو إليها النفس..

وصاحب هذا القلب، لابدّ أن يخضع لسلطانه، ويتحرك تحت قيادته فيكدّ ويتعب، ويذهب ويجيئ، وينشط ليلاً ونهاراً، في سبيل تحصيل ما يهفو إليه الفؤاد، وفي سبيل تحقيق الأحلام التي يظل ينسجها لنفسه... فإن تحققت، انصرف إليها القلب مبتهجاً ومنتشياً بها، بل متقلباً في سكره بها، وإن لم تتحقق، أو تحقق منها البعض دون الآخر، اضطرب القلب ووقع من جراء ذلك في همّ واصب.. فهو في كلا الحالين منصرف إلى دنياه متطوح منها في مشاعر من سكر التنعم بها، أو ألم اللحاق ورائها والأسف عليها. إنه حقاً كما قال الله عنه: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾ [الأعراف: ٧/١٧٦].

فما قيمة الطاعات التي يقبل بها صاحب هـذا القلـب، إلى اللـه عـز وجل؟

إنها ليست، والحالة هذه، إلا شأناً من شؤون الجسم والأعضاء، تتم بمعزل عن القلب الذي يفترض أن يكون هو الدافع والقائد.

وسواء تمثلت هذه الطاعة في صلاة أو نسك حج، أو ذكر، أو قراءة قرآن، أو ابتهال ودعاء، أو غير ذلك، فإن الذي يستقبل هذه الأعمـال على اختلافها إنمـا هـو الكيـان البدنـي، مـن جسـم يتحـرك، أو لسـان ينطـق، أو أعضـاء تـؤدي وظيفـة حركيـة اعتـادت عليهـا، وكثـيراً مـا يصرفها بعض رجال هذا الفريق، أصحاب هــذه القلـوب المثقلـة بهـذه الأعباء، إلى فوائد ونتائج رياضية تقوم الجذع وتفيد الجسم!!.

أما القلب فمعزول عن ذلك كله، ومشغول عنه بمـا قـد حشـي فيـه وتعلق به من الآمـال والأحـلام والآلام الدنيويـة المتنوعـة التـي علمـت نماذج منهـا. والشـأن في صـاحب هـذا القلـب، أن يعيـش، في أحسـن أحواله، مزدوج الشخصية والكيـان، يـؤدي حركـات الصـلاة بجسـده وأعضاءه، وقلبُـه متطـوّح في هـم مشـكلاته الدنيويـة، أو منصـرف إلى تخطيط السبل الموصلـة لآمالـه التوسـعية. كذلكـم العبـادات والقربـات الأخرى. لايمكن أن ينعكس شيء من ذلك على مرآة قلبه حضـوراً أو خشية أو تفاعلاً ما بين البدن والشـعور، وكيـف ينعكـس ذلـك علـى مرآته، وقد سبقته إليها كل الرغائب الدنيويـة بسـائر فروعهـا الكثـيرة المتنوعة، فاحتلت مساحة المرآة القلبية أجمع، ولم تبق منهـا بقيـةٌ لوافـد جديد؟!..

فهذه الطاعة، مهما كبرت في حجمها، أو زادت وكثرت في كمّها، لاتصل إلى الله إلا متضائلة صغيرة، ولعلها لاتصل إليه، بل تذوب وتنتهي في مرقاة الصعود إليه، إذ يذيبها أو يمزقها قانون: ((إن الله طيب لايقبل إلا طيباً))[١].

أخي القارئ: فلنتواثق أن نطهر قلوبنا جهد الاستطاعة من شوائب التعلق بما سوى الله، مستعينين على ذلك باستلهام المزيد من معاني وحدانية الله عز وجل، وغرس المزيد من حقائقها ومستلزماتها في عقولنا.. إذن سنعلم أن الله وحده هو مصدر كل سعادة وخير، دنيا الناس خاضعة لأمره، لاتتحرك مقبلة أو مدبرة إلا بتدبيره وسلطانه، والنعيم كلّه، العاجل منه والآجل، إليه مردّه وبيده صنعه وبحكم منه وحده ظهوره واختفاؤه.

وفي هذا اليقين - إذا استقر في العقل وسرى إلى القلب - ما يجعل آمال الفؤاد وآلامه ورغباته متجهة إلى الله وحده، إذ إن مفاتيح الخير كلها بيده، ومغاليق الشر كلها إليه.

هذا، فضلاً عن أن قلب الإنسان، كان ولايزال وعاء مهيأ لحب الله وحده، بهذا نطقت الفطرة، وبذلك شهدت قصة بدء الخلق، فلنكن رقباء على أوعية قلوبنا هذه أن لاتدنسها محبة الأغيار، أياً كانت، ولنضع كل شيء من المكونات التي حولنا في مكانها المناسب. إن فيها مبتغيات لاتصلح حياتنا الدنيوية بدونها، فلنضعها من حياتنا في المكان أو المركز الذي هيئ لها، دون أن تتجاوزه وتتعداه، ولقد يسّر الله إلى

---

(١) هو جزء من حديث رواه الترمذي من حديث سعد بن أبي وقاص.

ذلك سبيلاً سهلة، عندما سخرها لنا، وأخضعها لاحتياجاتنا.. ففيم نرقى بها إلى مستوى القيادة والحكم، ثم نبلغ بها من حياتنا إلى سدة التعلق والحب؟..

إننا إن فعلنا ذلك (ولن يتأتى إلا بجهاد ولون من الصبر والمصابرة عليه) عظمت طاعاتنا عند مولانا عز وجل، وإن بدت في أعيننا أو في ميزان قدراتنا حقيرة صغيرة، أياً كانت هذه الطاعات، وإلى أي الأعمال الصالحة كان انتماؤها.

ولكنا إن أعرضنا عن هذا الواجب الجهادي الكبير، واستسلمنا للأهواء التي تتسرب إلى مكمن الحب من قلوبنا، واكتفينا من حقائق التوحيد، بشهادتها التي يكررها اللسان، ويغيب عن معناها الجنان، فلنعلم أن حب العاجلة الدنيوية، بكل أنواعها وأشكالها، لابد أن يحتلّ قلوبنا، التي كان ينبغي أن تكون وقفاً على محبة الله وتعظيم الله والخوف من الله وحده.

وعندئذ مهما برزت الطاعات والقربات لله تعالى عظيمة جليلة في أبصارنا، فلن تصل إلى الله عز وجل إلاّ حطاماً زائفاً.

وصدق رسول الله ﷺ إذ قال: ((إن الله لاينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم))[١].

* * *

(١) رواه مسلم وابن ماجه من حديث أبي هريرة.

الحكمة السادسة والأربعون

((حسن الأعمال نتائج حسن الأحوال. وحسن الأحوال من نتائج التحقق في مقامات الإِنزال))

هذه الحكمة تأتي كالتتمة أو التوضيح لما تم بيانه في الحكمة التي قبلها.

والمقصود بالأعمال القربات والطاعات الظاهرة التي يؤديها المسلم ببدنه، كالصلاة والصوم والحج، والصدقات وأعمال الدعوة إلى الله.

والمراد بالأحوال التوجهات القلبية إلى الله عز وجل، من حب وتعظيم وخوف ومهابة..

والمراد بمقامات الإنزال، الرتب التي يتدرج فيها العبد، إذ يعزم على السير إلى الله، والتخلص من آفاته النفسية التي تصدّه عن ذلك.

معنى هذه الحكمة إذن أن القربات والطاعات الظاهرة التي يؤديها المسلم إنما تتحقق فيها صفة الحسن والصلاح، بحيث تكون مقبولة عند الله عز وجل، بتوفر الإخلاص له في أدائها، وصفائها من شوائب العجب والرياء والغفلة عن الله تعالى.

غير أن هذه الصفة لاتتوفر في الأعمال إلا بنقاء الأحوال، أي بأن يكون القلب خالياً عن التعلق بالأغيار، على نحو ما تم بيانه في الحكمة السابقة.. ولكن كيف السبيل إلى أن يتطهر القلب من التعلق بالأغيار، حتى يتكوّن له من ذلك حسن الحال، الذي به تحسن وتصلح الأعمال؟

سبيل ذلك أن يأخذ المسلم نفسه متدرجاً بالمقامات أو الرتب التي تنزله أخيراً منزلة الأبرار الذين حسنت أحوالهم، فصفت وصلحت أعمالهم.

وسأضعك من هذه المقامات أو الرتب، أمام الظواهر السطحية التي تتناسب مع حالي وحالك. إذ لسنا من هذه المقامات إلا أمام شاطئ رقراق طويل، لابدّ من اجتيازه بسلامة وفهم، قبل بلوغ عمقه المتلاطم.

المقام الأول الذي لابدّ منه لاكتساب الحال القلبية السليمة مع الله عز وجل، هو التوبة. ولايقولن قائل: إنني لم أرتكب ما يقتضي التوبة من الموبقات أو الآثام، فليس في الناس من لم يقصر في جنب الله عز وجل واستطاع أن يوفيه كامل حق الربوبية عليه. حتى الرسل والأنبياء - وقد ثبتت لهم صفة العصمة - لم يتسنّ لأي منهم أن يؤديه هذا الحق الذي يتمثل في منن ونعم كثيرة لاحصر لها، ولاتستطيع القوى الإنسانية أن توفيه حقها. هذا بالإضافة إلى أن الناس كلهم - حاشا الرسل والأنبياء - كانوا ولايزالون خطائين، وخير الخطائين التوابون. ولله عز وجل حكمة باهرة في الضعف الذي ابتلى الله عباده به،

والذي تسبب عنه تعرّضهم بين الحين والآخر لآفات المعاصي والانحرافات، ولكن لامجال هنا لبسط الحديث عنها. فلذلك يقول الله تعالى خطاباً لعباده المؤمنين جميعاً ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٢٤/٣٢].

المقام الثاني من مقامات الإنزال التي يتحدث عنها ابن عطاء الله، مقام الصبر، وهو من مستلزمات التوبة، ولا وجود ولا معنى له إلا على أعقابها. إذ الإنسان قبل التوبة يتبع نفسه هواها بشكل كلي أو جزئي، ومن ثم فلاحاجة له إلى الصبر. ولكن إذا تاب توبة صادقة وعزم على الابتعاد عن الآثام والموبقات، فقد بدأت رحلته إلى الله على طريق الصبر. وهو لون عزيز وغالٍ من الجهاد، يمتاز بالشدة في مجال التحمل، وبالثمرات العالية في نهاية التسيار.. وهو صبر عن الاستجابة للأهواء الجامحة، وصبر على أداء الواجبات والنهوض بالقربات، وصبر على الغيبوبة عن كل ما سوى الله، بأن لايقيم بعد الله وزناً لمدح المادحين ولا لقدح القادحين، ولا لدنيا ازدهرت أمامه بإقبالها أو اكتأبت أمامه بإدبارها.

ومعنى الصبر في هذا الطريق، أن يأخذ السالك نفسه شيئاً فشيئاً بأداء هذه المهام، مستعيناً في ذلك بدوام الالتجاء إلى الله وطلب العون منه، موقناً أن لاحول له ولا قوة في تحمل شيء من هذا الجهد، إلا بالله عز وجل، واضعاً نصب عينيه قوله عز وجل: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاّ بِاللَّهِ﴾ [النحل: ١٦/١٢٧].

واعلم أن للصابر حالتين قد تبدوان متناقضتين:

الحالة الأولى: الشعور بالشدة التي لاقبل له بتحملها والصمود أمامها، ومآل هذه الحال أن ينصرف عن تجربة الصبر وقد فشل في السير على طريقها، بدءاً من الخطوات الأولى، وإنما تكون هذه الحال عندما يعتمد الصابر في ذلك على نفسه، ناسياً أن لاقبل له بذلك إلا بعون من الله عز وجل.

الحالة الثانية: الشعور بالتوفيق إذ يغالب الشدة فيغلبها، ويكابد المشقة فيتحملها. وإنما يكون ذلك عندما يستعين الصابر على صبره بالله، موقناً أنه لايملك لنفسه حولاً ولاقوة، وأن العون والتوفيق والقدرة على الصبر، إنما يأتي ذلك كله من عند الله عز وجل، فيجعل من التجائه الدائم إلى الله داعياً متضرعاً منكسراً، أن يمدّه بالتوفيق والثبات وأن يكسبه القدرة على الصبر الذي أمره به، ترجمان ثباته وصبره، ومآل هذه الحالة الثانية أن يزدهر الصبر بالوصول إلى غايته ومآله، وأن يفوز الصابر بما قصد إليه وابتغاه، وإن طالت المدة وكثرت المعاناة.. فتتحول صعوبات الصبر، بلطف الله وتوفيقه، إلى اعتياد ويسر، وتنقلب مرارته في النفس إلى حلاوة وأنس.

المقام الثالث في مدارج السالكين على هذا ا لطريق، مقام الرضا. وهو من أهم ثمرات الصبر ونتائجه، إذا ثابر عليه المؤمن وصبر...

والسبيل إلى بلوغ الصابر المثابر على صبره، منزلة الرضا، يتمثل في أن يعلم أنه ينال الأجر الذي ادّخره الله للصابرين، وهو أجر عظيم عبّر البيان الإلهي عن أهميته وعظمته بقوله: ﴿إِنَّما يُوفَّى الصّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ﴾ [الزمر: ٣٩/١٠].

وهو من أهم أسباب محبة الله للعبد، كيف لا وهو القائل: ﴿..فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣/١٤٦].

فإذا أحب الله عبده، توهج، من ذلك، قلب العبد بالحب له عز وجل، كما قال سبحانه: ﴿...يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥/٥٤] وترتُّب الفعل الثاني على الأول في الآية ملاحظ ومقصود.. وإذا هيمن حب الرب عز وجل على قلب العبد، حلّ الرضا فيه بكل ما يأتيه من قبل الله عز وجل، محلّ الصبر على الضيق والضجر من المصائب والنوائب التي تنتابه فيغيب الصبر على البلاء ويحلّ محله الرضا بالقضاء.

وفي الناس، كما روى حجة الإسلام الإمام الغزالي، من يرى أن الإنسان لايملك، أمام المصائب والأحداث التي تخالف الرغبة والهوى، إلا الصبر، ويقول لو رضي الإنسان بالمصيبة كما يرضى بالنعمة، إذن لسقط الفرق بينهما، ولاجتمعا تحت اسم النعمة والمتعة، فلم يعد في حياة هذا الإنسان وشعوره ما يسمى مصيبته قط![1]..

وإنما يدخل هذا الوهم على أصحابه، من جراء جهلهم بحب العبد لله عز وجل أو من جراء إنكارهم له.. فأما من عرف أن قلب الإنسان إذا صفا عن الأغيار، توجه، بالضرورة، بسائق الحب إلى الله، فلابدّ أن يوقن بأن الحب ينقله من منزلة الصبر إلى منزلة الرضا بكل مايأتيه من عند الله عز وجل.

---

(١) إحياء علوم الدين ٤/٣٤٧، طبعة المكتبة التجارية بمصر.

ويتحقق الرضا، ويصفو عن منغصات الصبر، بعاملين اثنين ذكرهما الإمام الغزالي، أذكرهما لك بإيجاز، وأضيف إليهما عاملاً ثالثاً أحسب أنه من الأهمية بمكان.

العامل الأول: ما يفعله الحب عادة في كيان المحب إذا تفاقم أمره وهيمن سلطانه، من حجز مكامن الشعور ومصادر الإحساس فيه، لحسابه. فتمرّ به الآلام وتنوشه الأوجاع، دون أن يلقي لها بالاً، أو أن يشعر لها بالوقع الطبيعي الذي يشعر به سائر الناس، فيحدث الحب في كيانه ما يفعله المخدّر، وإنما ينكر هذا أو يرتاب فيه من لم يجرفهم سلطان هذا الحب، فلم يتذوقوه ولم يعرفوه.. وإنكارهم لذلك يستند إلى برهان صحيح لامطمع في نقضه، ولكن ضمن حدود تجاربهم الذاتية الخاصة بهم، ومن ثم فمن الخطأ أن يقيسوا الآخرين، في ذلك، على أنفسهم.

والحب الرباني إذا هيمن على قلب الإنسان، سرى منه تأثير (لاترى مثله في مشاعر حب الإنسان للإنسان) إلى كيانه الشعوري أجمع، وتسربت منه نشوة بالغة إلى مكامن الإحساس وجذوره، قد تتمثل في أنس وشوق، وقد تتمثل في إجلال وتعظيم، من شأنها أن تصادر إحساس المحب لحسابها، وأن تصرفه عن الشعور بالأغيار إلى الذات الإلهية التي هيمن حبها على مجامع القلب.

العامل الثاني: ما يحدث كثيراً من تلذذ المحب بالألم الذي يفد إليه من محبوبه فالمحب في هذه الحالة يشعر بوقع المصيبة وآلامها، ولكن

الحب المهيمن على قلبه، لمن جاء هذا الألم من عنده أو بسببه، يجعله يتلذذ بالألم مع شعوره به[١].

وإنا لنعلم أن في الحب الأرضي الذي يسري ما بين الناس، بعضهم مع بعض، ما يزج المحب في هذه الحال، فيعرِّض نفسه لأذى محبوبه بل يرجوه أن يذيقه بيده الرائعة الجميلة من أذاه، وإنه ليتأوه إذ يشعر بالألم، ولكنك لاتدري كم يلذّ له هذا التأوه، إذ يطلقه على سمع محبوبه. فكيف إذا استحكمت محبة العبد لمالكه وخالقه عز وجل؟ لاريب أن كل آلامه التي قد تفد إليه منه جل جلاله لاتأتيه إلاّ وهي مكسوّة بأردية الرضا بالله عز وجل.

أما **العامل الثالث** الذي أضيفه إلى هذين العاملين اللذين ذكرهما الإمام الغزالي، فهو ثقة العبد بالله عز وجل، والمفروض أن جذور هذه الثقة ملازمة لإيمان العبد بالله عز وجل في كل المنازل والأحوال، إذ إن الإيمان بألوهية الله عز وجل، تستلزم الإيمان بحكمته. والإيمان بحكمة الله يستلزم الثقة بعدله ورحمته وفضله في كل ما قد يفد منه، حتى وإن لم يتبين له وجه ذلك.

إلاّ أن هذه الجذور تنمو وتزدهر وتقوى في مشاعر الإنسان ويقينه، في ظلال حبه لله عز وجل. فثقة العبد الذي فاض قلبه حباً لله عز وجل، أضعاف الثقة التي يشعر بها المؤمن الذي ليس بينه وبين الله عز وجل إلا عقد الإيمان العقلي به، مع انصراف قلبه إلى ما هو مشدود إليه من الرغائب والأهواء. إذن فمحبة الله عز وجل تنمي الثقة به

(١) إحياء علوم الدين ٤/٣٤٧-٣٤٨.

وترسخ اليقين التام بلطفه ورحمته وعدله في كل ما يقضي به، مهما كان في ظاهره مبعث شدة وآلام.

ومن شأن هذه الثقة إذ تتنامى في كيان المسلم وتبلغ حدّ الكمال، أن تكسبه الرضا التام بكل ما يقضي به الله تعالى ويختاره له.

وليس دقيقاً أن نضرب مثلاً له، ثقة المريض بطبيبه الجراح إذ يستسلم لمبضعه ساكتاً على ما يشعر به من آلام. ذلك لأن مبعث الثقة بالطبيب في نفس المريض حديث الناس عن عميق خبرته وعن واسع نجاحه في عملياته الجراحية، ومن شأن هذه الثقة أن تحمل المريض على الصبر لا أكثر. وهي منزلة دون منزلة الرضا التي نتحدث عنها، كما قد مرّ بيانه.. أما مبعث الثقة بالله في حديثنا هذا، فهو بعد الإيمان العقلي به عز وجل، عظيم محبته له. فإذ استسلم هذا المحب لما يأتيه من عند الله عز وجل، من المنغصات والآلام، فإنما يستسلم له بسائق من الرضا بحكمه، وذلك هو شأن الحب فيما يفعله في كيان المحب تجاه المحبوب، وقد ترجم هذه الحقيقة على خير وجه المثل الدارج القائل: «ضرب الحبيب زبيب». والألم الذي يجده المحب يترجمه صاحبه إلى لذة من نوع فريد لايعرفه إلاّ هو، ومن كان على شاكلته.

ولايقولن قائل: إن هذا التكلف في تشفيق القول عن الصبر والرضا والفرق بينهما، لم يكن مألوفاً ولا معروفاً في عصر الصحابة.. فإنا نقول: بل إن هذا الإنكار الذي يأتي قفزاً فوق الأدلة، هو التكلف الممجوج الذي تنزه عنه أصحاب رسول الله ﷺ والرعيل الأول من المسلمين.. لقد صح أن سيدنا عمران بن الحصين أثبته المرض العضال

على سرير من خوص النخل ثلاثين عاماً دون أن تفارق البسمة شفته، ولما دخل عليه مرة مطرّفٌ وأخوه العلاء، ورأى العلاء أخاه على هذه الحال، أخذ يبكي. فقال له: عمران لم تبكي؟ قال له: لهذه الحال التي أنت فيها. فقال له عمران: مه، فإن أحبه إلى الله أحبّه إليّ.. فانظر كيف غاض الصبر في ضرام هذا الحب وتجلّى في محلّه الرضا[١].

* * *

بقي أن في الناس من قد يقول: لو جاز الرضا عن كل شيء لأنه يأتي من عند الله عز وجل، لجاز الرضا بكفر الكافر ومعاصيه!!.. بل إن في الناس من لم يفهموا معنى هذا الذي تم بيانه، فأدركوه على نحو غير صحيح، وراحوا يقولون بضرورة الرضا بالفجور والفسوق، وضرورة ترك الاعتراض، لوجوب الرضا والتسليم بقضاء الله عز وجل.

ولقد أجبت عن هذا الوهم بتفصيل وبسط في أواخر كتابي (الإنسان مسيّر أو مخير). وهاأنا أذكره هنا ملخصاً بالقدر الذي يتناسب مع شرح هذه الحكمة:

هنالك فرق كبير بين القضاء والمقْضِيّ. القضاء معنى مصدري كما هو واضح، أما (المقضيّ) فاسم مفعول ينطبق على الوقائع الكونية والتصرفات الإنسانية التي تعلق بها المعنى المصدري، وهو قضاء الله عز وجل.

---

(١) عمران بن حصين من أفضل أصحاب رسول الله ﷺ، أسلم عام خيبر. وانظر ترجمته وخبر مرضه هذا في الإصابة للحافظ ابن حجر ٣/٢٧.

فعلم الله المصحوب بإرادته المتعلقة بإيجاد مادة الخير والشر مثلاً (أي ما به يحصل فعل كل من الخير والشر) قضاء الله وحكمه.. وأما إقدام الإنسان على تسخير مادة الخير أو الشر لكسبه وإيجاده، فهو المقضيُّ الذي جاء نتيجة للقضاء الإلهي بإيجاد مادة الخير والشر، وإقدار الإنسان على فعل كل منهما.

فإذا تبين لك الفرق بينهما، فاعلم أن رضا العبد عن الرب يستلزم الرضا بالقضاء دون المقضي. ذلك لأن قضاء الله تابع لعدله وحكمته، فبينهما لزوم دائم لا انفكاك له. ومن ثم فإن رضا العبد بقضاء الله ضروري ما دام موقناً بأنه عز وجل عادل وحكيم. ثم إن هذا الرضا يزداد رسوخاً وقوة بالعوامل التي ذكرتها لك.

ولكن - وقد عرفت الفرق بين القضاء والمقضي - هل يستلزم الرضا بقضاء الله الرضا بالأمر المقضي؟ أي هل يستلزم الرضا بقضاء الله بجعل الناس أحراراً مختارين يختارون لأنفسهم الإيمان أو الكفر، الرضا بالمقضيّ المتمثل في كفر كثير منهم وممارستهم للفسوق والعصيان؟

يجب أن نعلم أنه لايوجد بين هذين الأمرين أي لزوم، ذلك لأن رضاك بقضاء الله هو رضاك بما يتمتع به زيد من حرية الاختيار ومن القدرة على اتخاذ القرار، ولاريب أن لله في ذلك حكمة باهرة، أما رضاك بالمقضيّ فهو يعني انضمامك إلى زيد في اختيار ما اختاره من الكفر ورضاك به. وهذا ما لايرضى به الله تعالى، ولايرضاه لك، كيف وهو القائل: ((ولايرضى لعباده الكفر)).

وإن رضاك بقضاء الله في دفعه الناس بعضهم ببعض، كما نص في محكم بيانه، يعني رضاك بأن يبتلي الله الناس بنوازع الأثرة والاستبداد وحب الذات، بالإضافة إلى ما متعهم به من حوافز الإيثار والمسامحة ونكران الذات، وإلى ما علمه وأراده لهم من التفاوت في القدرات والملكات والممتلكات (وهذه كلها مواد جاهزة لاستصناع كل من الخير والشرّ منها) وهذا الرضا من أوليات الدين ومن أهم نتائج محبة الله والثقة بعدله وحكمته.

أما رضاك بالشر الذي يصنعه كثير من الناس من مجموع تلك المواد التي قضى الله بإيجادها وتجهيز الإنسان بها، عن طريق العدوان وإزهاق الأرواح البريئة، فهو رضاً بالمقضيّ!.. وليس بينه وبين الأمر الأول أي ترابط أو لزوم. ولاشك أن رضاك بهذا المقضيّ هو رضاً بالشرور الذي استوقد أولئك الناس نيرانه، ومن ثم فإن الرضا به في حكم الاشتراك في صنعه، وهو محرم بدون ريب.

وربما استشكلت هذا الذي أقوله، بما يخيل إليك من أنه كلما وجد القضاء وجد المقضيّ، وكلما فقد الأول فقد الثاني، ومن ثم فإن الرضا بالقضاء يجرّ إلى الرضا بالمقضي، وهو يعني ضرورة الرضا بكفر الكافر وجحوده، وهو ما لايتفق مع أوليات الدين وبدهياته.

والجواب أن قضاء الله ينقسم إلى قسمين، كما هو معروف في بابه، أما القسم الأول منه فيتعلق بالأمور التكوينية القهرية، التي لا دخل لإرادة الإنسان وحريته فيها. كتقلب الليل والنهار واختلاف الأزمنة،

وهطول الأمطار وهبوب الرياح واخضرار العشب والنبات والزلازل والأعاصير.

وأما القسم الثاني منه، فمردّه إلى اختيار الإنسان وتصرفاته التكليفية وقضاء الله في هذا القسم يعني كما ذكرنا علمه وإرادته بخلق عناصر الخير والشر في طريق الإنسان مع إقداره على أن يستجيب لأوامره فيستخدمها في الخير وعلى أن لايستجيب لها، فيستخدمها في الشر الذي نهى عنه.

إذا تبين هذا فاعلم أن بين القضاء والمقضي في القسم الأول تلازماً مضطرداً. فقضاء الله باختلاف الليل والنهار هو المصدر الذي إليه مردّ وقوع هذا الاختلاف، والاختلاف الفعلي هو النتيجة التي لابدّ منها والتي لاتصدر إلا من قضاء الله بذلك، ومن ثم فإن الرضا بقضاء الله في هذا القسم لابدّ أن يسري إلى الرضا بالمقضي.. وهذا يقتضي أن نقول: إن الرضا بقضاء الله بوقوع كارثة في مكان ما، كزلزال وخسف، يستلزم الرضا بالمقضي الذي هو وقوع تلك الكارثة فعلاً في ميقاتها الذي حدده قضاء الله عز وحل. وفي هذا إشكال كبير يشعر به الباحث لأول وهلة.

ولكن الأشكال ينمحي في ظل ثقة العبد بحكمة الله عز وجل.. إن الرضا، في ظل هذه الثقة، لايكون بالكوارث من حيث ذاتها أي من حيث هي كوارث، وإنما لما قد يكون فيها من إيقاظ وإصلاح وتربية، يعود أثره إلى الناس بالخير والشر.

أجل.. فإن اليقين المجرد بحكمة الله وعدله ورحمته، من شأنه أن يوحي إلى النفس أن كل ما قد يواجه الإنسان من الكوارث

والمصائب، خاضع لسلطان بيان الله القائل: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢/٢١٦] فكيف إذا صاحب هذا اليقين الحب؟ إن النفس عندئذ تتلقى، مع هذه الثقة طمأنينة القبول والرضا، كما قد فصلت لك من قبل.

ولا أرى مثالاً أشبه بهذا الذي أقول، من المحب الصادق، إذ يتلقى ضربة موجعة من محبوبه، إن هذه الضربة بحدّ ذاتها من أوضح أنواع الشر الذي تكرهه النفوس، بما فيها نفس هذا المحب. ولكنه عندما يرى نسبة هذه الضربة إلى محبوبه الذي هو متعلق به، يختفي منها كل معاني الشر والإيلام، ويتلقاها منه بكامل الرضا والسرور، فكيف إذا وثق بأن محبوبه حكيم ودود رحيم، لايقدم على ما أقدم عليه إلاّ لمصلحة رآها؟!..

أما القسم الثاني من القضاء، وهو ما كان مردّه إلى اختيارات الإنسان وتصرفاته التكليفية، فإن المقضي الذي تعلق به قضاء الله في هذا القسم، إنما هو واقع ما يتمتع به الإنسان من الحرية والاختيار.. ذلك هو القضاء، وهذا هو مقضيّه، ولاشك أن بينهما تلازماً بيناً، وليس في ذلك أي إشكال. إذ التلازم قائم بين قضاء الله بأن يكون الإنسان حراً مختاراً، وبين أحد خياري الخير والشر إذ يتسنى للإنسان أن يتجه إليه. ولا إشكال في أن يرضى المؤمن بقضاء الله في حق الإنسان، وأن يرضى بالمقضي الذي هو القدرة السلوكية على التوجه إلى أيّ من الخير أو الشر.

ولكن أفيستوجب هذا أن يرضى أحدنا بالمعصية التي اختارها زيد من الناس؟ لا، لأن المقضيّ ليس هو اختياره للمعصية بالذات، حتى يستوجب الرضا بالقضاء الرضا بها.. وإنما المقضيّ تمكنه من اختيار أحد الشيئين: الطاعة أو المعصية.

وإذا تبين هذا، فإن واجب المسلم أمام قضاء الله هذا (أي القسم الثاني منه) يتلخص فيما يلي:

أولاً: وجوب الرضا بالقضاء الذي قضى به في حق عباده: أن يخلقهم مختارين قادرين على اتخاذ القرار الذي يشاؤون، ووجوب الرضا بالمقضي الناتج عنه، وهو تمتعهم فعلاً بهذه المزية، بعد خلقه لهم.

ثانياً: وجوب الرضا بما سيختاره المسلم إن كان طاعة مما قد أمر الله به، ووجوب عدم الرضا بما سيختاره إن كان معصية مما قد نهى الله عنه.

هذا باختصار هو الجواب عن هذا الإشكال. فإن بقيت في نفسك شائبة منه، أو كان في فكرك غموض في بعض ماقد أوضحت، فارجع إلى كتابي (الإنسان مسير أو مخير) بدءاً من الصفحة ٢٢٠ فما بعد، تجد تفصيلاً وافياً لهذه المسألة.

* * *

إذن فصلاحية الأعمال تتوقف على حسن الأحوال، ويتلخص حسن الأحوال في فراغ القلب من الشواغل وعدم تعلقه بالأغيار،

ليصفو له التوجه إلى الله حباً ومهابة وتعظيماً، وحسن الأحوال رهن بالتحقق، أي التدرج السلوكي في مقامات الإنزال.

وقد علمت أن أول هذه المقامات التوبة، يليها الصبر والمثابرة عليه، يليه الرضا الذي يحيل مرارة الصبر إلى حلاوة، ويسقط الفرق بين المنح والمحن، وبين إقبال الدنيا وإدبارها، وبين الشدة والرخاء.

وقد علمت أن من أهم العوامل التي تنقل المؤمن إلى منزلة الرضا، الحب. وإنما يزدهر الحب في القلب على أعقاب الصبر إذ يصبر ويثابر عليه السالك.

ولكن فكيف السبيل إلى ذلك كله؟.. كيف السبيل إلى التدرج في هذه المنازل، حتى يصل إلى هذا الشأو؟

لاسبيل إلى ذلك إلاّ الإكثار من ذكر الله.. فهو وحده عدّة السالكين، وبمصباحه يستنير الطريق، وبأسراره تزول العوائق وتردم الأخاديد وتتحطم التضاريس.

ولكن ماهي آداب الذكر وسبيله، والرتب التي يتدرج فيها الذاكر؟

يجيب ابن عطاء الله عن ذلك في الحكمة التالية.

* * *

الحكمة السابعة والأربعون

((لاتترك الذكر لعدم حضورك مع الله فيه، لأن غفلتك عن وجود ذكره أشد من غفلتك في وجود ذكره. فعسى أن يرفعك من ذكر مع وجود غفلة إلى ذكر مع وجود يقظة. ومن ذكر مع وجود يقظة إلى ذكر مع وجود حضور. ومن ذكر مع وجود حضور إلى ذكر مع غيبة عما سوى المذكور ﴿وَما ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾)).

المراد من الذكر الذي يكثر القرآن من الأمر به وبيان مدى أهميته، التذكر، وهو عمل من أعمال القلب أو النفس ينافي الغفلة. يقول الله عز وجل: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصالِ وَلا تَكُنْ مِنَ الْغافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٧/٢٠٥].

فذكر النفس هو التذكر، وقوله: ولاتكن من الغافلين، تأكيد لهذا المعنى المطلوب، وتحذير من الوقوع في نقيضه وهو الغفلة.

بيد أن الذكر اللساني واحد من السبل الموصلة إلى الذكر القلبي الذي هو التذكر. لذا فقد كان رسول الله يوصي ويأمر به. روى الترمذي وابن ماجه وابن حبان والحاكم من حديث عبد الله بن بسر رضي الله عنه، أنّ رجلاً قال: يارسول الله إن شرائع الإسلام قد

كثرت عليّ، فأخبرني بشيء أتشبث به، قال: ((لايزال لسانك رطباً من ذكر الله)).

ولاريب أن أمره ﷺ بالذكر اللساني، أمرٌ بما لابدّ منه للوصول إلى الذكر القلبي الذي هو المبتغى والمقصود.

غير أن في الناس من يتطلع إلى الغاية التي أمر الله بالذكر من أجلها، فلايجد في نفسه سبيلاً إليها، وينظر فيجد أن لسانه الذي يذكر الله به في واد، ومشاعره وهواجسه النفسية في واد آخر، فتحدثه نفسه بأن يتوقف عن الذكر اللساني، نظراً إلى الغفلة الدائمة التي تصاحب ذكره.

يقول ابن عطاء الله له: لاتترك الذكر لعدم حضورك مع الله فيه، لأن غفلتك عن وجود ذكره أشد من غفلتك في وجود ذكره.

وقد عدد الشيخ أحمد زروق رحمه الله ذلك في ثلاثة أسباب:

السبب الأول: أن في الذكر اللساني إقبالاً إلى الله، بوجه ما، وفي انقطاع اللسان عنه غفلة وإعراض عنه بالكلية.

السبب الثاني: أن في الذكر اللساني تزيين جارحة من جوارح الجسم بالعبادة، وفي انصراف اللسان عنه حرمان من ذلك.

السبب الثالث: أن في الذكر اللساني تعرضاً لنفحات ربانية من شأنها أن تكون سبباً ليقظة القلب وتفاعله مع ماينطق به اللسان[1].

---

(١) شرح الشيخ أحمد زروق للحكم، بتحقيق الشيخ عبد الحليم محمود، الشيخ محمود بن الشريف، ص١٢٣.

وابن عطاء الله يركز على هذا السبب الثالث، إذ يقول: فعسى أن يرفعك من ذكر مع وجود غفلة إلى ذكر مع وجود يقظة.

إن انشغال جارحة اللسان بذكر الله تعالى عبادة بحدّ ذاتها، ولكنها عبادة اقتصر حظها على اللسان وحده من دون سائر الجوارح الأخرى، بل من دون كيان الإنسان من حيث هو ذات ومجموع.

غير أن دوام هذا الحظ للسان باستمرار تحركه بذكر الله عز وجل، يسري بالتأثير إلى الكيان كله، شيئاً فشيئاً، وفي مقدمة ذلك القلب. ألا ترى إلى تحرك اللسان باللغو من القول أو بالغيبة ونحوها، كيف يكون سبباً في مدّ غاشية من الغفلة والقسوة على القلب، فكذلك العكس، لابدّ إذا تحرك اللسان بذكر الله أو بتلاوة القرآن، وثابر على ذلك، أن تمتدّ من هذه الطاعة التي يحبها الله نفحة نورانية إلى القلب، توقظه من الغفلة وتبعث فيه مشاعر الرقة.

إن الشأن في الغافل الذي يصرّ مع ذلك أن يحرك لسانه بذكر الله، أنه يقدّم بذلك معذرته إلى الله عز وجل، قائلاً بلسان الحال: اللهم لئن كان قلبي مشغولاً عنك بأهوائه التي لاقبل لي بصرفه عنها إليك، فلقد شغلت بذكرك لساني الذي أقدرتني على التحكم به، وصرفتُه عن الخوض فيما لايرضيك إلى ذكرك وشكرك والثناء عليك.

والمظنون حينئذ بكرم الله وفضله، أن يعتقه من أسر ضعفه، فيقدره على إيقاظ قلبه إليه، كما أقدره على تحريك لسانه بذكره. وهو ما تعبر عنه كلمة «عسى» في قول ابن عطاء الله «فعسى أن يرفعك من ذكر مع وجود غفلة، إلى ذكر مع وجود يقظة».

والمراد بيقظة القلب هنا، انتباهه إلى معنى الذكر الذي ينطق به اللسان، وعدم غياب الشعور عما يردده اللسان. وهو أول درجات توجه القلب إلى الله، وأولى خطوات الابتعاد عن الشواغل الدنيوية وأسبابها.

* * *

فإذا انتقل الذاكر من تحريك اللسان بألفاظ الذكر، مع الغفلة عن التنبه إلى ما يقول، إلى تحريك اللسان بألفاظ الذكر، مع التنبيه إلى ما يقوله ويقظته إلى ما يتضمنه من المعاني، ثم ثابر على هذه الحال، ولم يتراجع إلى ما كان عليه من اشتغال اللسان بالذكر مع شرود الذهن عن التنبه إلى مايقوله، واتخذ لنفسه ورداً دائماً من ذكر الله تعالى، على حال يشترك فيه اللسان مع يقظة الخاطر والذهن، فإن المأمول من كرم الله وفضله أن يرقى به الفضل الرباني إلى حالة الحضور مع الله تعالى أثناء ذكره.

فما الفرق بين اليقظة والحضور؟

يقظة الذاكر تعني، كما قلت لك، مجرد سيره الفكري مع معاني الكلمات التي يقولها أو يرددها، بقطع النظر عن مدى تفاعله الشعوري معها، وبقطع النظر عن مدى يقينه الاعتقادي بها.

أما الحضور، فهو انجذاب مشاعر الذاكر إلى المذكور حباً أو خوفاً أو مهابة وتعظيماً، حسب ما يتضمنه الذكر الذي يتجه به إلى الله عز وجل من استغفار أو تسبيح أو ثناء وتمجيد وتوحيد. ومن آثار هذا

الحضور أنه يصرف الذاكر شيئاً فشيئاً عن شواغل الدنيا وهمومها. إذ ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه، فإذا حضر القلب مع الله أثناء ذكره له متجهاً إليه بعواطفه الدافعة أو الرادعة أو الممجدة، فلابد أن يغيب - بمقدار حضوره مع الله - عن أفكاره وأحلامه وهمومه الدنيوية.

لعلك تقول: إنني أملك اليقظة الفكرية إلى ما أقوله وأردده بلساني أثناء ذكر الله تعالى، ولكني لا أجد لديّ نعمة هذا الحضور الذي تصفه.

والجواب أن المداومة على المرحلة التي أنت فيها، مرحلة اليقظة، ستكون أكبر عون لك على الانتقال إلى مرحلة الحضور.. لأن اليقظة العقلية من شأنها أن تبعث في المشاعر أسباب التعلقات الوجدانية.

ولأضرب لك مثلاً بتلاوة القرآن، وهي من أجلّ أنواع الذكر، إنك إن تجاوزت مرحلة الغفلة أثناء تلاوته إلى مرحلة اليقظة إلى معانيه، فإن استمرار تلاوتك له على هذه الحال، يغرس في أفكارك معاني الآيات التي تقرؤها، فإذا ترسخت فيها هذه المعاني، سرت منها إلى مشاعرك عوامل حبك لله عز وجل وعوامل تعظيمك له وخوفك منه، إذ القرآن فيه من المعاني ما يبعث على حب الله وفيه ما يبعث على تعظيمه والخوف منه.

كذلك المداومة على الاستغفار، أو على التسبيح أو الحمد أو التوحيد، إن من شأن ما تحمله هذه الأذكار المتنوعة من المعاني، أن تبعث برسائل مثيرة ومهيجة إلى مكمن العاطفة بين جوانح الإنسان

الذاكر، فتتجه منه العاطفة إلى الله تعالى بالتعظيم والحب والخوف والثقة... ومن ثم تتلاقى يقظة العقل مع عاطفة القلب، فيتحقق من ذلك الحضور الذي أوضحت لك معناه.

واعلم أن الذاكر في مرحلة اليقظة، لايحتاج إلى أن يشغل نفسه بالذكر اللساني، بل بوسعه أن يتحول إلى الذكر النفسي أي أن لايكون غافلاً عن الله تعالى بأن يكون دائم التذكر له، اللهم إلا الأذكار اللسانية المأثورة، كالاستغفار في الأسحار، وكالتسبيح بعد الفجر وعند الغروب، وكالإكثار من الصلاة على رسول الله ﷺ، فالمطلوب في ذلك اجتماع اللسان مع الجَنان.

غير أن المراد بالذكر العام من وراء المأثورات التي ضربت لك المثل ببعض منها، التذكر ويقظة العقل إلى المذكور جل جلاله، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ لآياتٍ لأُولِي الأَلْبابِ ، الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِياماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالأَرْضِ رَبَّنا ما خَلَقْتَ هَذا باطِلاً سُبْحانَكَ فَقِنا عَذابَ النّارِ﴾ [آل عمران: ٣/١٩٠-١٩١].

فقد شرح البيان الإلهي الذكر الذي يدعو إليه في سائر الأحوال، بالتفكر في خلق السماوات والأرض، وهي دعوة مكررة في كتاب الله عز وجل.

* * *

فإذا أكرم الله الذاكر بنعمة الحضور أثناء ذكره له، وثابر على ذلك، واتخذ من ذكره لله على هذا النحو ورداً يواظب عليه، فالمأمول

من فضل الله عز وجل، أن ينقله الذكر إلى رتبة أعلى، ألا وهي غياب الذاكر عما سوى المذكور.

أي إن الذكر ينسيه الدنيا التي من حوله، بكل مظاهرها وأنواعها وألوانها، فلايتجه منه الشعور والإحساس إلاّ إلى الله وحده، على الرغم من أنه يعيش ويتعامل معها ويخوض في غمارها.. إن ذكره القلبي، أو اللساني المرتبط بالحضور مع الله عز وجل، يغيبه شيئاً فشيئاً عن المعايش الدنيوية وأسبابها وينسبه توجهاته إليها واهتماماته بها، ويتحول كل ما كان من ذلك، شاغلاً له عن الله، إلى مذكر له بالله، فهو أنّى التفت من حوله لاتقع عيناه إلا على الآيات الناطقة بصفات الله، وأينما وجّه سمعه من الدنيا التي حوله لايسمع منها إلا نشيد التسبيح مقروناً بحمد الله. فكأنه يرى أن الدينا بكل ما فيها تذكر الله معه: تسبحه مع تسبيحه، وتثني عليه مع ثنائه، وتحمده مع حمده، وتعظمه مع تعظيمه[١]...

وكن على يقين، أيها القارئ، أن صفوة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قد تبوؤا هذه المرتبة، كانت أنفاسهم مقرونة بذكر الله، وكان ذكرهم لله حجاباً يفصلهم عن الدنيا ويغيبهم عن آلامها وآمالها. وكان سيدنا رسول الله هو القدوة لهم في ذلك، وهو الواصل من قبل إلى ذلك الشأو.. كيف لا وهو سيّد الذاكرين، وهو الذي تستنطق الحجارةَ بذكر الله كفُّه، ويجعل من معايشه التي يتقلب

(١) ارجع إلى تفصيل هذا الأمر في الصفحة ١٩٤ وما بعدها، من الجزء الأول من هذا الكتاب.

فيها محاريب لذكر الله، فما يركن إلى رقاد، ولايستيقظ منه، ولايدخل خلاء، ولايباشر وَضُوءاً، ولا يجلس إلى طعام، ولايرتدي جديداً من ثياب، إلاّ وغاب عن ذلك كله بشعوره إلى ذكر الله[١]. وهل ترقى مرتبة الغياب عما سوى المذكور، إلى أعلى وأتمّ من هذا الشأو؟

وإذا استغرق الذاكر مع الله في هذه الرتبة، غائباً عن الدنيا التي يتقلب فيها، قد يخيل إلى من كان بعيداً عن معنى الذكر وآثاره، أن مسّاً من جنون قد أصابه.. فلا يلتفتن بأي اهتمام إلى هذه التهمة، وليمض في نشوة ذكره لله عز وجل، متذكراً قول رسول الله ﷺ، فيما رواه أحمد والحاكم وأبو يعلى وابن حبان، من حديث أبي سعيد الخدري: ((أكثروا ذكر الله، حتى يقولوا مجنون)).

وإذا جُذِبَ الذاكر إلى الله أثناء ذكره، فاستغرق في شهوده، وغيَّبته حاله مع الله عن الدنيا وأهلها، فلا يلتفتن إلى من قد أعوزتهم هذه الحال، وجعلوا من بلاء فقرهم حجة ضد الآخرين، وليستبشر بأنه واحد ممن قال عنهم رسول الله ﷺ فيما رواه مسلم والترمذي وغيرهما: ((سبق المفرِّدون، قالوا ما المفردون يا رسول الله؟ قال: المستهتَّرون بذكر الله، يضع الذكر عنهم أثقالهم، فيأتون الله يوم القيامة خفافاً))[٢] .

---

(١) ورد في الصحيح بسط وتفصيل لذلك كله، وقد سبق بيانه بشيء من التفصيل في شرح بعض الحكم السابقة.

(٢) الحديث رواه مسلم والترمذي بسنده عن أبي هريرة، وهذا اللفظ للترمذي.

فانظر إلى كلمة ((المستهترين)) التي عبّر بها رسول الله ﷺ، وهي تستعمل غالباً في نقد من أفرط في الشيء وتجاوز به الحدّ المألوف أو المطلوب، فأصبح من المولعين به، ولكنه ﷺ يجنده ويدعو إليه، ويجعل من هذا الاستهتار شهادة سبق في مضمار السير إلى الله والقرب منه.

* * *

وصفوة القول أن السلوك إلى الله تعالى، ليس له بعد الإيمان به، إلا سبيل الذكر، وإنما مفتاحه الذكر اللساني ولا حرج أن يكون القلب غافلاً. إذ حركة اللسان بالذكر من شأنها أن تبعث شيئاً فشيئاً إلى يقظة القلب..

فإذا صبر الذاكر على ذكره اللساني واتخذ لنفسه من ذلك ورداً يثابر عليه، أدركته يقظة القلب، وبدأ يشعر بحلاوة الذكر.. فإذا ازداد إقبالاً إليه وتعلقاً به، ومثابرة عليه، هيمن الذكر على مشاعره وانتقل إلى مرتبة الحضور، وأصبح الذكر سجية له، وغدا عملاً من أعمال الفكر.. ثم إن مواظبته على ذكر الله بهذه الحال، تنقله شيئاً فشيئاً إلى الغيبوبة عن المكونات كلها والاستغراق في شهود الله عز وجل، وهي الحال التي تسمى بوحدة الشهود، وقد سبق شرحها وبيانها في الجزء الأول من هذا الكتاب.

إذن فذكر الله هو المدخل، بل الطريق الذي لابديل عنه، للسير في مدارج السالكين.. وهو الرفيق الذي لا غنى عنه في أي من المراحل التي يتدرج فيها السالكون، وهو المعنى الذي إذا فرغت منه الطاعات

والقربات، تحولت إلى رسوم لا حقيقة لها ولافائدة منها، بقطع النظر عما قد توصف به من صحة أو بطلان، إذ إن مواصفات الصحة والبطلان للطاعات والعبادات، جزء لايتجزأ من رسومها وأشكالها الظاهرة.

من أجل هذا قال رسول الله ﷺ: ((ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والوَرِق، وخير لكم من أن تلقوا عدوّكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟.. قالوا بلى. قال: ذكر الله))[1].

وإياك أن تفهم أفضلية الذكر على تلك القربات الأخرى التي عددها رسول الله على غير وجهها، فتتوهم أن المسلم إذا ثابر على ذكر الله لم يعد يطالَبُ بزكاة ولاصدقة ولاجهاد في سبيل الله... إن المعنى الذي نبه إليه رسول الله كما ذكره الشراح، هو أن قبول الله للطاعات التي يؤديها المسلم أياً كان، متوقف على سلامة القصد وإخلاص النية وصفاء العمل من شوائب العجب والرياء والمقاصد الشخصية، ولايتأتى ذلك إلا بطهارة القلب من سائر الآفات التي تحجب العبد عن الله وتحول دون توهج الفؤاد بحبه، وإنما السبيل الوحيد إلى ذلك ذكر الله. فهو الشرط إذن لصلاحية القربات والصدقات والجهاد، وقبول الله لها وخلق النتائج المترتبة عليها.. فمعنى الحديث: إن ذكر الله تعالى خير عند الله عز وجل من صدقات

---

(١) رواه أحمد والحاكم والبيقهي وابن أبي الدنيا والترمذي، وابن ماجه، من حديث أبي الدرداء، وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ورواه أحمد أيضاً من حديث معاذ، بسند فيه انقطاع.

وأعمال جهاد تؤدي بمعزل عن ذكر الله عز وجل، إذ لن تكون عندئذ صافية عن الشوائب التي من شأنها أن تودى بفائدتها وآثارها.

فهو كقولك إن الوضوء الذي يسبغه المسلم استجابة لأمر الله، خير من الصلاة التي يؤديها بلا وضوء.

وحسبك من دلائل أهمية انصراف القلب إلى ذكر الله، وخطورة انصرافه عن ذكره، قول الله عز وجل لرسوله: ﴿وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا وَاتَّبَعَ هَواهُ وَكانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾ [الكهف: ١٨/٢٨].

اللهم اجعل أفئدتنا نابضة بذكرك، واجعله أنيسنا الدائم في اجتيازنا لمفاوز الدنيا إليك، واجعله سلّم وصولنا إلى شهودك وأجرنا اللهم من آفات نفوسنا وضعف جبلّتنا، فإنه لاحول ولا قوّة إلاّ بك.

* * *

الحكمة الثامنة والأربعون

((من علامات موت القلب عدم الحزن على ما فاتك من الموافقات، وترك الندم على ما فعلته من وجود الزلاّت))[1]

ما المراد بحياة القلب وموته، في مصطلح التربية الإيمانية التي نحن بصددها؟

عندما يكون القلب عامراً بمشاعر حب الله وتعظيمه والخوف منه، فهو إذن قلب حيّ. وعندما يكون خالياً عن هذه المشاعر، فهو إذن قلب ميت. ولكل من حياة القلب وموته آثار هامة تتجلى في حياة صاحبه وسلوكه، وأنت تعلم أننا لانعني بالقلب هنا تلك العضلة التي يتحدث عنها الأطباء وتخضع لعلاجاتهم وعملياتهم المختلفة.. وإنما نعني به في هذا الصدد المشاعر التي تنعكس، بفعل الروح، على هذه العضلة، مما يسمى بالعواطف الدافعة والرادعة والممجدة..

---

(١) هكذا رأيت في سائر النسخ، ولعل حذف كلمة ((وجود)) أولى. إذ الفعل لا يسلّط عليه.

وإني لأفترض أنك قد تسأل نـاقداً، أو مستشـكلاً، بعـد أن عرفـت معنى كل من القلب الحي والقلب الميت: لمـاذا لاتكـون علامـة القلـب الميت ارتكاب الزلات، من حيث تكون علامـة القلـب الحـي النهـوض بسائر «الموافِقات» أي الطاعات. ومصدر هذا السؤال أو الاستشـكال أن من شأن القلب العامر بحب الله وتعظيمـه والخـوف منه أن يحمـل صاحبه على أداء سائر الطاعات والابتعاد عـن جميع المحرمـات. إذ لا ثمرة لحياة القلب الحيّ إلا ذلك، ومن ثم فالمفروض أن يكون المتـورط في الزلاّت ذا قلب ميّت، سواء داخله الندم على ذلك أم لا.

والجواب عن هذا الاستشكال أن الله، لحكمة باهرة، متـع الإنسـان بفطرة إيمانية ترقى به إلى مسـتوى الملائكيـة، وجهـزه بقلـب مهيـأ لأن يكون وعاء صافيـاً لأقـدس حـب في الكـون، ألا وهـو حـب اللـه عـز وجل، وقضى بأن تكون الروح السارية في كيانه، سراً هابطاً إليـه مـن الملأ الأعلى، منتمياً بنسب التكريم والتميـيز إلى ذاتـه العليـة، ومـن ثـم فهي تظل في حنـين دائـم إلى العـالم العلـوي الـذي أهبطـت منـه، وفي شوق شديد إلى الذات الإلهية التي شرفها بخصيصة التمييز والتكريـم.. إذن فالكيان الإنسـاني مهيـأ قلبـاً وروحـاً لأن يفيـض بأسـمى مشـاعر الحب والتعظيم والمهابة لله عز وجل.

أما الطاقة التي يتمتع بها الإنسان، فقد قضى الله عز وجل، لحكمـة باهرة كما قلت، أن تكون مشدودة إلى كثير من عوامل الضعف. فقد شاء الله تعالى أن تكون قدرته الجسمية والماديـة محـدودة، وأن تتسـلط عليه نوازع الغريزة بكل أصنافها وتطلعاتها، وأن تتسرب إليه وسـاوس

الشياطين، وأن تهتاج بين جوانحه نيران الشهوات المختلفة، إلى جانب الفطرة الإيمانية التي متعه الله بها ، وموازين إدراك الحقائق التي جهز دماغه بها. وهكذا فقد غدا الإنسان محور صراعٍ وملتقى أطماعٍ لهذه العوامل المحيطة به كلها، وكان لابدّ أن يصبح ضعيفاً تحت وطأة هذا الصراع الدائب، وتلك هي الحقيقة التي أخبر بها البيان الإلهي القائل: ﴿وَخُلِقَ الإِنْسانُ ضَعِيفاً﴾ [النساء: ٤/٢٨].

إذن فالكيان الإنساني يحوي طاقة علوية تتجه بالحب والحنين إلى الملأ الأعلى، وتتمركز هذه الطاقة في الروح التي تعكس ايحاآتها إلى القلب. إلا أنه في الوقت ذاته يعاني من ضعفٍ آت من تسلّط العوامل الغريزية والشهوانية والوساوس الشيطانية، ومحدودية الطاقة الجسدية.. فينشأ التناقض عندئذ بين الطاقة الروحية التي يترجمها القلب إلى مشاعر الحب والخوف والتعظيم، والضعف الطبيعي الذي تترجمه الغرائز والأهواء والشهوات.

فما هي النتيجة التي تنشأ من هذا التناقض؟

النتيجة التي لامحيص عنها هي الوقوع بين جاذبي الخطأ والصواب، أو الطاعة والعصيان، وصدق رسول الله القائل: ((كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون))[1].

تعلو به الروح ومشاعر القلب نحو الطاعة، وتسمو به صعداً لأداء حقوق الحب والمهابة والتعظيم، وتثّاقل به أعباء الشهوات والغرائز

---

(١) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم في المستدرك، من حديث أنس بن مالك، وسنده صحيح.

والضعف البشري إلى حظوظ النفس وأهوائها، فيصيب ويخطئ، ويستقيم على الصراط ويتعثر، ويطيع ويعصي.. ذلك هو شأن الإنسان، بل ذلك هو شأن المسلم في كل زمان ومكان، حاشا الرسل والأنبياء فقد ميزهم الله بالعصمة عن الانحرافات والآثام، ليتأتى لهم النجاح في الدعوة إلى الله، والنصح بالسير على صراط الله، وليكونوا في حياتهم وسلوكهم قدوة للآخرين.

ولكن، ما الحكمة من هذا التناقض بين تسامي الروح والقلب إلى عالم الاستقامة والحب وآمال الانقياد الدائم لأمر الله، واتجاه الكيان البشري مثقلاً بالغرائز إلى حيث الشهوات والأهواء؟.. ما الحكمة من قيام التناقض بين قوة الحب الرباني المهيمن على الفؤاد، وضعف الطاقة البشرية المهيمن على الذات والكيان؟

الحكمة أن يرى العبد المؤمن بالله عز وجل من هذا التناقض، مشكلة لا مخلص له منها، إلا الفرار إلى الله والاستعانة به.. يفرّ إلى الله من ضعفه، ويلوذ به من وقع غرائزه وضراوة شهواته، ويسأله أن لايكله إلى نفسه وأن لايتركه لسلطان أهوائه ووساوس شيطانه.. معترفاً بأنه ضعيف مهين، لايملك - من دون معونة الله له - حولاً ولا قوة.

وهذا المصير الذي ينتهي إليه هذا العبد، فراراً من التناقض الذي وصفته لك، هو المعنيّ بكلمة «العبودية» وهي الغاية القصوى من تقلبات الإنسان في حياته الدنيا، ولا فائدة للعبادات السلوكية الظاهرة، بدون التحقق بمشاعر العبودية الواجفة.. وهي في خلاصة معناها حالة

من الافتقار الكلي يشعر به الإنسان تجاه ربه عز وجل. فيقوده إليه بالدعاء والرجاء والاسترحام، وطلب العون.. موقناً بأنه لايملك من أمر نفسه نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً.. وهي سلّم القرب إلى الله، ومفتاح الوصول إلى مرضاته.

ومهما صلى العبد وصام، ومهما تفنن في النسك والعبادات، لايقرّبه شيء من ذلك إلى الله، إلا إن كان مضمخاً بذل الافتقار إلى الله ممزوجاً بمشاعر الانكسار بين يديه.

ولكن من أين يأتي هذا الانكسار؟ ومن أين يصدر الشعور بهذا الافتقار؟

إن شيئاً من ذلك لايصدر إلا من هذا التناقض الذي قضا به الله عز وجل، بين القلب الذي جعله الله وعاء مهيأ لأقدس معاني الحب.. الحب الصاعد من فؤاد العبد إلى الرب عز وجل، وبين الكيان البشري الذي ابتلاه الله بالضعف والعجز عن أداء حقوق ذلك الحب..

تصور، لو أن الله عز وجل أكرمك بقدرات بشرية تتناسب ولواعج محبتك لله ورغبتك في الاستقامة على أوامره ووصاياه كلها دون أي تقصير، إذن لهيمنت عليك نشوة الشعور بالنصر ولطاف بك الزهو، ولنال منك الإعجاب بقوتك ونجاح جهودك.

فما الذي يقودك عندئذ إلى الالتجاء إلى الله، وما الذي يحملك على الانكسار بين يديه، وكيف تشعر بمصداق قوله لك: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥/٣٥].

بل ما الذي يقودك عندئذ إلى الدعاء الذي هو العبادة أو مخ العبادة، مستجيباً لأمر الله ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ..﴾ [غافر: ٦٠/٤٠] مادامت قدراتك البشرية متجاوبة ومتكافئة مع مشاعرك وطموحاتك القلبية، ومادامت الاستقامة الدقيقة على أوامر الله لاتتخلّى عنك؟

* * *

فقد تبين لك إذن أن من سنن الله في عباده أن تكون قدراتهم البشرية وإمكاناتهم السلوكية متقاصرة عن طموحاتهم الروحية، وعن مشاعرهم القلبية، قد يسمو أحدهم بحبه لله إلى أعلى الرتب إخلاصاً وتفانياً، فإذا استنهض كيانه البشري لأداء حق هذا الحب فوجئ بالعوائق والعجز، للعوامل التي ذكرتها لك.

وقد علمت أن الحكمة من هذه السنة الإلهية، أن تنقدح مشاعر العبودية لله والافتقار إليه، من خلال هذا التناقض القائم بين الروح العلوية والغرائز الأرضية، أو بين القلب الملتاع بحب الله، والبشرية المثقلة بقيود الأهواء.. ومن ثم فلا مطمع في أن يكون الإنسان أياً كان (حاشا الرسل والأنبياء) معصوماً عن الزلل والآثام.

وإنما يقوم مقام العصمة التي لا مطمع فيها، أن يحزن العبد على ما قد فاته من الطاعات، إذ عاقته أهواؤه أو قعد به ضعفه عنها، حزناً يسوقه إلى التضرع بين يدي الله والالتجاء إليه أن يغفر له تقصيره وأن يوفقه لتدارك ما فاته.. وأن يندم على ما اقترف من الزلاّت ندامة

تقوده إلى التوبة إلى الله والخجل منه والاستعانة به أن يقيه من ضعفه وأن يحميه من الوقوع ثانية في براثن عجزه.

فذلك الحزن على فوات الطاعات، وهذه الندامة على الوقوع في الزلات، تحلاّن - بفضل الله وعظيم رحمته - محلّ العصمة التي اقتضت حكمة الله أن يحجبها عن عباده، بل نقول بتعبير أصح وأدق: اقتضت حكمة الله أن لايكلفهم بها ولايحملهم مسؤوليتها، وذلك عندما جعل من الندامة الحقيقية التي تقود إلى التوبة بديلاً عنها.

إن التحقق بالعبودية، يرقى بالإنسان إلى أعلى من الشأو الذي تتبوؤه الملائكة بعصمتها ودوام تسبيحها وطاعتها..

نعم، إن الملائكة تنعم بالعصمة عن الوقوع في المعاصي، ولكنها لاتتمتع بما يتمتع به الإنسان الذي عرف ربه، من لذة التبتل بين يديه والانكسار على بابه، ولاتذوق لذة اللحظة التي يتوب فيها العبد إلى الله إذ يسمع نداء الله قائلاً: ﴿وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنوبَ إلاّ اللَّهُ﴾ فيخرّ العبد ساجداً لمولاه تائهاً ما بين نشوة الشكر له ولذة التذلل على أعتابه. وهذه المزية لاتتحقق إلا من جراء الضعف الذي يعرّض الإنسان لمنزلقات الأخطاء والتقصير، كما مرّ بيانه.

وتأمل في هذا المعنى، وانظر كم يبدو جلياً في خطاب الله لإبليس، وقد آلى على نفسه مخاطباً الله عز وجل أن يغلق على بني آدم صراطه المستقيم، وأن يأتيهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم، يصدّهم عن شكر الله وعن الاستجابة لأوامره، إذ أجاب

الله فقال: ﴿هَذا صِراطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ، إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلاّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ﴾ [الحجر: ١٥/٤١-٤٢].

تأمل في قوله عز وجل ﴿إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ﴾ وسائل نفسك: من هم الذين يعنيهم بـ((عبادي))؟ إن الناس كلهم في الواقع، والحقيقة، عباد لله عز وجل مسلمين كانوا أو كافرين أو ملحدين، فكيف يصدق هذا القرار الإلَهي عليهم جميعاً؟ كيف لا يكون للشيطان سلطان على المارقين والجاحدين والملحدين؟

إن المراد بكلمة ((عبادي)) الذين تحققوا بوصف العبودية لله ووضعوها من حياتهم موضع التنفيذ. والتحقق بوصف العبودية لله، لايقتضي العصمة، ولكنه يقتضي العود إلى حمى الله بعد كل شرود عنه، ويقتضي الحزن على فوات الطاعة والندم على ارتكاب المعصية، والحزن والندامة يقودان إلى التوبة، وإذا تاب العبد توبة صادقة تاب الله عليه.

فمن هنا لايكون للشيطان سلطان على من تحقق بوصفه العبودية لمولاه عز وجل، ووضعها من حياته في موضع التنفيذ: يغريه الشيطان بالمعصية ويزينها له ويفتح له إليها كل سبيل، وما يزال به حتى يوقعه في شركها.. ويفرح الشيطان عندئذ إذ نجح في إغوائه، وانتهت أتعابه بالنجاح.

ولكنه ما يكاد يصحو من وقع المعصية وترتدّ عنه نشوتها، حتى تهتاج به مشاعر عبوديته لله، فتثور من ذلك آلام الخوف والخجل من مولاه بين جوانحه وتقوم في نفسه عاصفة من الندامة على مابدر منه،

ولابدّ أن يقوده ذلك كله إلى التوبة والاستغفار، وإلى التضرع بين يدي الله عز وجل أن يقبل توبته ويغفر ذنبه، فيتوب الله عليه ويغفر له ذنبه ويحط عنه أوزاره، وتذهب بذلك جهود الشيطان سدى، ويتحول فرحه إلى كمد وغيظ.. ولكنه يعود الكرة فيغريه مرة ثانية بالعصيان، ويستثير إلى ذلك أهواءه وغرائزه، وربما نجح فأوقعه ثانية في حبالة العصيان، ولكن مشاعر عبوديته لله تعالى تلهب بين جوانحه مرة أخرى نيران الندامة وتملأ كيانه بمزيج من الخوف والحياء من الله تعالى، فيعود إلى التوبة مرة أخرى، ويعود الله عز وجل إليه بالمغفرة والقبول، كما هو شأنه.

وهكذا.. كلما أصيب هذا العبد برشاش المعصية، اهتاجت به مشاعر عبوديته لله، وقاده الحزن والألم والخوف منه عز وجل إلى التوبة الصادقة، فكان ذلك طهوراً دائماً له. فذلك هو معنى قوله عز وجل: ﴿إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ﴾ [الحجر: ٤٢/١١٥] أي إن مشاعر عبوديتهم لله لابد أن تسوقهم إلى التوبة، ولابد أن يتوب الله عليهم ويضع عنهم أوزارهم، وتلك هي حماية الله لهم من سلطان الشيطان وكيده.

* * *

ولكن الداء الذي لا دواء له، أن يكون القلب ميتاً قد اختفت منه مشاعر العبودية لله، وغابت عنه نبضات الحب له والخوف منه، فلايحزن على ماقد فات من الطاعات، ولايندم على ماقد تلبس به من المعاصي والزلات، فأنى للتوبة أن تجد، والحالة هذه، سبيلاً إليه.

وإنما يتبلى القلب بهذه الحال، عندما يبرر العاصي عصيانه، ويرى في نفسه أنّه على حق فيما ارتكب، وهي نتيجة لغياب إيمانه بالله. إذ لو كان مؤمناً بالله، لأيقن أنه عبده، وأن عليه أن يدين له بالولاء وأن يخضع له بالسمع والطاعة في كل ماقد أمر به ونها عنه. فإن وُفِّق لذلك شكر الله وفرح بتوفيقه له، وإن تغلبت عليه نفسه وزلّت به القدم، ندم وتألّم وأقبل إلى الله مستغفراً تائباً.

فلما استخف بالمعصية التي وقعت منه، ولم يقم لها وزناً، ولم يشعر من بعدها بأي جزع ولا ندامة، دلّ ذلك على أنه غير مبال بأمر الله وحكمه، وأنه ذاهل عن كونه عبداً مملوكاً لله، مكلف بالانقياد لأمره والخضوع لسلطانه.

هما نقيضان لايجتمعان: العبودية الواجفة لله، والاستكبار على سلطان الله!.. فإن عَمُر قلبك بمشاعر العبودية له وُقيت شرّ معاصيك وشر أهوائك وشيطانك، وجعل الله لك من التوبة الدائمة سبيلاً ميسراً إلى صفحه ومغفرته.

وإن فاض قلبك بمشاعر الاستكبار عليه، لن تنفعك بعدها طاعة، ولن تجد سبيلاً إلى توبة، ويصدق عليك قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْها لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوابُ السَّماءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِياطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٧/٤٠].

* * *

الحكمة التاسعة والأربعون

((لايعظم الذّنب عندك عظمة تصدّك عن حسن الظن بالله تعالى، فإن من عرف ربه استصغر في جنب كرمه ذنبه))

هذه الحكمة ساقها ابن عطاء الله استدراكاً أو تقييداً للحكمة التي قبلها. فإنه لما لفت النظر إلى ضرورة الحزن على ما قد يفوت المسلم من فرص الطاعات، وإلى ضرورة الندم على ما قد ارتكبه من المحرمات، لم يبعد أن يوجد في الناس من يسترسل في الحزن، وفي الندامة، إلى أن يزجّه كل منهما في حالة من اليأس، فيقع في نفسه أنه لم يعد أهلاً لمغفرة الله وصفحه، وربما وسوس له الشيطان عندئذ أن انقياده إلى الطاعات وابتعاده عن المحرمات، لايفيدانه بعد اليوم شيئاً، فخير له أن يمتع نفسه بما يشتهيه، من أن يحرمها من حظوظها دون فائدة.

فعقب عليها بهذا الاستدراك محذراً من أن يعظم الذنب عند العاصي عظمة تصده عن حسن الظن بالله، وتنسيه واسع فضله وعظيم رحمته وصفحه، ومنبهاً إلى الرجوع بالذكر إلى صفات الله والتأمل فيها، فإن من عرف ربه من خلالها، أي من خلال معرفة صفاته، لابدّ أن يستصغر أمامها ذنوبه، مهما كثرت في العدد وعظمت في النوع.

وقد تستشكل سبيل التوفيق بين هذا الكلام والذي قبله، فتقول:

إن العبد إذا فتح باب الحزن على نفسه من جراء تقصيره في طاعات فاته شرف النهوض بها. أو فتح على نفسه باب الندم من جراء معصية ارتكبها، فإن الشأن أن يتطاول سلطان كل منهما عليه، إلى أن ينتهي به ربما إلى مضيق اليأس. ومن علم حق الربوبية على العبد، ووقف على دلائل قهر الله وسطوته، وما أعدّه للعصاة والمارقين، يصعب عليه أن يتحكم بحزنه وندمه، وأن يضع لكل منهما حداً. إذ إن كلا منهما انفعال قسري وليس فعلاً اختيارياً. فكيف يتأتى له أن يستجيب لنداء الحزن والندم، ثم يتحكم بهما ويتحرر منهما، ليجنح إلى الطمأنينة والاستبشار بأن الله قد غفر له ذنبه وأصلح له حاله، وأنه جل جلاله سيكون يوم القيامة عند ظنه به.

والجواب أن مصدر هذا الاستشكال ما قد تتوهمه من أن سبب الحزن أو الندم يجب أن يكون الخوف من سخط الله وعقابه، وعندما يكون سبب ذلك هذا الخوف فالإشكال وارد، لأن الخوف مرتبط بموجبه وهو العقاب الذي يتوعد الله الضالين والعاصين به، وإذا استحكم الخوف بالنفس، فلابد أن يشوش على حسن الظن الذي هو مبعث الأمن والطمأنينة في النفس.

غير أن الشأن في المؤمن الذي عرف ربه من خلال صفاته الأسنى وأسمائه الحسنى، ومن خلال ما لاحصر له من النعم التي يكرمه بها، ومن خلال ما سخر لخدمته من المكونات، أن يسارع دائماً في الاستجابة لأوامره ووصاياه، وفي الابتعاد عما ينهاه ويحذره منه من

المحرمات، حباً له ويقيناً منه بأنه لايوجهه إلا إلى الخير، ولايحذره إلا من الشر.. فإذا ساقه الضعف إلى مخالفة أمره، أو الوقوع في نهيه، فاض قلبه خجلاً وتأثراً من هذا الذي بدر منه تجاه مولاه، الذي هو غريق ألطافه ومننه وإحسانه. فذلك هو مصدر حزنه وندامته.. بل الشأن فيه أن يزداد حزناً وندماً كلما ازداد يقيناً بمغفرة الله له وصفحه عنه.

وتلك هي الحال التي انتابت فضيلاً، يوم كان يقف مع الحجيج في عرفة، روى ابن الجوزي في صفة الصفوة عن مهران بن عمرو الأسدي قال: سمعت الفضيل بن عياض عشية عرفة بالموقف، وقد حال بينه وبين الدعاء البكاء، يقول: واسوأتاه، وافضيحتاه، وإن عفوت عني[1].

فهذا الحزن والندم لايتعارضان مع حسن الظن بالله عز وجل، بل هما من آثاره ونتائجه، كما قد رأيت من حال فضيل.

والأليق بحال العبد أن يكون مبعث حزنه على مافاته من الطاعات وندمه على ما ارتكب من الموبقات، الحياء من الله عز وجل، والتأثر من سوء معاملته لله مع حسن معاملة الله له.. فذلك هو الدليل على حبه وتعظيمه له. أما الحزن أو الندم الذي يكون مصدره الخوف من عقاب الله وعذابه، فقصارى ما فيه أنه دليل على اهتمامه بذاته وحبه لنفسه، وحرصه على أن لايمسّه سوء وأن لايناله أذى.

كم وكم من فرق في مقام القرب والحب، بين من يجزع من المعصية التي ارتكبها، لما قد أناط الله بذلك من آيات الوعيد بالعقاب

(١) انظر صفة الصفوة ٢/٢٣٩.

والنكال، وبين من يجزع من المعصية ذاتها ويندم على ارتكابه لها، إذ يقف وقفة تدبر أمام قول الله تعالى: ﴿هَلْ جَزاءُ الإِحْسانِ إِلاّ الإِحْسانِ﴾ [الرحمن: ٥٥/٦٠].

مبعث الجزع والحزن هناك الخوف من عصى التعذيب أو التأديب.. ومبعث الجزع هنا العتب الأخّاذ الرقيق إذ يتوجه من المحسن المتفضل الكبير..

والذي ينتابه الجزع الأول، قد لاتعنيه الذات الإلهية التي تتوعده بالعقاب، وإنما يعنيه العقاب الذي يبحث عن ملاذ منه.. أما الذي ينتابه الجزع الثاني فإنما يعنيه الذات الإلهية دون سواه، حباً ومهابة وتعظيماً له.

والذي يهيمن عليه خوف العقاب، قد لايدرك أهمية المشاعر المذيبة التي تنبعث من قوله تعالى: ﴿هَلْ جَزاءُ الإِحْسانِ إِلاّ الإِحْسانِ﴾.. ولكن القلب الذي أحب الله، ووقع في أسر الإحسان الرباني الذي لاينفك عن صاحب هذا القلب في ليل ولا نهار، يأخذه من هذا العتب الإلهي الرقيق ما قد يذيبه.

وانظر.. وتأمل، بمشاعر حبك وتعظيمك لله عز وجل، إن كان قلبك يتمتع بشيء من مشاعر حبه وتعظيمه، في هذه الصياغة القرآنية العجيبة التي يقابل فيها البيان الإلهي إحساناً بإحسان على وجه المسائلة التي تنم عن وعد الله بالإحسان لعبده المحسن، وتنم في الوقت ذاته عن عتب الله على عبده الذي لايلتزم بمثل ما التزم الله له

به، فيتلقى أنواع الإحسان من مولاه دون أن يقابل إحسانه هذا بمثله!..

وانظر كيف يساوي البيان الإلهي بين العبد والرب، على سبيل التنزل، في التذكير بالقانون المنطقي العادل القاضي بأن يقابلَ الإحسان بمثله.

وينطبق هذا القانون بصياغته القرآنية الدقيقة على الذات الإلهية، كما ينطبق على العبد سواء بسواء. فالآية تقول لك: هل من جزاء للإحسان الذي يتجه به العبد إلى الرب، إلا الإحسان المقابل الذي ينبغي أن يتجه به الرب إلى العبد.. وهي تقول لك في الوقت ذاته: هل من جزاء للإحسان الذي يتجه به الرب جل جلاله إلى العبد، إلا إحسان مقابل ينبغي أن يتجه به العبد إلى ربه عز وجل؟

وإذا كان عطاء الرب لعبده إحساناً وتفضلاً، فهيهات أن يكون الواجب الذي ينهض به العبد لربه إحساناً مماثلاً أو مقابلاً، ولكنها مشاكلة اقتضاها اللطف الإلهي بعباده، والتنزل في قرار التعامل معهم إلى مستوى تعاملهم معه وتلقيهم منه، فإذا كانت نعم الله الوافدة إليهم تفضلاً منه وإحساناً، فليكن شكرهم الواجب عليها فضلاً منهم وإحساناً، على غرار قوله عز وجل: ﴿مَنْ ذا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ أَضْعافاً كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢/٢٤٥] وقد علمت أن الله أجلّ من أن يحتاج فيستقرض أو أن يتعرض لجهد أو عجز فيتفضل بالإحسان إليه من يعينه فيدرأ عنه الجهد والعجز.. وهل القربات التي

يتقرب بها العبد لربه، مما يسميه الله، تلطفاً منه وفضلاً، ((إحساناً)) إلا بتوفيق وعون من الله عز وجل؟..

إن طاعات المسلم إذ يتقرب بها إلى ربه، ليست في الحقيقة إلا من مظاهر إحسان الله له، وفضله عليه.. وستقف على تفصيل واف لهذا الكلام عند شرح الحكمة الآتية التي يقول فيها ابن عطاء الله ((من تمام نعمته عليك أن خلق فيك ونسب إليك)).

* * *

الحكمة الخمسون

((لاصغيرة إذا قابلك عدله. ولا كبيرة إذا واجهك فضله))

يقسم العلماء المعاصي إلى كبائر وصغائر. وأساس ذلك قول الله تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً﴾ [النساء: ٤/٣٠].

ولهم في تعريف الكبائر وتحديدها كلام كثير. وأنا أوجزه في تعريفها ثم في ذكر أنواعها:

أما تعريفها، فهو: كل ما جاء فيه وعيد من الله بعذاب في الآخرة، أو أنيطت به عقوبة في الدنيا كالحدّ ونحوه.

وأما تعدادها وذكر أنواعها فهي المعاصي التالية:

* الشرك بالله. والوعيد الذي جاء في حقه، قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشاءُ﴾ [النساء: ٤/٤٨].

* عقوق الوالدين. والوعيد الذي جاء في حقه، المفهوم المخالف لقول الله تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاّ تَعْبُدُوا إِلاّ إِيّاهُ وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً﴾ [الإسراء: ١٧/٢٣].

* قتل النفس بغير حق، والوعيد الذي جاء في حقه، قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزاؤُهُ جَهَنَّمُ خالِداً فِيها﴾ [النساء: ٤/٩٣] هذا إلى جانب القصاص الذي أنيط به.

* قذف المحصنات المؤمنات، ومثله قذف المحصنين من المؤمنين، والوعيد الذي جاء فيه، قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَناتِ الْغافِلاتِ الْمُؤْمِناتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ٢٤/٢٣] هذا إلى جانب الحدّ الذي أنيط به.

* أكل الربا... والوعيد الذي جاء في حقه قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا لا يَقُومُونَ إِلاّ كَما يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢/٢٧٥].

* الفرار من الزحف. وهو أن يولي المسلم في القتال ظهره للغزاة المهاجمين بينما يزحف إخوانه مقبلين مهاجمين؛ والوعيد الذي جاء في حقه، قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاّ مُتَحَرِّفاً لِقِتالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ باءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْواهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: ٨/١٦].

* أكل مال اليتيم، والوعيد الوارد في حقه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوالَ الْيَتامَى ظُلْماً إِنَّما يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ ناراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً﴾ [النساء: ٤/١٠].

* الزنا... والوعيد الوارد في حقه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثاماً ، يُضاعَفْ لَهُ الْعَذابُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهاناً﴾ [الفرقان: ٢٥/٦٨-٦٩].

* كتمان الشهادة، لقوله تعالى: ﴿وَلا تَكْتُمُوا الشَّهادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْها فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُه﴾ [البقرة: ٢/٢٨٣].

* اليمين الغموس، وهو أن يحلف الإنسان على شيء أنه فعله، وهو لم يفعله أو العكس، أي أن يقسم على شيء يعلم أنه كاذب فيه. لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣/٧٧].

* شرب الخمر، وحسبك من الوعيد عليه أن الله قرنه بالوثنية، فقال: ﴿إِنَّما الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٥/٩٠] هذا إلى جانب الحدّ الذي أنيط به.

* ترك الصلاة: لقوله تعالى في حقه ﴿... ما سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ، قالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ [المدثر: ٧٤/٤٢-٤٣] هذا إلى جانب الحد المنوط به.

* نقض العهد وقطيعة الرحم، لقوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحامَكُمْ، أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصارَهُمْ﴾ [محمد: ٤٧/٢٢-٢٣].

* يضاف إلى ذلك الإصرار على الصغائر مما دون هذه الأمور التي جاء الوعيد في حقها أو أنيط الحدّ والعقاب الدنيوي بها، فقد اتفق

جمهور العلماء على أن الإصرار على صغيرة ما يدخل صاحبه في زمرة الفاسقين، قال صاحب الجوهرة:

والعدل من لم يرتكب كبيرة ولم يكن ملازماً صغيرةً

ومن المعلوم أن الفسق نقيض العدل.

وإنما عُدَّ الإصرار على الصغيرة من الكبائر، لأن الشأن فيمن يصرّ عليها الاستهانة بتعاليم الله وأوامره، والدخول في مداخل المكْرِ به عز وجل، إذ يتوب ويجعل من توبته مقدّمة أو مبرراً للرجوع إلى المعصية التي تاب عنها. والله عز وجل لايُمَكَرُ به، وقد توعد الماكرين بالعقاب الذي سماه مكراً على سبيل المشاكلة التي مر بيانها، فقال عز وجل: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤/٣]، وقال تعالى: ﴿وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاّ بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣/٣٥].

إذا تبين هذا، فكل ما عدا الذي مرّ ذكره، مما توعّد الله عليه بعقاب في الآخرة، أو أناط الله به عقاباً أوحداً في الدنيا، فهو من الصغائر؛ وقد تسمى بالسيئات، وقد تسمى لمماً، وهما من الأسماء الواردة لها في القرآن.

* * *

والآن.. يجب أن نعلم أن هذا التصنيف الذي انقسمت المعاصي بموجبه إلى كبائر وصغائر، إنما هو ناظر إلى ميزان الشريعة الإسلامية التي أقامها الله تعالى في عباده لرعاية مصالحهم ودرء المفاسد عنهم.

إن الكبائر التي توعد الله عليها بالعقاب يوم القيامة، لم تصنَّف في الكبائر، إلا لما فيها من إهدار لحقوق العباد.. وإن الصغائر التي وعد الله بالصفح عنها والمغفرة لها، لم تصنّف في الصغائر إلاّ لأنها خادمة لحقوق الله أو دائرة على التحسينات من حقوق العباد.

والقاعدة الفقهية المعروفة تقول: «حقوق الله مبنية على المسامحة وحقوق العباد مبنية على المشاحّة».

إذن فهذا التصنيف الذي مرّ بيانه، ناظر إلى مصالح العباد في الدنيا، وليس ناظراً إلى حق الربوبية في أعناق العباد.. وفي هذا من اللطف الإلهي بالعباد ما لايغيب عن بال عاقل.

فأما إن نظرت إلى حقوق الربوبية في أعناق عباد الله عز وجل، بقطع النظر، عن الأنظمة والشرائع التي تتوقف مصالحهم على الأخذ والانضباط بها، فلن تجد عندئذ أثراً لهذا التصنيف، بل لابد أن تستوي المخالفات كلها عند حدّ من الخطورة والجسامة واحدة. إذ من أهم حقوق الله على عباده أن يطاع ولايُعصى. بقطع النظر عن نوع الطاعات وأهميتها، وعن نوع المعاصي وخطورتها.. إذ العصيان بحد ذاته، أي من حيث هو عصيان، جريمة كبرى، عندما تصدر من العبد في حق الرب. وإلى هذا المعنى الذي أقول، يشير قول الله عز وجل: ﴿وَلَوْ يُؤاخِذُ اللَّهُ النّاسَ بما كَسَبُوا ما تَرَكَ عَلَى ظَهْرِها مِنْ دابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِعِبادِهِ بَصِيراً﴾ [فاطر: ٣٥/٤٥].

فالمعاصي المعنية بقوله تعالى: ﴿بما كَسَبُوا﴾ أعم من خصوص الكبائر أو الصغائر، إذ هي شاملة لها جميعاً. وها أنت ترى كيف

اختفى هذا التصنيف فيها أمام قوله عز وجل: ﴿ما تَـرَكَ عَلَى ظَهْرِها مِنْ دابَّةٍ﴾ وهو وعيد كبير مخيف، ولكنه مطوي عن التنفيذ في تلافيف فضل الله وكرمه، والإحالة إلى ما قد قضى الله به في يوم المعاد.

إذن، فالمعاصي كلها، من حيث هي خروج عن طاعة الله تبارك وتعالى، ذات درجة واحدة في السوء والتعرض لعقاب الله تعالى. ولكن الله، تفضلاً منه وإحساناً، جعل مناط الإثم في المعاصي ما يتسبب عنها من الفساد في حياة الإنسان الفرد، أو في التركيبة الاجتماعية، ولما كانت درجة الفساد في كل منهما متفاوتة، استتبع ذلك تفاوت المعاصي في الإثم الذي يتسبب عنها، وانقسامها إلى كبيرة وصغيرة.

ونتيجة ذلك، أن الله عز وجل إذا أراد أن يحاسب عباده طبقاً لما يقتضيه ميزان العدالة الذي يبرز حقوق الرب عز وجل على عباده، فلسوف تكون المعاصي كلها من الكبائر الموبقة، دون أي تفاوت بين مايسمى كبيرة وصغيرة ولمماً.. أما إذا أراد أن يحاسبهم طبقاً لما يقتضيه فضله وتجاوزه وكرمه، فلسوف تضؤل المعاصي كلها ويهون خطبها، حتى لايبقى فيها ما يجدر أن يسمى كبيرة.

* * *

ولكن ماهو السبيل الذي إن سلكه الإنسان كان على موعد مع فضل الله وكرمه وتجاوزه، وماهو السبيل الذي إن سار فيه الإنسان كان على موعد مع ميزان العدالة الإلهية التي ترعى حقوق الربوبية كاملة غير منقوصة؟..

السبيل الموصل إلى مواجهة فضل الله وكرمه، هو أن يعزم العبد على أن يطيع الله في كل ما قد أمر به، وأن ينتهي عن كل ما قد حذّر ونهى عنه، موقناً أنه لايملك لنفسه حولاً ولا قوة، ومن ثم يستمد القدرة والتوفيق وأسبابهما من الله عز وجل.. فإذا حالفه التوفيق وأمدّه الله بالحول والقوة لتنفيذ أوامره والانتهاء عن نواهيه، حمد الله موقناً أن الفضل في ذلك لله، وأن ثواب طاعته له إنما يتمثل في الشكر الذي يجب أن يصدر منه لله عز وجل، لا في الأجر الذي يتوقع أن يصدر من الله إليه. ونظراً إلى أن واجب الشكر لله عز وجل يتوقف هو الآخر على توفيق الله وعونه، فإن الشأن في حال هذا العبد إذا رحل إلى الله أن يقبل إليه خائفاً من عواقب تقصيره لا طامعاً في الأجر الذي يرى أنه يستحقه على طاعاته. مصداق ذلك قول الله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ ما آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ راجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣/٦٠].

وأما إن لم يحالفه التوفيق، وزلت به القدم في حمأة المعاصي، وجمحت به نفسه إلى ارتكاب الآثام، فسبيله إلى ذلك أن يصحو بعد تجاوز المعصية وارتكابها إلى ذلّ عبوديته لله، وأن يقف متضائلاً متصاغراً تحت مظلة عفو الله ومغفرته، وأن يخاطبه بقلب متلوع، لابلسان مفصول عن مشاعر فؤاده، قائلاً: اللهم إني ما عصيتك حين عصيتك استكباراً على أمرك أو استهانة بحكمك، ولكن لسابقة سبق بها قضاؤك فالمغفرة منك والتوبة إليك.

فإنه إن فعل ذلك واجه من الله فضله، بدلاً من أن يقابله منه عدله.. ولا فرق عندئذ بين أن تكون المعصية التي تورط فيها كبيرة أو صغيرة.

ومهما عاد بعد ذلك فزلت به القدم ثانية وثالثة في المعصية أو المعاصي، فسلك هذا السبيل ذاته صادقاً مع الله في مشاعره وخطابه عازماً على أن لايعود، فإن الله لن يعامله إلا بفضله، وقد سبق تفصيل ذلك في الحكمة السابقة.

ولايقولن قائل إن عمري الذي مضى ملئ بالفواحش والكبائر وأن احتمال صفح الله عنها ومغفرته لي بعيد غير مأمول.. فإن هذا الاعتقاد بحدّ ذاته معصية حذّر القرآن منها. ألم تقرأ قوله عز وجل: ﴿إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلاّ الْقَوْمُ الْكافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧/١٢].

وسبب كونه معصية أن صاحب هذا الاعتقاد لايعرف لله منة ولافضلاً، متوهماً أنه إنما يعامل الناس بمقتضى ما قد ترتب له عليهم من حقوق.

أما السبيل الموصلة إلى مواجهة عدل الله عز وجل بعيداً عن التفضل والصفح والغفران، فهي تلك السبيل التي يسلكها بعض الناس إذ يتباهى أحدهم بالطاعة التي أداها ناسياً أن الله هو الذي وفقه إليها وأعانه على أدائها. فإذا انحرف إلى معصية، استهان بها وعدّها من اللمم الذي لاضير فيه ولا خطر منه.

إن هذا السبيل من شأنه أن يزهق قيمة الطاعة التي تباهى صاحبها بها، وأن يُعظم من خطر المعصية التي استهان العاصي بها.

إن جلّ الثواب الذي يناله المطيع على طاعاته، إنما هو على ما قد انبثق من أدائها من مشاعر العبودية والتذلل لله عز وجل.. فإذا خلت الطاعة من هذه المشاعر فقد تجردت عن معناها وانفصلت عنها روحها، فعادت مجرد شكل للعبادة وصورة لحركاتها.

وإن جل العقاب الذي يتعرض له العاصي على معصيته، إنما هو على ما قد انبثق فيها من دلائل استهانة العاصي بها، ولا مبالاته بالعقاب الذي قد يناله بسببها. فإذا خلت حال العاصي من مشاعر الاستهانة بها واستصغاره أو احتقاره لها، فقد انفصل عنها أهم ما كان سبباً لسخط الله على العاصي في معصيته.

ودعني أضعك أمام بعض الأمثلة لمعاص أو حتى لمكروهات يستهين بها مرتكبوها، ويعاودون ارتكابها في استخفاف بها، مطمئنين إلى أنها من اللمم الذي سيعفو الله عنه.

من الأمثلة على ذلك إصرار بعض الناس على الأكل بالشمال طبقاً لما يقتضيه عرف السكين والشوكة. إن من المتفق عليه أن الأكل باليد اليمنى من السنن المأثورة عن رسول الله، وليس من الواجبات ولا الفرائض.. ولو أن مسلماً تغلبت عليه عادة درج عليها، أو استسلم لتهاون تحكم به، فأخذ يأكل باليسرى بدل اليمنى، لما كان في ذلك حرج ولما ارتكب من جراء ذلك وزراً. ولكن الناس الذين أعنيهم بهذا المثال، هم أولئك الذين يستخفون بهذا الأدب النبوي، ويترفعون عن الالتزام به استكباراً أو إيثاراً لتقليد درج عليه عشاق الحضارة الآسنة. إن الانصراف عن الالتزام بهذه السنة بدافع من هذه الاستهانة،

تحيل السنة إلى فريضة، وتجعل الانصراف عنها تلبساً بمعصية كبيرة، وربما تسربت إلى مكمن الإيمان فزلزلته أو قضت عليه.

يتضح هذا جلياً من الحديث الذي رواه سلمة بن الأكوع أن رجلاً أكل عند رسول الله ﷺ بشماله، فقال: كل بيمينك. قال: لا أستطيع، قال: لا استطعت!.. ما منعه إلا الكبر. فما رفعها إلى فمه[١].

مما لاريب فيه أن رسول الله ﷺ لم يكن ليدعو على هذا الذي كان يأكل عنده بشماله، لمجرد أنه قد ترك السنة. إذ السنة ما لا حرج في تركه مع ثبوت المثوبة على فعله. ولكنه لما قال لرسول الله لا أستطيع، وعلم أنه إنما قال ذلك تكبراً، انبثق من موقفه ذاك وضع ورّطه بأخطر أنواع الموبقات التي اقتضت أن يواجهه من الله عدله. فمن أجل ذلك دعا عليه بقوله: لا استطعت. ولاريب أن من مقتضى عدالة الله أن يستلب الله منه نعمة القدرة اليدوية التي أخضعها الله لإرادته ومصالحه، عندما تجاهلها بل أنكرها، في الوقت الذي كان يتباهى بها.

ومن الأمثلة على ذلك استهانة بعض الناس بارتكاب محرمات بلغهم أنها من الصغائر، أو وجدوا أن القرآن ينعتها باللمم، يقتحمونها دون أي مبالاة بها أو خوف من عواقب التورط فيها.. كأنواع من الاختلاط اللامنضبط بالنساء.. وكمقدمات محرمة من العلاقة بهن.. وكتساهل النساء في إبراز بعض مظاهر الإغراء والزينة، اعتماداً على كلام من يطمئنهن بأن ذلك كله من اللمم الذي قرر الله في محكم

---

(١) رواه مسلم.

تبيانه أنه يتجاوز عنه.. وكالركون إلى بعض المحرمات في نظام التعامل التجاري، اعتماداً على أنها من الصغائر التي وعد الله بالصفح عنها.

إن هذه المحرمات، هي فعلاً من الصغائر، في التصنيف الشرعي الذي سبق بيانه، ولكنها في ميزان الحقوق الإلهية المنوطة بأعناق العباد لاتختلف في الخطورة وجسامة النتائج عن غيرها.. فإذا تورط فيها الإنسان بسائق ضعف، وتغلب شهوة، موقناً بأنه قد أهدر بذلك حقاً من أجلّ حقوق الله عليه (وقد سبق أن قلت إن من أهم حقوق الله على العبد أن يطاع ولا يعصى بقطع النظر عن نوع الطاعة ونوع المعصية) وقاده ذلك إلى الندم والحياء من الله تعالى واللجوء إليه بالتوبة والاستغفار، فإن الله عز وجل يعدّها عليه صغيرة، ويعامله عليها بفضله ورحمته، فيغفرها له كما وعد.

أما إن ارتكبها آمناً مطمئناً، مستبشراً بأنه لن يلقى على أعقابها من الله أي مكروه، ناسياً بأنه قد أهدر بارتكابه لها حق الله عليه وهو أن يطيعه ولا يعصيه في أي أمر من الأمور، فإنها تتحول باستهتاره هذا من صغيرة إلى كبيرة، إذ لا كبيرة أكبر، بعد الكفر والشرك بالله، من الاستخفاف بحقوق الله تعالى.. وإذا شرد الإنسان عن مظلة الرحمة الإلهية وابتعد عن سوانح فضل الله ومغفرته بمثل هذا الاستهتار واللامبالاة، فالذي سيواجهه عندئذ من الله عز وجل إنما هو عدله.. ومن البداهة بمكان أن الله عز وجل لو قضى بأن يحاسب الناس بعيداً عما قد ألزم به ذاته العلية من الرحمة بهم والمغفرة لهم، محاكماً لهم إلى ميزان عدله المجرد، إذن لهلكوا جميعاً، وقد ذكّرتك في بيان هذه

الحقيقة بقوله عز وجل: ﴿وَلَوْ يُؤاخِذُ اللَّهُ النّاسَ بِما كَسَبُوا ما تَرَكَ عَلَى ظَهْرِها مِنْ دابَّةٍ﴾(١) [فاطر: ٣٥/٤٥].

وانظر إلى هذه الحقيقة كم تبدو واضحة في هذا الذي يقوله رسول الله ﷺ: ((إن المؤمن ليرى ذنوبه كأنه جالس في أصل جبل يخشى أن ينقلب عليه، وإن الفاجر ليرى ذنوبه كذباب مرّ على أنفه، فقال به هكذا))(٢) .

وإنك لتلاحظ أن رسول الله لم يفرق في هذا بين كبيرة وصغيرة.

وتدخل في ميزان هذه القاعدة الطاعات أيضاً. فعلى الرغم من أنها متفاوتة في مقياس القواعد الشرعية التي ترعى في ذلك ما تحققه من أنواع المصالح والمقاصد المتفاوتة، إلا أنها جميعاً ترقى إلى درجة واحدة من القدسية والأهمية، عندما ينظر العبد إليها على أنها أحد شطري القانون القائل: إن من حق الله على عباده أن يطاع ولا يعصى. فطاعة الله حق من الحقوق المنوطة بأعناق العباد، بقطع النظر عن أنواع الأعمال التي تعلقت بها أوامره عز وجل.. إن التفاوت الذي تراه في حديث رسول الله ﷺ: ((الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق)) إنما هو ناظر إلى أثر شرائع الله وأحكامه في تحقيق مصالح العباد، فأما إن نظرت إلى علاقة ما بين العبد وربه، فإن أوامر الله الصادرة إليه تقف من الأهمية والقدسية والخطورة في درجة واحدة. ومن ثم فإن إقبال العبد إلى

(١) انظر صفحة ٢٢٧ من هذا الكتاب.

(٢) رواه البخاري في صحيحه من حديث عبد الله بن مسعود.

تنفيذها ينبغي أن يكون بدرجة من الاهتمام واحدة، لاسيما إن تذكرت أن مناط قبول الله لها والمثوبة بها، ناظران إلى حال العبد من حيث الدوافع التي حملته على تنفيذها، من تعظيم حرمات الله والغيرة على شعائره وأحكامه، ومدى الإخلاص لذاته العلية في إقباله عليها واهتمامه بها.

وهذا المناط هو الذي يجعل الطاعة الصغيرة، في رأي العين، كبيرة عند الله عز وجل. وذلك عندما يندفع العبد إليها بقدر كبير من حب الله وتعظيمه والغيرة على حرماته.

روى ابن عساكر في تاريخه، في ترجمة بشر بن الحارث المشهور بالحافي، أن سبب توبته أنه أصاب في الطريق ورقة كتب عليها اسم الله تعالى، قد وطئتها الأقدام، فأخذها واشترى بدرهم كان معه غالية (نوع من أنواع الطيب) فطيب بها الورقة، وجعلها في شق حائط. فرأى فيما يرى النائم أن قائلاً يقول له: يا بشر، طَّيبتَ اسمي، لأطيبن اسمك في الدنيا والآخرة[1]

إن المكانة التي تبوأها بشر بن الحارث بهذا العمل، ليست منبعثة من سرّ في ذلك العمل ذاته، وإنما انبعثت من شعوره بعظيم حق الله عليه، ومن عظيم غيرته على حرماته عز وجل. وهذا هو المصدر الأول والأخير لتقوى الله عز وجل، وصدق الله القائل: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّها مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٢٢/٣٢].

(١) مختصر تاريخ ابن عساكر ٥/١٩١، طبعة دار الفكر.

وإذا أدركت هذه الحقيقة، أدركت أن نقيض العمل الذي قام به بشر، قد يحمل نقيض نتائجه وثمراته، وذلك لنقيض السبب ذاته. فالذي يرى في طريقه مثل هذه الورقة التي كتب اسم الله عليها وقد استهان بها المارّة وداستها الأقدام، فأشاح بوجهه عنها مستخفاً بالأمر، مترفعاً عن الانحناء أمام الناس لالتقاطها وتعظيمها ووضْعِها في مكان لائق، يتعرض لنقيض المكانة التي تبوأها بشر بن الحارث رحمه الله، لا لذات الترك أو الإعراض، وإنما للاستخفاف أو الازدراء الذي دفعه إلى الإعراض.

إذن فقد عرفت الجواب عن السؤال الذي قد يطرحه أحدنا قائلاً: ما السبيل الذي إن سلكته أمام أحكام الله وأوامره، كنت على موعد مع مقابلة فضل الله وعفوه وتجاوزه، بدلاً من مواجهة عدله المجرد عن صفحه ومغفرته؟

السبيل، أن تنقاد إلى تنفيذ أوامر الله والابتعاد عن نواهيه، بدافع التعظيم لذاته، والغيرة على حرماته، والشعور بعظيم حق الله عليك. وعندئذ تتساوى الطاعات كلها أمامك في الأهمية والضرورة، وتتساوى المعاصي كلها أمامك في السوء والخطورة.. فإنك إن سرت على هذا النهج لم يواجهك من صفات الله عز وجل إلا فضله وصفحه وغفرانه. فإن وفقت للطاعة ضوعف لك عليها الأجر، وإن زلّت بك القدم وشرد بك الضعف إلى فسوق أو عصيان، واجهك من فضل الله وإحسانه ما يحطّ عنك أثقال ذلك الوزر.

فالزم هذا السبيل خلال حياتك كلها، يكن فضل الله وعظيم عفوه رفيقك الدائم على الدرب، وشفيعك بين يدي الله يوم المعاد.

الحكمة الحادية والخمسون

((لا عمل أرجى للقبول من عمل يغيب عنك شهوده، ويحتقر عندك وجوده))

لابدّ لإدراك المعنى الجليل الذي ترمي إليه هذه الحكمة، من مدخل يعيدنا إلى عقيدة التوحيد التي هي الأساس الذي لابدّ منه لصلاح سائر الأعمال، وإلى واقع الضعف الذي يصطبغ به الإنسان في أحواله كلها.

إن من معاني التوحيد التي ينبغي أن نعلمها وأن نصطبغ بها، أن الله هو الخالق لأفعال الإنسان، وأن الإنسان إنما يتحرك ويذهب ويجيء بمعونة الله وتوفيقه، فإذا انفكت عنه معونة الله وعونه، ووكله إلى نفسه، تحول إلى كتلة عجز ولم يتأت منه شيء.. ولذلك علمنا الله عز وجل إذا خاطبناه في صلاتنا، أن نقول له، بعد الثناء عليه: إياك نعبد، وإياك نستعين، ففي الجملة الأولى نعلن عن عبوديتنا وانقيادنا لأمره وحكمه، وفي الجملة الثانية نعلن عن كامل توحيدنا له، من خلال الإقرار بعجزنا الكلي، وحاجتنا الدائمة إلى عونه وتوفيقه. وهذا العجز الكلي هو الذي تعبر عنه الكلمة القدسية التي علّمنا إياها رسول الله ﷺ: لا حول ولاقوة إلا بالله.. وهو الذي تنبئ عنه النصيحة

النبوية الغالية التي يقول فيها «استعن بالله، ولاتعجز»[١] أي اجعل من استعانتك بالله السبيل الأوحد إلى التخلص من عجزك.

أما ضعف الإنسان الذي هو نتيجة قرار الله القائل: ﴿وَخُلِقَ الإِنْسانُ ضَعِيفاً﴾ [النساء: ٤/٢٨] فمصدره ما قد سلطه الله عليه من نيران الشهوات وسلطان الغرائز، ووساوس الشيطان، إلى جانب إمكاناته المحدودة كما سبق بيانه.

ومن آثار هذا الضعف فيه، أنه لاتكاد تصفو له عبادة من زغل، وأنه يظل مشدوداً إلى سلطان غرائزه وشهواته، فتكون طاعاته وقرباته مشوبة بشائبة الأهواء، مغموسة بالغفلات ممزوجة بالكثير من رعونات النفس وحظوظها.

فإذا صحا الإنسان لهاتين الحقيقتين في كيانه: علم أنه مدين في حركاته وسكناته وأنشطته وقدراته وسائر جهوده لتوفيق الله وعونه، وعلم أنه مهما توجه إلى الله بالطاعات والعبادات، فإنها تظل مثقلة بأسباب التقصير ممزوجة بالغفلات والأخطاء وحظوظ النفس.

وإذا علم الإنسان ذلك، فإنه مهما أقبل إلى الله بالطاعات والقربات، فلن يشعر في أعقابها إلا بعظيم منة الله عليه إذ شرح صدره لها، وأطلق قدراته في أدائها، ثم بشديد حيائه منه عز وجل إذ

---

(١) هذا جزء من حديث رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة في كتاب (القدر). وأوله: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير. إحرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلاتقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل قدّر الله وماشاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان».

كان ضعفه البشري حائلاً بينه وبين النهوض بها على النحو الذي يليق بربوبيته وعظيم حقه عليه. ولسوف يدعوه شعوره الخَجِلُ هذا إلى أن يقبل على الله في أعقاب طاعاته قائلاً: «اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك» كما كان يفعل رسول الله ويعلمه أصحابه(١).

ومن هنا، فقد كان الربانيون من عباد الله عز وجل لايعودون من طاعاتهم وعباداتهم إلا بأثقال من مشاعر الفضل والمنن لله عليهم، إذ أعانهم وأمدهم بأسبابها من انشراح الصدور وتيسير الأمور، وصرف العوائق، وبأثقال من مشاعر الحياء والخجل من الله تعالى، إذ لم تكن طاعاتهم وقرباتهم من الصفاء والطهارة من الزغل وكدورات النفس، بحيث تليق بحضرة الله عز وجل وربوبيته لهم وحقه عليهم.

من ثم فإن أحدهم لم يكن يطمع بأكثر من أن يقبلها الله منه على علاّتها وعلى ما فيها من نقص وتقصير، موقناً بأنه لايملك أن يطلب عليها أي مثوبة أو أجر، بل موقناً بأنه هو المدين فيها لله عز وجل بالشكر على توفيق الله له ومدّ يد العون إليه، وعلى قبولها منه على ما فيها من زلاّت وإساءات وتقصير.

فهؤلاء هم الذين يتقبل الله منهم قرباتهم وطاعاتهم، يتقبلها منهم لأنها غابت - كما يقول ابن عطاء الله - عن شهودهم، إذ الله هو

---

(١) روى أبو داود والنسائي من حديث معاذ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أخذ بيده وقال: يا معاذ، والله إني لأحبك. ثم قال: أوصيك يامعاذ، لاتدعنّ في دبر كل صلاة تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك.

الموفق والمعين والميسر. ولأنها أحقر من يتراءى لها وجود يناسب ألوهية الله وعظيم حق الله عليهم. إذ هي مليئة فيما يرون ويجزمون بمظاهر العيب والتقصير وحظوظ النفس.

ولكن من أين لابن عطاء الله هذا القرار، بأنهم هم الذين يتقبل الله منهم أعمالهم، وأن الآخرين لايرجى أن يكون لهم حظ في القبول؟

إن مستند ذلك في كتاب الله عز وجل، قوله، وهو يصف هذه النخبة من عباده الصالحين: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ ما آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ راجِعُونَ﴾ أي يتقربون إلى الله بما يتقربون إليه به من الطاعات والعبادات، وهم خائفون، من مغبة ما اقترنت به من مظاهر السوء والتقصير، أن لايقبلها الله منهم، وأن يعاقبهم على العيوب والآفات التي تسربت إليها، روى الإمام أحمد والترمذي وابن أبي حاتم، من حديث عائشة أنها قالت يارسول الله - تسأله -: الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة، أهو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر وهو يخاف الله عز وجل؟!.. قال لا يا ابنة أبي بكر، ولكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدق، وهو يخاف الله عز وجل أن لايتقبل منه.

فأصحاب هذه الصفة والصفات التي قبلها، امتدحهم الله عز وجل بقوله: ﴿أُولَئِكَ يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَهُمْ لَها سابِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣/٦١].

ومن الأدلة على هذا الذي يقوله ابن عطاء الله، الدعاء الذي علّمه رسول الله لمعاذ وأوصاه أن يدعو به بعد كل صلاة: ((اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك)) إذ إن هذا الدعاء شأن من لايرى

لعبادته أثراً في جنب عظيم سلطان الله، وكبير حقه عليه. فهو يلجأ إليه ويدعوه أن يعينه على أن يعبده العبادة اللائقة به، السليمة من النقص والشوائب، والبعيدة عن آفات تقصيره وحظوظ نفسه.

ومن الأدلة على ذلك أيضاً شدة خوف أصحاب رسول الله، لاسيما المبشرين منهم بالجنة، من عاقبة أمرهم ومن أن يفاجؤوا بسخط الله عليهم. وإنك لتعلم من حال الخلفاء الراشدين الكثير والكثير من مظاهر هذا الوجل.

أين كانت عبادات عمر وطاعاته من خاطره وشهوده، يوم أسرع يحمل عدل الدقيق على ظهره ليمضي به إلى المرأة التي كان يتضور أولادها جوعاً، فقال له غلامه: أنا أحمله عنك، قال: أنت تحمل وزري يوم القيامة لا أُمَّ لك؟[(١)].

أين كانت طاعاته، وهي كثيرة وكبيرة، من خاطره وشهوده، يوم تلى في الصلاة قول الله تعالى: ﴿إِنَّ عَذابَ رَبِّكَ لَواقِعٌ ، ما لَهُ مِنْ دافِعٍ﴾ [الطور: ٥٢/٧-٨] فخرّ مغشياً عليه[(٢)]؟ وأين كانت طاعاته هذه من خاطره، إذ كان يسأل حذيفة خائفاً قلقاً: أنشدك الله أأنا من المنافقين؟ وأين كانت طاعاته الكثيرة هذه من خاطره إذ كان يلقى الصبيّ فيأخذ بيده قائلاً: ادع لي فإنك لم تذنب بعد؟[(٣)]

* * *

(١) تاريخ الطبري: ٥/ ٢٠ سيرة عمر لابن الجوزي ص٥٩.

(٢) حلية الأولياء: ١/ ٥١.

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٣/ ١١٠.

ثم إن الشأن فيمن كان قريب العهد بالهداية والالتزام، أن لايفهم هذا الكلام، وأن يرى في أداء الفرائض الأساسية من الصلاة والصوم ونحوهما، وفاء كاملاً لحق الله عز وجل، ومهما كانت عباداته شكلية خالية من مضمون الخشية والحضور، ومهما كانت حظوظ النفس متسربة إليها، فإنه يرى أنه قد أنجز بفعلها كل ما هو مطلوب منه.. ذلك لأن قلبه لايزال فارغاً من العواطف الإيمانية المتمثلة في تعظيم الله والشعور بحقوقه الكبيرة التي لاتحصى عليه، والمتمثلة في حبه له بسبب ما يتوارد إليه من نعمه التي لاحصر لها... وإنما هو الإيمان العقلي الأعزل، ولعله لايزيد في أول الأمر على كونه إيماناً تقليدياً مندفعاً إليه بسائق التيار الاجتماعي المؤثر من حوله.

فإذا سار في الطريق إلى ترسيخ إيمانه هذا بضع خطوات، عن طريق مزيد من دراسة دلائل التوحيد والتنبه إلى حقائقه، والركون إلى شيء من مجالس الذكر وأهل الصلاح والتقوى، أدرك أن الله أجلّ من يتقرب إليه بطاعات وعبادات شكلية، لايشترك القلب فيها بشيء من الحضور والخشية. ويبدأ بالارتياب في صحة صلواته التي ينصرف خاطره فيها إلى مشاغله الدنيوية ورغائبه النفسية، بينما يردد لسانه ما حفظه واعتاد عليه من آيات الفاتحة وغيرها من سور القرآن الكريم.. وإنك لتجد كثيراً من الناس على اختلافهم، يسألون - في هذه المرحلة - عن السبيل الأيسر والأمثل إلى الحضور والخشوع في الصلاة، والتخلص من عوامل الشرود والغفلة فيها.

فإذا تابع هذا السالك طريقه، وازداد إقبالاً على معاني التوحيد يتدبرها ويتأمل فيها، وازداد عكوفاً على مجالس ذكر الله بالقلب

والشعور لابمجرد اللسان والسبحة، كما قد مرّ بيانه، أخذ قلبه يستقبل مشاعر جديدة وافدة من تعظيم الله ومهابته، وأخذ يدرك أنه هو المحرك لهذا الكون كله، وأن العبد لايتحرك ولاينشط ولا ينطق ولا يفعل، إلا بالقدرة الإلهية التي يكرمه الله بها، فهو الخالق لفعله، وهو المدبّر لأمره، وأن مناط الثواب والعقاب في تصرفاته إنما هو «الكسب» الذي هو التعبير القرآني عن الاختيار والقدرة على اتخاذ القرار، وهما منحة ربانية للعبد، بها يستحق الثواب على الطاعات التي اختارها وعزم عليها، وبها يستحق العقاب على المعاصي التي آثرها بالعزم والاختيار.. ثم إنه في هذه المرحلة يتحرر شيئاً فشيئاً من غفلاته ومشاغله الفكرية بالدنيا وأهوائها، إذ يصحو إلى المنن والنعم الإلهية التي تتوارد إليه من كل صوب وفي كل حين، فتهتاج من ذلك مشاعر الحب لله في قلبه، ولايكاد ينفك عن الإحساس بعظيم منن الله عليه.. وعندئذ، وتحت سلطان هذه الحال، يخجل من طاعاته وقرباته التي كان يزعم أن يؤدي بها حقوق نعم الله عليه، وهي لاتبلغ أن تكون كهباءة أمام قيمة كنز عظيم لاينفد!.. إذ يرى آثار ودلائل ضعفه المتحكمة في طاعاته، من غفلة وعجز وتسرّب لسلطان الحظوظ النفسية إليها، هذا إلى جانب ما يعلم من أن الله هو المعين له في أدائها، وهو الذي يبث في كيانه وأوصاله القدرة على فعلها والتحرك بها، فالفضل إذن في العبادة التي أقدره الله عليها، للمعبود الذي يتقرب بها إليه، وليس للعابد الذي لاحول له ولا قوة ولايملك من أمر نفسه شيئاً إلا بمعونته وتوفيقه.

في ظل هذا الشعور يتقبل الله منه طاعاته، والحقيقة أن مناط القبول إنما هو شعوره بعجزه عن الوفاء بأي من حقوق الله الكثيرة عليه، فهو يبذل كل ما يتأتى له من جهد في أداء العبادات والقربات، ولكنه يعود موقناً بأنه أساء ولم يحسن، وبأنه قصّر ولم يوفِ الله شيئاً من حقه، ويذوب عندئذ أمامه عمله وتغيب عنه جدواه، ولا يبقى أمامه إلاّ الأمل بمغفرة الله وعفوه.

ولايقولنّ قائل: ولكنّ في المقربين من عباد الله من أحسنوا ولم يسيئوا، وأتموا ولم يقصروا، وأدوا كامل ما قد طلبه الله منهم، صافياً عن الشوائب وحظوظ النفس.. فإن رسول الله ﷺ هو أول المتقنين والمتقين والمتعبدين وسيدهم، ومع ذلك فهو القائل: ((لن يدخل أحداً عملُه الجنةَ)) قالوا ولا أنت يارسول الله؟ قال: ((ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته))(١).

وأساس ذلك أن المسلم كلما ازداد معرفة لربه، ازداد تبصراً بضعفه وتقصيره، فكان ذلك سبباً في تضاؤل قيمة عباداته وطاعاته أمامه، بل أمام معرفته لربه وإدراكه لعظيم حقه عليه.

* * *

أمامي الآن صور كثيرة لنقيض هذا الذي يذكّرنا به ابن عطاء الله، ويدعونا إليه في حكمته هذه، مع الأسف. ولكني أكتفي منها بصورة واحدة، قد تكون أسوأها وأخطرها.

---

(١) رواه البخاري في كتاب المرضى والطب، باب تمنيِّ المريض الموت، من حديث أبي هريرة.

كثيرون هم الذين يُدلّون على اللـه بإسـلامهم وأعمـالهم وقربـاتهم الإسـلامية، ويعتبـون عليـه عـز وجـل أنـه قـد سـلّط عليهـم مـع ذلـك أعداءهم الكفرة، ينتقصون من ديارهم ويستلبون حقوقهم.

والسوء الذي يتراءى في هذا الأمر، ينبثق من عدة جوانب هامة:

الجانب الأول: أن المسلمين اليوم في مجموعهم الغالب، منصرفون عن إسلامهم، متبرمون بمبادئه وأحكامه، قد اكتفوا منه بالانتماء ثم بقشور من الرسوم والتصرفات التقليدية، فتمننهم علـى اللـه بـأنهم مسـلمون، واقفون عند حدوده، ملتزمون بأحكامه، كذب على الله عز وجل.

الجانب الثاني: أن المسلمين اليوم، حتى، ولو كـانوا كمـا يزعمـون، صادقين في إسلامهم، متمسكين بمبادئه وأحكامـه مبتعديـن عـن الآثـام والمحرمات، ومخلصين لله في ذلك كله، ما ينبغي أن يتباهوا بشيء مـن ذلك، ولا أن يطالبوا الله في المقابل، بما يستحقون على ذلك مـن نصـر على أعدائهم، وتمكن في جنبات الأرض، وتقدم على أقرانهم في شتى ميـادين الحيـاة ومقوماتهـا. فـإن الفضـل في صـدق إسـلامهم وصـدق تمسكهم بمبادئه وأحكامه، إنما هو لِلّه عز وجـل. وصـدق اللـه القـائل: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّـوا عَلَـيَّ إِسْـلامَكُمْ بَـلِ اللَّـهُ يَمُـنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَداكُمْ لِلإِيمانِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧/٩٤].

وما أخلص مسلم لله في إسـلامه وفي طاعاتـه وعباداتـه، إلاّ وغـاب عن مشاعره معنى الفضل له فيما قد هُدي إليه والتزم به، وتقلب بـدلاً عن ذلك تحت ثقل من مشاعر منة الله وفضله عليـه، إذ شـرح صـدره للإسلام وهداه إليه وأقدره على النهوض بأحكامه وواجباته.. ومضـى

يحمد الله ويشكره وهو يردد قوله عز وجل: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ﴾ [الأنعام: ٦/١٢٥].

وما تمنن أحد على الله بإسلامه وسلوكاته الإسلامية، إلا وهو كاذب في دينونته لله عز وجل، وفي دعوى عبوديته له عز وجل. ومعاذ الله أن يجتمع النقيضان فيلتقي هذا وذاك في كيان امرئ واحد.

على أن المسلمين اليوم، لو أرادوا أن يتناسوا عبوديتهم لمولاهم الخالق عز وجل ثم أرادوا أن يتخذوا لأنفسهم منه مكان الندّ من الندّ، إذ يتم بينهما تعاقد على نهوض أحدهما للآخر بمهمة ما، مقابل أجر يناله، ما كان لهم أن يطالبوه بشيء من هذا الأجر. إذ إنهم لم ينهضوا بمعشار المهمة التي تعاقدوا معه على النهوض بها.

أمرهم الله بصدق الاصطباغ بحقائق العبودية له دون غيره، فاصطبغوا بذلّ العبودية لكل ما يرهبون أو يرغبون، إلاّ له عز وجل!..

أمرهم الله أن يدخلوا تحت مظلة شرعه طائعين، فشردوا عنهم إلى سائر الشرائع والأحكام الأخرى، طبق ما يروق لهم، راضين مغتبطين!..

نهاهم الله عن الموبقات والظلم والفساد، فانحطوا في ذلك كله غير عابئين ولا متأثمين!..

أهاب بحماة الأوطان، والواقفين على الثغور، والمتوثبين للدفاع عن الديار والحقوق في المعسكرات، أن يعودوا إلى الله ويذكروه كثيراً، فقال لهم: ﴿يا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا إِذا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً

لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٨/٤٥] فابتعدوا عن الله بدلاً من أن يعودوا إليه، وتناسوه بدلاً من أن يذكروه، وبالغوا في الإعراض عن وظائف الطاعات والعبادات، بدلاً من أن يزدادوا في مواقعهم إقبالاً عليها والتزاماً بها.

ثم أقبلوا بعد ذلك كله يمنون عليه إسلامهم، و(تحملهم) لأوامره وأحكامه!!.. ويعتبون عليه أن حجب عنهم النصر ومكّن لأعدائهم في الأرض!..

ولو أن المسلمين، إذ قصروا في جنب الله هذا التقصير، واستخفوا بحقوقه وشرعته على هذا النحو، عادوا فاعترفوا بسوء حالهم واستغفروا الله من تقصيرهم، وأدركوا أنهم لم يعودوا أهلاً للنصر الذي وعد به الله النخبة الصالحة من عباده، فأقلعوا عن السؤال والعتاب، إذن لكانت أبواب الأمل بمغفرة الله ورحمته مفتحة أمامهم، على الرغم من كل هذا الذي يتقلبون فيه من شرود وإساءة وتقصير.

ولكنّ المصيبة الكبرى، هي الجمع بين الإساءة في النهج والسلوك، والامتنان في الوقت ذاته على الله بالإسلام والانتماء إليه والتحلي برسومه وقشوره. مع الإصرار في العتاب على الله بأنه قد حجب عنهم النصر الذي يستحقونه بإسلامهم وبشاراته التي يرفعونها بأضواء النيون فوق مآذنهم.

ويأتي الجواب عن هذا كله بجملة واحدة يقررها بيان الله عز وجل في كتابه المبين، هي ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٥/٢٧] والتقوى حالة من المهابة والتعظيم تهيمن على القلب، مصدرها اليقين

بعبودية الإنسان لله ومملوكيته الكاملة له. وهيهات لمن أيقن عقله بهذه الهوية للإنسان وفاض قلبه بمشاعر المهابة والتعظيم لقيوم السماوات والأرض مالك الكون كله، أن يرى - مهما بذل من جهد - أنه قد أدّى معشار حقوق الربوبية عليه. ومن ثم فهيهات أن يمتن على الله بإسلام هو الهادي له إليه، أو بقربات وطاعات هو الموفق له إليها والمعين له عليها.

إن العبادة مهما ضؤلت وصغرت، تعظم عند الله عز وجل، في ضرام الشعور بذل العبودية لله والخضوع لسلطانه، ثم إنها، مهما كبرت وعظمت، تضؤل وتصغر، وربما تذوب وتفنى، في مجال التباهي بها، وتسجيلها حساباً على الله عز وجل.

بقي أن أوضح أن رؤية العبادة بهذا المعنى شيء، وشكر الله على التوفيق إليها والعون عليها شيء آخر.. وبمقدار ما يكون الأمر الأول مذموماً، يكون الأمر الثاني حسناً ومطلوباً.

والمؤمن الذي فاض قلبه بمشاعر العبودية لله، لايلتبس عليه هذا بذاك، فهو إن رجع إلى نفسه وضعفه، لم يجد أنه قدّم من ذاته شيئاً لله عز وجل. ولكنه إن نظر إلى فضل الله عليه ورعايته له، وجد أن الله عز وجل قدّم له من فضله وتوفيقه الكثير. فهو يقول لله تعالى دائماً، إن بلسان حاله أو بلسان قوله: اللهم إن طاعاتي وقرباتي كلها، هدية هابطة منك إليَّ، ثم إنها عائدة بتفضل منك إليك، فتقبل اللهم مني ما تفضلت به عليّ، ولك الشكر على ما مننت به عليّ قدرة وعوناً وتوفيقاً.

* * *

الحكمة الثانية والخمسون

((إنما أورد عليك الوارد، لتكون به عليه وارداً. أورد عليك الوارد ليستلمك من الأغيار، ويحررك من رق الآثار. أورد عليك الوارد، ليخرجك من سجن وجودك إلى فضاء شهودك))

هذه الحكمة تتألف من ثلاث فقرات كما ترى، وقد عدّ كثير من الشارحين كلاً منها حكمة مستقلة. ولكن الظاهر أنها جميعاً حكمة واحدة، لشدّة ارتباطها بعضها ببعض، ولايتكامل المعنى إلا من خلال فقراتها الثلاث.

ولنبدأ شرح هذه الحكمة بالوقوف عند كلمة ((الوارد)) ما المعنى المراد بها؟.. يقول علماء هذا الشأن: الوارد ما ورد على قلبك من المعارف الربانية واللطائف الرحمانية[1].

ولكن ما الفرق بين هذا الذي يسمونه وارداً، وبين ما يرد إلى العقل عن طريق التعلم والدراسة والإصغاء إلى مرشد أو القراءة من كتاب؟!

---

(١) انظر شرح الشرنوبي على الحكم بتحقيق الدكتور عبد الفتاح البزم ص١١٥، وشرح الشيخ أحمد زروق على الحكم بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود والدكتور محمود بن الشريف ص١٣٢.

إذ من المعلوم أن كل ذلك واردٌ يرد على العقل أو الفكر، فيكسبه معرفة ومعلومة أو معلومات جديدة.

الفرق بينهما أن ما يرد أو يفد إلى الذهن عن طريق التعلم والتلقي بأنواعه الكثيرة المختلفة، قد يكون خيراً وقد يكون شراً، وقد يكون أوهاماً باطلة وقد تكون حقائق صحيحة. وفي حال كونها صحيحة قد تبقى حبيسة في خزانة العقل فلاتفيد صاحبها إلا رقماً جديداً في حساب المعارف والمعلومات، وقد تتحول إلى القلب فتقود صاحبها إلى التفاعل بها والسلوك بمقتضاها.

أما هذا «الوارد» الذي يتحدث عنه علماء هذا الشأن، فنفحة ربانية تهجم إلى العقل دون أي وساطة من تعليم أو تلقين أو قراءة من كتاب، ثم تتجه لتستقر في القلب، وقد تحولت فيه إلى وجدان مؤثر وقوة دافعة.

فالوارد إذن لايكون إلاّ خيراً إذ هو لايأتي إلاّ هبة من الله. ولايكون معلومة تأخذ مكانها بين ذخر المعلومات الأخرى في دائرة العقل، بل سرعان ما تهبط منه لتتحول إلى وجدان يهيمن على القلب.

مثال ذلك، الرجل يكون منصرفاً إلى تقلباته الدنيوية وأعماله التجارية منشغل البال بآماله وأحلامه التوسعية، وفجأة يقتحم عقله إدراك جديد لحقيقة هذه الدنيا وما فيها، ويستيقن أن كل ما فيها ظل زائل، وأنها لاتستأهل كل هذا الجهد الذي يبذله من أجلها، وأنه إذا نظر إليها غداً عندما يرحل عنها إلى الله، سيراها قمامة تجمعت في مظهر واحة؛ وما يلبث هذا الإدراك العقلي أن يتحول إلى شعور قلبيّ

يهيمن على مجامع القلب بالقيادة والتأثير. فيتراجع الحب الكامن فيه للدنيا وأهوائها، وتتقلّص آماله فيها وتعلقاته بها.. فهذا يسمى وارداً إلهياً اتجه إلى القلب من خلال العقل.

مثال آخر: يكون الرجل ساهياً لاغياً مقصراً في جنب الله، غير مبال بشروده عن صراطه، غير متأثم ولا مبال لانقياده إلى وساوس شيطانه، واستجابته لرغبات أهوائه وغرائزه. وتحين منه ذات يوم التفاتة إلى آية أو آيات في كتاب الله تعالى يقرؤها في القرآن، أو يصغي إليها من قارئ، فإذا الآيات هي: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاّ إِبْلِيسَ كانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظّالِمِينَ بَدَلاً﴾ [الكهف: ١٨/٥٠] ويقف وقفة تأمل وتدبر أمام قوله عز وجل: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾؟!.. ويتنبه عقله إلى العتاب المؤثر الرقيق في هذا الكلام المنزّل من الرب الكريم إلى العبد اللئيم!.. وينساق منه العقل إلى ما ينطوي في تضاعيف هذا العتب المؤثر: أمرت هذا المخلوق أن يسجد لك سجود تكريم وتقدير، ولما أبى، واستكبر عليك، طردته من أجلك وحاقت به لعنتي في سبيلك، وبالغت في إكرامك، ومنحتك السيادة على سائر أندادك، فكان جزائي منك على كل ذلك أن أعرضت عني واتخذت من عدوك وعدوي ولياً لك من دوني؟!..

وما هو إلا أن يتجه فيح هذا الإدراك العقلي لما قد تضمنته هذه الآيات، إلى مكمن العاطفة والوجدان ألا وهو القلب، فتهتاج فيه مشاعر الخجل ويعتصره الألم من هذا اللؤم في مقابل ذلك الدلال والإكرام.. فهذا مثال ثان لما يسمونه «الوارد».

ولعلك لاحظت من بيان المثال الواقعي مزيداً من الفرق الذي ذكرته لك بين المعرفة العقلية التي يكتسبها الإنسان، والوارد الرباني الذي يهجم على العقل ثم لايلبث أن يسري منه إلى القلب.. ولعلك تأكدت الآن أن المعرفة العقلية المكتسبة ليست دائماً بريد هداية ورجوع إلى الله.. بل كثيراً ما تكون أداة إضلال، وسلعة تجارة، وساحة تنافس على الزعامة والشهرة والمجد... في حين أن الوارد الذي وضعتُك أمام هذين المثالين له، لايكون إلا سبيل هداية، ومفتاح اصطلاح مع الله، ودخول على الحضرة الإلهية، كما سنجد.

* * *

والآن.. ما المهمة التي يحققها الوارد الذي يكرمك الله به، على النحو الذي أوضحته لك؟

يضعنا ابن عطاء الله رحمه الله تعالى أمام ثلاث مهامّ لها على الترتيب، كل واحدة منها مبنية على التي قبلها ومتممة لها.

أما المهمة الأولى، فهي ما عبر عنه ابن عطاء الله بقوله: لتكون به عليه وارداً. والورود على الله لايكون بقطع المسافات ولا باجتياز المراحل، وإنما يكون بتوجه القلب إليه بالحب والمهابة والتعظيم... ولايتأتى للقلب أن يتجه إليه بشيء من هذه المشاعر إلا بعد أن يخلو من التعلق بالأغيار، أي بالمال وبالشهوات وبالمبتغيات الشخصية من علو في الأرض وانتصار للعصبية وحب للذات.. وتلك هي الآفة الكبرى التي نعاني منها جميعاً، إلا من رحم ربك.

فكيف السبيل إلى التخلص من هذه الآفة؟

سبيل ذلك أن يتلقى القلب وارداً إثر وارد من الله عز وجل، مروراً بالعقل واستقراراً في الفؤاد.

فإذا تلاقت هذه الواردات محتلّة زوايا القلب، وردت بك من خلال قيادة القلب، إلى الله.

ولقد ضربت لك مثالين للواردات.. ولكن فلتعلم أن كتاب الله تعالى مليء بالرسائل الموجهة لتكون واردة إليك، وأن المكونات التي صاغها الله من حولك كما يريد، فياضة هي الأخرى بالرسائل الواردة إليك. وإنما الذي يحجبها ويصدّها عن الوصول إليك، تطوحك في بحار غفلاتك، ونسيانك لهويتك وذاتك.

فإذا أراد الله بك الخير، وجّه إليك من الوارد سهماً يخترق حجب غفلاتك، ويمزق غاشية لهوك ونسيانك، فإذا هو ضياء ينير جوانب العقل، ثم إذا هو قبس وهاج يهيمن على مجامع القلب.. فتلك هي أولى مراحل التوجه إلى الله ثم السير إليه. إذ يبدأ القلب عندئذ بالتحرر من أثقال رغباته وأهوائه وتعلقاته الدنيوية المختلفة، ويصحو إلى مصدر حنينه، ويتجه بالبحث عن محبوبه الحقيقي، ويقف بعد تيهٍ طويل على سيرة ذاته وقصة وجوده ونهاية رحلته، وعلى القبضة الإلهية التي يتحرك في داخلها ويخضع لسلطانها ويعيش على رفدها وإحسانها.. وعندئذ يجتوي السواقي ويملّ من تتبعها والسير بين منعرجاتها، إذ يبدأ يشدّ نفسه إلى حيث المعين والينبوع... إلى مصدر كل خوف وأمان، وموئل كل فضل وإحسان.. إلى الله الذي له الخلق والأمر وبيده النفع والضر وإليه وحده الملاذ والمآب.

فهذه هي المهمة أو الخطوة الأولى التي تتحقق على أثر الوارد أو الواردات التي يتحدث عنها ابن عطاء الله، وعن النتائج المترتبة عليها.

أما المهمة أو المرحلة الثانية التي تتحقق على أثر الوارد الإلهي، فهي ما عبر عنه ابن عطاء الله بقوله: «أورد عليك الوارد ليستلمك من الأغيار، ويحررك من رق الآثار».

وبيان ذلك أن القلب إذا توجه إلى الله بالخجل والخوف منه والتعظيم له، فذلك هو المؤشر على بدء الصراع بين ما تراكم في القلب من الرغبات الدنيوية، والشهوات الغريزية والعصبيات للنفس والذات من جانب، وما أشرق في جنباته من مشاعر تعظيم الله وحبه والحياء منه من جانب آخر.

ونظراً إلى أن هذه الإشراقة إنما تحققت بفعل الوارد الإلهي الذي سبق أن عرفتك عليه وذكرت لك مثالين له، فلابدّ أن تكون الغلبة في هذا الصراع لسلطان الوارد، وإن استنفد ذلك وقتاً قد يطول، واحتاج صاحب هذا الوارد إلى الاستعانة بقدر كبير من ذكر الله تعالى، والالتجاء بالدعاء والضراعة إليه عز وجل.

والنتيجة هي أن نفسه تعزف عن الدنيا بعد التعلق الشديد بها والسير الدائم وراءها، إذ يرى ضآلة شأنها أمام ما هو مقبل عليه، وهو ما لم يكن يراه أو يحسّ به من قبل. وإذا فرغ القلب من التوجه إليها والتعلق بها، فلابدّ أن تشرق عليه محبة الذات الإلهية، إذ هو كالمرآة لابدّ أن تشرق عليه وتظهر فيه صورة ما.. فإن نكستها موجهة إلى الأودية والآبار المظلمة اصطبغت بالسواد واختفى من سطحها بريق

الشفافية والصفاء. وإن توجهت بها إلى الأعلى حيث الشمس المشرقة، تألقت بالضياء وانبعثت منها الأشعة الساطعة.

كذلكم القلب.. أصفا أداة في جهاز الإنسان، ما اتجه إلى شيء إلا تأثر به وظهر عليه.. ووظيفة الإنسان، بما أوتيه من عقل ورشدٍ، أن لايوجهه إلاّ إلى حضرة الله عز وجل، وأن لايجعل عليه سلطاناً من دون سلطان ذاك الذي خلقه وبرأه. فإذا أراد الله بعبده خيراً، وقد سيطر عليه من الضعف ما جعل قلبه مملوكاً بيد الرغائب والأهواء، أكرمه بوارد من الواردات التي يفيض بها كتاب الله وتنطق بها آفاق الدنيا وصفحة المكونات، فالتمعت من ذلك بارقة نور سرت في أنحاء القلب، وما هو إلا أن تتقلّص عنه ظلمات تلك الأهواء والرغائب وينقشع عنه الران الذي نسجته على سطحه محبة الأغيار، فإذا القلب وعاء طاهر مطهر عاد إلى يد مالكه وخضع لسلطان بارئه.. وهكذا يستلمك الله، باستلامه لقلبك، من الأغيار، أي من محبة كل ما عدا الله. وإذا عاد القلب إليه عاش مع ما هو مقبل إليه، من الشوق إلى لقاء الله والأمل برحمته وعظيم إكرامه، والوجل من أحداث يوم القيامة، وبطشته بالممقوتين من عباده. فأنى للدنيا - والحالة هذه - أن تجد سبيلاً لها إلى هذا القلب الذي غدت الآخرة شغله الشاغل؟

وإنما كانت سبيل الوصول إلى الله في حياة أصحاب رسول الله، هذه الواردات التي سرت بفضل رسول الله إلى عقولهم ثم استقرت عاطفة ووجداناً في قلوبهم فوجّهتهم إلى الآخرة وصرفتهم عن الدنيا وأعتقتهم كما يقول ابن عطاء الله من رق الآثار الكونية لتربطهم

بالمكون وسمت بهم عن التعلق بالأغيار إلى محبة الله الواحد القهار. انظر إلى هذا الحوار الذي جرى بين رسول الله ﷺ، والحارث بن مالك الأنصاري، لتتبيّن أثر الواردات القلبية الوافدة من عند الله على حياة الإنسان وسلوكه، ولتعلم شدة حاجتنا اليوم إليها:

قال له رسول الله ﷺ: كيف أصبحت ياحارث؟

قال له حارث: أصبحت مؤمناً حقاً!

قال له رسول الله: انظر ما تقول، فإن لكل شيء حقيقة فما حقيقة إيمانك؟

قال حارث: عزفت نفسي عن الدنيا، فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها.

قال له رسول الله: ياحارث، عرفت فالزم. وفي رواية: عبد نور الله قلبه[١].

لعلك تقول: أين أنا من حارث بن مالك، وأمثاله من أصحاب رسول الله، حتى أتلقى مثل الوارد الذي تلقاه، فيفعل في نفسي مثل هذا الفعل؟

(١) رواه ابن المبارك في الزهد معضلاً، ورواه عبد الرزاق في مصنفه بسند متصل. ورواه الطبراني في المعجم وأبو نعيم في الحلية بأسانيد متعددة. ورواه البيهقي بسند ضعيف عن طريق يوسف بن عطية الصغار. والحديث في الجملة صحيح تقويه أسانيده المتعددة.

والجواب أن المعين الذي تلقّى منه الحارث، الوارد الذي أوصله إلى هذه الحال، موجود أمامك، قد لايكون أكثر من قول الله تعالى: ﴿لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ ، مَتاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهادُ﴾ [آل عمران: ٣/١٩٦-١٩٧] والاستعداد واحد والفطرة الإسلامية موجودة في كيان كل إنسان، ويرحم الله ابن الوردي إذ يقول في لاميته:

لا تقل قد ذهبت أيامه   كل من سار على الدرب وصل

هذا عن انصراف قلبك عن الأغيار إلى الله عز وجل.

أما عن تحررك من رق الآثار، فهو من مستلزمات زوال حجاب الأغيار مما بينك وبين الله عز وجل.. أنظر إلى هؤلاء الذين يحيلون ما يسمونه باضطراب الطبيعة، من موجات حرارية وافدة، أو زلازل أو عواصف وأعاصير، إلى شؤون طبيعية مثلها كطبقة الأوزون، أو بؤرات انهدامية في باطن الأرض أو موجات كهراطيسية.. إنها الآثار التي يحبسون أنظارهم وعقولهم في داخلها..

ولكن ماذا عن المؤثر الذي أوجد هذه الآثار، فجعلها أداة لهذه التقلبات؟

إن اختراقها إلى المؤثر، يتوقف على الوارد الذي يجعلك تقف أمام اليد التي تحرك، والسلطان الذي يدير ويدبر.. وربما كان الوارد النفحة الربانية التي تدركها في مثل قوله عز وجل: ﴿أَأَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّماءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإذا هِيَ تَمُورُ ، أَمْ أَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّماءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حاصِباً فَستَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ [الملك: ٦٧/١٦-١٧] أو في قوله عز

وجل عن سيدنا نوح: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذاتِ أَلْواحٍ وَدُسُرٍ ، تَجْرِي بِأَعْيُنِنا جَزاءً لِمَنْ كانَ كُفِرَ﴾ [القمر: ٥٤/١٣-١٤] فينقلك هذا الوارد الرباني، بعد التأمل فيه، من الوقوف أمام آثار القوانين الفيزيائية التي بها تقلُّ البحار السفن، أو آثارِ قانون الجاذبية الذي به تقلّ الأرض من فوقها، إلى الوقوف بين يدي الإله الذي قنّنها ثم أقامها خادماً لمشيئته وأحكامه في هذه الدنيا.

وفرق ما بين التائه المتطوح بين هذه الآثار، والمتحرر من أسرها الواقف على سلطان خالقها المستخدم والمسخر لها، فرق ما بين نوح عليه الصلاة وابنه. يوم قال له ابنه من سجنه الذي هو فيه ﴿ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْماءِ﴾ [هود: ١١/٤٣] وأجابه والده عليه السلام، وهو يطلّ عليه من فضاء شهوده لحكم الله وسلطانه ﴿لا عاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاّ مَنْ رَحِمَ﴾ [هود: ١١/٤٣].

* * *

أما المرحلة الثالثة والأخيرة التي تتحقق على أعقاب الوارد الإلهي إلى القلب عن طريق العقل، فهي ما عبّر عنه ابن عطاء الله بقوله: ((أورد عليك الوارد ليخرجك من سجن وجودك إلى فضاء شهودك)).

فكيف يكون الإنسان سجين وجوده؟

أجل.. يكون الإنسان سجين وجوده، عندما يعيش مع ذاته، قاطعاً نظره وصلته بالعالم الذي ينتسب إليه، والغيب الذي انحدر منه، والمآل الذي سينتهي إليه. لاريب أنه، والحالة هذه سجين، إذ إنه لايرى من

حقائق العالم المحيط به إلا جدران ذاته، متمثلة في رغائبه، ووحي غرائزه ومشتهياته وعصبيته لذاته.. ومآل احتباسه داخل جدران هذا السجن أن يتقلب مع الأوهام بعيداً عن الحقائق، إذ الحقائق لاتتجلّى له إلا بعد الخروج من سجن ذاته والتأمل في صلة ما بينه وبين العالم المحيط به والذي انحدر منه، والذي سيؤول إليه.

أليس الذي يقطع صلة ما بينه وبين النظام الذي أقامه الله لهذا الكون من خلال أمره التكويني ويقطع صلة ما بينه وبين النظام الذي أقامه لحياة الإنسان، من خلال أمره التشريعي، ثم ينطوي على ذاته ليلزمها بالنهج الذي يراه (وهو لايرى في هذه الحالة إلا ما تريه أهواؤه وغرائزه) أليس هذا الذي حكم على نفسه بهذه القطيعة، سجيناً، داخل سجن الذات بحكم من نفسه على نفسه؟!..

وما هي عاقبة هذا السجن الذي حكم على نفسه به؟

عاقبته الشقاء عاجلاً وآجلاً.. أما عاجلاً، فلأنه لما تجاهل النظام الرباني الساري من حوله في الكون والشرعة الهادية للسلوك الأمثل في تقلبات الحياة، كان لابد أن يصطدم بجدران هذا النظام الكوني ومعالمه وحدوده، فيعاني من ذلك مرارة الخيبة وآلام القلق واليأس!.. وأما آجلاً فلأن لوجوده قصة تجاهلها، ونهاية أعرض عنها، وأغلق على نفسه (وهو في سجن ذاته) نافذة ما بينه وبينها. فلابدّ أن يقع في مغبّة ما قد تجاهله وأعرض عنه.

وانظر.. تجد أن أقطاب الفلسفة الوجودية هم أبرز نموذج للمتقوقعين في سجن الذات!.. إنهم يصرون، من خلال فلسفتهم

الوهمية الذاتية، على أن تبقى نوافذ السجن الذاتي الذي يقبعون في داخله موصدة، إذ إنهم لايريدون أن يطلّوا منها على ما يشغلهم ويقيد حرّيتهم بصلة ما بينهم وبين الآخرين، وبالوقوف على أنظمة وقيم ليس فيها إلا ما يضيق عليهم مجال رغباتهم وينتقص من معنى وجودهم وأهميته.

ولكنهم في تقلباتهم المعيشية لم يستطيعوا أن يجعلوا من فلسفتهم الوهمية هذه حاكماً يحررهم من أنظمة الكون ومن سلطان المكون، بل كان لابدّ أن تكون تلك الأنظمة هي الحاكمة عليهم، وكان لابدّ للسلطان الإلهي أن يتحكم بهم.. فكانت العاقبة أن اصطدمت حرياتهم المجنّحة المطلقة بهذا النظام والسلطان، وكان لابدّ للحرية وأهوائها أن تكون هي المرتدة على أعقابها الخائبة في آمالها.. ونظراً إلى أنهم أصرّوا، حتى بعد هذا التصادم، على أن يظلّوا قابعين في سجن العكوف على الذات، فقد استخرجوا من آلام خيبتهم هذه قانوناً تواصوا فيما بينهم بقبوله والخضوع له، وباقتطاف آلامه القدسية التي ينبغي أن يسعدوا بتحملها واجترارها.. إنه قانون ما يسمونه: اليأس والقلق والسقوط!!..

وإذا كان أصحاب هذه الفلسفة الخرقاء، هم العيّنة الأولى لمن آثروا أن يقبعوا من حياتهم التي يعيشونها في سجن الذات، فإن كثيرين هم الذين يشاركون أصحاب هذه «الفلسفة» في الوجود داخل هذا السجن.. وبكلمة جامعة أقول: إن كل من حاول أن يتخذ من أهوائه وسلطان غرائزه وعصبيته قانوناً هادياً لحياته، يحتكم إليه بدلاً من

القانون الرباني الساري في تضاعيف هذا الكون، فهو بلاريب، يشترك مع أقطاب الفلسفة الوجودية الخرقاء، في التقوقع داخل سجن الذات.

فإذا ساعد الوافد أو الوارد الإلهي الإنسان على خروجه من سجن ذاته، وكان قبل ذلك قد تخلّص من حب الأغيار وتحرر من رق الآثار، على النحو الذي بينت وفصلت لك، فما الذي يواجه هذا الإنسان بعد ذلك؟

غابت عن مركز الحب من قلبه الأغيار، بكل معانيها وتنوعاتها، ولم يعد يحفل بالآثار بعد أن بدأ يعيش مع المؤثر جل جلاله.. وهاهو الآن قد تخلص من سجن العكوف على ذاته: غرائزه، رغائبه الشهوانية، مشاعِرِ العصبية والأنانية، إذن ما الذي سيجد أمامه الآن؟ سيجد نفسه أمام فضاء غير متناه من شهود الله عز وجل.. مهما وقعت عيناه على مشاهد للمكونات تتحرك أمامه، فلن ترى بصيرته من خلالها إلاّ المكون.. ومهما نظر فرأى من حوله عالم الأسباب تؤدي وظائفها وتنتج مسبَّباتها، فلن تريه عيناه منها إلاّ المسبب الفعال جل جلاله.

وتلك هي حالة وحدة الشهود التي سبق أن عرّفتك بها وتحدثت لك عنها في مناسبة مرّت، فلاداعي إلى تكرار الحديث عنها اليوم.

غير أني أذكرك بأن هذه الرحلة التي بدأتْ من النفْسِ إلى القلبِ، فإلى فضاء الشهود الإلهي، إنما كانت بفضل الوارد الذي اتجه من الله إلى عقل الإنسان فقلبه.. ولقد بينت لك أن كتاب الله يفيض بالواردات الإلهية الكثيرة المتنوعة، وليس بينها وبين الإنسان من

مسافات تحتاج إلى اجتياز، بل هي قريبة منه، كل ما في الأمر أنه بحاجة إلى أن يتعرض لها، وأن يعلن لله عن افتقاره إليها، وصدق الله القائل: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّماواتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْها وَهُمْ عَنْها مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٢/١٠٥].

فلايقولن قائل: فما لهذه الواردات لاتتجه إليّ ولاتفعل فعلها في كياني ونفسي.. هل تعرّضتَ لها بما تملكه من التأمل والتدبر، ثم لم تتجه بفضل الله إليك ولم تسِرْ بك في المراحل الثلاث التي ذكرها ابن عطاء الله؟

والعجيب أن أحدنا يقطع مسافات طويلة من بيته ليصل إلى الكعبة المشرفة فيطوف بها ويقف منها على معالم الألوهية ودلائل الربوبية.. ثم لايقطع المسافة القصيرة من نفسه إلى قلبه، ليوقظ فيه كوامن حب الله عز وجل ومشاعر مهابته وتعظيمه.

وسائل نقلك إلى بيت الله الحرام مكلفة وربما عسيرة، ووسائل انتقالك من نفسك الأمارة إلى مرآة قلبك موفورة ويسيرة. إنها الواردات الإلهية التي تنتظرك.. تنتظر منك التفاتة إليها وإقبالاً شعورياً منك عليها.

ومع ذلك فإن الآلاف المؤلفة يرحلون كل عام، خلال سياحة مكانية يجتازون فيها آلاف الأميال ليصلوا إلى معالم الألوهية من بيت الله الحرام، ثم يعودون فيجتازون المسافة ذاتها، كما رحلوا.. ومعالم الألوهية كامنة في قلوبهم، ليس بينهم وبين الوصول والانجذاب إليها والخضوع لسلطانها، سوى أن يخترقوا إليها حواجز نفوسهم وغواشي أهوائهم وعصبياتهم!..

ليس المهم، على طريق التقرب إلى الله، قطع ما بين دارك والبيت الحرام من المسافات، وإنما المهم قطع ما بين نفسك وقلبك من الشهوات والأهواء وغواشي الطبائع المذمومة التي تحجبك عن الله.

وإذا كانت وسائط النقل لطيّ المسافات الطويلة بين دارك والبلد الحرام كثيرة وميسرة اليوم، فإن وسائط النقل لطيّ ما بينك وبين قلبك أكثر وأيسر.. إنها الواردات الإلهية التي يفيض بها خطاب الله لك في محكم كتابه.. وإنها لتناديك دائماً، فأقبل إليها وتعرض لنفحاتها، تنقلك من أثقالك النفسية إلى أشواقك العلوية، في رحلة ذات ثلاث مراحل، هي تلك التي حدثك عنها ابن عطاء الله في هذه الحكمة، والتي شرحتها لك بما قد علمت[1].

* * *

(١) ليس هذا الذي أقوله، والذي قاله العلماء الربانيون من قبلي، تهويناً من أمر شعيرة الحج من حيث هو ركن من أركان الإسلام.. ولكنها دعوة لمن اتخذوا من الحج ديدناً لهم يكررونه كل عام لأمانيّ وأغرض شتى لهم، أن يحجوا مرة أيضاً من خلال رحلة ربّانية إلى قلوبهم..

الحكمة الثالثة والخمسون

((الأنوار مطايا القلوب والأسرار))

المراد بالأنوار هنا التجليات الإلهية التي تسري إلى القلب، فتنتشله من غفلاته وتعيده من عوارض القسوة إلى فطرة الرقة واللين. وإنما تفد هذه الأنوار عن طريق الواردات التي حدثك عنها ابن عطاء الله في الحكمة السابقة.

والمطايا جمع مطية، وهي الأداة التي تركبها فتوصلك إلى مبتغاك، سواء كانت حيواناً أو وسيلة من وسائل النقل الحديثة.

ولما كانت الأنوار الوافدة إلى القلب عن طريق الواردات الإلهية، سبباً في إخراج القلب من سجن الأغيار ومن رقّ التعامل مع الآثار، ليواصل رحلته إلى شهود الله عز وجل والمثول أمام حقائق وحدانيته، شبّه ابن عطاء الله هذه الأنوار في تأثيرها هذا، بالمطية التي تبلّغ صاحبها مقصده، وتقيه أخطار الانقطاع في المهامه والمتاهات.

وبيان ذلك أن قلب الإنسان (والمراد به كما قد علمت مكمن العواطف الدافعة والرادعة والممجدة من هذه العضلة المعروفة) مهيأ بالفطرة لحب الله عز وجل دون غيره، ولتعظيمه هو دون سواه،

وللخوف منه وحده.. ولكن الإنسان، صاحب هذا القلب، عندما يخوض في حمأة هذه الدنيا بما فيها من مغريات وملهيات ومنسيات، سرعان ما تطلع عليه قوانص الشهوات والأهواء، فتقطع عليه الطريق وتصدّه عن مواصلة السير، وسلاحها في ذلك ليس تخويفاً ولا تهديداً بقتل، كما هو شأن قطاع الطرق، وإنما سلاحها الزينة التي أمكنها الله منها، بقراره القائل: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾ [آل عمران: ٣/١٤].

فتصادر هذه الشهوات عواطف القلب المتجهة في أصلها لله عز وجل، وتقتنصها لحسابها، فيتقطع بصاحب هذا القلب السبيل، ويتحول، تحت سلطان هذه القوة المصادرة، عن مواصلة السير إلى الإقامة، وربما إلى الاستيطان، في ذلك المنقطَع راكناً إلى تلك الملذّات مستأنساً بتلك الشهوات. وشيئاً فشيئاً يتحول الحب الذي كان مهيأ بل متجهاً في حنايا الفؤاد لله عز وجل، إلى تلك البوارق التي لاحت له فاقتنصته في الطريق، ويتجه منه الحنين الذي كان متصاعداً من أعماق الروح إلى العالم العلوي الذي أهبط منه، إلى الصور والأشكال التي تبرق أمامه كما يبرق السراب على البعد.

ويظل يعيش صاحب هذا القلب، في ذلك التيه المنقطع، ما شاء الله أن يعيش، متعاملاً مع حبه الذي يظن أنه متجه من قلبه إلى تلك الصور والأشكال، راكناً إلى حنينه الذي يظن أنه إنما يتعالى إلى تلك المتع والزينة التي تراها عيناه ولا تطولها يداه...

وتلك هي حقيقة التقلبات التي يتقلبها الناس الشاردون عن الله في تيه هذه الشهوات وبين قوانص هذه الصور والملذات، ممن تراهم عيناك هنا وهناك وأسأل الله أن لايجعلك ولايجعلني منهم.

وإن أحدهم ليعاني في تقلباته هذه من ازدواج محيّر دون أن يشعر به..

يهتف باسم الحب.. ويقف أمام صور الجمال، يشكو إليها حرقة فؤاده بها وشدة خفقانه وراءها.. يصغي من ذلك إلى أنين قلبه، ويتلمس وهج جوانحه، فلايشك أن ذلك كله إنما هو من فرط تعلقه بها..

والحقيقة أن حنين قلبه المتوهج بلوعة الحب، إنما هي للعالم العلوي.. لمولاه وخالقه عز وجل، خالق الجمال في الزهر، ومبدع الرائحة في العطر، وباعث النشوة في الخمر؛ غير أن غرائزه النفسية التي تصيدتها قوانص الشهوات التي عددها بيان الله عز وجل وألبسها مظاهر الزينة وكسوة الجمال في النفوس وأمام الأبصار، هي التي صادرت مشاعر هذا الحب والحنين لحسابها!..

إن القلب في كل الحالات لايهفو إلا للجمال الحقيقي، ولاينبض إلا بحب واحد لاثاني له، هو الله الذي فطر القلوب، وأودع فيها ما أودع من مشاعر اللوعة والحب، لمن هو أهل لهما.. غير أن جماح الشهوات الغريزية التي ابتلى الله بها الإنسان تتصيَّده وتغلق عليه فم الطريق، وتترجم مشاعر الروح والقلب لحسابها.. فيتيه الإنسان عندئذ عن صوت قلبه، ولايتنبّه إلا لضجيج شهواته التي تبرق وتتراقص عن

يمينه وشماله.. وانظر إلى هذا الازدواج كم يتجلى في هذين البيتين لأحدهم:

ومن عجب أني أحنّ إليهم واسأل شوقاً عنهم وهمُ معي

وتبكيهم عيني وهم في سوادها ويشكو النوى قلبي وهم بين أضلعي

فإذا أكرم الله العبد بالواردات التي عرفتها، تجلت منها على قلبه أنوار علوية (وقد سبق أن فصلت القول مطولاً عن النور ومعناه وأنواعه في الجزء الأول من هذا الكتاب) توقظ القلب إلى فطرته التي جبل عليها وتهديه إلى محبوبه الحقيقي في غمار ذلك الضجيج الذي التبست عليه بسببه الحقائق بأشباهها، وتداخل فيه صوت القلب مع صوت الشهوات والأهواء الغريزية..

ومعنى يقظة القلب هذه، بفضل النور الرباني الساري في داخله والذي هو المعنيُّ بقول رسول الله ﷺ «عبد نور الله قلبه»، أن هذا النور ينتشله من سجنه الذي أقحم فيه بفعل الشهوات والأهواء الغريزية التي تصيّدته وهيمنت عليه.. ومن ثم فهو يواصل رحلته إلى الله عز وجل، مشدوداً بعواطفه كلها، الدافعة والرادعة والممجدة، إلى محبوبه الحقيقي الذي لم ينبض إلا بحبه، ولم يتجه بالتعظيم إلا إليه ولا بالمخافة إلا منه.. ولقد التبست عليه الأمور واختلطت في داخله المشاعر ردحاً من الزمن، أيام كان سجيناً في بيداء الغرائز النفسية التي أطبقت عليه وأحاطت به، ولكنه اليوم أفلت من سجنها وتحرر من سلطانها، وتميز في سمعه وداخل مشاعره لغو الأهواء والغرائز عن حنين الفؤاد وأشواقه، وتبينت الغاية التي تصبو إليها الغرائز والأهواء،

عن المقصد الأسنى الذي تطمح إليه لوعة الفؤاد وأشواقه.. إنه اليوم يسرع السير في رحلته القلبية إلى الله تعالى قائلاً: ((وعجلت إليك رب لترضى)).. إنه اليوم يطلق زفرات الشوق منشداً:

لي لذة في ذلتي وخضوعي وأحب بين يدكَ سفك دموعي

بعد أن كانت الأهواء والمشاعر متداخلة في بعضها، ملتبسة عليه، فكان ينشد قائلاً:

لي لذة في ذلتي وخضوعي وأحب بين يديكِ سفك دموعي

ولما كانت الأنوار الربانية هي التي حررت القلب من سجنه، ومكنته من مواصلة السير إلى ربه، بالمعنى الذي أوضحته لك، شبهها ابن عطاء الله بالمطية التي يبلغ بها أحدنا غايته ومبتغاه.

ولعل مراده بالأسرار في هذه الحكمة، العهد القديم الذي أخذه الله على أرواح الأبدان البشرية كلها، والذي نبه إليه بيان الله بقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلَى شَهِدْنا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنّا كُنّا عَنْ هَذا غافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢/٧].

إنه سر موصول النسب بالله قابع في كيان كل إنسان، ولكن انغماس الإنسان في حمأة الشهوات والملذات الدنيوية التي تتفاعل مع الغريزة، أسدل ركاماً من الغشاوات على هذا العهد وصلة مابينه وبين الإنسان.. صحيح أن الروح أصغت فوعت لذيذ هذا الخطاب، وأجابت، والتزمت بالعهد، ولكنها اليوم وقد أهبطت حبيسةً في هذا

الجسم، وأحاطت بها مشاعر الغرائز واهتاجت رغائبها مارَّةً بداخلها، لم تعد تذكر - ربما - ذلك العهد، ولم تعد تنتشي بلذيذ ذلك الخطاب.

فلما أقبل الوارد الإلهي إلى القلب، يحمل إليه قبساً من أنوار التجليات الربانية، وتحرر القلب بذلك من أسر الغرائز المحيطة به والمطبقة عليه، ظهر له نشيد العهد القديم، يعزف على أوتاره، ويبعث نشوة الذكرى في مشاعره.. فكانت هذه الأنوار الإلهية أشبه بمطية انتشلت هذا السر الذي كان كامناً في طوايا كل قلب، والذي استأمنته الروح عليه، من غوائل النفس وحديث أحلامها وأهوائها.

وأنا كنت ولا أزال أحيل طرب القلب للمجهول الذي يطوف في أرجائه، إلى هبوب رائحةٍ من ذكرى لذيذ تلك المناجاة وسريانها في داخله.. وربما كان مبعث هذا الطرب في الظاهر أصواتاً شجية وأنغاماً متناسقة. ولكن فلتعلم أن السر لايكمن في الأصوات ولا في الأنغام، وإنما هو كامن فيما تبعثه هذه الأصوات وأنغامها في الروح والقلب من ذكريات.. ولا والله ما هي ذكريات أيام خالية من حياتك الدنيوية وتقلباتك الغريزية، ولكنها ذكرى العهد القديم، يوم أقبل إليك مولاك العظيم جل جلاله بخطابه الحلو قائلاً: ألست بربكم؟.. فانسكب الخطاب في روحك كانسكاب الحياة في البدن، وسرى فيها سريان الماء في الغصن..

ولاتقل: ولكني إذ أشعر بما تصفه من الطرب والنشوة في القلب، لا أذكر حديثاً سمعته أو خطاباً واجهني ذات يوم.. لاتقل هذا، فإنك إذ

تبحث فلا تجد أثراً لهذا الخطاب، إنما تستنهض إلى ذلك أذنك وسمعك. فلاتنجدك أذنك بأي تذكر لشيء من ذلك.. والخطأ منك إذ تسترجع تاريخ هذا الخطاب عن طريق أذنك، فهل كانت لك أذن وطبلة صماخية آنذاك؟ بل هل كانت روحك وهي تتلقى خطاب الله تعالى قابعة منك في هذا الجسد الذي هي فيه اليوم؟

إن مولاك الجليل إنما خاطب فيك آنذاك هذه الروح مباشرة، دون وساطة أذن ولا أي من الوسائل المادية التي ركبت فيك فيما بعد. لقد أسمع الله روحك حديثه وخطابه بما شاء وكيفما شاء فلاتتوقع، إن اهتاجت بك الذكرى اليوم، واستخفك الطرب الروحاني من حيث لاتعلم، أن تعيد لك أذنك أو خزانة خيالك تسجيلاً لجميل تلك المناجاة.. إنما هي الروح، ذكراها كامنة في داخلها، ثم هي سارية منك في أنحاء القلب. تشعر بذلك تماماً عندما ترتدّ عنك أصوات غرائزك، وإنما يردّها عنك الوارد الإلهي إذ يكرمك الله به، فينبعث من ذلك نورٌ يُقذف في القلب، يضيئ جوانبه ويطرد منه ظلمات الأهواء والشهوات.

فهذه هي الأسرار التي عناها ابن عطاء الله، والله أعلم، وتلك هي مطاياها. والله المستعان أن يوقظ في أفئدتنا كوامن هذه الأسرار، وأن يجعل إليها قيادة سلوكنا وسيرنا إلى الله وأن يكرر فينا المزية التي متع بها حارث بن مالك، إذ قال له رسول الله ((عبد نور الله قلبه)).

* * *

الحكمة الرابعة والخمسون

«النور جند القلب، كما أن الظلمة جند النفس. فإذا أراد الله أن ينصر عبده أمدّه بجنود الأنوار، وقطع عنه مدد الظلم والأغيار»

ما يزال ابن عطاء الله يحدثنا في حكمه المتوالية هذه عن النور وأثره على القلب عند وجوده، وأثره عليه عند غيابه.

وقد عرفت أن النور الذي يتحدث عنه هنا، لايعني به ذاك الذي ترصده الأعين ويضجّ شعاعه على الأشياء المرئية من عالم المادّة. وإنما المعنيّ به ذاك الذي يتسرب آتياً من عند الله إلى القلوب، دون وساطة أضواء ولا أبصار. إنه ذاك النور الذي يشعر به الكفيف سروراً وانشراحاً ينتشران في جوانب قلبه، تعويضاً عما فاته من النور الذي كان يصافح عينيه.

وبوسعك أن تعلم أن هذه الحكمة ليست إلا تأكيداً لما تضمنته الحكمة التي قبلها. فالنور هناك مطية تمضي بالقلب في رحلته إلى الله عز وجل. وهو هنا جند يحرس القلب من أن تتسرب إليه فتهيمن عليه غواشي الأهواء والشهوات الصارفة عن الله - والنتيجة في التعبيرين واحدة.

إلا أن المعنى الجديد الذي يلفت ابن عطاء الله أفكارنا إليه هنا، هو أن القلب يظلّ مركزاً لجاذبين اثنين: أحدهما جاذب الفطرة وما تتضمنه من رغبة التوجه إلى الله والانتعاش بالقرب منه، ثانيهما جاذب الغرائز الحيوانية المتنوعة، فكلاهما ينبغي أن يتخذ لنفسه في القلب وطناً له، يحلّ في جنباته، ويوظف لمصلحته سائر وجداناته.

ومصير التنافس من هذين الجاذبين، على القلب، منوط بلطف الله وعنايته وتوفيقه. فإذا أراد الله بعبده خيراً أمدّ قلبه بجند من الأنوار التي عرفت المعنى المراد بها، فتغلب فيها جاذب الفطرة الإيمانية ونوازع الحب لله والحنين إليه، على ظلمات الأهواء الغريزية الصادّة عن سبيل الله.

ولكن، فمن هو العبد الذي يريد الله به الخير، فيكرمه بهذا الجند؟..

وهل هي إرادة عشوائية ناظرة إلى حظ الإنسان من مولاه فقط، كما يظن بعض الجهال والسطحيين من ذوي الدراسات الإسلامية؟

معاذ الله أن يكون الأمر منوطاً بأي معنى من معاني العشوائية، بل هو عائد إلى حال العبد وما يختار أن يعرّض نفسه له، فمن تعرّض للدنيا وآفاتها وزينتها وزخارفها التي حذر الله من الاغترار بها، سلط الله عليه جنداً من هذه الآفات فتحكمت بمجامع قلبه وقادته إلى حيث تريد ويريد.. ومن تعرض لألطاف الله وطرق أبواب رحمته وعنايته، أكرمه بجند من الأنوار، فقطعت سبيل الظلمات إلى قلبه، وازدهرت جوانبه بمشاعر الخير، والأنس بالله، والاندفاع إلى تنفيذ أحكامه

وشرائعه.. ودونك فاقرأ وتأمل في هذا قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا﴾ [العنكبوت: ٢٩/٦٩] وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَها عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٨/٥٣] وقوله تعالى: ﴿وَما كانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَداهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ ما يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ٩/١١٥] .

فكيف يكون التعرض لألطاف الله عز وجل؟

إن المنطلق الذي لابدّ منه، أساساً للتعرض لألطاف الله عز وجل، هو أداء الفرائض والابتعاد عن المحرمات.. فإذا تحققت بهذا الأساس واستقمت عليه، فإن سبيل التعرض لنفحات الله وألطافه، يتمثل في الإكثار من ذكر الله، والمراد بذكر الله، كما قد حدثتك من قبل، أن تذكره بقلبك وأن تعود إلى ذكره كلما غفلت عنه، وللوصول إلى هذا التذكر القلبي سبل وأسباب شتى، كلها يدخل في معنى الذكر، وإن كانت في حقيقتها وسائل للوصول إلى تذكر القلب للذات العلية في سائر التقلبات والأحوال.

أذكر لك منها الأنواع التالية:

أولاً: المواظبة على ورد دائم من تلاوة القرآن، ولا أعلم خلافاً في أن تلاوته أفضل أنواع ذكر الله تعالى. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتابَ اللَّهِ وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمّا رَزَقْناهُمْ سِرّاً وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجارَةً لَنْ تَبُورَ ، لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٣٥/٢٩-٣٠]. ومهما استزاد من تلاوته فهو له خير، على أن يتوقى الخطأ في تلاوته ويكون دقيقاً في إعطاء مخارج حروفه حقها،

ولايكون ذلك إلا بالتلقي، وعلى أن يقرأه بتأمل وتدبر، ويستحضر في ذهنه خطاب الله له بما يتلوه، دون أي تخيل أو تكييف.

ثانياً: المواظبة على ورد دائم من الاستغفار، فالتسبيح، فالتهليل، فالصلاة على رسول الله ﷺ، في كل صباح على أقل تقدير. فإن أتيح له ذلك صباحاً ومساء، فهو له خير.

وبيان ذلك أن يستغفر الله مئة مرة وقت السحر، ولعل خير صيغة أن يقول: ((أستغفر الله العظيم وأسأله التوبة)) ولعل ((وأسأله التوبة)) أليق بمشاعر الافتقار إلى الله من ((وأتوب إليه)) والمأمول أن يدخل المواظب على هذا الورد في هذا الوقت فيمن قال الله عنهم: ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ ما يَهْجَعُونَ ، وَبِالأَسْحارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ٥١/١٧-١٨].

فإذا دخل الفجر سبح الله تعالى مئة تسبيحة قبل ركعتي الفجر أو بعدها، ولعل الصيغة المفضلة والجامعة هي: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، فقد صح عن رسول الله ﷺ أنها من الباقيات الصالحات[1].

فإذا انتهى من صلاة الصبح وأذكارها الواردة، اتخذ مجلس ذكره مع الله إلى طلوع الشمس، يبدأه بلا إله إلا الله مئة مرة، ثم يصلي على

---

(١) من ذلك ما رواه أحمد والحاكم وابن حبان من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً: ((استكثروا من الباقيات الصالحات: التسبيح والتحميد والتكبير ولا حول ولا قوة إلا بالله)). وروى عطاء ابن أبي رباح وسعيد بن جبير عن ابن عباس في تفسير قوله تعالى: ﴿وَالْباقِياتُ الصّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾ أنها: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر. وروى الطبراني بنحوه من حديث سعد بن جنادة مرفوعاً.

رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم مئة مرة، وليتخير من صيغها ما يشاء. ولعل أخصرها وأيسرها ((اللهم صلى على محمد النبي الأمي وعلى آله وسلم تسلمياً)) ثم ليختم ذلك بورده الدائم من القرآن.

واعلم أنك لن تستطيع أن تشدّ صلتك برسول الله، بعد الإيمان وأداء الفرائض، بأوثق من الصلاة عليه. وحسبك من الأدلة الكثيرة على ذلك ما رواه أحمد والترمذي والحاكم وصححه، وقال عنه الترمذي: حسن صحيح، من حديث أُبي بن كعب قال: ((قلت يارسول الله إني أكثر الصلاة فكم أجعل لك من صلاتي؟ قال: ماشئت. قال قلت: الربع؟ قال: ماشئت، وإن زدت فهو خير لك. قال قلت: النصف؟ قال: ماشئت، وإن زدت فهو خير لك. قال فقلت: فثلثين؟ قال: ماشئت وإن زدت فهو خير لك. قال: اجعل لك صلاتي كلها. قال: إذن يُكفَى همُّك ويغفر لك ذنبك)). وقد صح عن رسول الله ﷺ بطرق كثيرة بلغت مبلغ التواتر المعنوي أن من صلى على رسول الله مرة، صلى الله عليه بها عشرة. وقد علمت أن صلاة الله على العبد تفسر بالرحمة والمغفرة له.

ولعلك تستشكل على نحو ما يستشكله بعضهم اليوم إذ يقول أحدهم: إننا لو صلينا أو لم نصلّ على رسول الله، فإن الله سيجزيه الجزاء الأوفى في يوم القيامة، كيف لا، وقد قال له: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ [الضحى: ٩٣/٥] فما الفائدة، ومن ثم ما الحكمة من هذه الدعوة إلى الإكثار من الصلاة عليه؟

والجواب أن فائدة الصلاة على رسول الله تعود إلى المصلّي أكثر مما تعود إليه ﷺ، كما تدلّ على ذلك الأحاديث المتواترة التي ذكّرتك بها. ومردّ هذه الفائدة إلى الوفاء مع رسول الله بل مع الله عز وجل. أرأيت إلى إيمانك بالله ومعرفتك له وارتباطك بأوامره وأحكامه، إن الفضل في ذلك كله، بعد الله، لرسوله محمد ﷺ، فبه تمت هدايتنا، وبه عرفنا ربنا وسعدنا بهذا الدين الذي هو ضمانة سعادتنا الخالدة يوم القيامة.. إذن فمن الوفاء لرسول الله أن نتجه إلى الله، فنسأل له مزيداً من الإكرام والعطاء. ونسأل له مزيداً من الرفعة في الدرجات العلا يوم القيامة.. وقد كتب ربنا على نفسه الرحمة لنا والإحسان إلينا أن يجزينا الجزاء الأوفى على هذا الوفاء الذي تترجمه صلاتنا على رسول الله.

نظير هذا قول الله تعالى للأبناء، يعلمهم الوفاء للآباء: ﴿وَاخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُما كَما رَبَّيانِي صَغِيراً﴾ [الإسراء: ١٧/٢٤] أرأيت لو لم تدع الله لأبويك بهذا الدعاء أفيعني ذلك أن يضيع الله جهدهما في تربيتك ورعايتك، ولايرحمهما، لأنك لم تسأل الله لهما ذلك؟.. من الواضح بداهة أن الله سيكرمهما وسيثيبهما على ذلك، دعوت لهما أم لم تدع. ولكنه الوفاء، يذكّرك به المولى عز وجل، ليثيبك أنت على ذلك، فتشترك معهما بعظيم المثوبة والأجر.. يثيبك على وفائك وخلقك، ويثيبهما على حسن رعايتك وتربيتك.

* * *

فإذا استقمت على هذا النهج من ذكر الله عز وجل، فقد تعرضت بذلك لعنايته بك ورحمته لك، وما تعرض إنسان لرحمة الله وفضله، وثبت على ذلك إلاّ وأمدّه الله بنفحات باهرة من تجلياته تشرق في أعماق فؤاده. وتلك هي الأنوار التي يعنيها ابن عطاء الله بقوله: ((فإذا أراد الله أن ينصر عبده أمدّه بجنود الأنوار)).

وإذا أشرقت في فؤاد الإنسان هذه التجليات الربانية، طردت منهما ظلمات الزغل وركام الأهواء ومشاعر الأنانية والانتصار للعصبية والذات..

ولاتطيب ولا تحلو العبادة للمسلم إلا في ظل هذه الحال.. ولايرقى إلى الشوق إليها، والحنين المعبَّر عنه بقوله عليه الصلاة والسلام ((أرحنا بها يا بلال)) إلا عندما يتألق الفؤاد بهذه الأنوار..

ولاتثمر أعمال الدعوة إلى الله نتائجها، ولاتلتهب كلماتها بحرارة التأثير، ولاتذيب بلذعها كبرياء المعاندين، إلا بتأييد ودعم من جنود هذه الأنوار!..

وليت أن الدعاة إلى الله ممن يسمون اليوم بالإسلاميين، يدركون هذه الحقيقة التي ما ينبغي أن يجهلها أي من المسلمين، فضلاً عن الإسلاميين الذين يشتغلون بما يسمى أعمال الدعوة إلى الله، وليت أنهم يضعونها من حياتهم موضع التنفيذ. إذن لقيض الله لهم من جند هذه الأنوار، على حد تعبير ابن عطاء الله، ناصراً لهم حيثما حلوا وأينما توجهوا.

ولكني أنظر إلى جلّ هؤلاء الإخوة الإسلاميين، فأجدهم أزهد الناس بهذه الأوراد التي بها يتعرض الإنسان لنفحات الرحمة الربانية وتجليات التوفيق في سائر الأعمال!..

إسلاميون، وليس لهم حظ من الضراعة والبكاء في الأسحار!.. وليس لألسنتهم، فضلاً عن قلوبهم، حظ من التسبيح والاستغفار وبقية الأذكار!..

إسلاميون، ولا يلتفتون إلى القرآن إلا عند الحاجة إلى الاستشهاد بآية، ليدبج بها أحدهم محاضرة في ندوة، أو ليناقش بها خصوماً على طريق الدعوة!..

إسلاميون، وإنما غدا الإسلام، في واقع تعاملهم معه، أفكاراً تخاصم أفكاراً أخرى.. ألا تسمعهم يعبرون عنه بـ((الفكر الإسلامي)) و((الأفكار الإسلامية)) و((تجديد الفكر الإسلامي))؟!.. وتبحث عن مكمن العبودية لله ومقوماتها ومنّمياتها، في حلبة هذه الصراعات ((الفكرية)) فلاتجد من ذلك شيئاً ذا بال!..

يا عجباً!.. أفكان رسول الله ﷺ أحوج منا اليوم إلى أن يأخذ نفسه بالكثير والكثير من صيغ الاستغفار، وبالكثير من التسبيح والحمد والتهليل والتكبير في البكور والآصال، وبالكثير من التهجد في ظلمات الليالي والأسحار؟ أم إنه طور جديد للإسلام طورناه في مجال العمل على تجديده، فتحول الإسلام بتجديدنا له إلى صراعات أفكار، بعد أن كان ترسيخاً لحقائق العبودية ومعانيها لله، في العقل ثم الوجدان؟..

وليت أن الأمر وقف عند حدّ هذا التهاون، بل لقد تجاوزه بالنسبة إلى كثير منهم إلى درجة الاستهانة والاستخفاف!.. فما يتلاقى جل العاملين في الحقل الإسلامي، بمناسبة مؤتمر أو ندوة، إلا لطرح مشكلاتهم الفكرية والحديث عن العوائق الاجتماعية والسياسية، وتبادل الرأي في استحداث فقه جديد يناسب الظروف والطوارئ الجديدة لاسيما في المجتمعات الغربية. فإن ذكّرهم مذكّر بهذا الذي أقول أجابوه ببرود، ورأوا في ذلك هامشاً أكثر من ثانوي، لا يحمل أي علاج لمشكلاتهم، ولايحلّ أي معضلة على طريق «التحديات الفكرية والسياسية والاجتماعية» التي يواجهونها.

إن الذي يحصل في غياب «جند الأنوار» هذه، من جراء عدم الالتزام بالمنهج الذي ذكرته لك، أن تهجم على أفئدة هؤلاء العاملين في حقل الإسلام والدعوة إليه، آفات الشهوات والأهواء، فتهيمن عليها، وتقودها لما تطمح إليه نفوسهم من المصالح الشخصية والمغانم المالية، وأهداف الحظوة والزعامة والعصبية للجماعة أو الذات.. فتغدو الأنشطة الإسلامية، والحال هذه، مطايا مذللة لهذه الرغبات والأهداف.

فما الذي بوسعك أن تتوقعه من أنشطة إسلامية مسخرة لهذه الغايات؟

إنها لن تحقق شيئاً أكثر من الغايات التي ترمي إليها.. لن تقرب بعيداً في أذهان التائهين، ولن تليّن شيئاً من قلوبهم القاسية، ولن تقضي على ريبة في عقولهم، ولن تزيل شيئاً من غبش الأهواء من نفوسهم، والواقع المشاهد خير دليل على ذلك.

والمصيبة الأدهى أنني كلما ذكَّرت بهذا الواقع المرير وعلاجه، رأيت من ينعتني بالنزوع إلى التصوف والتقوقع في دائرته وأوهامه!.. وهذا يعني، بوضوح، أن رسول الله ينبغي أن يكون أول المتهمين بالتقوقع في أوهام هذه الدائرة، إذ إننا لانستهدي في هذا الذي نقوله إلا برسول الله.

ولقد كنت ولا أزال، أبتعد عن التعامل مع كلمة «التصوف» ما وسعني ذلك. ولعل القارئ يذكر أنني التزمت بذلك في مقدمة هذا الكتاب.. إنما هو ميزان واحد نتعامل معه: كتاب ربنا، وسنة نبيا، وإن أصغينا في الطريق إلى فهمهما والعمل بهما إلى من اجتمعت الأمة على فضلهم واستقامتهم وبعدهم عن البدع والشطط، من السلف الصالح ومن سار على نهجهم، فلكي نزداد بالتعلم منهم والإصغاء إليهم، دراية بهما وحباً لهما وتمسكاً بهما.. ولولا احتياجنا إلى الاستفادة منهم والاهتداء إلى الحق بهم، لما كان لأمر الله إياهم بالدعوة إلى الحق من فائدة وجدوى. بل لكان ذلك عبثا، ولكان في كتاب الله وسنة رسوله غنى عن كل دعوة إلى الله من بعدهما.

وليس إصغاؤنا إلى حكم ابن عطاء الله، وتوجهنا إليها بحب الاستفادة منها والتأثر بها، إلا سيراً على هذا الطريق الذي ينتهي إلى غاية واحدة لاثاني لها، هي العمل (خالصاً) بكتاب الله وسنة رسول الله.

وجل الإله الحكيم الرحيم، في كل ما خلق وشرع.. فقد اقتضت حكمته ورحمته أن يهدي عباده بعضهم ببعض، وأن يجعل من بعضهم مادة مثوبة لبعض.

وصدق رسول الله القائل: ((إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها))[١].

وإنما يكون التجديد بالدعوة، ولا تنهض الدعوة الناجحة إلا على جند من الأنوار الربانية إذ تشرق في أفئدة الدعاة، فتطرد منها آفات الرغائب والشهوات النفسية وتطهرها من حظوظ الذات.

* * *

(١) رواه أبو داود والحاكم والبيهقي من حديث أبي هريرة..

الحكمة الخامسة والخمسون

((النور له الكشف، والبصيرة لها الحكم، والقلب له الإقبال والإدبار))

متع الله الإنسان بثلاث نعم كبرى، أولاها: النور، الثانية: البصيرة، الثالثة: القلب.

والمراد بالنور ذلك السر الرباني الذي يشرق على الدماغ، فينبثق عنه الإدراك والوعي. والمراد بالبصيرة هنا القدرة الذاتية، التي يمتلكها الإنسان، على اتخاذ القرار، وهي ما نسميه بالحرية التي يتمتع بها الإنسان في طريقه إلى اختيار ما يشاء ثم العزم عليه وهو ما يعبر عنه القرآن بالكسب[1] أما المراد بالقلب فهو كما سبق أن قلت: مركز العواطف في كيان الإنسان، العاطفة الدافعة، والرادعة، والممجدة.

ويوضح لنا ابن عطاء الله في هذه الحكمة وظيفة كل من هذه النعم الثلاث، فيقول: أما النور فله الكشف.

والمراد بالكشف، الإيضاح وإزالة الغموض، ونقل الإنسان من التيه والضلال إلى الجلاء والبيان. وتلتقى هذه المعاني كلها في كلمة ((العلم))

---

(١) انظر تفصيل معنى الكسب في كتابي (الإنسان مسير أم مخير) ص٥٨ وما بعدها.

فالنور إذن هو السر الذي ينتقل الإنسان بفضله. من وادي الجهالة إلى صعيد المعرفة والعلم، ومن تيه الضلالة إلى أوج الهداية.

إلا أننا ننسب هذا الانتقال عادة، في حياة الإنسان، إلى ما نسميه بالعقل فنقول: إن العقل هو أداة التخلص من الجهالة والوصول إلى ساحة المعارف والعلم. فما الحق في هذا الأمر؟ وما الفرق بين العقل والنور؟

دعنا نسأل أولاً: ما العقل؟

أما الطبيعيون فيقولون إنه وظيفة الدماغ الذي هو مادة عالية التنظيم في كيان الإنسان، وإنما يتم الوعي بواسطته عن طريق حجيرات بالغة الدقة فيه..

وأما العلماء المؤمنون بالله، فيقولون: إنه سرٌّ يتجه إلى الدماغ ويشرق عليه، فتتم بذلك عملية الإدراك. إذن فالإدراك الذي هو وظيفة العقل، لاينبثق من داخل الدماغ أو من حجيراته، وإنما ينعكس ويظهر عليه بفعل هذا السرّ الرباني الذي يشرق عليه.. وهذا الذي يعبر عنه العلماء المسلمون بالسرّ، هو الذي يعبر عنه ابن عطاء الله، اقتداء بالقرآن، بالنور. وقد أفضت القول عن النور ومعناه وأنواعه في الجزء الأول من هذا الكتاب. وذلك عند شرح الحكمة الرابعة عشرة والتي يقول في أولها «الكون كله ظلمة، وإنما أناره ظهور الحق فيه...».

غير أنهم يعبرون عنه أحياناً بالسر، لأنه معنى خفي لايخضع لحواس الإنسان ومداركه القريبة، وقد درج الناس على تسمية كل ما قد خفي شأنه ولم تتجلّ لهم حقيقته بالسر.

إذن فالعقل في حقيقته ليس إلا نوراً ربانياً، يشرق على الدماغ فيتحقق من ذلك الإدراك الذي هو وظيفة العقل. وبوسعنا أن نقول في تحقيق هذا ما يقوله جلّ الفلاسفة الإسلاميون، من أن الروح الإنسانية التي تنزلت إلى كيان الإنسان من علياء الربوبية، والتي نسبها الله تعالى إلى ذاته العلية، نسبة تشريف، وإلماحاً إلى أنها سرّ مكنون لامطمع للناس في معرفة كنهه؛ تتغلغل في الجسم وتسري في خلاياه فيتحقق من ذلك الحياة والإحساس، وتشرق على حجيرات الدماغ، فيتحقق من جراء ذلك الوعي والإدراك؛ وتشرق على عضلة القلب فيتكون من ذلك الوجدان، أي العواطف الثلاث: الدافعة والرادعة والممجدة.. فهي إذن ثلاث وظائف نوعية مختلفة، تتم في كيان الإنسان، ينهض بها كلها سرٌّ كلي واحد، هو الروح، مادامت سارية في ذرات الجسد كسريان الماء في العود. فإذا انفكت الروح عنه في الميقات المحدد في علم الله، اختفت هذه الفاعليات والوظائف الثلاث عن الجسد الذي ظل لمدة معينة مظهراً لها، وعاد بعد ذلك مجموعة عظام متناسقة داخل جلد متغضن!..

إذن فما نسميه بالعقل هو هذا النور الذي يتحدث عنه ابن عطاء الله، ويقول إن مهمته الكشف، أي البيان والإرشاد، أو هو ثمرة هذا النور وفائدته في حياة الإنسان.

ولسنا الآن بصدد تسفيه ما يقوله الطبيعيون من أن العقل هو وظيفة الدماغ، على أن مناقشة هذا الوهم الذي يلفظه العلم قبل الدين، قد تمت في شرح الحكمة الرابعة عشرة، في الجزء الثاني من هذا الكتاب.

ثم يقول ابن عطاء الله: والبصيرة لها الحكم.. وقد قلت: إن المراد بالبصيرة هنا القدرة الذاتية التي يمتلكها الإنسان لاتخاذ القرار والعزم على ما يريد.

ولعلك تقول: ولكنا نعني عادة بالبصيرة العقل ذاته. نقول: فلان ذو بصيرة ثاقبة، أي ذو عقل حاد. والعقل، كما قد ذكرنا، كاشف وليس حاكما.

والجواب أن البصيرة ليست العقل ذاته، بل هي الثمرة التي يجنيها الإنسان من عقله، كالعقيدة، والعبرة، والحجة التي يعتمدها في قراراته وأحكامه[1]. ومن هنا كانت البصيرة حاكمة أو مستند الحكم والقرار في كيان الإنسان.

والترتيب بين النور الرباني الكاشف، والبصيرة الحاكمة، يقوم على نهج منطقي، فنور العقل يكشف لصاحبه الحقائق متميزة عما قد يلتبس بها من الباطل والزيف. فإذا تجلت له وظهرت أمامه بعيدة عن الالتباس وأسبابه، جاء دور البصيرة ليعتمد عليها صاحبها في اتخاذ القرار. وقد علمت مما أسلفتُ أن الله عز وجل قد متّع الإنسان بسرٍّ ذي أهمية قصوى، به يملك اختياره في الإقبال على مايشاء، وهو ما نعبر عنه بالقدرة على اتخاذ القرار والتوجه بالعزم الذاتي على ما يريد. وهي واحدة من المزايا التي يتميز بها الإنسان عن سائر الحيوانات الأخرى. فالحيوانات العجماوات إنما يقودها الغريزة، ومهما وُصِفَتْ طائفة من الحيوانات بالذكاء، فهو يظل ذكاء غريزياً، ومن ثم تظل

(١) انظر القاموس المحيط مادة: بصر.

محكومة به، ولاتستطيع أن تكون حاكمة بواسطته.. أما الحيوان الناطق (الإنسان) فقد حرره الله عز وجل من أسر الغريزة، إلا بالنسبة للضروري من مقومات حياته، ومتعه بدلاً عنها، بنور الإدراك والمعرفة، على نطاق واسع، ومن خلال استعداد متميز، ثم جهزه بالقدرة الذاتية على اختيار ما يشاء مما هداه إليه إدراكه العقلي، من الخير والشر. وهذا معنى قوله عز وجل: ﴿وَنَفْسٍ وَما سَوّاها ، فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها﴾ [الشمس: ٩١/٧-٨] وهو معنى قوله تعالى: ﴿إِنّا خَلَقْنا الإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْناهُ سَمِيعاً بَصِيراً ، إِنّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ إِمّا شاكِراً وَإِمّا كَفُوراً﴾ [الإنسان: ٧٦/٢-٣] ولا مجال في هذا الصدد للخوض في هذه المسألة بأكثر من هذا البيان الموجز. ولكن إن أردت تفصيلاً لهذا الموجز، وجواباً عن مشكلات قد تخطر في البال، فارجع إلى كتابي (الإنسان مسير أم مخير).

* * *

ويأتي بعد هذا دور القلب، فيقول ابن عطاء الله «والقلب له الإقبال والإدبار» أي هو بين مدّ وجزر، إذ هو بين سلطانين يتنافسان عليه، سلطان الأنوار العلوية التي أشار البيان الإلهي إليها بقوله عز وجل ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشاءُ﴾ [النور: ٢٤/٣٥] وبقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٣٩/٢٢] وسلطان الأهواء والشهوات الغريزية التي أشار إليها البيان الإلهي بقوله: ﴿زُيِّنَ لِلنّاسِ حُبُّ الشَّهَواتِ مِنَ النِّساءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَناطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعامِ وَالْحَرْثِ﴾ [آل عمران: ٣/١٤].

فإن أكرمه الله بمجاهدة النفس عن طريق مراقبة الله والإكثار من ذكره، على نحو ما بينت لك في الحكمة السابقة، ثم الاستقامة على ذلك، كانت الغلبة لسلطان الأنوار، ومن ثم لقرار البصيرة وحكمها.. وإن لم يأخذ نفسه بهذا الجهاد، وأسدل بينه وبين مراقبة الله وذكره حجب الشواغل الدنيوية، أو اكتفى من الاصطباغ الديني ومنهاج السلوك إلى الله بالرسوم والمظاهر الشكلية، فلابدّ أن تكون الغلبة لسلطان الغرائز وذيولها من الأهواء والشهوات والمصالح والعصبيات الشخصية.

ومن عاش بين عراك هذين السلطانين المتجهين إلى قلبه: يأخذ نفسه آناً بما يشدّ عزيمته إلى التسامي فوق جماح الغرائز وجنودها، فيرقى بذلك صعداً وينتعش منه بذلك القلب، ويتجه بسلوكه إلى النهج الذي يرضي الله.. ويتغلب عليه آناً آخر جماح شهواته وأهوائه، فيستسلم لها، ويتسرب سلطان غرائزه المهتاجه إلى قلبه فتجند ما فيه من عواطف ووجدان لحسابها.. ثم ما يلبث أن تتداركه أنوار من تجليات الله عليه، فينهض من كبوته، ويعود فيصلح أمر نفسه، ويتمسك بحبال الإشراقة الربانية السارية إلى قلبه ملتجأ إلى لطف الله ورحمته، محصناً كيانه ضد جند الأهواء بالإكثار من مراقبة الله وذكره.. وهكذا دواليك، تجده كما قال ابن عطاء الله بين إقبال وإدبار، وكر وفرّ.

وأغلب الظن أن من عالج نفسه بهذا العراك، يقاوم من خلاله جموحات غرائزه الحيوانية فتغلبه آناً ويغلبها آناً آخر.. دون أن يكل من استمرار المقاومة والجهاد، فلسوف تنتشله الألطاف الإلهية عاجلاً

أو آجلاً من كيد نفسه وأوحال غرائزه، ولسوف يصدق عليه قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا﴾ [العنكبوت: ٦٩/٢٩] والهداية هنا ليست هداية دلالة مجردة، بل هي دلالة جذب وتوفيق.

* * *

ودعني أختم الآن شرح هذه الحكمة بما يزيدك يقيناً أن سبيلك إلى التعرض لنفحات الأنوار الربانية ووصولها إلى قلبك، سبيل واحد لا ثاني له، ألا وهو الإكثار من ذكر الله عز وجل، كما قد بينت وشرحت لك من قبل.. فإني أخشى أن تكون ممن يستخفون بهذا الأمر ويستهينون بسلوك سبيله، وإنه لخطأ قتال لو ركنت إلى هذه الحال وظللت معرضاً عن سلوك هذا السبيل.

تأمل في الشطر الثاني من الآية التي استشهدت بها قبل قليل، من كتاب الله عز وجل: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢/٣٩] ألا ترى كيف تقرر الآية في شطرها الثاني، أن تنزل الأنوار الإلهية إلى الصدر بالانشراح والهداية، مردّه إلى الإكثار من ذكر الله، وأن غيابها الذي تتسبب عنه قسوة القلب واحتجاب الهداية عنه، مردّه إلى الإعراض عن ذكر الله؟ ثم ألا ترى إلى عاقبة الويل إذ ينذر به أصحاب هذه الأفئدة التي أقفرت عن ذكر الله والأنس به فمنيت بالقسوة والانصراف عن نداء الله.

وتأمل لتتأكد مما قد قلته لك في هذه الآية الأخرى من خطابه عز وجل: ﴿وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا وَاتَّبَعَ هَواهُ وَكانَ أَمْرُهُ

فُرُطاً﴾ [الكهف: ١٨/٢٨]، ألا ترى كيف جعل البيان الإلهي إتباع الهوى والخضوع لسلطانه، أثراً من آثار غفلة القلب وإعراضه عن ذكر الله؟

بل ألا ترى كيف أن الله (فيما تقرره هذه الآية) إذا أراد أن يعجل العقاب لعبد من عباده في الدنيا، من جراء سوء ارتكبه فغضبه عليه بسببه، أسدل على قلبه حجاباً يقصيه عن ذكر الله ويغفله عن مراقبته، ويجعله في سجن قصيٍّ عن لذة شهوده ورؤية باهر حكمته وعظيم ألطافه؟

وتأمل في الضيق الذي يعبر عنه البيان الإلهي بكلمة «الضنك» إذ يعتري القلب الغافل عن الله والناسي لذكره، وذلك في قوله عز وجل: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمَى ، قالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً ، قالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آياتُنا فَنَسِيتَها وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾ [طه: ٢٠/١٢٤-١٢٦].

ألا فاعلم أن الوصول إلى مرضاة الله لايتم إلا بيقظة القلب واستنارته بأنوار التجليات الإلهية، وقد ذكّرتك بالآيات الناطقة بذلك..

ويقظة القلب واستنارته بهذه التجليات لايتم كل منهما إلا بالإكثار من ذكر الله بالمعنى الذي أوضحته لك والسبل التي بينتها، وهي مقررة في كتاب الله ومشروحة في سيرة رسول الله وهديه.

ثم اعلم أن الطعام إن كان هو الغذاء الذي لابدّ منه لحياة الجسد، فذكر الله هو الغذاء الذي لابدّ منه لحياة القلب.

ولن يستقيم للمسلمين أمر، ولن تحلّ لهم معضلة، ولن يصلح لهم حال، إن لم يأخذوا أنفسهم بهذا العلاج، ولم يشدوا آصرتهم إلى الله بالإكثار من مراقبته والدوام على ذكره، بالآداب التي ذكرتُ وبالضوابط التي أوضحت.

فإياك أن تستخف بهذا الذي عظم الله شأنه، أو أن تعرض عن هذا الذي شدّد في توجيه عباده إليه وأمْرهم، فتقع من ذلك في مغبة سخطه، بالإضافة إلى ما قد يجرّه إليك من قسوة القلب وضيق الصدر وفساد النتائج.

ولايخدعنّك حال طائفة ممن يعملون - في الظاهر - فيما يسمى الحقل الإسلامي، إذ تجدهم، كما قلت، منصرفين عن أخذ أنفسهم بهذا العلاج، مستبدلين به الأعمال الحركية والأنشطة الفكرية، مكتفين من الإسلام برسومه الشكلية وعناوينه الإسمية ومظاهره الاجتماعية.

ولسوف يردّك عن الانخداع بذلك، انصرافك عن الانبهار بالصور والمظاهر، إلى تتبع الآثار والنتائج، إذ ستسمع عندئذ جعجعة ولن ترى طَحْنا..

* * *

الحكمة السادسة والخمسون

((لاتفرحك الطاعة لأنها برزت منك، وافرح بها لأنها برزت من الله إليك ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾))

فرح المسلم بالطاعة التي يوفق لأدائها، على نوعين اثنين: نوع يستند إلى وجود موجب له، فهو فرح مبرور ومأجور من الله عز وجل. ونوع آخر لامستند له إلا التخيل والوهم، ولايتسبب عنه إلا المقت وحبط الطاعة التي كانت مبعث الفرح.

أما النوع الأول، فيتمثل في فرح العبد بأن وفقه الله لأدائها. ومعنى التوفيق أن الله شرح صدره لها، وأطلق في كيانه أنواع القدرات والقوى للنهوض بها، وصدّ عن سبيله إليها العوائق والموانع، ثم إنه جل جلاله قبلها منه، على الرغم من النقائص والعيوب التي فيها، وعلى الرغم من أنها ليست كفاء عظيم حق الله عليه.

وأما النوع الثاني، فيتمثل في فرحه بما يخيل إليه من القدرة التي يتمتع بها، وقوة الإرادة التي أكسبته المضيّ فيها والثبات عليها، والتفوق بها على الأصحاب والأقران الذين لاينهضون، أو

لايستطيعون النهوض بمثل عمله، لاسيما عندما تكون الطاعة من الأعمال التي تتوقف على همّة عالية أو على دراية علمية متميزة أو على جرأة وإقدام وقدر كبير من المغامرة ضدّ المخاوف والأخطار.

من الواضح أن الفرح الأول، يزيد الطائع شعوراً بعبوديته لله، ويزيده يقيناً بعجزه الكلي أمام عظيم تدبير الله وسلطانه، ومن ثم يزيده شكراً لله وشعوراً بعظيم منته عليه.. ومن ثم يكون فرحه هذا مناط أجر إضافي يدّخره الله له بالإضافة إلى أجر الطاعة التي أداها له.

كما أن من الواضح أن الفرح الثاني لايأتي إلا ثمرة لون من ألوان الشرك بالله عز وجل، هيمن على كيان هذا الطائع وفكره. إذ إن هذا الفرح لايطوف بنفسه إلا لغيابه عن معنى الكلمة القدسية التي علمنا إياها رسول الله ﷺ، والتي أمرنا أن نتشبع بمعناها وأن نكررها في كل مناسبة: ((لاحول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم)).

وليس الشرك محصوراً في معناه السطحي المتمثل في عبادة الأصنام وما سوى الله، أو المتمثل في أن يتجه أحدنا بالدعاء إلى غير الله، بل إن له معنى خفياً يتسرب بسبب خفائه إلى أفئدة ونفوس كثير من المسلمين دون معرفة له ولا شعور به، وذلك هو مصدر خطورته، إذ لايصادف عملاً صالحاً، أو عبادة من العبادات، أو نوعاً من أنواع الجهاد، إلاّ أحبطه وأفقده قيمته وحوله من طاعة مبرورة إلى معصية وشرك. وصدق الله القائل: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاّ وَهُم مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٢/١٠٦].

هذا الشرك الخفي، هو أن يرى الإنسان من ذاته شيئاً، هو مبعث القوة إن سار وتحرك، أو مبعث الدراية والفهم إن علّم أو تعلّم، أو مبعث الملك والغنى إن شبع وتنعّم، أو مبعث الغلبة والقهر إن قَدَر وتحكّم.

هذه كلها أوهام تناقض الحقيقة التي ركب منها الإنسان، ومن ثم فهي تناقض التوحيد، وتناقض حال من يزعم أنه موحّد، من حملة هذه الأوهام، مهما كرر وأعاد كلمة ((لا إله إلاّ الله)).

إن كلمة قدسية واحدة تطير هذه الأوهام كلها، ألا وهي ((لا حول ولا وقوة إلا بالله)).

* * *

وانظر الآن إلى الأثر الذي يتركه في نفسك كل من هاتين الفرحتين، وإلى فرق ما بينهما.

عندما يستبد الفرح بنفسك للدافع الثاني - ولا أطيل في تكرير بيانه - لابدّ أن يتكون من فرحك هذا نسيج يحجبك عن الله عز وجل، وينسيك قيوميته على ذاتك، ويقصيك عن الشعور بتفضله ومنته عليك. وعندئذ لابدّ أن يتحول فرحك هذا إلى اعتداد وزهو بالنفس، ثم إلى عجب وتسام على الأصحاب والأقران، ثم إلى يقين بأنك قد ضمنت لنفسك الأجر الذي تستحقه، وإلى أمْنٍ من مكر الله بك ومواجهته لك بما لاتتوقع من وقائع انحرافاتك وتقصيرك في حقه!..

وعليك أن تعلم كيف أن سلسلة هذه النتائج المترابطة، تقف من حقيقة عبوديتك لله موقف النقيض من النقيض.. وليت شعري أسترحل غداً إلى الله معرضاً عن عبوديتك هذه اللاصقة بك، حاملاً معك إليه سلسلة هذه النتائج والأوهام؟ إذن فأغلب الظن أنك تتوقع أن تكون أنت المحاسب له، ولن يخطر منك على بال أن يكون هو، جل جلاله، المحاسب لك!!.

أما عندما يطوف بنفسك الفرح للدافع الأول، فلسوف يكون أثراً لشعورك بعظيم فضل الله ومنته عليك، ولسوف يحملك هذا الفرح على أن تضاعف من طاعتك له وبرّك به، شكراً له على أن جعلك موضع عنايته وتوفيقه، وأن وجه عقلك إلى معرفته، وشرح صدرك للإيمان به والدينونية لحكمه، وأقدرك ونشّط أعضاءك للسعي إلى تنفيذ أوامره والنهوض بطاعاته، وشرّفك بالمثول بين يديه والتوجه بالخطاب إليه، وأعطاك.. ثم أثابك على الإنفاق.. فإذا لهج لسانك بالشكر له وأنطقت جوارحك وأعضاءك، كلاً منها، بمثل ذلك الشكر، رجعت بأثقال أخرى من منن الله وعظيم فضله عليك. إذ تعلم أنه هو الذي أشعرك بوجوب شكره وأوحى إليك أن جزاء الإحسان ليس إلاّ الإحسان، وهذبك بمشاعر هذا الذوق الإنساني الجميل، ثم أقدرك على سلوك مسالك الشكر له بأنواعه المختلفة، فرأيت على أعقاب ذلك أن شكرك لله عز وجل يحتاج إلى شكر آخر له أن يسّر لك السبيل إلى شكره وهذّبك بالذوق الذي أدركت به أن الإحسان الذي يفد من الله إلى العبد، يجب أن يقابَل بإحسان يصعد إلى الله من العبد. ولكن هيهات أن يعلو من العبد إلى الله إحسان إلاّ بفضل وتوفيق من

الله وحده. إذن فالمحسن في كل الأحوال هو الله، والمتفضل في كل التقلبات هو الله.. والعبد لايملك أكثر من الاعتراف بهذا الفضل، فإن زاد على ذلك، فهو الافتقار إلى صفح الله وعفوه عن تقصيره.

ومعنى توحيد العبد لربه، لايتجلى (بعد التحلي بأركان الإسلام والإيمان) بأجلى من هذه المشاعر والتحلي بإدراك هذه الحقائق.

كما أن معنى عبودية الإنسان لله لايتحقق بأدق من هذه المعاني إذ تهيمن على عقله ثم وجدانه.

ثم إن صاحب هذه الحال الثانية، لايفضل نفسه على أحد من عباد الله المؤمنين به قط.. إذ هو يعلم أن مناط التفضيل عناية الله وستره وجميل صفحه، لا مظاهر جهود العبد وعباداتِه وسعيِه.. وهو لايعلم من هم الذين شاء الله تعالى أن يكونوا تحت جناح لطفه، وأن يذيقهم برد إحسانه وإكرامه.. مادام مقياس السعي الذاتي غائباً في هذا عن الاعتبار[١]. ولاتنس حديث رسول الله الذي ذكرتك به، والذي يقول فيه: «لن يدخل أحداً عملُه الجنة..» إلى آخر الحديث[٢].

وما وقفت على ترجمة أي من العلماء الربانيين المشهود لهم بالاستقامة على الشرع، والاصطباغ بحقائق العبودية لله عز وجل، إلا ويلغي طاعاته وقرباته مهما عظمت وكثرت وتنوعت عن الاعتبار،

---

(١) هذا المقياس ليس غائباً في مجال المطالبة بالالتزام والنهوض بالواجبات الشرعية التي كلف الله بها عباده، ولكنه غائب في مجال التأمل بفضل الله وانتظار مثوبته، ومصدر استحقاق العبد لذلك. فافهم فرق ما بين الأمرين.

(٢) انظر شرح الحكمة الحادية والخمسين.

ويرى أنه مثقل بالمنن التي لم يؤد إلى الله حقوقها، وبالتبعات الكثيرة التي ينتظر بها مغفرة الله وصفحه.. ثم إنه ينظر إلى الناس من حوله، فلايشك أنه أسوؤهم وأنهم جميعاً خير منه. إذ هو يعلم طوايا نفسه ويطلع على ما انطوت عليه من سوء، في حين أن الناس لايرون منه إلا الظاهر، ولايرى هو الآخر منهم إلا الظاهر.

انظر، وتأمل في هذه الكلمات التي يقولها الإمام الرباني الشيخ أحمد الرفاعي قدس الله روحه: ((أي سادة: أنا لست بشيخ، لست بمقدم على هذا الجمع، لست بواعظ، لست بمعلّم.. حُشِرتُ مع فرعون وهامان إن خطر لي أني شيخ على أحد من خلق الله، إلا أن يتغمدني الله برحمته، فأكون كآحاد المسلمين.. كل الفقراء ورجال هذه الطائفة خير مني. أنا أحيمد اللاش، أنا لاش اللاش))..

ثم يقول: ((أي أخي: أخاف عليك من الفرح بالكرامة وإظهارها. الأولياء يستترون من الكرامة، كاستتار المرأة من دم الحيض))[1].

ورأيت في ترجمة سيّدي الشيخ عبد القادر الجيلاني، قدس الله روحه أنه رؤي ملتصقاً بالملتزم من الكعبة المشرفة، وهو يناجي الله قائلاً: أي رب إن قضيت عليّ بأن لاتغفر لي زلاّتي الكثيرة يوم القيامة، فاحشرني ذلك اليوم أعمى، حتى لا أبصر أحداً من عبادك المغترين بي اليوم!..

فمن أي الفريقين تحب أن تكون؟ وبأي الفرحتين تودّ أن ترحل إلى الله عز وجل وأن تقف بين يديه؟

---

(١) البرهان المؤيد للشيخ أحمد الرفاعي، ص٣٤-٣٥، بتحقيق عبد العزيز السيروان.

أعلى استعداد أنت أن تحمل إليه عز وجل دفاتر حساباتك، فتعرض لـه ركعـاتك التـي ركعتهـا، وقراءاتـك التـي قرأتهـا، وصدقـاتك التـي أديتهـا، وقربـاتك التـي قمـت بهـا، لتطلـب منـه لقاءهـا الأجـر الـذي تستحقه والجنة التي وعدك بهـا؟!.. مـاذا ستجيبه إن قـال لـك: مـن أقدرك على ذلك كله؟ ومن الذي شرح صدرك له وألهمك ما ألهمك من ذكره ودعائـه وسـائر طاعاتـه وقرباتـه؟.. مـن الـذي حبـب إليـك الإيمان وزينه في قلبك وكره إليك الكفـر والفسـوق والعصيـان؟.. مـن الذي أقدرك على التجافي عن المضجع، وجذبك إلى الوقوف بين يديه، ثم الركوع فالسجود على أعتابه؟ ألا تستحي من ذل عبوديتـك وتمـام مملوكيتك له، إن أنت طالبته عز وجـل بحقـوق جهـد هـو مانحـه لـك، وأعمال هو خالقها فيه، وصدقات هو معطيها لك؟!

إنك لتعلم يا أخي أنك أهون من أن تستعدّ لشيء من هذا غداً يـوم القيامة.

إذن، فحدد منهـاج رحلتـك إلى اللـه مـن الآن.. كـن عبـداً للـه في رحلتك إليه كما خلقك عبداً في واقعك الاضطراري، كن عبداً لـه في الاستجابة لكل ما أمر وطلب.. ثم كـن عبـداً لـه في تـبرئك مـن كـل حول وقوة إلى حوله وقوته.. توجه إلى الله، بكل شراشـرك، للنهـوض بكل ما يطالبك به، فإذ قمت بما وفقك إليه مـن ذلـك، فسـجّل ذلـك نعمة جديدة أنعم الله بهـا عليـك، وحمّـل نفسـك مسـؤولية شـكرها، وطالب كيانك بواجب النهوض بحقها..

وإذا ختمت حياتك على هذا المنوال، فلسوف تعلم أنك تخرج من الدنيا فارغ اليدين إلا من الأمل برحمته والتعلق بجوده ومغفرته.. ثم إذا قمت غداً مع الناس لرب العالمين، وأوقفت بين يديه، فلن تشعر إلا بثقل المنن الإلهية قد تراكمت عليك، ولسوف تجد نفسك أفقر من أن تقدم إليه بضاعة تملكها، أو قربة أنت صاحبها.. فإذا سألك: بم جئت إليّ؟ سابقتك عبوديتك التي لازمتها ولازمتك طوال رحلتك في فجاج الحياة الدنيا، فأجابت على لسانك مدافعة عنك: أنا عبد ذليل ومملوك فقير، أنى لي أن أمتلك شيئاً، فآتيك به، إنما جئت إليك اليوم، كما كنت في الدنيا بالأمس، بمسألتي لك وفقري إليك، انتظر ما عودتني عليه من العطاء، وأتأمل ما قد وعدتني به من جميل الصفح والمغفرة، جئتك كما كنت في الدنيا: فقيراً سائلاً، لا أملك إلا الرجاء بإحسانك وجودك.

* * *

لعلك تقول الآن مستشكلاً: إذن، فالإنسان مسير في سائر قرباته وأعماله.. إذ كما يصدق أن يقال: إن الفضل لله الذي وفق العبد لطاعته وشرح صدره لاتباع أوامره، وأقدره على تنفيذها وأدائها على الوجه المطلوب، ينبغي أن يصدق القول بأن المسؤول عن الذنب هو الله الذي وجه عبده الآخر إليه، وشرح صدره له، وأخضع قدرته لممارسته وارتكابه.. وإذن، يغيب موجب الثواب والعقاب تحت سلطان هذا القسر الذي لايملك العبد أمامه من أمر نفسه شيئاً.

والجواب أن مناط الثواب والعقاب في الطاعات والمعاصي التي تصدر من الإنسان، لايتمثل في أعماله المادية التي تصدر منه، وإنما في قصده إلى الفعل وتوجهه القلبي إليه.

إذ الأعمال المادية، بل المقومات المادية والمعنوية لفعل ما، سواء منها الموجودة في كيان الإنسان أو المبثوثة من حوله، كل ذلك بخلق الله عز وجل، وذلك بنص صريح واضح من قوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٣/١٦] والأعمال التي تصدر منا داخلة في عموم الأشياء.

غير أن من الواضح أن تكامل المقومات المادية لفعل الإنسان، لايعني ولادة الفعل ووجوده على صعيد الواقع. ذلك لأن ولادته تتوقف على انبعاث القصد إلى استخدام هذه المقومات لإيجاد الفعل وتنفيذه، وبوسعك أن تسمي هذا الانبعاث عزماً أو توجهاً أو اختياراً أو صرفاً للقدرة إلى الفعل المطلوب.

فإذا اتجه قصد الإنسان إلى صرف قدرته للقيام بفعل ما، وعزم على ذلك، أخضع الله له مقومات الفعل الذي عزم عليه، وأجرى ذلك الفعل على يديه. إذن فالله هو الذي خلق فعل الإنسان، استجابةً لقصده وما توجه إليه عزمه.

ولذا ذهب أهل السنة والجماعة إلى أن الثواب والعقاب لايكونان على الفعل المادي الصادر من الإنسان، لأنه بخلق الله وبقدرته التي أمدّ

وأكرم بها عبده، وإنما يكونان على عزمه الذي توجه بالقصد إلى الطاعة أو إلى المعصية.

لعلك تقول: إن الله يقول: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾ [الفرقان: ٢/٢٥] والشيء في أصح ما عرّفه به العلماء، هو الموجود، والقصد الذي يتمتع به الإنسان في تصرفاته الاختيارية موجود يقيناً، إذن فهو الآخر لايتم إلا بخلق الله.

والجواب: أن قصد الإنسان إذ يتوجه منه إلى عمل ما، جزئية تطبيقية يمارسها الإنسان، استناداً إلى حقيقة كلية، تتمثل في ملكةٍ وهبها الله للإنسان ومتعه بها، نسميها: القدرة على اتخاذ القرار، أو التمتع بحرية الاختيار.. فهذه الملكة أو الطاقة الكلية، إنما أورثك الله إياها ومتعك بها، فهي بلا شك من خلق الله وإيجاده. إنما الجديد الذي ينسب إليك هو ممارستك لهذه الملكة إذ تتوجه بها إلى العزم على فعل مّا.

إذن فملكة الاختيار بمعناها الكلي (أي من حيث هي مجرد قابلية كامنة لديك) مخلوقة من الله عز وجل، وتعلقها التطبيقي بجزئيات الأفعال والتصرفات، من ممارساتك المنسوبة إليك، وهي حالة اعتبارية، لايصح أن يقال إن الله خلقها خلقاً مستقلاً عن الملكة الكلية التي تفضل عليك ومتعك بها.

إذن فخلق الله الأفعال الصادرة منك لاتعني أنه قد جعلك بذلك مكرها على صدورها منك، شئت أم أبيت، إذ إنه جعل خلقه لها، تابعاً لما قد توجه إليه قصدك وعزمك، من الأفعال والتصرفات التي

يقع اختيارك عليها. وإنما الثواب والعقاب على هذا العزم الصادر منك، وهو ما يعبّر عنه القرآن بالكسب، في مثل قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٧٤/٣٨].

لعلك تقول: فلماذا لا أفرح إذن لبروز الطاعات مني، ما دام الثواب على القصد، وما دام القصد صادراً مني وعائداً إلي؟

والجواب أن توجهك بالقصد الذي متعك الله بملكته، إلى جزئيات التصرفات والأفعال، صادر منك حقاً، كما قد أوضحت قبل قليل، ولكن فلتعلم أن قصودك المتجهة إلى الطاعات والأعمال الصالحة، تأتي استجابة للفطرة الإيمانية التي فطر الله عباده عليها، والتي حدثنا عنها بيان الله تعالى بقوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النّاسَ عَلَيْها﴾ [الروم: ٣٠/٣٠].

إذن، فالله هو المتفضل على عباده إذ وجههم إلى شرف الإيمان به والخضوع له، بالفطرة والتكوين، قبل أن يأمرهم بذلك بالخطاب والتشريع.

صحيح أن أحدنا يستجيب، فيما ينهض به من شؤون وأعمال، لعزائمه القلبية، وقراراته الاختيارية، ولكن عزائمنا وقراراتنا هذه تأتي في الغالب استجابة للفطرة الإيمانية التي فطرنا مولانا وخالقنا عليها.

وإنما قلت: غالباً، احترازاً عن الذين أيقظوا بين جوانحهم طبيعة الأنانية والاستكبار، ثم ركنوا إلى هذه الطبيعة وتعاملوا معها.. فهؤلاء حجبوا أنفسهم عن نداء الفطرة بالركون إلى العتوّ والاستكبار.

وقد علمت مما قد ذكرته لك من قبل أن المعاصي مهما كثرت لاتحجب صاحبها، بحدّ ذاتها، عن التعرض لكرم الله وصفحه، بل ربما دفعته إلى الالتجاء إليه والانكسار بين يديه والاستغفار مما قد بدر منه.. ولكن الاستكبار هو الذي يحجب صاحبه عن التعرض لعفو الله ومغفرته، ومن ثم فإن من شأنه أن يسدل حجباً كثيفة بينه وبين نوازع الفطرة الإيمانية المغروسة في كيانه، منذ أولى مراحل الخلق، وأذكرك في هذا بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْها لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوابُ السَّماءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِياطِ﴾ [الأعراف: ٧/٤٠].

إذن، فالفضل كله في هداية العبد وتوفيقه والتوجه بالانقياد إلى مولاه إنما هو لمولاه عز وجل.. فطره على هذا التوجه، ثم أمره به وأعانه عليه.

ومسؤولية الشرود عن الهداية والانصراف عن أوامر الله عز وجل، تعود إلى العبد الذي شرد وانصرف عن سبيل الهداية، بما أصرّ على الركون إليه من الاستكبار على الله وتجاهل واقع عبوديته لله.

وقد كان بوسعه أن لاينحرف إلى الاستكبار الذي لن يكون الإنسان يوماً ما أهلاً له، لو أنه التجأ إلى فطرة عبوديته لله واستئناسه بخطاب الله والحنين إلى التذلل لسلطانه والرغبة في الانقياد لحكمه، أو لو حكّم في التعامل مع هذا الداء عقله.

وحصيلة هذا كله، أنك مدعوٌّ إلى أن تستجيب لنوازع فطرتك التي غرسها الله في كيانك، مستعيناً بالقدرة التي متعك الله بها، فتنقاد

لأحكامه وتستجيب لتعاليمه، ثم تعلق آمالك كلها برحمة الله وبفضله. إذ هو بفضله ورحمته فطرك على حنين الإقبال عليه والتعرف إليه، وبفضله ورحمته أقدرك على خطوات سيرك إليه، وبفضله ورحمته يجعلك يوم القيامة من المقبولين لديه..

إذن فاجعل ذلك وحده مصدر سرورك وفرحتك، وصدق الله القائل: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ١٠/٥٨].

* * *

الحكمة السابعة والخمسون

((قطع السائرين له والواصلين إليه، عن رؤية أعمالهم وشهود أحوالهم. أما السائرون، فلأنهم لم يتحققوا الصدق مع الله فيها، وأما الواصلون، فلأنه غيّبهم بشهوده عنها))

لعلك تستشكل هذا التقسيم، فتقول: وهل ينتهي المسير إلى الله في هذه الحياة الدنيا إلاّ بالموت إذ يحين ميقاته؟ وهل في السائرين إلى الله من هم أفضل من الرسل والأنبياء؟ وهل فيهم من هو أقرب إلى الله وأفضل من خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم؟.. ومع ذلك فقد قال له الله تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ١٥/٩٩]، ولم يختلف المفسرون من السلف الصالح ومن سار على نهجهم، في أن المراد باليقين الموت.. فمن هم إذن الذين وصلوا إلى الله، قبل أن ينطوي التكليف عنهم بحلول الموت؟

والجواب أن المراد بالواصلين من ساروا أشواطاً طويلة في طريق تزكية النفس، حتى غابت عنها كثافتها الترابية، وانقشع عنها دخان الشهوات والأهواء، فأصبحت بصائرهم التي كانت محجوبة، قبلُ،

بهذا الدخان عن الله، لاترى في مظاهر الكون إلا المكون، ولاترى في النتائج والآثار إلا المسبب والمؤثر..

فهؤلاء يعبَّر عنهم، مجازاً، بالواصلين، لأنهم كانوا محجوزين عن شهود الله في سجن نفوسهم التي تكاثفت عليها حجب الرعونات والأهواء، فلما انجابت تلك الحجب وأطلقوا من أسر نفوسهم، تعبّدت الطرق بينهم وبين الله، وارتفعت الحواجز التي كانت تصدّهم عن شهوده، فسُمُّوا لذلك بالواصلين. ولاريب أن هؤلاء أكثر شعوراً بمسؤولية التكاليف، بل أكثر شعوراً بالتقصير من غيرهم، كما سأبين وأفصّل القول في ذلك إن شاء الله.

ولعلك عرفت الآن، من خلال ما نبّه إليه المفهوم المخالف، أن المراد بالسائرين، الذين آمنوا بالله وأخلصوا دينهم لله، واتجهوا إلى تنفيذ أوامره والابتعاد عن نواهيه، مع بذل ما يملكون من جهد لتزكية نفوسهم من الشوائب والرعونات المهيمنة عليها، بل المتغلغلة فيها.

فالشأن في كلا الفريقين: السائرين، والواصلين، أن يغيِّبهم الله تعالى عن رؤية طاعاتهم وأعمالهم المبرورة التي يتقربون بها إلى الله، فلايقيمون لها، بعد فراغهم منها، وزناً، ولايعتمدون عليها في أجر يطمعون به، أو جنة ينالونها، أو في عقاب يتقونه، بل يرون أنها أقلّ وأتفه من أن تكون محطّ آمالهم أو مناط أطماعهم.

أما الفريق الأول، وهم السائرون (وقد عرفت المعنى المراد به) فلأنهم، وهم في مرحلة السير وتزكية النفس لتخليصها من الآفات العالقة بها، لايشكون أن أعمالهم وقرباتهم لاتتخلص من رشاش هذه

الآفات، فهي معيبة، ناقصة، لايليق الدخول بها على الله، أو تقديمها ثمناً لشيء من الآمال المتعلقة بإحسانه وكرمه.

ولو تأمل أحدنا في طاعاته وقرباته التي يؤديها، ويتجه بها إلى الله عز وجل، لرآها مغموسة بالعيوب مثقلة بالآفات مذيلة بالشوائب والنقائص.

تأمل في صلاتك التي تصليها، وصومك الذي تؤديه، وصدقاتك التي تتصدق بها، ومناسك حجك، ونشاطاتك الدعوية، ومؤلفاتك ومحاضراتك الإسلامية، تجدها جميعاً ملوثة برشاش العيوب والآفات، من غفلات وشرود أثناء القيام بها، أو من إعجاب بما قد وفقت إليه منها، أو من توظيفها لمصالحك الدنيوية وحظوظك النفسية.. إلخ.

فإن قلت: ولكني أعلم من مراقبتي لحالي، أن قرباتي وطاعاتي، لاتعاني من شيء من هذه الآفات، وإني لأنظر وأتأمل فأجدها مبرأة من كل هذه الآفات التي ذكرتها، فاعلم أن ثقتك هذه بنزاهة طاعاتك من العيوب والشوائب هي ذاتها الآفة الخطيرة التي تسمى العجب.. وهو أسرع الآفات إزهاقاً للطاعة ومحواً لجدواها.

ولقد قلت لك من قبل: إن العبد كلما تدرج صعداً في مدارج السالكين، ازداد شعوراً بتقصيره وغياباً عن جدوى طاعاته وعباداته، إذ هو في تدرجه هذا يزداد كل يوم تبصراً بعظيم سلطان الله عليه، إدراكاً لجلائل نعمه ومننه التي لا حصر لها، وشعوراً بتقصيره وعجزه عن الوفاء بحقوق ربوبيته عز وجل.. في حين أنه لما كان في أول عهد اصطلاحه مع الله وإقباله إليه، كان يرى في ركعات الفرائض التي

يركعها ما يملأ صحائفه كلها عند الله حسنات، دون تأمل لكيفيتها ومدى حضوره وخشيته فيها..

فإن جاء من يقول: إنني أنهض بأوامر الله كاملة كما طلب، ليس فيها آفة نقص ولا شائبة عيب، فاعلم أنه بدائيّ التوجه إلى الله، جاهل لمعاني ربوبية الله، غير شاعر بأعباء الحقوق الإلهية الملقاة على كاهله، سطحي المعرفة له.

إذ لو لم يكن كذلك، لكان خوفه من أن يردّ الله عليه طاعاته التي أداها كما يُردَّ الثوب الخلَق على صاحبه، أكثر من طمعه في أن ينال المثوبة عليها.

ويرحم الله جنيداً البغدادي إذ قال: ((لايصفو لأحد قدم في العبودية حتى تكون الأفعال كلها عنده رياءً، وأحواله كلها عنده دعاوي)).

وهل خلق الله الإنسان ضعيفاً في كل شيء كما قال: ﴿وَخُلِقَ الإِنْسانُ ضَعِيفاً﴾ [النساء: ٤/٢٨] إلا ليلجم ضعفه أفواه من يتراءى لهم أنهم قد أدوا حقوق الله - من خلال طاعاتهم له - كاملة غير منقوصة؟

وقد حدثتك حديثاً مفصلاً عن الحكمة في خلق الله الإنسان ضعيفاً، كما قال، وذلك عند شرح الحكمة التي مرت بك، والتي يقول فيها ابن عطاء الله ((لاعمل أرجى للقبول من عمل يغيب عنك شهوده، ويُحتقر عندك وجوده)).

* * *

أما الفريق الثاني، وهو من عبر عنهم ابن عطاء الله بـ((الواصلين)) فلأنه جلّ جلاله غيّبهم بشهوده عنها، على حدّ تعبيره.

وقبل أن أشرح هذا الكلام، ينبغي أن أوضح لك أنه ليس في الصالحين من عباد الله عز وجل من يعلم أنه من فريق الواصلين إليه، أو يصنف نفسه في هذا الفريق. إذ الشأن في الإنسان أن يزداد اتهاماً لنفسه واكتشافاً لمزيد من مظاهر تقصيره، كلما ازداد قرباً من الله ومعرفة به.. فكيف ومتى يدرك أنه من الواصلين إليه، حتى يصنف نفسه في عدادهم.

ولكن هذا لايستلزم جهل المسلم بحال الربانيين من عباد الله الذين حازوا فعلاً مرتبة القرب منه والوصول إليه، بالمعنى الذي ذكرته قبل قليل للوصول، في هذا الصدد.. بل إننا نعلم أن الدنيا لاتخلو في أي عصر من العصور من هؤلاء الواصلين، وإن كانوا لايثبتون، هم، لأنفسهم هذا الوصف.

فإن سألت قائلاً: كيف نعرفهم، وبأي الدلائل ندرك أنهم من هذا الفريق؟

فالجواب أننا نتبيّنهم ونعرفهم من هذه العلامة الفارقة التي يقولها عنهم ابن عطاء الله: أنهم غائبون بشهودهم الدائم لله تعالى عن شهود أعمالهم من حيث هي، فضلاً عن أن يشهدوا مزاياها أو شيئاً من مظاهر كمالها.

العلامة الفارقة لهؤلاء، أنهم ألزموا أنفسهم بضوابط الشريعة وأحكامها، ووجهوا جهودهم لتزكية نفوسهم وتنقيتها من أمراضها

الخفية التي حذر الله منها وسمّاها «باطن الإثم» من الحسد والكبر والضغينة وحب الدنيا ونحو ذلك، وشغلوا أوقاتهم كلها بذكر الله ومراقبته، فأصبحت ألسنتهم لاتفتر عن ذكره، وقلوبهم لاتفتر عن تذكره ومراقبته.. وأعينهم لاتبصر من صفحة الدنيا إلا معاني وحدانيته وصفات ربوبيته، وآذانهم لاتسمع منها إلا أصوات تسبيحه والثناء عليه، ومهما تقلبوا في أحوال المعايش الدنيوية، لم يجدوا فيها إلا باهر حكمة الله وتدبيره، ومن ثم استوت عندهم لذائذها وآلامها، وإقبالها وإدبارها.

أجل.. بوسعك أن تعرفهم من خلال هذه الصفات.. أما هم، فغائبون عن هذا كله، لأنهم غير عابئين بهذه المقاييس وغير ملتفتين إليها أو متنبهين لها، حتى يعودوا إلى أنفسهم فيقيسوا أحوالهم بها.. لقد أنساهم التوحيد الخالص أنفسهم فلم يروا لها كينونة مع الله.

فكيف يتأتى لهؤلاء الناس أن يلتفتوا عن الله ليتأملوا فيما قدموا إليه من طاعات وقربات؟.. كيف تتصور أن يتأتى لهم ذلك، وهم تائهون عن أنفسهم بشهود الله عز وجل؟

إن الذي يحصي على الله ما قد قدّمه له من طاعات، يمارس لوناً من أسوأ ألوان الشرك الخفي المقنع بتوحيد الله، وصاحب هذا الشهود أبعد ما يكون عن هذا الشرك الخفي.

وأحسب أن في الناس من قد يستشكل فيقول: فإذا كان الشهود من شأنه أن يصرف صاحبه عن التنبه إلى طاعاته وعباداته التي يؤديها، فكيف يتسنى له أن يتأكد من صحتها ومن أدائه لها بالضوابط

والأركان والشروط المرعية فيها؟ لعله إذن يسهو عنها أو عن بعضها!..

والجواب أن استغراق العبد في مشاعر عبوديته لله تعالى، يحمله على المبالغة في الدقة بأدائها والانضباط بكامل آدابها وأركانها، فإذا انتهى منها وفرغ من أدائها، طويت عن ذاكرته وغابت عن حاله وشعوره، ولم يجعل منها شيئاً ذا بال يضعه سبيلاً بينه وبين الله عز وجل. إذ يرى نفسه بكل ما تلبست به من شؤون وقربات من ثمرات فضل الله وإحسانه.

وقد ورد في بعض وصايا الربانيين من السلف الصالح: إذا سمعت نداء الله وأمره لك، فبادر إلى الامتثال موقناً بوجودك ومقومات عملك. فإذا أنجزت ما قد أمرك به الله، فاعلم بأنك لاشيء، وأن الله هو المتفضل عليك وهو الخالق لفعلك. فطالب نفسك بواجب الشكر له على ذلك، ولاتطلب منه الأجر على طاعة هو المتفضل بها عليك.

* * *

كان هذا عن انقطاع السائرين إلى الله، والواصلين إليه، عن شهود أعمالهم، بقي أن نفهم المراد بغيابهم عن شهود أحوالهم.

المراد بالأحوال هنا، ما يمر به السالك إلى الله، من أوضاع وتقلبات يستدّل بها على حسن حال السالك وصفاء سريرته، كخشية تنتابه، وخشوع يهيمن عليه أثناء صلاة أو دعاء أو مناجاة، وكتجليات ربانية تقصيه عن الاهتمام بالدنيا وأحوالها وتقلباته فيها، وكتنامي مشاعر

الثقة بالله والتوكل عليه والرضا عنه بين جوانحه، وكظهور بعض الخوارق والكرامات على يديه.

فهذه وأمثالها أحوال انفعالية، يمرّ بها السالك، قد يطول أمد بقائها لديه وقد يقصر، وهي في جملتها دليل على حسن حال السالك مع ربه عز وجل وعلى الأشواط التي قطعتها نفسه في طريق التزكية والتخلص من آفاتها ورعوناتها.

ولكن الوقوف عندها بالاهتمام والاغتباط بها واتخاذَها دليلاً يستبشر به السالك أو الواصل على حسن حاله مع الله وقربه منه، مزلّة قدم، وجاذب سوء يعود به أشواطاً كثيرة إلى الوراء.

ولذا فإن من أعظم مظاهر عناية الله بعبده السالك إليه، أن يقصيه عن رؤية أحواله هذه والوقوف عندها، كي لا يفتتن بها. بل إنك لتنظر، فترى أنه بمقدار ما تنتابه هذه الأحوال التي هي دليل على صفاء سريرته ودوام مراقبته لله، يذهل عنها ويتجاوزها إلى الاهتمام بواجباته والتفكر في مآله، وما هو مقبل عليه، والحزن من جراء ما يرى من مظاهر تقصيره وسوء حاله.

فإذا عرفت وتبيّنت هذا الذي يقوله لنا ابن عطاء الله، وهو يعرفنا بالسالكين والواصلين، ويلفت نظرنا إلى أهم صفاتهم ومزاياهم، فإياك أن تغترّ بمن لايقتنع أن يصنف نفسه لك في السالكين إلى الله، بل يصرّ على أن يؤكد لك أنه من الواصلين والنخبة المتميزة من العلماء الربانيين ثم يبرهن لك على ذلك بما يلفت نظرك إليه من الأحوال والكرامات والمقامات التي ميزه الله بها.. فهو يجعل من الحديث عنها

مادّة دروسه، ومتكأ نصائحه وعظاته.. إنه يرى رسول الله يقظة لا مناماً، وإنه ينبّأ بحال مريديه وما يجول في نفوسهم، وإنه يتمتع بكرامات جاهزة يستطيع أن يبرزها لمن يشاء عند الطلب.

ألا فلتعلم أن هؤلاء تجار... يبحثون عن أيسر سبيل لترويج بضاعتهم وتحسين دنياهم.

ولكن التجار المعروفين يسخرون الدنيا للدنيا، ويستخدمون رأس مال من المال ابتغاء الوصول إلى أرباح من المال... أما هؤلاء، فقد طاب لهم أن يجعلوا من الدين وأحاديثه وصناعته وسيما الصلاح وفنون الخوارق والكرامات، رأس مالهم المفضل للأرباح المالية والدنيوية ذاتها.

وإذا خشيت على نفسك من أن تضيع في المتاهات، وأن يلتبس عليك العالم الرباني المربي المخلص، بالتاجر الدنيوي الذي يسخّر لتجارته رأس مال من بضاعة الدين، فاذكر حكمة ابن عطاء هذه واتخذ منها فيصلاً بين الهويتين والشخصيتين ولاتنس ما نقلته لك من كلام سيدنا السيد الشيخ أحمد الرفاعي قدس الله روحه: ((أي أخي.. أخاف عليك من الفرح بالكرامة وإظهارها، الأولياء يستترون من الكرامة، كاستتار المرأة من دم الحيض)).

وبعد، فأحسب أن هذا القدر من شرح هذه الحكمة، كاف، إذ هي ذيل متمم للحكمة التي قبلها، والتي قال فيها ((لاتفرحك الطاعة لأنها برزت منك وافرح بها لأنها برزت من الله إليك..)).

وأخشى إن استرسلنا في الحديث أن نقع فيما أحب التجنب منه، وهو التكرار. فاجمع ما قلته لك هنا مع ما قلته في شرح الحكمة التي قبلها، ونسق بينهما، تجد أنك لاتحتاج إلى مزيد.

* * *

الحكمة الثامنة والخمسون

((ما بسقت أغصان ذل إلاّ على بذر طمع))

دعنا ندخل إلى شرح هذه الحكمة الصغيرة في مبناها والكبيرة في معناها، من خلال مقدمة لابدّ منها:

الإسلام هو السبيل الوحيد الذي لابديل عنه، إلى التحلي بالعزة الحقيقية التامة. والاعتزاز من المشاعر التي فطر الله الإنسان عليها. وهذا دليل آخر على أن الإسلام هو الدين الذي يتفق مع كل ما قد فطر عليه الإنسان من المشاعر والحاجات الإنسانية المختلفة.

ولكن ما الدليل على أن الإنسان لن يجد عزته التامة إلا في رحاب الإسلام؟

وأجيبك بالقدر الذي لابدّ منه من التبسيط والبيان، تاركاً ما وراء ذلك من التفصيل لدراساتك التوسعية في هذا الأمر.. إنك تعلم أن مبنى الإسلام ومداره على عقيدة التوحيد، أي على اليقين التام بأن لهذا الكون إلهاً واحداً لا ثاني له، هو الله عز وجل.. واحد في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله. فهو وحده النافع، وهو وحده الضار. وهو وحده المعطي، وهو وحده المانع، وهو وحده المحي وهو وحده

المميت، وهو وحده القوي، وكل ما سواه ضعيف، وهو وحده الغني وكل ما سواه فقير.

ومن المعلوم أن سائر الطاعات والعبادات السلوكية، إنما شرعت دعماً لهذا الاعتقاد وحماية له من تسرّب أي من عوامل الشكوك إليه.

فإذا أيقن الإنسان بهذه الحقيقة، وتشبع عقله بها، فلسوف يتجه بحاجاته كلها، على اختلافها وتنوعها، إلى إلهه هذا الذي أيقن أن بيده هو كل شيء، وأنه الملاذ لكل شيء.. ولاريب أنه بمقدار ما يتجه إليه، عارضاً عليه حاجاته يسأله قضاءها، ينصرف عن غيره أياً كانوا، فلايتعلق منه الطمع بأي منهم، ولايذلّ أو يهون لأحد منهم، ولايداخله خوف من عدو متوعد، ولارجاء من كريم متفضل.

غير أن ثمن الوصول إلى هذا الاعتزاز، الدينونة بالذل والانكسار، لإلهه الحقيقي الواحد الذي أيقن أن إليه كل شيء وأن بيده كل شيء. فهما إذن كفتان متقابلتان من ميزان واحد: إن رجحت كفة التذلل لله والافتقار إليه، طاشت كفة التذلل للأغيار، فانعتق صاحبها من التذلل لهم وتحرر من الافتقار إليهم. وإن طاشت كفة التذلل لله بأن غاب عن يقين صاحبها أن له مولى واحداً بيده كل شيء وهو الله، لابدّ أن ترجح عندئذ كفة التذلل للآخرين، فيلهث صاحبها وراءهم، يوزع فيما بينهم رجاءه وخوفه وأطماعه، ويقدم بين يدي ذلك لهم كل ماقد يملكه من معاني ومظاهر الذل والمهانة والانكسار، على قدر طمعه فيهم ومخافته منهم.

وبمقدار ما يكون المرء جادّاً في إيمانه بالله ووحدانيته، ذا يقين فعّال في كيانه، تكون هذه الحقيقة جلية واضحة في حياته.

فإن رأيت اليوم كثيراً ممن ينتمون إلى الإسلام، لايتمتعون بهذا الاعتزاز، ولم تتحرر نفوسهم من التذلل للأغيار، فاعلم أن مردّ ذلك إلى أن إسلامهم تقليدي، وأن انتماءهم إليه انتماء إلى شعار وإعلان عن هوية.. وهذا الفريق من الناس ليس لأفئدتهم ولا لعقولهم من الإسلام نصيب ذو بال..

أما الذين هيمنت حقائق الإسلام على عقولهم وأفئدتهم، فلابدّ أن تجد أثره هذا بارزاً في حياتهم وفي علاقة ما بينهم وبين الآخرين.

قرأت في سيرة حياة بديع الزمان، سعيد النورسي، رحمه الله[١] أنه اشترك مع الأتراك في الحرب العالمية الأولى، ووقع أسيراً في يد القياصرة الروس، وذات يوم دخل ضابط روسي إلى معسكر الأسرى، وكان فيهم بديع الزمان، فكان كلما مرّ بفئة منهم قاموا احتراماً له. ولما وصل إلى بديع الزمان لم يعبأ به ولم يتحرك من مكانه، فلفت ذلك نظره، فأقبل إليه قائلاً: لعلك لاتعرفني!.. قال له: بلى، إنك الذي تُدعى نقولا!.. قال: فأنت إذن تستهين بعظمة روسيا!.. قال لا ولكن إلهي الذي أنا عبده يمنعني من أن أذلّ لغيره.. فاستشاط الضابط غضباً، وأحاله للتو إلى المحكمة الميدانية. وكان طبيعياً أن تحكم عليه

---

(١) عالم رباني من أجل علماء هذا العصر ودعاته ولد في قرية تابعة لولاية بتليس عام ١٢٩٣هـ - ١٨٧٣م وتوفي عام ١٣٧٩هـ. وانظر هذه القصة وتفصيل حياته في كتابي (من الفكر والقلب) صفحة ٢٥٩ فما بعد.

المحكمة بالإعدام.. ولما جيء به لينفذ فيه الحكم، أقبل إليه الضابط، بعد أن أطال التأمل فيه، قائلاً: إنني معجب بدينك هذا الذي أعزك إلى هذا الحد، ثم ربت على كتفه وعفى عنه.

وصدق رسول الله القائل: ((إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله يقلبها))[1] وصدق من قال: لاتخف ممن قلبه بيد من تحب!..

* * *

نعود، بعد هذه المقدمة إلى حكمة ابن عطاء الله التي يقول فيها: ((مابسقت أغصان ذل إلاّ على بذر طمع)). وإنه لكلام بليغ وجامع.. إذا كان الذل في حياة الإنسان شجرة قابلة للانتشار والنمو، فليست النواة التي تفجرت هذه الشجرة منها إلا الطمع.

لولا الطمع، لما ذل إنسان لإنسان مثله.. الطمع في مزيد من المال يجمعه، أو رتبة يتبوؤها، أو في شهوة من شهوات النفس ينالها..

ولاريب أن ذل الإنسان للإنسان مهانة تناقض الكرامة التي ميز الله الإنسان بها، وتسيء إلى الخِلْعَة التي خلعها عليه إذ قال له: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ﴾. فكيف السبيل إلى أن يتحرر من هذه المهانة، وإلى أن ينسجم مع التكريم الذي اختصه به؟

أمّا اجتثاث الطمع من نفسه، فلاسبيل إليه، لاسيما الطمع في المال، وفي التمتع بما جبل عليه من الشهوات.. ذلك لأن الله فطر الإنسان على احتياجات أطمعه فيها. أحوجه إلى المال الذي به قوام عيشه،

(١) رواه أحمد والترمذي والحاكم من حديث أنس.

ومن ثم أطمعه فيه وحببه إليه، ألم يقل جل جلاله عن الإنسان والمال ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ١٠٠/٨] وقال في سورة أخرى ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً﴾ [الفجر: ٨٩/٢٠]. وأثبتها قاعدة في حياة الإنسان إذ قال: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾ [آل عمران: ٣/١٤].

إذن، فلاسبيل إلى اجتثاث الطمع من الإنسان، في هذا الذي أطمعه الله عز وجل فيه.

فما السبيل إذن إلى أن يتحرر الإنسان (مع بقاء طمعه في المال وذيوله) من الذل لمن هو إنسان مثله، لايعلو عليه من معاني الإنسانية الجامعة بشيء؟

سبيل ذلك أن تهيمن حقيقة وحدانية الله عز وجل على عقله، فلاتبقى فيه ريبة من أن هذا الكون إنما يدار بإدارة واحد لاثاني له، وأن لاحول ولا قوة فيه إلا حوله وقوته، وأن الأسباب الكونية على اختلافها ليست إلاّ جنداً من جنوده، على أن يسري اليقين بهذه الحقيقة من العقل إلى الوجدان، عن طريق الإكثار من مراقبة الله وذكره مع أداء العبادات المطلوبة كلها على الوجه السليم.

فإذا تحقق الإنسان بهذا التوحيد، يقيناً في العقل، ووجداناً في القلب، توجه بأطماعه كلها إلى من بيده إشباعها، بل إلى من هو الذي غرسها في النفوس، ووجهها إلى ما قد فطر الإنسان عليه من

الاحتياجات المتنوعة، ألا وهو الله الواحد الذي فطر هذا الكون بقدرته، وأقامه على النظام الذي شاءه له بإرادته وباهر حكمته.

فهو يظل طامعا بالمال، ولكنه يصرف طمعه إلى من يعلم أنه هو وحده القادر على أن يمتعه به. ويظل طامعاً بشهواته ورغائبه الغريزية، ولكنه يتوجه بطمعه هذا إلى من قد فطره على تلك الغرائز، وإلى من علم أنه وحده الذي بيده تحقيقها له وتمتيعه بها. وإنه يظل يبحث عن مزيد من الأمن والطمأنينة وعن ملاذ من الأخطار والمخاوف، ولكنه لايرى أمامه حصناً لأمنه ولا ملاذاً من مخاوفه إلا باللجوء إلى من قد أيقن أنه هو مسبب الأسباب كلها وأنه هو مصدر كل خوف ورجاء.

فإن أدركته الغفلة عن هذه الحقيقة التي هو موقن بها متفاعل معها، بسبب بعض الملهيات والمنسيات، أيقظه إليها وذكره بها، كلام الله الذي يفترض أنه لاينفك عن تلاوته والرجوع إليه كل يوم. إذ يراه يقول: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ [العنكبوت: ١٧/٢٩]، ويقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨/٥١]، ويقول: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النور: ٣٢/٢٤]، ويقول: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧/١٦]، ويقول: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢/٦]، ويقول خطاباً لموسى وهارون ﴿قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦/٢٠].

فدور الإيمان الحقيقي بوحدانية الله تعالى، أنه يصرف وجهة الطمع في الإنسان من التعلق بإنسان مثله، إلى التعلق بمولاه ومالكه الذي بيده

هو تحقيق رغباته وإشباع أطماعه.. وكلما ازداد الإنسان طمعاً بمولاه ازداد تحققاً بمعنى العبودية له، وازداد تذللاً بين يديه وانكساراً على بابه، فهو طمع محمود وقربة مبرورة.. غير أنه كلما ازداد طمعاً بأقرانه وأمثاله من الناس ازداد صغاراً ومهانة في أعينهم، دون أي حاجة تدعو إلى ذلك. فهو طمع مذموم بل هو داء مهلك.

وإن من أشد ما يعجب له العاقل، أن تجد في الناس من يعرض مستغنياً عن الله الذي بيده وحده كل شيء، ويترامى ذليلاً مهيناً على أعتاب من لايملك من أمر نفسه، فضلاً عن غيره، أيّ شيء!!..

وانظر إلى حكمة الله وتدبيره، ورعونة الإنسان وحمقه، في هذا الذي أقوله لك:

فطر الله الإنسان على احتياجاتٍ، كما قد ذكرت لك، وجعله ضعيفاً في حق نفسه عاجزاً عن بلوغ حاجاته إلا بسند معين، كي تسوقه حاجاته مع رؤيته لضعفه، إلى رحاب مولاه الأحد الذي لامولى له سواه، فيسألَه ويدعوَه ويجأر إليه بالتذلل والشكوى، يعرض عليه كل حاجاته، ويسأله كل متطلباته، فيكون ذلك ترجمان عبوديته لله ولسان إقرار منه بالخضوع لمولاه.. وقد وعده الله، وأكد له الوعد، أنه سيستجيب دعاءه ويحقق في هذا الحال رجاءه. ألم يقل: ﴿وَقالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر: ٤٠/٦٠]؟ أليس هو القائل: ﴿وَآتاكُمْ مِنْ كُلِّ ما سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: ١٤/٣٤].

فكان عاقبة ذلك، أن نظر الإنسان إلى ذاته واحتياجاته وماقد فطر عليه من الضعف، فأعرض عن مولاه الذي ابتلاه بالضعف ليلجأ منه

إليه، والذي أقامه على احتياجاتـه ليتوجـه إليـه فيطلبهـا منـه، ثـم اتجـه بضعفه واحتياجاته إلى مخلوق مثله يعاني مثله من الضعف ذاته، ويرزح تحت وطأة الاحتياجات ذاتها، اتجه إليه بالدعـاء الـذي كـان ينبغـي أن يتجه به إلى مولاه، وبالشكوى التي كان ينبغي أن ينصرف بها إلى من بيده رفعها ثم لم يعد من ذلك إلا بأوقار من المهانة والذل!!..

وأنا أحدثك في هذا عن الإنسان، مـن حيـث هـو إنسـان، ولسـت أحدثك عن الإنسان بمعنى العموم والاستغراق. أحدثك عما هو الشأن في طبيعة الإنسان، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الإِنْسانَ لَكَفُورٌ﴾ [الزخرف: ٤٣/١٥]، وكقوله: ﴿قُتِلَ الإِنْسانُ ما أَكْفَرَهُ﴾ [عبس: ٨٠/١٧].. فـلا جـرم أن الإنسـان الـذي غرسـت حقـائق التوحيـد في عقلـه، وغذيـت بهـا عواطفه ووجدانه، لاتسوقه حاجاته ولايهديه ضعفه إلاّ إلى اللـه، وإنـه ليعيش فخوراً عزيزاً بانتسابه في الولاء إلى الله، وبدخوله فيمن قال الله عنهم: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [محمد: ٤٧/١١]، وبترفعه عمـن قال عنهم: ﴿..وَأَنَّ الْكافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ﴾.

هذا الفريق من الناس يظل مكرماً منعماً في حصن حصين من العـزة التي لايشوبها ذل.. وقد علمت من المقدمة التي سقتها بين يدي هـذه الحكمة، أن التذلل بين يدي الله هو الثمن الكامل للعزة أمام عباد الله. فمن أعطى ذلك الثمن وافياً، كان لابد أن ينال هـذه البضاعـة العزيـزة كاملة.

وكما ينطبق هذا على الفرد ينطبق على المجتمع، سواء بسواء.

ألا ترى إلى التاريخ.. تاريخ الرعيل الأول من هذه الأمة؟ كانت مضرب المثل في الذل والمهانة عندما كانت تائهة عن مولاها وخالقها. فلما أشرقت حقائق الإيمان بالله ودلائل وحدانية الله، في عقول ذلك الرعيل، وسرت وجداناً إلى أفئدتهم، وعثروا على هوياتهم الضائعة عباداً لله وحده، لاينفعهم ولا يضرهم أحد سواه.. اتجهوا بآمالهم كلها إليه، وعرضوا سائر احتياجاتهم مع مظاهر ضعفهم عليه، ووثقوا بعهده الذي قطعه على نفسه لهم، وامتلؤوا يقينا بقوله لهم: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [آل عمران: ٣/١٦٠].

فلم يخافوا بطشة أحد بعد خوفهم من الله، ولم يطمعوا بمعونة أحد ونصره لهم بعد طمعهم بما قد وعدهم به الله. ولم تملأ زخارف الدنيا أعينهم ولم تأخذ بمجامع نفوسهم، بعد الذي مناهم به الله.

ولسنا هنا بصدد عرض المشاهد الكثيرة لهذه الحقيقة الكونية التي جاءت فصدّقتها الحقيقة التاريخية. ولكني أضعك منها أمام نموذج واحد، ولك أن تتبع بعد ذلك وقائع التاريخ لتجد مصداق ما أقول: في غزوة القادسية، ظن رستم قائد الحملة الفارسية فيها، أن العرب كعهده بهم يذلّون وراء المطامع، وينبهرون بمظاهر البذخ والغنى التي لاتطول أيديهم إلى شيء منها، فأغرق سرادقه بأصناف مبهرة أخاذة من ذلك كله، ثم أرسل إلى سعد بن أبي وقاص قائد جيش القادسية، يطلب إليه أن يرسل إليه من يكلمه باسم المسلمين، في الأمر الذي جاؤوا من أجله.. فأرسل له، ربعي بن عامر، جندي من عامة

المسلمين، وانطلق إليه في ثياب بذلة على فرس عارٍ من السرج.. فلما وصل ربعي إلى السرادق ورأى الزخارف ومظاهر البذخ التي حشي بها، أدرك أنه إنما دعي إلى مقابلة مع هذه الزخارف لا إلى لقاء مع قائد الفرس..

فنزل عن فرسه في وقار وهدوء، ثم أمسك بزمامه ودنا فربطه بأقرب سارية من سوارى ذلك السرادق، وبالغ في لف الزمام عليها حتى تمزق ما كان عليها من حرير ناعم. ثم أخذ يتكئ على رمحه وقد جعل زجّه إلى الأرض، حتى مزق وأفسد جميع ما مرّ عليه من النمارق وفرش الحرير المنسوجة بخيوط الذهب!..

ولما وصل إلى عرش رستم، عمد فجلس معه على السرير ذاته.. وهبّ إليه الأعوان ليجذبوه فاستوى قائماً وقال:

لم آتكم بنفسي، ولكنكم دعوتموني فأتيت، ولابدّ من جلوسي في المكان الذي أريد.

فأشار رستم إلى أعوانه أن يتركوه.. وعاد ربعيٌ فجلس مع رستم على عرشه!..

ولست الآن بصدد نقل الحوار الذي جرى بين ربعي بن عامر وقائد الجيش الفارسي رستم في هذا المجلس أو اللقاء، وإنه لحوار هامّ وطريف[1]. ولكني ألفت نظري ونظر القارئ إلى أن هذه العزة التي غالبت في نفس ربعي أبهة الإمبراطورية الفارسية في أبهى مظاهرها،

---

(١) كتبت قصة هذا اللقاء والحوار الذي جرى بين ربعي ورستم بأسلوب أدبي تحليلي في كتابي (من الفكر والقلب) تحت عنوان: مفاتيح النصر.

فغلبتها، إنما جاءت من تذلله لسلطان الله ومن يقينه بوحدانية الله، ومن ثقته التامة بأن الله وليه، ومن ثم فهو نصيره، وأن الكافرين لا مولى لهم، فلا ناصر إذن لهم!.. يخيل إلي أنه عندما كان يتعامل مع تلك الزخارف بذلك الإزدراء، كان يردد في أعماق نفسي كلام رسول الله: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فأسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفتّ الصحف»[١]

ولكن تعال فانظر اليوم إلى الخَلْف الذي جاء بعد ذلك الرعيل .. تأمل في الغثاء الذي يبلغ كمُّه العددي ملياراً وربع المليار من سكان هذه الأرض!..

مسلمون، وهم معرضون عن نداءات الله لهم، والتي قرأتَها قبل قليل!..

مسلمون، وآمالهم كلها متعلقة بما يمكن أن تعود به عليهم دول الطغيان والبغي في الأرض من المنح والأعطيات!..

مسلمون، ومخاوفهم كلها آتية مما يمكن أن توجهه إليهم تلك الأمم أو الدول ذاتها، من أسباب الهلاك والدمار!..

مسلمون، وقد استقر في عقولهم ووقر في نفوسهم، أن معارج رقيهم إلى التقدم الحضاري بكلِ مظاهره وأسبابه، تتمثل في اتباع تلك الدول ذاتها خطوة بخطوة ونعلاً بنعل!..

---

(١) رواه الترمذي بهذا اللفظ، وقال: حديث حسن صحيح.

فقل لي: أي معنى من معاني وحدانية الله، تحتضنها إذن عقول هؤلاء المسلمين؟

إن أمة هذا شأنها ليس لها من إسلامها إلا نصيب الانتماء السلالي والتراثي، أجل: التراثي، كما يقولون. ومن ثم صدق عليهم القانون الرباني الذي فرغنا من شرحه الآن، نسوا الله فأنساهم أنفسهم.. ولما أنساهم أنفسهم تاهوا وضلوا عن هوياتهم عبيداً مملوكين لله عز وجل، وشردوا عن مظلّة الولاية الإلهية لهم.. فكان عاقبة ذلك أن تراموا بين أذيال من قد خُيِل إليهم أنهم هم الأقوياء الذين يسعفونهم، والأغنياء الذين يعينونهم، والأعزة الذين يتسامون بهم واتجهوا إليهم من دون الله بكل هذه الأطماع!..

ثم كان عاقبة هذه العاقبة، أن ركبهم الذلّ، واصطبغت حياتهم بالمهانة، وصغروا في أعين أولئك الذين طمعوا فيهم، وعلقوا آمالهم بهم.. وتلك هي قصتهم، لاتزال معروضة على مسرح التاريخ الحديث، يراها كل ناظر.

وصدق رسول الله القائل: يوشك الأمم أن تداعى عليكم، كما تداعى الأكلة إلى قصعتها. قال قائل: أمن قلة نحن يومئذ؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير. ولكنكم غثاء كغثاء السيل. ولينزعن الله الرهبة منكم من صدور أعدائكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن. قال قائل: ما الوهن يارسول الله؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت)).

* * *

الحكمة التاسعة والخمسون

((ما قادك شيء مثل الوهم))

هذه الحكمة تتمة للتي قبلها.. فبعد أن عرفنا أن الطمع إذ يهيمن على حياة الإنسان، يكون سبباً لتحمل المهانة والذل، على النحو الذي تم بيانه، لابدّ أن يسأل أحدنا: فما الذي يحمل الإنسان على الطمع، وقد عرفنا أن المسلم يجب أن يعلم - إن كان مؤمناً بالله وبوحدانيته حقاً - أن ليس من دون الله أحد ينفعه أو يضره، وأن خالق الأسباب والمسببات والقوى والقُدَر هو الله وحده؟

ويأتي الجواب عن هذا السؤال من خلال هذه الحكمة: إنه الوهم!.. فالوهم لاغيره هو الذي يحمل صاحبه على تناسي هذا اليقين الإيماني أو نسيانه فعلاً، فيخيل إليه أن في الناس الذين من حوله من قد يفيده أو يضره، وأن جهوده الذاتية قد تأتيه بشيء مما يبتغيه، وأن الأسباب الظاهرة التي يراها من حوله ذات قيمة وفاعلية حقيقية.. وفي غمار هذه الأوهام التي تطوف به ينسى أو يذهل عن الحقيقة الكونية الجاثمة وراء سحب هذه الأوهام، والتي تعبّر عنها أصدق تعبير عقيدة الإيمان بالله، وإليك أمثلة على هذه الأوهام وما تفعله في حياة صاحبها.

۞ زيد من الناس أقبل إلى دراسة الشريعة الإسلامية ودلائل الإيمان بالله، والكشف عن الشبهات الباطلة التي تنسج للتشويش على مبادئ العقيدة الإسلامية، قاصداً بذلك التمكن من معرفة الدين والعمل على تعريف الناس به والدعوة إليه.. يأتي من يوهمه بأنه إن انصرف إلى شأنه هذا، فلسوف تسدّ أمامه نوافذ الرزق، ولسوف يصبح كلاً على الناس، وتفوته فرص السعي إلى توفير الحياة الرغيدة، فيسرى عليه هذا الوهم ويحفل به على أنه حق وجدّ. فيقلع عما هو بصدده، ويتجه بأطماعه إلى الآمال التي وضعت أمامه، ويسوقه الطمع إلى ألوان من الذل، ناسياً أن الله لن يتخلى عمن اتجه صادقاً مخلصاً لخدمة دينه ولدعوة الناس إليه وتعريفهم به.

۞ زيد آخر من الناس يعيش في أوربا أو أمريكا، يتجه للبحث عن عمل ما لجمع المال... كلما عثر على عمل فاتجه إليه قيل له: إنه عمل محرم!.. عمل في السوبرماركيت قيل له إنهم يبيعون فيه بضاعة محرمة كالخمر والخنزير، فالعمل فيه غير جائز... عمل في مطعم، فقيل له إن فيه خموراً وإن المعصية ترتكب فيه علناً. فالعمل فيه محرم.. تعامل مع البنك وأودع فيه أمواله أو استدان منه، فقيل له إنك تعاملت بالربا وهو من أشدّ المحرمات.. وأخيراً جاء من يوهمه باسم الدين أن كل تلك الأعمال جائزة لاحرج فيها، وأن الفتوى الدينية اليوم تقول بحلّها، لأن الأحكام تتبدل بتبدل الأزمان، ولأن الدين يسر وليس عسراً، ولأن الأمر إذا ضاق على المسلم الملتزم بسبب الظروف، جاء التوسيع له من الله بالجواز والسماح.. فينطلي عليه هذا الوهم، وتهتاج

من ذلك أطماعه في التوسع وتوفير الحياة الرغيدة والأكثر رفاهية، ويزجه الطمع في ألوان من المغامرات والذل سعياً وراء أطماعه.

۞ فتاة اتجه منها القصد إلى الاحتشام والتزيي بزيّ الإسلام الذي فرضه الله على المرأة، والذي يتمثل في كل ما يخفي زينة المرأة ومغرياتها الجسدية عن أنظار الرجال الأجانب عنها.. فجاء من يوهمها أنها إن فعلت ذلك حرمت فرصة إقبال الخاطبين إليها، إذ لن يجد أحد فيها ما يدعوه إلى خطبتها والزواج منها، وأن السبيل الوحيد إلى أن تنال حظها من الزواج ممن تريد، أن تعرض من مزاياها ومغرياتها الجسدية ما يحببها إلى الرجال، ويلفت إليها نظر الخاطبين... فسرى إليها هذا الوهم، وهيمن على قرارها الفكري وعلى شعورها العاطفي، ونسيت أن الأمر في ذلك بيد الله، فخالفت أمر الشارع تحت تأثير هذا الوهم الذي قادها إلى الطمع بما يبتغيه من غير بابه.. والشأن فيه أن تتعرض تحت تأثير هذا الطمع لألوان من المهانة والذل، وربما لعبث الرجال بها أيضاً، لقضاء أوطارهم منها تحت اسم الزواج وعن طريق تطميعها به.

۞ فلان من الناس يملك ثروة كبيرة، ونظر فوجد أن حق الزكاة في ماله يبلغ الملايين في كل عام، فأوحى إليه الوهم إن ترك هذه المقادير الكبيرة من ماله للناس سيعيده القهقرى في أحلامه التوسعية من خلال مشاريعه التجارية، وسيعوقه عن منافسة الآخرين والنهوض بخططه الإنمائية التوسعية.. فاستجاب لوهمه هذا، واستبقى حقوق الله من مالِه عنده، دون أن يعود بها إلى من أمره الله أن يصرفها إليهم، طامعاً

في أن يكون ذلك عوناً على تحقيق أحلامه التي تراوده في توسيع تجارته أو تطوير صناعته، ومنافسة الأقران والأنداد.. وينسيه هذا الوهم قول الله تعالى: ﴿ مَنْ ذا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ أَضْعافاً كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢/٢٤٥] وقول رسول الله ﷺ: ((مانقصت صدقة من مال))(١).

إذن فالوهم هو الذي يقود إلى الطمع الذي يتوجه بالعبد من الناس إلى عبد مثله، ومن ثم يزجه الطمع في المهانة والذل.

ولو تحرر هذا الإنسان من وهمه، لما اتجه بطمعه إلى من ليس أهلاً لأن يتوجه به إليه، ولاتجه به صعداً إلى الله عز وجل الذي هو خالق كل شيء ومصدر كل نفع وضر.

وإني لأضع القارئ أمام واقع مررت به في حياتي، يجسّد هذه الحقيقة، ويجلّيها أمام البصائر بل والأبصار أيضاً، أثبتها هنا، كما أثبتها من قبل في كتابي (هذا والدي) لأخذ العبرة فقط.

وجهني والدي منذ نعومة أظفاري إلى دراسة الدين والشريعة والتفرغ لذلك. وقال لي، وهو يمضي بي إلى أول مدرسة شرعية في دمشق: اعلم يا بني أني لو عرفت أن الطريق الموصل إلى الله يكمن في كسح القمامة من الطرق، لجعلت منك زبالاً، ولكني نظرت، فوجدت أن الطريق الموصل إلى الله هو العلم به وبدينه، لذا فقد قررت أن أسلك بك هذا الطريق. ثم إنه أخذ عليّ العهد أن لا أجعل قصدي من دراسة هذا العلم أي شهادة أو وظيفة.. وأن أقتنع بأي رزق يسوقه الله إليّ، وبأي عمل كريم يقيمني الله فيه.

---

(١) رواه مسلم وأحمد والترمذي من حديث أبي هريرة.

كان لي رفقة في مثل سني... اتجهوا جميعاً إلى المدارس الحكومية، حيث السبيل إلى الشهادات والوظائف.. فكان البعض منهم ينصحني ويحذرني من أن سلوكي هذا لن ينتهي بي إلا إلى فقر يجعلني عالة على الناس.. وكان فيهم من يقول لي: إنه ليس أمامك إلا مستقبل واحد، هو أن تصبح مغسلاً للموتى أو مؤذناً أمام الجنائز!..

وكان المفروض - لولا لطف الله بي - أن أستسلم لهذه الأوهام التي كان الرفاق يغزون بها عقلي ونفسي. ولكنها كانت - بحمد الله - تطرق سمعي ثم لاتترك أي أثر في نفسي، وإني لأتساءل اليوم عن الوقاية التي كانت تحميني من تلك التشويشات، ولم أكن قد جاوزت السادسة عشرة بعد، فلا أتبين إلا وقاية واحدة كان الله عز وجل يحميني في داخلها:

كنت أنفذ نصيحة نصحني بها والدي، أن أواظب على أوراد من الأذكار والتلاوات كل صباح ومساء، وكنت شديد الحرص عليها.

فكيف كانت عاقبة أمري من بعد؟

ينبغي أن أعلن هنا أن الله لم يضيعني.. ولم يتركني عالة على الناس كما قد خوفني الرفاق. بل أغدق عليّ من النعم ما لايحصيه العدّ، وما لم يكن لي فيه مطمع ولا أمل، ولم يتحقق شيء من ذلك بتدبير مني ولا من أبي. ولم يكن شيء من ذلك كله متوقعاً ولا داخلاً في الحسبان، ولكنه المصداق الدقيق لقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً ، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٦٥/٢-٣]. وإن في أولئك الرفاق الذين كانوا يلاحقونني بتحذيراتهم من قد وقعوا في شرّ مما حذروني منه.

أولئك انقادوا إلى الوهم، فأسلمهم الوهم إلى سوء المصير، وأنا حررني الله من الوهم بفضل القراءات والأذكار والأوراد التي سلكّني والدي فيها منذ نعومة أظفاري؛ ووجهت فقري وآمالي وأطماعي إلى مولاي وخالقي، إلى المحسن الكبير الأوحد، فلم يخيبني ولم يضيعني، وأعطاني أكثر مما أطلب وأتمنى، لو سألني الله أو سائل ما عما أطمع به وأريد!..

بقي أن ألفت نظر القارئ إلى أن التحرر من الوهم لايعني التحرر من التعامل مع عالم الأسباب التي أقامها الله في الكون، ضمن المنهج المشروع والضوابط التي رسمها كتاب الله وسنة رسوله.

فالذي يتعامل مع الأسباب المشروعة، إنما يتعامل مع موجدها، ومع من نظم الكون على أساسها، على أن يعلم الحقيقة التي فرغت من بيانها في شرح هذه الحكمة والتي قبلها.

وإن في الأمثلة الواقعية التي ضربتها لك، ما يفرق بين الانقياد للوهم والاسترسال مع نتائجه ومستلزماته، وبين التعامل مع الأسباب المشروعة على النحو المشروع، مع اليقين التام بأن مسبب الأسباب هو الله، فهي ليست إلا جنداً من جنوده.

* * *

الحكمة الستون

((أنت حرٌّ مما أنت عنه آيس، وعبد لما أنت فيه طامع))

الآيس واليائس بمعنى واحد، وهو القانط، فأيس مقلوب يئس كما يقول جلّ اللغوين.

وهذه الحكمة، مع اللتين قبلها، تدور، كما ترى، على محور واحد. هو التحذير من الطمع في المخلوق ونسيان الخالق.

قالوا إن رجلاً كانت له مشكلة استعصت على الحلّ، قيل له: إن فلاناً من الناس ذو صولة ووجاهة وقدرة نافذة، فامض إليه وحدثه عن مشكتك في رجاء واستعطاف، تصل إلى ما تبتغيه. ففعل ما قيل له، وأخذ يتردد عليه ويستعطفه في قضاء حاجته، ويتودد له، دون أن يستفيد منه شيئاً.

فلما يئس منه، واستغلقت السبل أمامه، قطع سبيله إليه، واتجه إلى الله عز وجل يطرق بابه بالمسألة والدعاء، وما هي إلاّ أيام مضت حتى جاء من يخبره بأن مشكلته العويصة قد حلت، وأنه قد وصل من مبتغاه إلى ما يريد. فازداد بهذا الخبر تعلقاً بالله وتذللاً على بابه، وتحرراً من أسر ذلك الذي قاده الوهم إلى التعلق به والتذلل له واستعطافه لحلّ معضلته.

على الرغم من أنهم يرْوون ذلك حادثة شخصية جرت، إلا أنها في الواقع قاعدة دائمة تُسْتَلُّ منها هذه الحكمة.

إن يأسك من الشيء يعني تحررك من سلطانه، وخروجك من أسر التذلل له وحاجة توددك إليه واستعطافك له.. في حين أن آمالك في إمكان الاستفادة منه يطمعك فيه، وطمعك فيه يوقعك في براثن العبودية له.

تلك هي القاعدة التي تنطق بها هذه الحكمة.. وإنها لقاعدة صحيحة مطردة.

والنتيجة التي ينبغي أن نعود بها، من فهم هذه الحكمة، وإدراك أنها قانون دائم، أن على الإنسان الكريم على نفسه المعتز بذاته أن لايطمع إلا بمن لايغير الطمع من علاقته به شيئاً.. ولايصدق ذلك إلاّ على الله عز وجل. فالإنسان عبد مملوك لله على كل حال، طمع به أم لم يطمع، سأله أم لم يسأله. إذن فطمعه به وتذلله له وانكساره بالدعاء بين يديه لايغير من واقع حاله تجاهه شيئاً، بل إن موقفه هذا ليس إلا وضعاً للأمر في نصابه، وتنسيقاً للسلوك مع الحقيقة والواقع.

ولن يتحول عن هذا النصح إلى نقيضه إلاّ من كان مهيناً في نفسه، استوت لديه، وفي حق ذاته، الضّعة والكرامة - فهو الذي يعلق آماله بأمثاله، ثم يبني عليها الأطماع بهم، ثم يسلك السبيل بأطماعه إليهم على أرض من التذلل والتحبب والمداهنة والصغار.

* * *

وانظر.. تجد أن ابن عطاء الله يجنّد حِكَمه الثلاث هذه لهدف واحد، هو ترسيخ حقيقة الحرية بين جوانحك. وقد علمت مما أوضحته لك من معاني الحكمتين السابقتين، أنه إنما صاغ لك هذه الحكم الثلاث واستخرج معانيها، من كتاب الله عز وجل ومن بيان رسول الله ﷺ.

بوسعك إذن أن تعلم، إن لم تكن قد علمت بعد، أن الدين الحق الذي ابتعث الله به الرسل والأنبياء، وختمهم ببعثة آخرهم محمد ﷺ، إنما جعله الله حصناً لحرية الإنسان، بل هو الحصن الوحيد الذي لابديل عنه لحمايتها من الآفات التي تتهددها.

وما الحرية، في معناها الواضح البسيط الذي يفهمه كل عاقل؟

هي أن يطمئن الإنسان إلى أن لا سلطان لغير من هو عبد ومملوك له، عليه.

وهذا يعني أن المدخل الذي لابديل عنه إلى حصن الحرية الحقيقية، أن يبدأ الإنسان فيتعرف على هويته، ولسوف يعلم - إن هو بحث بجدّ وصدق - أنه مملوك للإله الذي خلقه فصوره في ظلمات الرحم كيف يشاء، ثم يسّر سبيله للخروج إلى فضاء هذا العالم، ثم قضى بأن يميته عند حلول الأجل المحدود، ثم ينشره ويعيده إلى حياة أخرى خالدة باقية في الميقات المحدد والمعلوم له. وإذا علم أنه مملوك له حقاً، علم أنه إذن عبده بالواقع والاضطرار، مهما حاول وتصرف، ومهما استغنى أو افتقر، ومهما عزّ أو تذلل، ومهما ضعف أو اقتدر.

يقين الإنسان بعبوديته ومملوكيته لهـذا الواحـد، يدفعـه إلى أن يديـن بـالولاء والخضـوع لـه وحـده، دون سـائر الكائنـات الأخـرى علـى اختلافها وتفاوتها في الأهمية.

فمهما لاحت له مظاهر القوة أو مقومات السلطة أو بوارق الضـرر والنفع، في شأن أناس من أمثاله من البشر، لايقيم لشيء من ذلك وزنـاً ولا يوليه أي أهمية أو اهتمام.. ومـن ثـم فـإن ذلـك كلـه مجتمعـاً لـن يقوى على انتقاص شيء من آفاق حريته. إذ قـد انحصـرت الفاعليـات كلها، في يقينه العقلي، في ذات واحدة هـو اللـه عـز وجـل. وكـل مـا عداه ومن عداه مملوك له مسيّر تحت سلطانه داخل قبضته.

فإن قلت: فإن هذا من شأنه أن يتمرد صـاحب هـذه الحريـة، على الأنظمـة والقوانـين، لأنهـا مـن نتـائج سـلطان أمثالـه مـن النـاس علـى المجتمع الذي يعيش فيه.

فالجواب: أن من حقـه - إن علـم أن هـذه الأنظمـة والقوانـين إنمـا سيقت إليه ليتقيد بها، بابتداع من الناس الذين هم مثلـه عبيـد للـه عـز وجل - أن يتبرم بها ويتمرد عليها ما لـم تكـن لـه شـركة حقيقيـة في وضعها والاقتناع بها.

ومن هنا كان العلاج الذي لابدّ منه لتوفير رضا الناس الذين عـثروا على حرياتهم الحقيقية من خلال المدخل الذي ذكرتـه لـك، أن تكـون الأنظمة والقوانين الحاكمة فيهم، هابطة إليهم من عند اللـه، لامقترحـة ومن ثم مفروضة عليهم من قبل أمثالهم من الناس.

وتلك هي الحكمة من أمر الله عباده بأن يعودوا فيما يحتاجون إليه من الأنظمة التي ترعى شؤونهم وعلاقات ما بينهم، إلى شرعة الله وحكمه، ومن تحذيره لهم من أن يستبدلوا بها ما تفرضه الفئة المتغلبة أو القوى الحاكمة.. إذ سيكون ذلك مبعثاً إلى أحد أمرين اثنين أحلاهما مرّ:

إما أن تتهارج الفئة المتحكمة والحاكمة، مع الفئات الأخرى، فيستفحل الخصام ولن يسود الوئام، وإما أن تكون الفئات الأخرى من الضعف بحيث لاتستطيع أن تجابه أو تتحرك.. فيكون ذلك عندئذ انتقاصاً لحريتها وهدراً لكرامتها وتقوقعاً غير مقبول منها في مناخ المهانة والذل. وانظر إلى هذا المعنى كم يتألق واضحاً في قول الله عز وجل: ﴿قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ أَلاّ نَعْبُدَ إِلاّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنَّ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٣/٦٤].

وهذا المعنى الشمولي لأثر الحرية الإنسانية عندما تسود، وأثر غيابها لأسباب مما قد ذكرت، هو المعنيّ بقول الله تعالى: ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة: ٢/٢٠٨].

ثم إن التحرر من سلطان الغرائز المهتاجة والأهواء الجانحة، ليس أقلّ أهمية من ضرورة التحرر من سلطان الآخرين وقيودهم.. ألا تسمعهم جميعاً يقدّرون ويبجلون ما يسمونه ((قوة الإرادة)) وينشدونها مطلباً

سامياً في أنفسهم وفي أصدقائهم وأقرانهم؟ فما المعنى المراد بهذه الكلمة القدسية في رُؤاهم وقناعاتهم؟

إن المعنى الذي يريدونه منها أن يتمتع الإنسان بقدرة كافية على كبح جماح أهوائه وغرائزه عندما تشتط إلى حيث الخوف والخطر.. والإنسان الذي يتمتع فعلاً بهذه القوة، فلايريد إلا ما تدعوه قناعته العقلية إلى إرادته وفعله، مكان إعجاب وغبطة من الآخرين.

إن الذي يعاني من ضعف هذه الإرادة، فتجتاح به غرائزُه وأهواؤُه حدود مصالحه ومنافعه الشخصية، إلى اقتحام ما لاشك في خطره أو ضرره على النفس، مستعبد بيقينه واعترافه لأسوأ قوى تتربص به السوء وتستدرجه إلى الهلاك أو الشقاء، وآية ذلك صراعه الدائب بين وحي عقله وجماح غرائزه.

وإن بوسعك أن تتبين مزيداً من الدليل البين على ما أقول، عندما تتأمل في حال من استيقظت عقولهم إلى الحق من هؤلاء الإخوة الشاردين، تجد أن كثيراً منهم يقع عندئذ في خصام بين ما يدعوه إليه عقله، وما تعودت عليه أهواؤه وغريزته، ولربما كان فيهم من لايريد أن يكشف لك عن خفيّ هذه الحالة التي تنتابه، كي لاتتهمه، فتنتقصه، بضعف الإرادة، وبتسلط أهوائه الجانحة عليه، وعجزه عن التحرر منها.. وهذا هو الدليل الذي لا مفرّ منه على أنه قد شخّص في نفسه هذه النقيصة وأهمه أمرها، ومن ثم فهو يحاول أن لايعرفها ولا يكتشفها فيه أحد.

إن هذا الوضع المأساوي المزدوج يجتاح اليوم المجتمعات الغربية بشطريها الأوروبي والأمريكي.. إن شعار الحرية يتألق اليوم في تلك المجتمعات، كما تتألق أضواء النيون في ظلمات الليالي الحالكة، ومع ذلك فإن حياة الإنسان الغربي أحوج ما تكون إلى التمتع بهذا الشعار!.. إن ألسنة الناس هناك تظل تنشد نشيد الحرية، ولكن أوضاعهم السلوكية تمضي بهم إلى مزيد من قيود الاستعباد!..

أين هي الحرية في حياة أولئك الذين استعبدتهم المخدرات، فأفقدتهم نضرة السرور، وأبدلتهم بها وجوهاً صفراء شاحبة، تراهم هناك.. في أنفاق المترو أو محطات القطار، يبحثون عن اللاشيء، وينتظرون اللاشيء، ويقودون حياتهم جسراً إلى ما لايعلمون!..

أين هي الحرية في مستقبل حياة مالا يقل عن ٣٠٪ من تلامذة المدارس الابتدائية في أمريكا، يعالجون علاجاً مستمراً بجرعات محددة من المخدرات، بإشراف أطباء مختصين، حفاظاً على القدر الذي لابدّ منه من التوازن النفسي والفكري لرعاية أوضاعهم المدرسية والاجتماعية[١].

أين هي الحرية في حياة من يقودهم «الروتين»؟!.. ينيمهم ويوقظهم ويحركهم إلى المعامل والمصانع والوظائف الروتين، ويدفعهم إلى الأسمار والسهرات والحفلات الروتين، ثم يقودهم إلى النهاية مصير الروتين؟

---

(١) ذكرت ذلك إذاعة لندن القسم العربي في إحدى نشراتها الإخبارية.

ولايحجبك عن هذا الواقع المأساوي الذي يحتاج المجتمع الغربي، واقع حفنة من القادة يمسكون بأزمة الحكم اعتماداً على عتاد من القوة، وكنز من الثروة، وساسة يقودون دفة الحكم. فإن سيطرة هذه الحفنة لاتعني غياب هذا الواقع المأساوي أو عدم وجوده، ولاتعني أن الحرية الإنسانية الصحيحة هي التي تقود حركة الناس هناك.. ألا فلتعلم أن رجال البيت الأبيض وأعضاء الكونغرس في أمريكا شيء، والشعب الأمريكي الضائع بين تلافيف جهله ومعاناته النفسية وغيابه عن التعامل مع الجذور والذات شيء آخر[1].. ولتعلم أن رجال الحكم هناك لاتعنيهم في شيء رواسب المشكلات في القاعدة الشعبية، ما دامت قبضتهم على الحكم قوية وسلطانهم على الآخرين ممتداً وراسخاً.

تلك هي فلسفة التناقض بين كل من ظاهر أنظمة الحكم الراسخة، وواقع البنية التحتية، في المجتمعات الغربية عموماً والأمريكية خصوصاً.

غير أن التعايش الراهن بين هذين النقيضين لن يدوم طويلاً، ولن يكتب له من العمر أكثر من وسطيّ العمر الذي يتمتع به عادة الجيل الواحد.

وحلّ التناقض لابدّ أن يتمثل في إحدى نتيجتين: الأولى، الانتهاء إلى مضيق نفسي واجتماعي يعقبه الانهيار الذي لابدّ منه على سائر الأصعدة الحضارية المتنوعة؛ والثانية أن يتضاعف التجاء الناس هناك،

---

(١) لكي يكون هذا الوصف دقيقاً نقول: إن هذا هو واقع غالبية الشعب الأمريكي.

في البنية التحتية، إلى الإسلام، فتتوالد من ذلك وتتكاثر عوامل الإقبال عليه والاستئناس به، إذ يعثر الناس من خلاله على ذاتيتهم وهوياتهم ويجدون عن طريق الاصطباغ به السبيل الحقيقية إلى حرياتهم.. ولابدّ أن يكون ذلك إيذاناً بتحويل المجتمعات الغربية، قبل أن تخسر شيئاً من منجزاتها الحضارية، إلى الإسلام. ولسوف تكون المجتمعات الإسلامية التقليدية اليوم سعيدة حينئذ بأن يظل الغرب، الغرب الذي يتبوأ حينئذ عرش الإسلام ويتحلّى بصبغته، هو الممسك بزمام القيادة، وهو المخطط لنظام العولمة.

ولايقولن قائل: والمسيحية؟.. أفيخلع الغرب عندئذ رداءها ويرتدّ عن إيمانه بها؟... لأنا نقول: وهل يرتدي الغرب اليوم رداء المسيحية، أم هل يخضع لشيء من سلطانها؟ إن الغرب لا شأن له بالمسيحية من حيث هي دين يلتزم بضوابطه وأحكامه، قط. والمجتمع الغربي أبعد ما يكون اليوم عن الاهتمام بالمعتقدات المسيحية أو الالتفات إليها، فضلاً عن التمسك بشيء من أحكامها وأدبياتها.

إن المجتمع الغربي يعيش اليوم في فراغ، بل في ظمأ، من حيث العثور على أجوبة عن الأسئلة الدينية الكبرى التي تلح على فكر الإنسان الغربي... وإنه أمام الحيرة التي يعاني منها لايرى أمامه سوى سبيل الفرار منها إلى بؤرة الانغماس بين أمواج النسيان.

ولو كانت المسيحية ذات سلطان فعال على فكره وسلوكه، لما تزايد الإقبال الذاتي على الإسلام هناك يوماً بعد يوم، ولما وجدوا فيه

الملاذ الأوحد من همومهم التي لم يخلصهم منها ألق الحضارة ولا كنوز المال ولا عجائب العلوم والاكتشافات.

قبل سنوات تعرفت على رجل بلجيكي رأيته في المركز الإسلامي في بروكسل.. عرفت من خبره أنه كان طياراً لامعاً ذا مركز مرموق، على الخطوط البلجيكية، إلاّ أن عدوى الانجذاب إلى المخدرات سرت إليه، فتحكمت به وهيمنت عليه مع الأيام والشهور، ولم تنجح سبل المكافحات لهذا الداء على اختلافها في إنقاذه من البلاء الذي تحكم به، فكانت العاقبة التي لابدّ منها أن فقد وظيفته، وقعد متفرغاً يجترّ بلاءه الذي تمكن منه وأحاط به.. وشاء الله أن يسمع عن الإسلام ماشدّه إلى دراسته والتعرف عليه، فما هو إلا أن سرى الإسلام إلى عقله يقينا وإلى نفسه محبة وأنساً، فاعتنقه وألزم نفسه بمبادئه وأحكامه. يقول: فما هو إلا أن أيقظني الإسلام إلى إرادة قوية لم أكن قد شعرت بها يوماً ما في كياني، وما هو إلا أن قادتني هذه الإرادة إلى التحرر من سائر الموبقات التي كانت قد استعبدتني، وفي مقدمتها الوقوع في براثن المخدرات، ولقد عدت من بعد إلى عملي، طياراً على الخطوط البلجيكية.

ولقد علمت من بعد، أنه كان قد جاء على موعد، لمقابلة مدير المركز الإسلامي في بروكسل آنذاك، الأخ الفاضل الشيخ محمد العلويني، ليخبره عن تبرعه بأرض يملكها في إحدى ضواحي بروكسل، وعن رغبته في أن تبنى مسجداً ومعهداً للعلوم الشرعية.

أليس هذا هو التحرر الحقيقي الذي لايرتاب فيه إلا مكابر؟

أليس التحرر الداخلي من غوائل النفس، هو البوابة التي لابدّ منها إلى التحرر الخارجي؟

ثم هل بوسعك أن تعثر على سبيل يوصلك إلى هذا التحرر إلا سبيل الإسلام، الإسلام المهيمن الفعال لا الإسلام التقليدي المحنط؟

إذن فتعال نردد معاً حكمة ابن عطاء الله التي تصيدها من كتاب الله عز وجل، كما قد علمت: ((أنت حرٌّ مما أنت عنه آيس، وعبد لما أنت فيه طامع)).

* * *

الحكمة الحادية والستون

((من لم يقبل على الله بملاطفات الإحسان، سيق إليه بسلاسل الامتحان))

مما لاشك فيه أن الله حكيم، والحكيم اسم من أسمائه الحسنى.

والحكيم من أوتي من دقائق العلوم ما مكّنه من أن يضع الأمور كلها في نصابها، أي حيث يجب أن توضع، والحكمة التي يتمتع بها من يتمتع بها من الناس، منحة من الله عز وجل. وصدق الله القائل: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً..﴾ [البقرة: ٢/٢٦٩].

فمن مظاهر حكمة الله عز وجل أن يتحبب إلى عباده، في أول تعامله معهم، بالنعم يمتعهم بها ويزيدهم منها، ويمدّهم بأجلّ مظاهر التكريم والإحسان، ويسخر لمصالحهم حركة الأفلاك، والكثير من النباتات، ويذلل لرغائبهم وحاجاتهم كثيراً من الحيوانات.

وهذه المعاملة التي يقبل الله بها على عباده، ليست خاصة بالمؤمنين أو الصالحين منهم، بل هي عطية عامة شاملة لهم جميعاً على اختلاف مللهم وسلوكاتهم. وأساس ذلك قانون الله القائل: ﴿كُلاًّ نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ وَما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾ [الإسراء: ١٧/٢٠].

وأنا أتحدث عن الجامع المشترك بين الناس جميعاً من النعم.. ولاشأن لنا في هذا المقام، بالتفاوت الذي تراه بينهم في أمرها، وهو التفاوت الذي قرره بيان الله في قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ﴾ [الأنعام: ٦/١٦٥].

أليس كلهم مغمورين بنعمة الأرض التي جعلها الله ذلولاً تحت أقدامهم؟ أليسوا جميعاً مغمورين بنعمة الماء النمير الذي عليه مدار حياتهم؟ أليسوا جميعاً يتمتعون بالسكن الذي يؤون إليه وبالطعام الذي يقيم صلبهم، وبالرقاد الذي يتسرب إليهم عند الحاجة، واليقظة التي تعود إليهم عند زوالها؟

وليس لأحدهم أن يقول: ولكن داري التي أسكنها لاتبلغ أن تكون صالوناً من دور أناس آخرين، أو إن طعامي بُلْغة عيش، وطعام الآخرين فنون وألوان.. إلخ إذ إن الجامع المشترك في ذلك بينه وبينهم هو النعمة، وتفاوت الدرجات فيها لايلغي قيمة الأقل أو الأدنى منها.

هذا هو الأصل في معاملة الله لعباده أياً كانوا، ومن هذا المنطلق يقبل عليهم ويتعامل معهم.

والمفروض أن تجذبهم هذه المعاملة إلى الشكر، وأن يدعوهم الإحسان الوافد إليهم من الله إلى إحسان مقابل يصعد إلى الله منهم، كما قال عز وجل: ﴿هَلْ جَزاءُ الإِحْسانِ إِلاّ الإِحْسانِ﴾ [الرحمن: ٥٥/٦٠].

والإنسان الذي عرف ربه، دون أن يعاني من شذوذ في حالته النفسية، أو كبرياء أعمته عن رؤية الحقيقة، لابدّ أن تقوده النعم إلى شكر المنعم، تلك هي الطبيعة التي فطر عليها الإنسان. وصدق من قال: ((جبلت النفوس على حب من أحسن إليها)).

فمن انسجم مع فطرته هذه، إدراكاً وسلوكاً، فشكر الله على نعمه الوافدة إليه، بالحب، يتنامى في فؤاده، طبقاً لقول رسول الله: ((أحبوا الله لما يغذوكم من نعمه)) وبالانقياد لأوامره وتنفيذ وصاياه جهد استطاعته، أمدّه الله بمزيد من النعم ومتعه بمزيد من مظاهر الإكرام، تنفيذاً لوعده الذي ألزم به ذاته العلية، في قوله ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ١٤/٧].

أما من شذ عن هذا النهج، فتلقى النعم وأعرض عن المنعم، وانحطّ، غير مبال، في طريق الشرود والعصيان، لاتصلحه غلطة ولاتنبهه تذكرة، فهو لايخلو أن يكون مندفعاً إلى حاله تلك بأحد عاملين: أحدهما عامل الطغيان والاستكبار، ثانيهما عامل الاستخذاء أمام سلطان الشهوات والأهواء، لاسيما عندما تتفتح السبل إليها ويتيسر أسبابها بسبب كثرة النعم، وتوافر العافية، وزيادة المال، ونحو ذلك.

فأما من انحط في طريق الغواية والعصيان، بسائق من التكبر والطغيان، وكان مظهراً في ذلك لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الإِنْسانَ لَيَطْغَى، أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾ [العلق: ٩٦/٦-٧] دون أن يكفكف من جماح كبريائه التنبيهُ والتحذير... فالشأن الغالب في حال هذا الإنسان أن يمدّه الله بمزيد من النعم، وأن يسكره بمزيد من أسباب المتع واللذائذ، استدراجاً

له إلى مزيد من التيه والضلال، وهو قانون يأخذ الله بـه الطغاة الذين يمعنون في العتو والاستكبار، ليزدادوا بذلك تعرضاً لمقت الله وعقابه يوم القيامة.. وإنا لنقرأ هذا القانون ونستبين أسبابه ومبرراته في مثل قول الله تعالى: ﴿فذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ ، وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [القلم: ٦٨/٤٤-٤٥] وقوله عز وجل: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ١٥/٣] وقوله تعالى: ﴿لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ ، مَتاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهادُ﴾ [آل عمران: ٣/١٩٦-١٩٧] وقوله: ﴿فَلَمّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ أَبْوابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذا فَرِحُوا بِما أُوتُوا أَخَذْناهُمْ بَغْتَةً فَإِذا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٦/٤٤].

وواضح أن هذا الاستدراج تكثيف لعوامل نسيان الله عز وجل، وإسدالٌ لمزيد من الحجب الصادّة عن معرفة الله والتأثر بأوامره وتهديداته، ذلك لأن الله قضى بإقصاء المستكبرين من عباده عن مجال الهداية والرجوع بالتوبة إليه، ألم يقل في محكم بيانه ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آياتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِها وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً﴾ [الأعراف: ٧/١٤٦] وهذا الذي قضاه الله في حقهم يستلزم أن يُتركوا لمزيد من عوامل البغي والسكر بالمتع والنعم، ليستحقوا على ذلك مزيداً من النكال والعقاب.

وأما من انزلق في طرق التيه والانحراف بعامل الاستخذاء أمام هياج الغريزة، عندما كثرت النعم بين يديه وتفتحت لـه منها السبل إلى ما

يشاء من الموبقات، فلم يستطيع أن يكبح جماح نفسه ليصدّها عن اختراق الحدود وليتقيد بأوامر الله، فالشأن فيه وفي أمثاله، أن يسوقه الله إليه وأن يربيه بسلاسل الابتلاءات، كما قال ابن عطاء الله.

فكأن نداء من قبل الله يتجه إليه قائلاً: إن لطائف إحساني لم تُقْبِل بك إليّ، لقد زادتك بعداً عني، وانصرافاً عن أوامري، وشروداً عن صراطي، إذن فمن الخير لك أن أحجب عنك بعض هذه النعم، وأن أوقظك عن غفلتك بها ببعض المصائب والآلام، فإن الذي لاتعرّفه على الله لطائف إحسانه، ستقوده إليه سلاسل ابتلاآته وامتحانه.

وواضح أن سلاسل هذه الابتلاآت، من أجلّ النعم الباطنة، وإن كانت فيما يبدو من النقم والمصائب، ونعم الله التي يكرم بها عباده قسمان: ظاهرة وباطنة، كما قال. فالظاهرة هي التي عبّر عنها ابن عطاء الله بـ«لطائف الإحسان» والباطنة، المصائب والابتلاءات التي تتسرب إلى الإنسان في جسده أو ماله أو في تسليط بعض الظلمة عليه. فتكون سبباً في الرجوع إلى الله بعد الشرود عنه، وفي الالتجاء إليه والاستغفار بين يديه والاصطلاح معه، بعد الإعراض عن أوامره والانغماس في مظاهر اللهو والانحراف.

والتحقيق الذي يجب بيانه، هو أن هذين القسمين من النعم، كلاهما ابتلاء وامتحان من الله عز وجل. فالنعم الظاهرة، كالعافية والمال والأهل والأولاد، محل الابتلاء فيها، أن يرى اللهُ أثر هذه النعم في حياة من أنعم بها عليه، أهو الشكر وصرف النعم فيما قد خلق الإنسان من أجله، أم هو الإعراض والكفران... والنعم الباطنة،

كالمرض والفقر والمصائب المشابهة، محل الابتلاء فيها أن يرى الله أثر تسربها، أهو الالتجاء إلى الله والتوبة إليه، والصبر عليها والرضا بها، أم هو التمرد والسخط على الله بسببها؟

ويجتمع هذان الابتلاآن في قرار الله القائل: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١/٣٥].

* * *

ثم إن المفروض في حال من عرف الله وآمن به، أن يقبل إلى الله بدوافع الحب التي من شأنها أن تتنامى في قلبه من جرّاء لطائف الإحسان إذ تنغمر بها حياته. ولكن الغالب أن لطائف الإحسان وتكاثر النعم، تلهب فيه الغرائز وتهيج الرغبات، بدلاً من أن تذكي في قلبه مشاعر الحب لله عز وجل.. فتسلمه تلك الألطاف إلى الاستجابة لنداءات غرائزه بدلاً من أن ترحل به إلى شكر الإله الواحد الذي تفضل بها عليه!..

فإذا تقلصت عنه تلك النعم، وغاضت من حوله تلك المتع، وتسربت في مكانها إليه طائف من الأسقام والآلام، صحا عندئذ من غفلاته، وتذكر مولاه عز وجل، فالتفت مقبلاً إليه، تحت وقع تلك المصائب والشدائد، يتحبب إليه بالعبادة والتضرع والدعاء.

فياللعجب.. أليس الأولى بهذا الإنسان أن يتخذ من الغذاء الممتع اللذيذ سبباً لاستمرار عافيته، بدلاً من أن يعرض عنه، وهو موجود، حتى إذا حلّ المرض في كيانه، أقبل يعالج نفسه بالدواء المرّ ولسعات الكيّ؟

إنه لأمر عجيب.. ولكنه على الرغم من ذلك موجود وكثير!..

قبل سنوات مضت، كنت في زيارة عالم جليل عرف بالصلاح والتقوى، من علماء دمشق، بمناسبة عيد... وبينما أنا عنده إذ دخل عليه رجل، يمشي معتمداً على اثنين عن يمينه وشماله، ويجرّ نفسه جرّاً بينهما!.. ولما وصل إلى الشيخ انحط عليه برأسه يقبل يديه وركبتيه!.. قلت لمن كان إلى جانبي: من يكون هذا الرجل؟!.. قال إنه فلان، كان ضابطاً كبيراً ذا رتبة متميزة ومكانة عالية، تطوف النعم في خدمته وتجوب المتع بين يديه، وكان في ذهول تام عن الدين وعن الديان وحقوقه وحكمه.. فأدركه من الله شلل جزئي في جسده، فهو منذ ذلك اليوم يحاول أن يصلح ما فسد من غابر أيامه وأن يمدّ جسور الإصطلاح مع الله عز وجل، بالطاعات والعبادات وتلمس مجالس الصالحين والتحبب إليهم.

وإليك هذه العبرة الأخرى التي لا أنساها: رجل ذو مركز مرموق وثقافة عالية ووظيفة متميزة، يتمتع بصحة تامة، تعرف في وجهه المتألق نضرة النعيم، نشر في إحدى الصحف مقالاً ضافياً عنوانه: متى عرفت الأمة العربية أنها هي المالكة لقدرها المتصرفة بشأن نفسها، تخلصت من أسر تخلّفها.. وكان حديثه في ذلك المقال يفيض تخبطاً وخلطاً... ولعله كان من أثر النعمة التي أسكرته فأنست عبوديته وضعفه.

أيقظه الله عز وجل من سكرة نعيمه بعصا تأديب أدركته بينما هو يؤدي عمله الوظيفي في عافية ونشاط وقوة.. غاضت قواه وغاب تماسكه فجأة، ووقع من جراء ذلك على الأرض لايعقل ولايعي!..

غاب عن عمله وعن مسرح نشاطه، في تلافيف مرض مفاجئ أقعده شهوراً طويلة.. ثم إني رأيته بعد ذلك في مناسبة اجتماعية ذاوي الشكل ضامر الوجه، يمشي الهوينا، سلّمت عليه وهنأته بالعافية وسألته عن حاله، فقال لي، وقد استيقظت مشاعر عبوديته لله واضحة على وجهه. الحمد لله، لقد فضل المولى عليّ وزادني من فضله وكرمه، إذ وفقني لأداء مناسك العمرة، وأقدرني على زيارة بيته وزيارة نبيه.

ألا تلاحظ أن هذه الحالة التي انتابته، كانت له نعمة وأي نعمة، وإن كانت في ظاهرها بلاء ومصيبة؟. ولو لم يكن من معاني النعمة فيها إلا أنها نبهته من غفلته وأعادته من شروده وألبسته رداء العبودية لله، لكفى ذلك موجباً لأن تصنف في صدر قائمة النعم التي يكرم الله بها عباده.

* * *

والآن ما هي حصيلة هذه التربية التي يأخذ الله بها عباده؟

لقد رأيت أنه، جل جلاله، في كلا الحالتين اللتين يتعرض لهما الإنسان، إنما يريد بعبده خيراً، إذ المآل أن يقبل على الله عز وجل وينقاد لسلطانه وينضبط بأحكامه، فإما إن يكون ذلك بجاذب من لطائف الإحسان، أو بقوارع من عصيّ الابتلاء والامتحان.. إن آثر في نفسه العافية جذبه الله إليه بنعمة الملاطفة والغذاء، وإن آثر الشرود عنها أعاده الله إليه بالتطبيب وأخْذِه بمرّ الدواء.

فإن رأيت المجتمعات الإنسانية تعجّ دائماً بمزيج من المنح والمحن، فلأن هذه المجتمعات تعجّ دائماً بهاتين الفئتين من الناس: فئة تقبل إلى الله بلطائف الإحسان، وفئة أخرى لاتنقاد إليه إلا بسلاسل الامتحان.

إلاّ أن ثمة فئة ثالثة، هي بمعزل دائماً عن نظام هذه التربية الربانية، هي فئة المستكبرين على الله والمعاندين للحق بعد معرفتهم له ويقينهم به.

فهؤلاء، قضى الله تعالى أن يمدّهم بمزيد من النعم، وأن يسكرهم بمزيد من المتع، وأن يستدرجهم إلى مزيد من العتوّ والطغيان، ليكون العقاب المدّخر لهم أشد إيلاماً. أولئك هم الذين عناهم البيان الإلهي بقوله عز وجل: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غافِلاً عَمّا يَعْمَلُ الظّالِمُونَ إِنَّما يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصارُ﴾ [إبراهيم: ٤٢/١٤] وأولئك هم الذين أكد الله أنه لم يهملهم نسياناً، ولكنه أمهلهم إلى أجل، وأن هذا الأجل آت لاريب فيه، وذلك في قوله: ﴿فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقامٍ ، يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّماواتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٧/١٤-٤٨].

* * *

الحكمة الثانية والستون

((من لم يشكر النعمة فقد تعرض لزوالها، ومن شكرها فقد قيدها بعقالها))

دأب كثير من الناس على أن يعرّفوا شكر الله تعالى، بالكلمة المعروفة التي يرددها أحدنا على لسانه في المناسبات: نشكر الله.. نحمد الله..

فمن اعتاد على أن يكون جوابه عند السؤال عن حاله: الحمد لله، أو الشكر لله، أو نشكر الله، فهو عند كثير من الناس يعدّ شاكراً لله. وهذا يعني أن جُلَّ الناس، إن لم أقل كلهم، شاكرون لله حامدون له.

غير أن هذا يتعارض مع قول الله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣/٣٤].

إذن فالشكر الذي يعنيه بيان الله ويأمر به، له معنى آخر، لاينطبق على هذه الكلمة التقليدية التي ترددها ألسنة الناس حتى الفاسقين منهم، ربما بدون إدراك لمعناها.

فما هو معنى الشكر الذي يعنيه بيان الله تعالى ويأمر به؟

هو أن يصرف العبد جميع ما قد أنعم الله به عليه، لما قد خلق من أجله، فالشكر إذن، سلوك وتصرف. وكلمة نشكر الله أو الشكر لله، تنويه بهذا السلوك وعهد مع الله بتنفيذ مقتضاه. فإما أن يطابق سلوكه القول فذاك، أو يخالفه، فهو إذن كاذب.

ولكن ما معنى أن يصرف الإنسان جميع ما أنعم الله به عليه لما خلق من أجله؟

معنى ذلك أن يعلم المهمة التي خلقه الله وكلفه بأدائها، ثم يوظف سائر النعم التي متعه الله بها في تنفيذ تلك المهمة على أحسن وجه. فيصرف نعمة العقل إلى معرفة الله ومعرفة وحدانيته والواجبات التي يجب أن يأخذ نفسه بها، مستعيناً بالأدلة الكونية الكثيرة من حوله، ويصرف نعمة البصر إلى النظر فيما يزيده معرفة بحقائق الأمور التي تزيده يقيناً بالله وصفاته وبعبوديته ومملوكيته له، كذلك نعمة السمع، ونعمة العافية، ونعمة المال، ينبغي أن يوظف هذه النعم كلها ويجندها لتحقيق المهمة التي خلقه الله لأدائها، وهي أن يمارس العبودية لله بالسلوك والاختيار، كما قد خلق عبداً له بالواقع والاضطرار.. ولاحرج على الإنسان - بعد أن يجند النعم التي أكرمه الله بها للمهمة التي خلق من أجلها - أن يتابع، فيستعملها أيضاً في المباحات التي شرعها الله له، وفي المتع التي أكرمه بها.

إذن، فلو أن إنساناً سخر المال الذي أكرمه الله به، أو العافية التي متعه بها أو سخر غيرهما من النعم الكثيرة التي متعه الله بها، في

المحرمات التي حذره الله منها، فهو كافر بنعم الله غير شاكر له عليها، مهما كرر بلسانه كلمة الحمد لله، أو كلمة الشكر لله.

وليس المراد بالكفر الذي يقابل الشكر، في قوله عز وجل: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ١٤/٧] الكفر الذي يناقض الإيمان، وإنما المراد به الكفر الجزئي المتمثل في كفر النعمة، أي عدم الاعتراف بفضل الله عليه بها، ودليل عدم اعترافه، أنه لم يشكر المنعم المتفضل عليها، إذ سخرها لنقيض ما أمر الله به وهو المحرمات والمحظورات التي نهاه عنها.

وإذ عرفت معنى الشكر والكفران، فاعلم أن من لم يشكر الله على نعمه، فقد عرّض نفسه للحرمان منها، أي فيوشك أن تحجب عنه، وأن يتبلى بنقائضها.

وإذا ابتُلى الإنسان بالإعراض عن شكر المنعم على نعمه، ودام على ذلك، ثم بقي مع ذلك ممتَّعاً بها، فليس ذلك إلاّ لأن الله مقته، فمدّه بالمزيد منها استدراجاً، كما حدّثتك في شرح الحكمة السابقة، ليدّخر له على كفرانه النكال الكبير والعقاب الوبيل.

ونظراً لهذا الاحتمال، جاء تعبير ابن عطاء الله دقيقاً عندما قال: ((فقد تعرض لزوالها)) إذ ربما لاتزول للسبب الذي ذكرته لك، ومن المعلوم أن التعرض للشيء لايستلزم الوقوع فيه بالضرورة.

وعلى هذا فإن غياب النعمة من حياة من أعرض عن شكر الله عليها، دليل على لطف الله به، إذ أبعد عنه ما كان سبباً لغفلته عن الله

وشاغلاً له عن شكره وعن أداء حقوقه، وهي، كما قد عرفت من قبل، نعمة من نعم الله الباطنة.

وللإعراض عن شكر الله صور ودرجات شتى، فأدنى درجاته الغفلة بالدنيا عن ذكر الله ومراقبته، والانزلاق في بعض السيآت والتهاون في بعض الأوامر، مما لايكاد المسلم يجد سبيلاً للتنزه عنه، ومن سنة رب العالمين في عباده، إن أراد بهم خيراً، أن يكفر عنهم هذه السيئات ويطهرهم من أوزارها في دار الدنيا، كي يرحلوا إلى الله خفافاً مجردين عن أثقالها وعقابيلها، وسبيل ذلك أن يبعث في النعم التي يتمتعون بها نقصاً أو هزة، بالقدر الذي تقتضيه حكمة الله عز وجل، من مرض أو نصب أو همٍّ أو خسارة في المال، أو جزع في النفس أو تسليط عدوٍّ.. إلخ.

روى الإمام أحمد بسنده عن أبي بكر رضي الله عنه أنه قال لرسول الله ﷺ: يارسول الله، كيف الفلاح بعد هذه الآية ﴿لَيْسَ بِأَمانِيِّكُمْ وَلا أَمانِيِّ أَهْلِ الْكِتابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ﴾؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: ((يغفر الله لك يا أبا بكر، ألست تمرض، ألست تنصب، ألست تحزن، ألست تصيبك اللأواء؟ قال: بلى، قال: فهو ما تجزون به)). ورواه الحاكم أيضاً من طريق سفيان الثوري.

وإذا عرف المسلم هذه السنة الإلهية التي يأخذ الله بها عباده، أدرك أن كل شيء يلقاه الإنسان في حياته بحساب، بالإضافة إلى النعم التي يغدقها على عباده تفضلاً منه وإكراماً دون أي مقابل عليها.

فالمصائب التي يتعرضون لها بعد ذلك، إما أن تكون تكفيراً لسيئات ارتكبوها، كي تكون طهوراً لهم منها، أو أن تكون رفعاً لدرجاتهم عند الله عز وجل، إذ تسوقهم تلك المصائب إلى المزيد من مراقبة الله والالتجاء إليه وبسط يد الافتقار على بابه.

وهكذا فإن كل ما قد يعتري نعم الإنسان من نقص فيها، أو هزة تعتريها أو خطر يطوف بها، يكمن وراءه سبب مما قد ذكرت، ومن ثم فإنه يعدّ، بلاريب، نعمة من أجلّ نعم الله الباطنة.

* * *

أما من قابل نعم الله بالشكر عليها (وقد عرفت قبل قليل المعنى الحقيقي للشكر) فقد أودع هذه النعم في الحصن الذي جعل الله منه ضمانة لبقائها بل لتناميها وزيادتها أيضاً. ألم يقل ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾؟

وهذا هو معنى قول ابن عطاء الله في الشطر الثاني من حكمته هذه: «ومن شكرها فقد قيدها بعقالها» والعقال الحبل. شبّه أثر شكر النعم في تقييدها والإبقاء عليها، بأثر تقييد البعير بالعقال في ضمانة بقائه حيث هو وعدم شروده.

وانظر كيف غاير رحمه الله بين الفقرتين، إذ جعل من عدم الشكر سبباً للتعرض لزوال النعمة، دون أن يجعل منه سبباً لزوالها يقيناً. ولكنه جعل من وجود الشكر والانضباط الدائم به سبباً لبقاء النعمة بيقين، للفرق الذي أوضحته لك بين الحالتين.

وبوسعك أن ترى مصداق ما قد ألزم الله به ذاته العلية، مما قد ذكّرنا به ابن عطاء الله في هذا الشطر الثاني من حكمته، في حال من تراهم من الشاكرين لنعم الله عز وجل، إنك لن ترى مسلماً يؤدي حقوق نعم الله الوافدة إليه، مخلصاً بذلك لإلهه المتفضل المنعم، إلا وتجد نعمه رفيقةَ دربه كاملةً غير منقوصة إلى الممات.. تجد أن ماله في ازدياد، وأن عافيته في إقبال، وأن أمنه وطمأنينته في استقرار ورسوخ.

فإن رأيت ثغرات تتفتح في بعض تلك النعم، ونقصاً يتسرب إليها، مما قد ذكر رسول الله لأبي بكر نماذج وأصنافاً منه، فاعلم أن ذلك ليس إلا لآفات من المعاصي والتقصير في أداء الواجبات، والانزلاق إلى بعض السيئات، مما لايتسنى لأي من المسلمين العصمة عنه، حاشا الرسل والأنبياء، قد تعرض لها صاحب تلك الثغرات أو النقائص التي تسربت إلى نعمه التي كان يتمتع بها.

ولذا فإن الإنسان أياً كان في صلاحه وقربه من الله، لابدّ أن يتعرض لعوارض من المصائب والآلام، لأن الإنسان، أياً كان، لن يكون معصوماً من السيئات والآثام.

على أن الله ألزم ذاته العلية، بأن يعفو عن كثير مما قد يتعرض له المسلم من الانحرافات والآثام، دون كفارة لها من المصائب في الدنيا، ولا عقاب عليها في الآخرة.. تقرأ هذا جلياً واضحاً في قوله عز وجل: ﴿وَما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٤٢/٣٠].

* * *

أخيراً.. في الناس من قد يقول: شكر الناس بعضهم لبعض، مصدر فائدة يجنيها المشكور، فما الفائدة التي يجنيها الله لنفسه من شكر الشاكرين.

أقول في الجواب: أولاً لقد علمت أن كلمة: الشكر لله، أو الحمد لله، ليست هي المرادة بوجوب الشكر، وليس الشاكر الشخص الذي تعود لسانه على النطق بها في المناسبات، وإنما الشكر الذي أمر الله به ونعت المؤدين له بأنهم قلة، صرف الإنسان النعم التي متعه الله بها إلى الوظيفة التي أمره بها وخلقه من أجلها.

إذا تذكرت هذا الذي بينته لك من قبل، فتأمل في الأعمال والتصرفات التي يوظف الإنسان من خلالها نعم الله تعالى ويجنّدها للمهام والوظائف التي كلفه الله بها، ثم سائل نفسك: أهي عائدة بالنفع إلى الله، أم إليه وإلى إخوانه من عباد الله؟.. وستجد أنها جميعاً عائدة بالفائدة إما إلى نفسه أو إلى المجتمع الإنساني من حوله.

إن الشكر على نعمة المال يتمثل في أداء حقه الذي رتبه الله عليه، وفي صرفه فيما أحلّ وشرع، وأنت تعلم أن مردّ ذلك إلى مصلحة المجتمع متمثلة في مدّ يد العون للفقراء والمعوزين، وفي تطهيره من أوبئة البذخ والترف وتضيع المال في غير طائل.

وإن الشكر على نعمة القوة والعافية، يتمثل في أن لايطغى صاحب هذه النعمة بقوته وعافيته، وأن لاتسكره هذه المزية فتدعوه إلى النيل من الآخرين وهضم حقوقهم. بل شكرها يتمثل في أن يجند قوته في خدمة الناس ورعايتهم وأن يسخر نشاطه وعافيته في تقديم يد العون

إلى من حرموا من هذه النعمة، هذا بعد أداء حقوق الله المتمثلة في الطاعات والعبادات، ومن المعلوم أن العافية والقوة شرطان أساسيان لإمكان النهوض بها على أحسن حال.. وإنك لتعلم أن مردّ هذا الشكر إلى المجتمع متمثلاً في أفراده.

وإن الشكر على نعمة الرتبة التي قد يبوئها الله زيداً من الناس، يتمثل في أن يسخرها لإحقاق الحق ورعاية أهله، ومقاومة الظلم والضرب على يد الظالمين، وكلنا يعلم أن عاقبة هذا الشكر حماية المجتمع من السوء وأهله، ومدّ رواق الأمن على حياة المستضعفين الذين لايتأتى منهم الدفاع عن أنفسهم وحقوقهم.

وإن الشكر على نعمة العلم إذ يكرم الله به عباده، يتمثل في نشره وبثّه في الناس، بالسبل الممكنة. ولاريب في أن ثمرة هذا الشكر إنما هي الخير الكبير العائد إلى من تؤدَّى فيهم هذه الضريبة.

وهكذا سائر النعم الأخرى، شكر الله عليها ليس إلا أداءً لضريبتها المتمثلة في تحقيق مصالح ومنافع لعباد الله، ولكن بشرط واحد: أن يتوافر الإخلاص له عز وجل إذ يؤدي صاحب النعمة هذه الضريبة، فلو قصد بها شيئاً آخر، كمصلحة شخصية تعود إلى ذاته وكمركز اجتماعي يناله من وراء شكره، وكحظوة ينالها، أو رواج تجارة يحلم به، فهو لايدخل في معنى الشكر الذي عرفت معناه، ومن ثم فهو لايعود إلى المجتمع بأي مصلحة أو خير، بل هو في الحقيقة استغلال دنيئ له.

إذن فشكرك لله عز وجل، واجب تؤديه في الحقيقة لربك، ولكن ثمرته خير يعود إلى شخصك وإلى مجتمعك.. وما أروع وألطف أن

يدعوك الله إلى عمل أو تصرف يخيِّل إليك أنه هو المستفيد منه، ثم يكشف لك عن الحقيقة التي تريك بأنك أنت وإخوانك أصحاب الاستفادة من هذا العمل الذي أمرك به.

إنه مثل قول الله تعالى: ﴿مَنْ ذا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ أَضْعافاً كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢/٢٤٥] إن دعوة الله لك إلى أن تقرضه، تبث في روعك افتراض أن الله بحاجة إلى أن يقترض منك، وأنك باستجابتك لعرضه وسؤاله هذا، تقضي له حاجته وترفع عنه عوزه.. ولكن المفروض أن تذوب خجلاً من الله إن تأملت ودققت في معنى الكلام بهذا العرض اللطيف الأخاذ.

المال مال الله، دسه في جيبك وأكثر منه في صندوقك، ثم ذكرك بحق هذا المال في عنقك، بهذا الأسلوب المحبب العجيب، وضع ذاته العلية منك موضع المقترض، ووضعك (وأنت المملوك بكل ما معك له) موضع المقرض، وأغراك إذ طلب منك هذا القرض بأن يعيده إليك أضعافاً.. كل ذلك في سبيل أن يذهب هذا القرض إلى أخيك المحتاج!!..

وهكذا فإن الشكر في مظهره الذي تستحق به الثواب لله، وثمراته التي من أجلها أمرك الله بالشكر عائدة إلى عباد الله.

وصدق الله القائل: ﴿وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [لقمان: ٣١/١٢]، والقائل على لسان سيدنا سليمان ﴿هَذا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٢٧/٤٠].

الحكمة الثالثة والستون

((خف من وجود إحسانه إليك، ودوام إساءتك معه أن يكون ذلك استدراجاً لك، سنستدرجهم من حيث لايعلمون))

لما نبه ابن عطاء الله في الحكمة السابقة إلى السنة التي يأخذ بها عباده، والتي تتلخص في أن الحصن الذي يحفظ النعمة ويبقيها في كنف صاحبها، هو شكر الله عليها، وأن الإعراض عن شكره عز وجل هو السبب الأول لزوالها، استدرك في هذه الحكمة الثانية منبهاً إلى سنة أخرى يعامل الله بها طائفة من عباده، ألا وهي الاستدراج، وقد عرفت معنى الاستدراج في شرح الحكمة السابقة.

فهذه الحكمة التي يتمم بها ابن عطاء الله المعنى الذي ساقه في كلامه السابق، تقع موقع الجواب عن سؤال من يقول: فها أنا معرض عن الشكر الذي تتحدث عنه وتأمر به، والنعم التي أتمتع بها موفورة وكثيرة، وهاهي ذي في رسوخ وتزايد.

إن الجواب هو: أن هذا الواقع الذي تصفه من استمرار إحسان الله إليك مع استمرار إساءتك إليه، ليس إلا مظهراً لسنة أخرى من سنن

الله في عباده، ألا وهي سنة الاستدراج، التي رسّخها بيان الله تعالى في مثل قوله: ﴿فذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ ، وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [القلم: ٦٨/٤٤-٤٥].

وقد علمت مما ذكرته لك في شرح الحكمة السابقة، أن الاستدراج مظهر لسخط الله، وأنه يحيق بالمستهترين بحقوق الله ونعمه استكباراً، وقلما يحيق بالمقصرين في حقوق النعم لضعف أو لجموح سلطان الغرائز والأهواء.

إذن فهذه الحكمة ليست إلا ذيلاً وتتمة للحكمة التي قبلها.

إذا علمت هذا، فلنتساءل: ما هو الأدب الذي يجب أن يتحلى به المسلم تجاه إكرام الله له بمزيد من النعم، مع استمرارها في سائر التقلبات والأحوال؟

إن الأدب الذي يجب أن يتحلّى به هو الخوف من أن يكون هذا الإكرام الوافد إليه من الله تعالى، من نوع الاستدراج. ولسوف يدفعه إلى هذا الخوف رجوعه إلى نفسه وشعوره بتقصيره في جنب الله، ويقينه بأن حجم النعم الإلهية التي تفد إليه أكبر بكثير من حجم شكره لله عز وجل.

ومن النتائج الإيجابية لهذا الخوف أنه يدفع صاحبه إلى تدارك تقصيره، وإلى مضاعفة شكره لله، تخلصاً من عقابيل خوفه.

فإن قلت: ولكني إذ أعود إلى نفسي لمراقبة حالي، أجدني مؤدياً لحقوق الله، شاكراً لنعمه، فمن أين ينبعث الخوف لديّ، في هذه

الحال؟ أقول: إن من أخطر مظاهر التقصير في أداء حقوق الله وشكره على نعمه، أن ترى نفسك مؤدياً كامل حقوقه، غير مقصر في شيء من واجباته وأحكامه.

وقد علمت مما ذكرته لك في أكثر من مناسبة، أن العبد كلما ازداد معرفة بربه، ازداد علماً بتقصيره وبالبعد عن أداء حقوقه. إذن فمن رأى أنه غير مقصر في حق الله وأن نعمه التي يتلقاها منه إنما تأتيه بجدارة، فهو من أكثر الناس تقصيراً وبعداً عن الله عز وجل. وعليه، إن رأى أنّ نعم الله تتكاثر من حوله ولاتنفك عنه، أن يتوجّس خيفة من أن الله يزيده منها استدراجاً، لا إكراماً.

وحصيلة هذا الكلام أن المؤمن من شأنه أن يكون في كل الأحوال على حذر من أن النعم التي تفد إليه من الله تعالى إنما هي نذير عقاب ودلائل استدراج.

من منّا بلغ الرتبة التي بلغها عمر رضي الله عنه، قرباً من الله وأداء لحقوقه؟ ومع ذلك، فقد كان إذا جاءته الغنائم على أعقاب الفتوحات، أطبق عليه الكرب واستبدّ به الخوف من أن يكون هذا الذي اختصه الله به ابتلاء واستدراجاً.

روى ابن كثير في البداية والنهاية وابن سعد في الطبقات أنه لما سيقت إلى عمر غنائم الفرس بعد فتح القادسية، جعل يبكي قائلاً: «كلا والذي نفسي بيده، ما حبس الله هذا عن نبيه ﷺ وعن أبي بكر، إرادة الشرّ لهما، وأعطاه عمر إرادة الخير له».

وإذا كان المسلم في مستوى هؤلاء الربانيين من أمثال عمر رضي الله عنه، فهو يعيش دائماً من التعامل مع نعم الله على حذر، إذ هو لايرى من حاله إلا ما يدلّه على تقصيره وسوء حاله، ومن ثم فهو لايجد من مبررات توارد النعم إليه إلا الابتلاء والاستدراج.

ولكن العامّة الذين هم من أمثالنا، بوسعهم أن يتخذوا لأنفسهم مقياساً يميز لهم النعم التي تفد إليهم من باب الإكرام الإلهي، عن النعم التي تقبل إليهم من باب الابتلاء والاستدراج.

هذا المقياس يتمثل في عقيدة وسلوك.. فمن كان يتلقى النعم عند إقبالها إليه، على أنها وافدة إليه من الله، لايُخْطر في باله الوسائط والأسباب ولايقيم لها وزناً ولايرى لها أهمية، وكان تعامله معها خاضعاً لشرعة الله وأحكامه، يجندها لأسباب القرب منه، ويبعدها عن مجال سخطه، فإن بوسعه أن يعلم أن النعم التي تأتيه من الله تعالى إنما هي بريد إحسان ودليل إكرام.

أما الذي يتلقى النعم عند إقبالها إليه، على أنها ثمرة لجهوده ونتائج للوسائط والأسباب الماثلة أمامه، ناسياً خالق الأسباب والمسببات، ثم يتعامل معها طبقاً لما توحي إليه أهواؤه ورغائبه، ذاهلاً عن المحسن الذي تفضل بهذه النعم عليه، ناسياً أوامره ووصاياه، مقتحماً الحدود التي حذره من اجتيازها، فإن بوسعه أن يعلم أن استمرار تلك النعم في حياته، مع بقائه على تلك الحال، ليس إلا استدراجاً من الله له، ليوغل في الطريق الذي انحطّ فيه، فيستحق بذلك مزيداً من النكال والعقاب.

واعلم أن هذا المقياس كما ينطبق على حال الأفراد، ينطبق على حال الدول والمجتمعات. وبوسعك أن تعلم إذن أن ما تتمتع به دول البغي والاستكبار اليوم من النعم الكثيرة المتنوعة المقبلة، إنما هو مظهر استدراج وتطبيق لقرار الله القائل: ﴿فَتَحْنا عَلَيْهِمْ أَبْوابَ كُلِّ شَيْءٍ..﴾ [الأنعام: ٦/٤٤]، والقائل: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ١٥/٣]، والقائل: ﴿لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ ، مَتاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهادِ﴾ [آل عمران: ٣/١٩٦].

كما ينبغي أن تعلم أن الاستدراج الذي يبتلى به الله الدول والمجتمعات التي تستمرئ العتوّ والطغيان، ليس مرحلة مستمرة من الأمن والطمأنينة في ظلال النعم والمتع المتزايدة، بل هو نذير إهلاك وزوال. ولكن نذير الإهلاك للدول يختلف عن نذير الإهلاك للأشخاص، من حيث وسطي الأعمار الذي تتمتع به الدول والذي يتمتع به الأشخاص في العادة.

فلاتنتظرن هلاك دولة ما، إن رأيت نذير مرض مهلك استشرى في حياتها، خلال سنة أو بضع سنوات، كما تنتظر ذلك بالنسبة لشخص يعاني من مرض مهلك تسرب إلى جسده، فإن أعمار الدول تقاس بالعقود، في حين أن أعمار الأشخاص تقاس بالأيام أو بالسنوات.

هذا شيء.. وشيء آخر، من المهم أن نلحظه، وهو أن سنة الله عز وجل جرت على إهلاك دول البغي والطغيان، عندما تصل إلى أوج قوتها وغناها. ألا ترى إلى قارون.. لما ركن إلى الاستكبار والطغيان

بالأموال والقدرات التي متعه الله بها، استدرجه الله إلى المزيد من ذلك، ومدّله من الزمن ما مكنّه من بلوغ أعلى اهتماماته وطموحاته، حتى ظن الجاهلون أنه التمكين والاستقرار بفعل السلطان الذي أوتيه، والقدرات التي يتمتع بها، فتمنوا لو أنهم أوتوا مثل ما أوتي، وقال قائلهم: ﴿يا لَيْتَ لَنا مِثْلَ ما أُوتِيَ قارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [القصص: ٧٩/٢٨] ولكن ما إن وصل من بغيه وقدراته وغناه إلى الأوج، حتى أهلكه الله، وأباد معه حصيلة علمه وغناه وقواه في لحظة واحدة، وصدق الله القائل: ﴿فَخَسَفْنا بِهِ وَبِدارِهِ الأَرْضَ﴾ [القصص: ٨١/٢٨].

ألا ترى إلى فرعون... لما ركب رأسه في البغي والطغيان، وأصرّ إصراره على عدم الالتفات إلى نصح الناصحين، وعلى الاستخفاف بالنذر التي سيقت إليه، تركه الله لشأنه، وأمكنه من الوصول إلى المزيد من مظاهر العتوّ والتمكين، حتى إذا لم يشك أن الدنيا في قبضته وأن القضاء ليس إلا قضاءه، أغرقه في اليم، ودمّر ﴿ما كانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَما كانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧/٧].

بل انظر إلى الإمبراطورية الرومانية، تركها الله تعالى تزداد تسلقاً إلى الأوج، أوج القوة والغنى والعلم والدراية، على الرغم من الفساد الذي انتشر فيها أشكالاً وألواناً، ثم إن الله لم يقض عليها إلاّ وهي تتربع فوق أعلى قمم الحضارة.

والحكمة من هذه السنة الإلهية أن هلاك الضعيف لايلفت نظراً ولا يثير اهتماماً، ولايبعث على أخذ أي عبرة، ولكن الذي يلفت النظر ويثير الاهتمام ويبعث على اليقظة وأخذ العبرة، هلاك القوي عندما يكون في أوج قوته.

وبوسعك أن تستبين هذه الحكمة من قوله عز وجل: ﴿فَلَمّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ أَبْوابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذا فَرِحُوا بِما أُوتُوا أَخَذْناهُمْ بَغْتَةً فَإِذا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤/٦]. انظر كيف جعل توقيت هلاكهم وصولهم إلى أوج قوتهم الحضارية، المعبَّر عنه بقوله: ﴿فَرِحُوا بِما أُوتُوا﴾.

ولعل المثل الشعبي القائل: ((لايسقط أحد من فوق الحصير)) قد صيغ من وحي هذه السنة الربانية التي يعنو لها جبين التاريخ.

أجل.. لايسقط أحد من فوق الحصير، وإنما يسقط من فوق العرش أو السرير!..

* * *

غير أن السؤال الذي يتطارحه كثير من الناس اليوم، يدور بحثاً عن الحكمة في تسلّط دول البغي والعتوّ على المسلمين وتحكمهم بهم وتمكنهم منهم!.. ولعلّ أحدهم يقول: فإن كانت سنة الله تقضي بأن تُستدرج هذه الدول إلى مزيد من التمتع بالنعم والمبتغيات، ريثما يحين ميعاد هلاكهم، أيستلزم ذلك أن يعلو سلطانهم على المسلمين، وأن يتحكموا بهم ويستمرئوا خيراتهم ويستلبوا حقوقهم؟

والجواب: أن المسلمين اليوم ليسوا هم المسلمين الذين وعدهم الله في كتابه بالنصر والذين قال عنهم: ﴿إِنّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهادُ﴾ [غافر: ٥١/٤٠]، ليسوا هم المسلمين الذين خاطبهم الله قائلاً: ﴿..لَنُهْلِكَنَّ الظّالِمِينَ ، وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ

مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ [إبراهيم: ١٣/١٤-١٤] ليسوا هم الذين أكد لهم وعدهم هذا بقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَما اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٢٤/٥٥].

إن المسلمين اليوم نموذج آخر عجيب!..

إنهم يصبغون أنفسهم من الإسلام ببعض ألفاظه وشعاراته، ضمن شروط معينة يملونها!.. يتبرمون بكل قيمه ونظمه وحدوده، لمجرد أنه قديم لم يولد البارحة في جملة هذا الذي استولدته حضارة الغرب، ويتعشقون بدلاً عنه جميع ما يجدّ عند هؤلاء الأعداء الذين يتساءلون عن سبب تفوقهم، لمجرد أنه داخل تحت اسم «الحداثة» التي لمستها يد الغرب وبركته!.. قد شاعت فيما بينهم صنوف كثيرة من المنكرات حتى غدت هي المعروف المحبب إليهم، واختفى من بينهم ما يقابلها من المعروف، حتى أصبح هو المنكر المستهجن عندهم!..

فأي حق لهؤلاء على الله أن يطالبوه بالنصر، وأن يمنوا عليه بإسلام لم يمسكوا منه إلا بالقشور والعناوين والانتماء التاريخي المعبر عن التباهي بدلاً عن الالتزام؟.. هذا بالإضافة إلى الأنشطة الكبيرة التي يتجه بها كثير منهم إلى الكيد لمبادئه وعقائده وأحكامه؟!..

ثم اعلم أن سنة الله اقتضت أن تظلّ هذه الدنيا تسير بأهلها في تطورها العمراني والمعاشي، حتى يأتي وعد الله وتحين الساعة المحددة لزوالها وانمحاقها، وإنما شأن المؤمنين بالله القائمين على حدوده والمؤتمنين على مبادئه وأحكامه، مع الأمم الجاحدة بالله المستكبرة على مبادئه وأحكامه، بالنسبة لقيادة الدنيا ومهمة تعمير الكون وإدارته، مثل كفتي ميزان، إن رجحت إحداهما لابدّ أن تطيش الأخرى.

فإذا كان المؤمنون بالله صادقين في إيمانهم به، أوفياء معه في تنفيذ منهاجه وشرعه، جعل الله قيادة الحياة وعمارتها آيلة إليهم، وأخرج لهم أسباب العزة والمنعة والنصر من حيث لايحتسبون، وجعل رتبة الآخرين من ورائهم وتحت سلطانهم.

وإذا انقلب المؤمنون فضيعوا شرائع الله وأحكامه، واستهانوا بأنظمته وحدوده، ولم تخلص أفئدتهم لدعوى ألسنتهم، وفاض فيهم المنكر حتى لم يبق فيهم من يقف في وجهه، وغاب من بينهم المعروف حتى غدا غريباً يُتقزز منه أو يستخف به، جعل الله قيادة الحياة وعمارتها إلى الأمم الأخرى وإن كانت جاحدة كافرة، وسلطها عليهم بالقهر والتمزيق والإذلال!..

وهكذا، فإن الدنيا لايمكن أن تقف عن حركتها وتطورها، من أجل عيون الذين أبوا إلا أن ينكصوا على أعقابهم ويتخلوا عن شرف مسؤولياتهم... بل لابدّ أن تظل مستمرة في نموها وحركتها العمرانية كما اقتضت سنة الله، ولكن قيادتها تتحول من أيدي أولئك الذين ضيعوا الأمانة وخانوا العهد، إلى أيدي الآخرين أياً كانوا..

تأمل هذا القرار الإلهي، كيف يبدو جلياً في قوله عز وجل: ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٩/٦] وفي قوله عز وجل وهو يخاطب بني إسرائيل، ويذكرهم بواقع هذا القرار التاريخي في حقهم: ﴿فَإِذا جاءَ وَعْدُ أُولاهُما بَعَثْنا عَلَيْكُمْ عِباداً لَنا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجاسُوا خِلالَ الدِّيارِ وَكانَ وَعْداً مَفْعُولاً﴾ [الإسراء: ٥/١٧]، وقد علمنا أن العباد الذين سلطهم الله عليهم، أي على

بني إسرائيل، هم بختنصر وقومه، وقد كانوا شراً من بني إسرائيل، ولم يمنع ذلك من أن يسلّطهم الله بالإذلال والتعذيب عليهم، لأنهم ضيعوا الأمانة وخانوا العهد، وبدلوا نعمة الله التي أغدقها عليهم نسياناً وكفراً.

ثم تأمله ثانية، كم يبدو جلياً في قوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: ((إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلّط الله عليكم ذلاً لاينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم))[1]. والذل - كما تعلم - لايكون إلا بتسليط من يمارس فيهم القهر والإذلال.

ورحم الله الرعيل الأول من هذه الأمة، فقد درسوا سنن الله في عباده، وأدركوها، ثم تعاملو معها على النحو الذي يرضي الله تعالى ويحميهم من مغباتها. انظر إلى وصية عمر لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما، عندما ودعه متجهاً إلى حرب القادسية، وهو يلفت نظره إلى هذه السنة الإلهية، ويهيب به أن يبعد جيشه عن الانحرافات والمنزلقات التي تجعله عرضة للوقوع تحت قبضة الظالمين، بمقتضى هذه السنة الربانية، قال له فيما قال: ((ياسعد بن أم سعد، لايغرّنك أن يقال عنك خال رسول الله، فإن الله لايمحو السيء بالسيء، ولكنه يمحو السيء بالحسن.. آمرك ومن معك أن تكونوا أشدّ احتراساً منكم، من عدوّكم. فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم. وإنما ينصر

(١) رواه أبو داود من حديث عبد الله بن عمر، ورواه الإمام أحمد من حديث عبد الله ابن عمر أيضاً بألفاظ قريبة.

المسلمون بمعصية عدوهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا قوة بهم. لأن عددنا ليس كعددهم وعدّتنا ليست كعدّتهم، فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة، وإن لاننْصُر عليهم بفضلنا، لن نغلبهم بقوتنا.. ولاتقولوا إن عدونا شر منا، فلن يسلَّط علينا، فرب قوم سلط عليهم من هم شر منهم، كما سلط على بني إسرائيل بختنصر، فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً..)).

ولقد عاش مؤسس الدولة العثمانية الغازي عثمان بن أرطغرل في خضم تجارب هذه الحقيقة، ورأى بعينيه كيف تتحكم هذه السنة الربانية بمجرى التاريخ وصراع الأمم فيما بينها، حتى إذا حانت وفاته، أقبل إلى أكبر أبنائه يعتصر له من تجاربه مع هذه الحقيقة وصية رائعة نادرة، جاء فيها قوله:

((خذ مني هذه العبرة، لقد حضرت إلى هذه البلاد وأنا كنملة في الضعف، فأعطاني الله هذه النعم الجليلة!.. فالزم مسلكي واحذ حذوي، واعمل على تعزيز هذا الدين المحمدي وتوقير أهله فذلك هو واجب الملوك في الأرض))[١].

على أن علينا أن نعلم أن هذا الواقع الذي كان، ولايزال، نتيجة لسنة إلهية ماضية في عباده، لايسمى انتصاراً أو تفوقاً للكافرين على المسلمين، وإنما هو في الحقيقة تسليط أو ((تولية)) على حد تعبير البيان القرآني، وفرق كبير بين الانتصار والتسليط.

---

(١) انظر تتمة هذه الوصية في كتاب: أبي الفتح السلطاني محمد الثاني، تأليف علي همّت تعريب محمد إحسان عبد العزيز.

ولست أقول هذا الكلام تسلية أو أنشودة تسلية لإرضاء المسلمين بواقعهم، عن طريق التهوين من شأن أعدائهم، بل هو على العكس من ذلك: تحليل للواقع الحقيقي الذي يعيش فيه المسلمون، وعرض دقيق للمشكلة وحلولها التي لابديل عنها. وسواء أفهمنا أن سيطرة العالم الغربي عليهم سمو وانتصار، أو تسليط واستدراج، فإن مما لاشك فيه أنهم متسلطون على المسلمين بالقهر والإذلال، وأن المسلمين يتقلبون أذلاء تحت سلطانهم أو داخل نفوذهم أو ضمن حكم التبعية المطلقة لشتى مناهجهم وسلوكاتهم.. ومما لاشك فيه أن ذلك ليس قضاء نازلاً بهم بدون تسبب منهم ولا اختيار، بل هو من ثمرات كسبهم وما جنته أيديهم، فقد بدلوا نعم الله التي أسداها إليهم كفراً إذ أعرضوا عن شكرها ومعرفة حق المنعم عليهم بها، لاسيما نعمة الإسلام الذي ارتضاه الله لهم وجعل لهم منه عرشاً لم يرتق إلى شأوه من الناس الآخرين أحد.. فتبرموا به مبدأ ونظاماً وحكماً، ثم استخفوا به وأعرضوا عنه رفعةً وعرشاً!..

وسبيل الانفلات من هذا الذل والتسليط، واضح معلوم لمن أراد، حقاً، الانفلات منه، والتوجه إلى طريق العزة والنصر..

ألا، وإن أي انصراف إلى اصطناع سبل أخرى للتحرر من هذا النير، ليس إلاّ تعللاً بأمنيات خادعة، لاتكاد تشبع أخيلة الصغار من الأطفال.

ولعل عزاءنا أننا لم نبلغ، بحمد الله، من السوء مرحلة الاستدراج ببقاء النعم والإكثار منها، مقدمة بين يدي الإهلاك، بل يبدو أننا

لانزال نراوح في مرحلة الأمل واليقظة والاصطلاح مع الله والعود بصدق إلى رحابه، ودليل ذلك أن نعمنا الكبرى التي كنا نتمتع بها قد غابت وحجبت عنا، وأن أجراس الخطر تدق على مسامعنا.

فاللهم اجعل ذلك نعمة باطنة تعيدنا إليك، وتسوقنا إلى توبة صادقة بين يديك، ثم إلى عود راشد لينابيع هديك وجميل تعاليمك.

* * *

الحكمة الرابعة والستون

((من جهل المريد أن يسيء الأدب، فتؤخر العقوبة عنه، فيقول: لو كان هذا سوء أدب لقطع الإمداد، وأوجب الإبعاد، فقد يقطع المدد عنه من حيث لايشعر، ولو لم يكن إلا منع المزيد، وقد يقام مقام البعد وهو لايدري ولو لم يكن إلاّ أن يخليك وما تريد))

المريد، فيما اصطلح عليه علماء السلوك، ذاك الذي يتلمس سبيلاً إلى تزكية نفسه وتطهيرها من الشوائب والآفات، مسترشداً في ذلك بتوجيه عالم رباني صفت نفسه وصلحت حاله، وشهد له الصالحون بالاستقامة والتقوى.

غير أن كلمة ((المريد)) في هذه الحكمة ينبغي أن تُفهم بمعنى أكثر اتساعاً وشمولاً، إذ هي تشمل، فيما يقصد إليه ابن عطاء الله كل من أراد التقرب إلى الله بإصلاح حاله والاستقامة على صراطه.

فما المعنى الذي يقصد إليه ابن عطاء الله بهذا الكلام؟

إنه يقول: قد يبدر من السالك عمل مخلّ بالدين مناف لأحكام الشرع، أو مخالف لآدابه، فتمر أسابيع وشهور، دون أن يعرض له من

السوء أو المنغصات ما قد يكون عقاباً وتأديباً له على ما قد بدر منه. فيخيل إليه أن ما قد ظنه معصية أو زلّة بدرت منه، ليس كذلك، إذ لو كانت كما قد توهم، لظهرت نتائجها تأديباً عاجلاً من الله عز وجل، ولتبدّى ذلك في انقطاع بعض روافد النعم عنه، أو في حجاب من القسوة يجلل قلبه مما يدل على بعده عن الله.

والحقيقة التي يذهل عنها هذا المريد، هي أن هذا الوهم الذي يطوف به، ليس إلا أثراً من آثار القسوة التي ابتلي بها قلبه دون أن يشعر.

لولا سحب القسوة التي امتدت فغشّت على قلبه، لما وجد هذا الوهم إليه من سبيل، ولتسربت إليه مشاعر الاضطراب والوجل من المعصية أو الزلة التي وقع فيها، ولرأى نفسه كمن ضُبط بجرم، فهو ينتظر صدور العقاب الصارم في حقه. ومهما تأخر صدوره فلن ينفك عن القلق والاضطراب، حتى يتلقى بشارة بالعفو، ممن بيده العفو والعقاب.

إن شأن المريد الذي أخلّ الأدب مع الله، أن ينبعث في قلبه من الخوف والخجل من الله، بمقدار مافيه من الخشية والرقة والحضور، أي رقابة الله عز وجل. فإن لم يشعر بشيء من الخوف والخجل من الله تعالى بسبب السوء الذي بدر منه، فذلك لأن قلبه لم يعد فيه من الخشوع والرقة والحضور ما يبعث فيه شيئاً من الخوف والقلق، ومن ثم يسري إليه هذا الوهم، ويطمئن إلى أنه لم يرتكب من السوء ما يستدعي الخوف والاضطراب.

وهذا يعني أن الاستخفاف بالمعاصي مهما دقت أو صغرت، ليس إلا أثراً من آثار قسوة القلب، وحسبك من العقاب العاجل الذي قد يرسله الله إلى العاصي أن يبتليه بغفلة القلب بعد حضوره وبقسوته بعد سريان الخشية فيه.. وهو عقاب خفي يتيه عنه كثير من الناس، على الرغم من أهميته وخطورته، لأنه ليس عقاباً مادياً ينزل بالجسد أو الأمن أو المال..

إن الذي يجاهد في تزكية نفسه وتطهيرها من الشوائب والأوضار، ينبغي أن يتوقع ضربات التأديب من الله في حقه، كلما شعر بإساءة أو بتقصير في حقه عز وجل بدر منه. وعليه أن يعلم أن ضربات التأديب هذه ليست بالضرورة مادية دائماً، ولاسريعة طبق ما قد يتوقع، ربما تمثلت بافتقاده حلاوة الطاعة والعبادة، وإنها لمصيبة كبرى، وربما تمثلت في انقطاعه عن متابعة سلوكه إلى الله.. وربما تمثلت في تسليط محبة الدنيا على قلبه... وربما ادّخرها الله له عقاباً يناله يوم القيامة.

فالذاكر والمراقب لله عز وجل، يستحضر هذه الاحتمالات كلها في قلبه، وعندئذ يظل من معاقبة الله له في الدنيا أو في الآخرة، على وجل. ولعل هذا واحد من المعاني التي يتضمنها قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢/٨].

لعلك تقول: فهب أن الذاكر طائع مستقيم على أوامر الله، فيم يزجه ذكر الله، إذن، في الوجل؟

والجواب: أنه ليس في الناس بعد الرسل والأنبياء، معصوم عن ارتكاب السيئات، كل بني آدم خطّاء، كما قال رسول الله ﷺ.

والمخطئ، فضلاً عن الخطّاء، إذا ذكر الله عز وجل، بالمعنى الحقيقي للذكر، لابدّ أن يزجه ذكر الله في الوجل، إذ يذكره ذكر الله تعالى بالمعاصي التي ارتكبها والواجبات التي أهملها أو لم يؤدها على وجهها.

وتلك هي الحكمة من الله تعالى قضى بأن يكون الإنسان، مهما سمت مرتبته بين الصالحين من عباد الله، معرضاً لأنواع المعاصي والآثام.. الحكمة أن يظل المسلم على وجل، وأن يعلم أنه معرّض لعقاب الله عز وجل، إن على سبيل التأديب في الدنيا أو على سبيل الجزاء في الآخرة، وبذلك تتحقق عبودية الممارسة والسلوك لله عز وجل، في حياة الإنسان.

فأما الذي يستدل من استمرار النعم في إقبالها عليه، على أنه مطيع لله مستقيم على أوامره، مترفع عن سائر المعاصي والمنكرات، فذلك هو الذي إذا غاب عنه بعض النعم، وابتلي في مكانها ببعض النقم، اهتاجت لديه مشاعر الاستنكار واستبدّ به الضجر، ونال منه اليأس. لأنه وقد سبق أن شهد لنفسه بالاستقامة على أوامر الله والابتعاد عن معاصيه، لابدّ أن يستنكر هذا الذي أصابه، وأن يرى نفسه فوق هذه الابتلاءات التي أرسلها الله إليه.. وعن هذا الفريق من الناس يقول الله تعالى: ﴿وَإِذا أَنْعَمْنا عَلَى الإِنْسانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجانِبِهِ وَإِذا مَسَّهُ الشَّرُّ كانَ يَؤُوساً﴾ [الإسراء: ٨٣/١٧] أي هو في حالة الرخاء والنعمة مزهوّ بنفسه مطمئن إلى حسن حاله، فأنى له الوجل والخوف، وهو في حالة الشدة ونزول المصيبة معترض على الله في حكمه، ويائس من نيله لما

يستحقه من رفاهية ونعيم وخير. وهذا المعنى ذاته يتجلى في قول الله عز وجل: ﴿وَإِذا أَنْعَمْنا عَلَى الإِنْسانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجانِبِهِ وَإِذا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعاءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٤١/٥١].

وانظر كيف يؤكد الله هذه الحقيقة التي تتجلى في حال كثير من الناس، في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنا الإِنْسانَ مِنّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْناها مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ ، وَلَئِنْ أَذَقْناهُ نَعْماءَ بَعْدَ ضَرّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئاتُ عَنّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود: ١١/٩-١٠].

والمخرج من هذه الحال التي يصف الله بها هذه الطائفة من عباده، أن تسوقنا النعم إلى الشكر، وتسوقنا المصائب إلى اليقظة والصبر.

ومن ألزم نفسه بشكر الله على نعمه، فهيهات أن يتخذ منها دليلاً على أن معاصيه مغفورة وأن سلوكه سليم، ومن ألزم نفسه بالتوبة إلى الله عند المصائب ثم الصبر عليها، فهيهات أن تبعثه على أي لون من ألوان التمرد أو الاعتراض على الله أو الخروج عن دائرة الرضا بحكمه.

* * *

ومرة أخرى أقول لك: إن هذا الذي ينطبق على حال الأفراد، هو ذاته ينطبق دائماً على حال المجتمعات، فقد ينعم مجتمعٌ ما بالرخاء والأمن والنعم، وهو شارد عن أوامر الله متهاون في أحكامه وحدوده، فيغريه الرخاء بالمزيد من الشرود، مطمئناً إلى الوهم الذي حذر منه ابن عطاء الله وهو أنه لو لم يكن مجتمعاً مرضيّاً عند الله تعالى، لما اتسعت أمامه ساحة النعم ولما امتدّت فوقه مظلة الأمن والرخاء.. ومثل هذا

المجتمع إن ابتلي بالمصائب والشدائد لابدّ أن يحمله وقْعُها على التأفف والاعتراض على قضاء الله وحكمه، بدلاً من أن تسوقه إلى الرشد والصلاح.

ومآل مجتمع هذه حاله (إن كان في أصله مجتمعاً إسلامياً) أن يرميه الله بالذل بعد المنعة والعز، وإن يسلط عليه أمماً كانت من قبلُ تخافه وتهابه وكانت هي الذليلة تحت حكمه وسلطانه.

وإنه لَداءُ لا دواء له، أن يؤول حال مجتمع، ما يزال ينتمي إلى الإسلام، إلى فساد لايصلحه الإكرام والنعم، ولاتقطع دابره المصائب والنقم، النعم تبطره، والمصائب تبعثه على الاعتراض والاحتجاج!..

وهذا الوصف ينطبق على أكثر مجتمعاتنا الإسلامية اليوم، ولعله ينطبق على كلها!.. وهو السبب فيما قد حاق بها من الذل والهوان، والتفرق والتدابر:

نذكّرها بضرورة الصدق مع الله في دعوى الإسلام والانتماء إليه، وذلك بالعمل على تنشئة الجيل في ظلال القيم والأخلاق الإسلامية، فنتهم بالجمود والتقوقع في حجيرات القرون الماضية.. ثم يزداد الإصرار على الاستهانة بأصول التربية الإسلامية ومقومات الفضيلة والأخلاق الإنسانية النبيلة!..

نذكرها بضرورة التوجّه، ولو تدريجاً، إلى تطبيق أحكام الله عز وجل فيما قد ألزم به عباده، كي يتبين صدق انتمائنا إلى الإسلام، فنتهم بالتطرف والوقوف في وجه الحداثة، واستثارة أسباب الفتن والشقاق!..

وتشيع الفواحش الفكرية والسلوكية، خارجة عن حدود حرية الفكر والسلوك، إلى البذاءات الكلامية والاستهتارات السلوكية بالأنظمة والقيم، فنذكر بضرورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونحاول أن ننهض بهذا الذي أمر الله به وحذّر من إهماله، فتلجُم أفواه المذكرين بهذا الواجب الرباني، بحجة أن الحرية الفكرية والسلوكية ما ينبغي أن يمسَّ حماها بأي سوء، ولو من قِبَل شرع الله وحكمه.

فإن جاء من يقول: ولكن الفحش الكلامي لا علاقة له بحرية الفكر، لأن الفكر الذي يجب التعامل معه بحرية، هو ما ينزل من العقل إلى اللسان، لا الذي يتعالى من الأسافل إلى اللسان، وُجهت إليه تهمة الانتماء إلى ((الظلاميين)) وأصرّت السفالة إصرارها على أن الانتصار لشرع الله وأمره والغيرة على قرآنه ووحيه، جمود في أقبية الظلام، وعلى أن تناول القرآن بأحط كلمات الفحش والسباب، تألق فكري حضاري، وتسام إلى صعيد العقلانية المضيئة[1].

فهل يبقى من عجب بعد ذلك، إن سلط الله على هذه المجتمعات، من يسومها الذل والهوان؟..

قيل لي إن موجة من الهياج والغضب تسري في العالم العربي، لأن اليهود كتبوا على بعض الجدران المحيطة بالمسجد الأقصى كلمة فحش قذرة في حق رسول الله ﷺ، بخط كبير يلفت الأنظار.

---

(١) نعت حيدر حيدر في رواية له القرآن بأنه ((براز)) وعبّر بالكلمة السوقية التي يأنف من استعمالها الرعاع، فانتصر له وزير الثقافة في دولة عربية كبيرة أيما انتصار وكافأه على جرأته (الأدبية) هذه بأن طبع منه آلاف النسخ وأمر بتوزيعها على أوسع نطاق.

قلت لهم: يا عجباً لمن لايسمع الصوت المدوي الذي يصك أذنيه، ثم يستيقظ على الصدى!.. أن ذلك الفحش الذي خطته يد ذلك اليهودي هناك، صدى للفحش الذي تنبثق قذارته من أفواه المستخفّين بالإسلام والمتبرمين به هنا.. ومن كان صادقاً في غضبه من رجع الصدى، فليرنا غضبه من مصدره المجلجل بين ظهرانينا!..

وقلت: لإن صدقوا في دعوى أن البذاءات الكلامية مشمولة بحرية الفكر، فما ينبغي أن يمسّ جانبها بسوء، فإن البذاءة التي خطتها يد ذلك اليهودي مشمولة بالحرية ذاتها، ولئن اهتاج الشارع العربي المسلم غضباً لذلك، فلاشك أن ذلك اليهودي وأمثاله سيجدون في (النورانيين) ودعاة الحداثة أفضل محامٍ يبرر عمله ويدافع عنه أمام غضبة جماهير المسلمين.

* * *

قلت إن ما يسري من معاني هذه الحكمة على الأفراد، يسري على المجتمعات والأنظمة أيضاً.. وأقول إذن، إن ظلت مجتمعاتنا العربية عاكفة على سوء الأدب في حق الإسلام ومبادئه وأحكامه، مكتفية منه بدعوى الانتماء إليه، فلسوف ينتهي أمد تأخير العقوبة، ولسوف ينتهي مرحلة قرع أجراس الخطر، ليقبل من وراء ذلك الخطر ذاته، مقتحماً هذه المجتمعات بكل ضراوة وعنف.. ولست في هذا متنبئاً، ولكني أُعْلِمُ وأُخْطِر، وأسأل الله بنا اللطف في كل التقلبات والأحوال.

* * *

الحكمة الخامسة والستون

«إذا رأيت عبداً أقامه الله تعالى بوجود الأوراد، وأدامه عليها مع طول الإمداد، فلاتستحقرن ما منحه مولاك، لأنك لم تر عليه سيما العارفين ولابهجة المحبين. فلولا وِردٌ ما كان وارد»

الورد هو الحصة المحددة التي يواظب عليها المسلم من الطاعات والعبادات غير المفروضة، ويلزم نفسه بها، كقدر معين من القرآن يقرؤه كل يوم، وكعدد من التسبيح أو الاستغفار أو الصلاة على رسول الله أو غير ذلك من الأذكار، يلزم به نفسه في ميقات معين من كل يوم..

فالفرائض لاتدخل في المعنى المراد بكلمة «الأوراد» كذلك المندوبات التي لايواظب المسلم عليها.

والمعنى الذي ينبه إليه ابن عطاء الله رحمه الله، من خلال كلامه هذا، أثر الورد إذ يواظب عليه المسلم في طيّ الطريق الذي يوصله إلى الله وتذويب بعده، وتوارد المنح الإلهية إليه.

ولعلك تسأل: ما المستند الذي يُعْتَمد عليه من كتاب الله أو سنة رسوله، لهذا الورد الذي يلزم به المسلم نفسه؟ وما هو مصدر هذه الكلمة: ((الورد)) في الشرع؟

والجواب: أن في الخطاب الإلهي الموجه إلى رسول الله في القرآن دليلاً على ذلك، وفي عمل رسول الله وقوله تأكيد لما دلّ عليه القرآن من ذلك، ألم يقل الله لرسوله: ﴿يا أَيُّها الْمُزَّمِّلُ ، قُمِ اللَّيْلَ إلاّ قَلِيلاً ، نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ، أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ [المزمل: ٧٣/١-٤] وقد علمنا أن الأمر الموجه إلى رسول الله موجه إلى سائر المسلمين أيضاً، إلاّ أنه موجه إلى رسول الله في هذه العبادة على سبيل الوجوب، وإلى المسلمين على سبيل الندب.

ألم يقل الله لرسوله: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى ما يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ، وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبارَ السُّجُودِ﴾ [ق: ٥٠/٣٩-٤٠] وهو أمر صريح، كما ترى بالمواظبة على أذكار مخصوصة في أوقات مخصوصة، وهو موّجه إلى أمّة المصطفى كما هو موجه إليه، على سبيل الندب والاستحباب المؤكد.

ألم يقل الله تعالى في وصف النخبة الصالحة من عباده: ﴿كانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ ما يَهْجَعُونَ ، وَبِالأَسْحارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ فأثنى عليهم بما كانوا يواظبون عليه من وِرْد التهجد والاستغفار بالأسحار.

ألم يقل رسول الله ﷺ فيما رواه مسلم: ((أيعجز أحدكم أن يكسب في اليوم ألف حسنة؟)) قال قائل: ((كيف يكسب في اليوم ألف حسنة؟)) فقال: ((يسبح الله في اليوم مئة تسبيحة)).

ومن ثم فقد كان جل الصحابة مواظبين على أوراد من تلاوة القرآن، والأذكار المتنوعة، في أوقات محددة، وقد كان من عادة عمر رضي الله عنه إن شُغِل عن ورده الذي ألزم به نفسه، لأمر مّا من شؤون الخلافة ونحوها، قضاه في وقت ما، من بعد.

أما التسمية ومصدرها، فالخطب في ذلك يسير، إذ الأمر عائد إلى التعبير الذي يُصطلح عليه، ولامشاحّة في الاصطلاح، ومن لم يعجبه مصطلح «الورد» فليتجاوزه وليستعض عنه بالتعبير الذي يروق له. والبدعة لاشأن لها بالمصطلحات والتعابير التي لم يتعبدنا الله بها في نص قرآن أو سنة.. بوسع من يستخفّ بكلمة الورد والأوراد، أن يستعيض عنها ما قد يروق له من التعابير الأخرى، ككلمة: حصة، أو حزب، أو وظيفة، أو عمل اليوم والليلة.. إلخ.

فإن رأى أنه يستخف بها كلها، فليعلم أنه يستخف بالمضمون الذي أمر به الله عز وجل وأكده رسول الله فيما قد أخبرتك به، لابمجرد الألفاظ والتعابير. وأنا أعلم أن في الناس الذين يصنّفون أنفسهم دعاة إلى الله ومعرفين بدينه، من لايقيم لهذه الأوراد وزناً، ولايأخذون أنفسهم بشيء منها، بل يرون فيها ما يشغلهم عن الأنشطة الحركية الأخرى. والله المستعان أن يرينا الحق حقاً ويرزقنا اتباعه، والباطل باطلاً ويرزقنا اجتنابه.

* * *

وإذ قد عرفت معنى الورد وأدركت أهميته، فلاتستخفن بحال من قد وفقه الله للمواظبة عليه أياً كان نوعه ومهما كان قَدْره، محتجاً

بأنك لاتبصر في مظهره شيئاً من سيما الصلاح، ولاتعثر في شؤونه وأوضاعه على أي من الأحوال التي يعرف بها الربانيون.

فإن هذه المظاهر لاتشكل المقياس الذي لابدّ منه، لقرب العبد من الله وارتفاعه إلى مستوى العارفين والصدّيقين. فرب إنسان اصطفاه الله وميزه بالقرب منه، دون أن يبدو عليه شيء من السيما التي يتوخاها الناس، ودون أن تعثر في نهجه وتقلباته على أي من تلك الأحوال.

واعلم أن الدلالة الحقيقية على صلاح الإنسان وقربه من الله، إنما تكمن في مواظبته على الأوراد دون انقطاع.. وربما كانت مواظبته عليها مقيدة بأوقات خاصة، يخلو فيها إلى نفسه بعيداً عن الناس.

ومكان الدلالة في ذلك، أنه لولا واردٌ ورد إليه من النفحات الربانية، ومن فضل الله الذي يؤتيه من يشاء، لما اتجه إلى ما اتجه إليه من الأذكار أو أنواع الطاعات المندوبة الأخرى، يجعل منها وظيفة دائمة يحمل نفسه على أدائها دون انقطاع ولا فتور.

كثيرون هم الذين ينشطون في التوجه إلى بعض هذه الطاعات لمناسبات أو لأسباب، ثم ما هو إلا أن يتراجع نشاطهم وتفتر رغباتهم، مع غياب تلك المناسبات، فتكون دوافعهم إليها نفسية تابعة لظروف وأحوال عابرة. ومن ثم لاتكون توجهاتهم العارضة والعابرة هذه دليلاً على شيء من الواردات الإلهية التي نتحدث عنها.

أما الذي يواظب ويلازم عليها، ويتخذ منها ورداً أو قل: وظيفة يجعل منها رفيق حياته، فلايعقل أن يكون دافعه إلى ذلك ظرفاً عابراً،

أو نشاطاً عارضاً، وإنما يكون دافعه إلى هذا الاستمرار والثبات، الوارد الإلهي الذي يورثه الظمأ إلى ذلك الورد، ومن ثم يورثه الإقبالُ إليه اللذةَ التي يراها الظمآن في تناول الماء البارد العذب.

فما قيمة المظاهر التي غابت عنك في شكلها وسيماها، مما يعدّه الناس علامة صلاح أو ولاية، أمام هذا الوارد الذي سرى إلى قلبه من تجليات الله عز وجل؟

وأكثر الناس - لاسيما في هذا العصر - مأخوذون، فيما يتلمسونه من دلائل الصلاح والتقوى في أوضاع الناس، بالمظاهر والأشكال، والطقوس والتصرفات.. وليس عسيراً على من شاء أن يتجمل بها رياء ومصانعة. فيكون بذلك متشبعاً أمام الناس بما ليس فيه. وقد قال رسول الله ﷺ: ((المتشبع بما لم يُعْط كلابس ثوبي زور))[١].

ولكن المواظبة الدائمة على ورد من الأذكار والطاعات الأخرى، لاسيما في الخلوات والأوقات الخاصة، لايتأتى السبيل إليه عن طريق المصانعة، والتشبع في الظاهر بما ليس موجوداً في الباطن.

* * *

ثم اعلم أن مراد ابن عطاء الله رحمه الله تعالى، ليس فتح السبيل إلى إساءة الظن بمن تسربلوا بسيما العارفين وبهجة المحبين - على حدّ تعبيره - أمام أبصار الناس، وإنما مراده إغلاق السبيل أمام إساءة الظن بمن لاتراه متسربلاً بتلك السيما ولايتبين لك فيه شيء من نفحات

(١) رواه الشيخان وأحمد وأبو داود من حديث أسماء بنت أبي بكر.

المقربين وبهجة المحبين، لاسيما إن علمت أنه مواظب على أوراد من القربات لاينساها ولايفتر عنها.

ودعوته لك إلى حسن ظنك به، لاتعني دعوته لك إلى إساءة الظن بالآخرين.

إنّ حسن الظن بعباد الله جميعاً هو الأساس والمنطلق، فإن تيسر السبيل إلى ذلك، بأن لم تجد ما يصدّك عن حسن الظن بهم، وجب الوقوف عند هذا الأساس والتعامل معهم على هذا النهج، وإن لم يتيسر السبيل إلى ذلك بأن وجدت من كان جلّي حالهم أو صريح قالهم من ينطق بتنكبهم عن جادة الحق، فافرض أنه الجهل زجهم إلى الشرود والانحراف، واتجه إليهم بالنهي عن المنكر والدعوة إلى الاستقامة على الحق. فإن هم استجابوا، أو كان فيهم من استجاب، كان ذلك برهاناً يعزز ما قد فرضته في حقهم. وإن لم تتحقق الاستجابة بعد البيان والمعرفة، كان ذلك دليلاً على سوء الطوية والقصد.

هكذا تكون سبيل الدعوة إلى الله.. وهكذا يكون منهج التعامل معهم واتخاذ الموقف منهم. وقديماً قال بعض الصالحين «كلَ من رأيت فالخضر اعتقد» أي عليك أن تجنح إلى حسن الظن بهم ما لم تجد منهم ما يحملك شرعاً على سوء الظن بهم، ولن يكون ذلك إلا بعد اتباع الخطوات التي ذكرتها لك في دعوتهم والتعامل معهم.

وأكثر الناس اليوم مستعبدون لظنونهم تابعون لأوهامهم، ومن ثم فهم بعيدون عن تفهم هذا الذي يقوله ابن عطاء الله.

وإذا انساق الإنسان وراء أوهامه فظنونه، فإن الذي ينسج له أوهامه رغباتُه وجموحاته النفسية المتمثلة في العصبية للذات أو الجماعة، وفي الضغائن والأحقاد، وفي مشاعر الحسد والبغضاء. وإنما يتكون سوء الظن بالآخرين من هذا النسيج الوهمي الذي يشكل تياراً حاكماً على صاحبه يسيّره في المنعرجات القاتمة ويحبسه عند الظنون السيئة.

وليت الأمر يتوقف عند أوهام نفسية وظنون خفية، بل الغالب أن سوء الظن يحمل صاحبه على أن يجنّد لسانه لأوهامه التي ساقته إلى سوء الظن، فيخوض في الغيبة مخاضة تزجّه في لون من أشنع ألوان الكبائر.

وقليلون هم الذين حماهم الله من هذه المهلكة.. فلم تستعبدهم الأهواء التي من شأنها أن تزجهم في تيه قاتم من إساءة الظن، التي تزجهم بدورها في بلاء من الغيبة المحرمة..

فإن تبيّن لك الحق من خلال هذا الذي أوضحته لك، وساقك الخوف من الله إلى تلمس السبيل للتحرر من الأوهام التي تقود إلى سوء الظن، ثم إلى الخوض في غمار الغيبة، فإن بوسعك أن تتبين السبيل إلى التحرر من سلسلة هذه الأخطار، في هذا الذي يقوله لك ابن عطاء الله.

يقول: إذا رأيت عبداً أقامه الله بوجود الأوراد.. إلخ.

وأقول: إن احتمال اطلاعك على انضباطه بالأوراد ومواظبته عليها، نادر جداً. والغالب أنك لن تطلع على خفايا أمره وشؤونه الخاصة به.. وفي هذه الحالة، ما الذي يدريك أنه غير مهتم بالأوراد وغير

مواظب عليها؟ إن القاعدة المنطقية تقول: عدم الوجدان للشيء لايستلزم عدم وجوده في الواقع.

فإذا كنت لاتعلم شيئاً عن خفايا أكثر الناس، فافرض أن في هذا الذي خفي عنك من شؤونهم وأحوالهم، ما يجعلهم من أفضل الناس عند الله التزاماً وسلوكاً، واعلم أن أكثر ما يحدّد قيمة الإنسان عند ربه أوضاعه الخفية التي لايطلع عليها إلا الله عز وجل. إذ هي تكون صافية عن شوائب التصنع للآخرين والكذب عليهم.

فلماذا تجعل ميزان تقويمهم محصوراً في أحوالهم الظاهرة لك، دون أن تقيم وزناً لهذا الجانب الخفي الذي هو الأهم والأساس؟

على أن هذا الجانب الخفي الذي هو الأساس والأهم في الاعتبار، لايعفيك من وجوب إنكار المنكر كلما لاح لك، ما استطعت إلى ذلك سبيلاً مشروعة إلى ذلك، ولكن المنكر الذي تراه والذي يستوجب منك الإنكار، لايستدعي الوقوع في إساءة الظن في حق من تلبس به.

إن الصدق مع الله في أداء هذا الواجب، يستدعي أن تنصح صاحب المنكر وتحذره من مغبّة العكوف عليه، وأن تفرض في الوقت ذاته أن سريرته التي لايعلمها إلا الله ربما كانت خيراً من علانيته التي تطلع عليها أنت وأمثالك..

هكذا يكون شأن الربانيين من عباد الله تعالى، في نظرتهم إلى الآخرين وتعاملهم معهم.. ولاريب أن من حاد عن هذا النهج، مستجيب لأهوائه متفاعل مع عصبياته ورعوناته وأحقاده، غير أنه

يكسو ذلك كله كسوة الوظائف الدينية والمصالح الإسلامية، ليخفي بذلك ما استكن في أغوار نفسه من الحظوظ الذاتية والأغراض الشخصية.

فاللهم طهر قلوبنا من كل وصف يباعدنا عن شهودك ومحبتك وأدم علينا عين عنايتك، وأكرمنا بمواظبة دائمة على ورد من الطاعات يضمن لنا وارداً يفد إلينا من فيض رحماتك وإكرامك.

* * *

الحكمة السادسة والستون

((قوم أقامهم الله لخدمته، وقوم اختصّهم بمحبته، كلاًّ نمدّ هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك، وما كان عطاء ربك محظوراً))

المسلمون الصالحون من عباد الله، فريقان. فريق وظفهم الله بخدمته، أي بخدمة دينه. إذ إن الله لايحتاج إلى من يخدمه، تعالى الله وتنزه عن ذلك، فهو كقوله تعالى: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٤٧/٧]، من الواضح أن المراد بنصرة الله نصرة دينه.. فشأن هذا الفريق معرفة دين الله ودراسة شريعته والتبصر بأوامره ونواهيه، ثم النهوض بتطبيقها وتعريف الناس بها، ودعوتهم إلى الالتزام بها، مع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر جهد الاستطاعة وفي حدود الضوابط الشرعية.. وأكثر عباد الله الصالحين من هذا الفريق.

أما الفريق الثاني، فقوم اختصهم الله بمحبته.. أي شغلتهم حرارة أفئدتهم المتقدة بمحبة الله عز وجل عن الالتفات إلى الناس، وعاقتهم عن التفرغ لمحاورتهم وتعليمهم ودعوتهم إلى الله، فهم غائبون بسكر هذا الحب عما يلوح لأبصارهم من أحوال المجتمع الذي يعيشون فيه،

فأنى لهم أن يتبيّنوا المنكر حتى ينكروه، أو أن ينتبهوا إلى غياب المعروف حتى يذكّروا ويأمروا به؟!..

وهذا الفريق الثاني ينقسم إلى طائفتين:

أما الأولى منهما فمنضبطون بأحكام الشرع متقيدون بأوامره وآدابه، ولكنهم منصرفون عن المجتمع والناس إلى ما هم فيه من الأحوال القلبية التي حدثتك عنها، فلايشغلون أنفسهم بشيء من مشكلات الناس وقضاياهم، لأنهم لايجدون سبيلاً إلى ذلك.

وأما الطائفة الثانية، فيغلب عليهم الجذب كلياً أو جزئياً، أي دائماً، أو في حال دون أخرى، والمقصود بالجذب حالة من عدم الصحو الفكري تعتريهم، فيتيهون بسببها عن ضوابط الشرع وأحكامه.

ومردّ هذا الوضع الذي يتميز به الفريق الثاني، بكلا قسميه، إلى تجلٍّ من الله عز وجل على أفئدتهم، يجعلها تتوهج بالحب لذاته العلية.

ومشاعر الحب لله عز وجل، جامع مشترك ينبغي أن يلتقي عليه جميع المؤمنين بالله، بعد أن ينالوا قسطاً من معرفته والتشبع بصفاته، دليل ذلك قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ﴾ [البقرة: ٢/١٦٥] وقول رسول الله ﷺ في الحديث المتفق عليه: «لايؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما» وفي الحديث الذي رواه أحمد، أن رسول الله سئل عن الإيمان فقال: «أن يكون الله ورسوله أحب إليك مما سواهما».

ولكن هذا الجامع المشترك لايعوق صاحبه عن النهوض بالخدمات الدينية التي عناها ابن عطاء الله، في حكمته هذه، بل هو حريٌّ بأن ينشّط للقيام بها ويعين على النهوض بها على أحسن وجه.

إلاّ أن في الصالحين من عباد الله، من قد اختصهم الله بأمرٍ لم يمتع به الآخرين، إذ تجلّى على أفئدتهم بشيء من معاني تفضله وإكرامه، بل من رحيق حبه، فالتهبت بوقود المحبة له، ونالهم من ذلك ما لم ينل الآخرين.

وإذا تجلّى الله على فؤاد عبده تجلّي حب ورحمة، تعرض صاحب ذلك الفؤاد لأحوال متفاوتة من الجذب والشوق والحنين إلى الله والحب الشديد له، فإذا فاض القلب بهذه المشاعر، وضاق لضعفه عن الاتساع لها، أورثته حالة من السكر والغيبوبة عن الآخرين، وربما الغيبوبة عن الذات أيضاً.

وقد نبه ربنا جل جلاله إلى هذه الحالة التي قد تعتري الإنسان، عندما يتعرض قلبه لشيء من هذه النفحات أو التجليات الربانية، من خلال حديثه عن سيدنا موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام، عندما سأله موسى - وقد أخذ يسمع كلام ربه له - أن يريه ذاته العلية، فأنبأه أنه (أي سيدنا موسى) لايقوى على رؤيته، وأكد له ذلك عندما قال له: ﴿ وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرانِي﴾ ثم أخبر قائلاً: ﴿ فَلَمّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً..﴾ [الأعراف: ١٤٣/٧] فلقد عجز فؤاده الضعيف عن استيعاب ما انعكس إليه عن الجبل من آثار تجلّي الله عليه، فخر مغشياً عليه.

فإذا أرسل الله إلى فؤاد عبده نفحة ما من نفحات حبه له. فما ظنك بالحال التي سينتهي إليها هذا العبد؟ تتفاوت الأحوال عندئذ، وأقلها تأثيراً على صاحبها أن يعيش من بعدها في عالم من وحدة الشهود، التي سبق أن شرحتها لك، ثم هي قد تتجاوز ذلك إلى حالة

من الجذب والغياب عن الآخرين، وقد يتيه صاحب هذه الحال عندئذ عن بعض آداب الشرع أو عن أداء الواجبات الشرعية على وجهها.. ولاريب أنه يغدو في هذه الحال غير مكلف بما لايتأتى منه، وإذا أخذ الله من عبده ماوهب فقد اسقط عنه ما أوجب.

* * *

لعلك تقول: فما بال الحب أقعدهم عن الوظائف الدينية التي هي السبيل الأوحد لتقرب العبد إلى الله؟

والجواب: أن الحب أقعدهم عن الوظائف الدينية العامة التي خاطب الله بها الفريق الأول من عامة عباده المؤمنين، ولم يقعدهم عن القيام بوظائف معينة خاصة بهم. فهؤلاء الذين اختصهم الله بمحبته، على نحو ما بينت لك، لهم في المجتمعات التي أقامهم الله فيها مهامّ ووظائف خفية، لاتبصر مظاهرها، ولكن ما أيسر أن تتجلى أمامك آثارها.

وقد مرّت بك في الجزء الأول من هذا الكتاب، أحاديث الأبدال، الذين قال عنهم رسول الله ﷺ: ((.. بهم تقوم الأرض، وبهم تمطرون، وبهم ترزقون)) وقال عنهم في حديث آخر: ((..يسقى بهم الغيث، وينتصر بهم على الأعداء، ويصرف عن أهل الشام بهم العذاب))(١).

وقد صح عن رسول الله ﷺ قوله: ((رب أشعث أغبر، ذي طمرين، تنبو عنه أعين الناس، لو أقسم على الله لأبرّه))(٢).

---

(١) انظر الصفحة ٢٦١ من الجزء الأول من هذا الكتاب.

(٢) رواه بهذا اللفظ الحاكم في المستدرك، وأبو نعيم في الحلية من حديث أبي هريرة، ورواه بلفظ قريب منه مسلم في صحيحه وأحمد في مسنده من حديث أبي هريرة، وانظر الجزء الأول من هذا الكتاب.

ولعلك تقول أيضاً، فما بال أمثالنا ممن يدخلون في الفريق الأول، لايتعرضون لهذه النفحات أو التجليات الخاصة، ولاينهلون من معين هذا الحب المتميز الذي جاد به الله تعالى على هذه الفئة الثانية؟

وقد جاء الجواب عن هذا السؤال موجزاً في قول ابن عطاء الله هذا: ((قوم أقامهم الحق لخدمته، وقوم اختصهم بمحبته)).

أما التفصيل فأذكر لك منه ما يفتح الله به عليّ:

إن المسألة مردّها إلى تنوع الوظائف المقربة إلى الله من جانب، والتي يحتاج إليها المجتمع الإنساني من جانب آخر. فلو خلا المجتمع ممن اختصهم الله بمحبته، وانهضهم من خلال ذلك بوظائف خفية لايعلمها إلا الله عز وجل، إذن لأجدب المجتمع كما تجدب الأرض، ولقصرت جهود العاملين في حقل الخدمات الإسلامية، عن بلوغ النتائج والأهداف.. ولو فاض المجتمع كله بهؤلاء الذين تتقلب أفئدتهم في لظى محبتهم لله وأصبح المسلمون الصالحون كلهم من هذا القبيل، إذن لخلا المجتمع ممن يدعو إلى الله ويحاور الناس على طريق تبصيرهم بدين الله، ولغابتْ منه شعائر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولجمدت أنشطة الناس سعياً إلى مصالحها المختلفة.

فكان من مظاهر لطف الله وحكمته، أن أقام فئة من الناس (وهي الكثرة الغالبة) على خدمة دينه، فمتعها من مشاعر الصحو وحالة الاندماج في ظروف المجتمع وأوضاعه ومشكلاته، بما يؤهلها للقيام بتلك الوظيفة. فكان نصيبها من محبة الله عز وجل بالقدر الذي يتوازن مع حاجتها إلى هذا الصحو وإلى هذا الاندماج في أحوال المجتمع..

وأقام فئة أخرى منهم (وهي القلة دائماً) على وظيفة أخرى تربطهم به وتوجههم من دون الناس كلهم إلى ذاته العلية، ولكنه أفاض من حالهم تلك على المجتمع خيراً كبيراً وآثاراً من الرحمة والعناية الربانية عظيمة، كما دلت على ذلك الأحاديث التي ذكرتها لك.

فلو تداخلت الفئتان: الأولى منهما بالثانية، أو الثانية في الأولى، إذن لغاب بعض مصالح المجتمع في تلافيف المصالح الأخرى، وانظر، تجد مصداق ما أقول في القصة التالية:

زار والدي رحمه الله واحد ممن أحسب أنهم من هذه الفئة الثانية، الذين اختصهم الله بمحبته، ونال منهم الجذب، استقبله بحفاوة، ثم جلس إليه جلسة المريد أمام شيخه المرشد، صامتاً يصغي، وأفاض الرجل بألوان من الأحاديث المتنوعة إن دلّت على شيء، فإنما تدلّ على حاله الخاصة به، وعلى غيابه عن الناس وأحوالهم وشؤونهم، وانصرافه عنهم إلى شهوده الذي أحبه الله له وميزه به.

ولما قام ليمضي، تبعته مودعاً وقلت له: ادع الله لي أن يكرمني بما قد أكرمك به. فنظر إليّ قائلاً: ما الذي أحوجك إلى ما تقول؟.. إذن ستنقطع صلتك بالناس، ولن يفهموا منك شيئاً.

فهذا الجواب الذي واجهني به هذا الشخص المجذوب، هو الجواب الدقيق عن سؤالك وربما كان المجذوب أعلم بهذه الدقائق.

على أن هذا التصنيف الذي يذكره ابن عطاء الله، لايحمل في داخله أي دلالة على أن الفئة الثانية أعلى شأناً عند الله من الفئة الأولى. إنما

يحمل الدلالة على التنوع الذي اقتضته حكمة الله عز وجل، والذي تقتضيه مصلحة هذه الحياة الدنيا.

لقد كان الرسل والأنبياء جميعاً، من الفئة الأولى، كما تعلم. ومن الثابت أنهم نُقَايَةُ الناس وأفضلهم عند الله عز وجل.

ولكن حتى في عصر محمد ﷺ، كانت الحاجة داعية إلى وجود أمثال أويس القرني رضي الله عنه.

* * *

ولكن ما الذي ينبغي أن نجنيه من ثمرات هذه الحكمة؟

أهم ما ينبغي أن نجنيه منها، ما قد فهمناه، من الحكمة التي قبلها، من ضرورة الأدب مع المسلمين جميعاً مع حسن الظن بهم..

إنك لتلاحظ أن أكثر هؤلاء الذين اختصهم الله بمحبته، لاتبدو عليهم دلائل ذلك، بل ربما ظهر في أوضاعهم وسيماهم وسلوكهم ما قد يدل على خلاف ذلك، كما أنبأ رسول الله في الحديث الذي سبق ذكره.

فما الحكمة؟ أحبابك يا مولاي، لماذا أخفيتهم عنا بما قد يشير إلى النقيض من حالهم؟

ويأتي الجواب قائلاً: لو أن الله كشف لنا عن أشخاص أحبابه وعرفك عليهم، وأزال اللبس مما بينهم وبين أمثالهم، لأبرزت لك عملية الجمع والطرح هوية الضالين والمنبوذين عن رحمة الله عز وجل،

وكشفت لك عن سوء حالهم. ذلك لأنك قد عرفت القائمين بخدمة دين الله ، بما تدل عليه من ذلك وظائفهم وأعمالهم، وعرفت حال الذين اختصهم الله بمحبته بما قد كشف لك عن مزاياهم وصفاتهم.. فمن هم البقية التي لم تجد لها نسبة إلى الفئة الأولى ولا إلى الثانية؟ هم الضالون والمنبوذون كما قد قلت لك.

وهذا يتنافى مع صفة الستر التي هي من أخص صفات الله عز وجل.. ألم تعلم أنه ستّير يحب الستر، ليس من دأبه أن يكشف لك عن حال عباده التائهين في دار الدنيا، وربما يوم القيامة أيضاً بالنسبة لكثير منهم.

فكان من حكمته ولطفه أن مزج هؤلاء بأولئك، ووضعك من هذا المزج أمام احتمالات لاتستطيع أن تستبين حقيقتها، وقال لك ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢/٤٩]. ولابدّ أن يقودك ذلك المزج الباعث على الجهل وفرض الاحتمالات، مع هذا الأمر الرباني بحسن الظن، إلى أن تحتاط في تصنيف الناس والحكم عليهم أو لهم، فتحسن الظن بهم جميعاً، ما وسعك السبيل إلى ذلك، حتى وإن بدر منهم بعض الانحرافات أو الآثام.

ولايستثنى من عموم هذا الحكم التربوي إلا الذين أبوا ستر الله الذي امتدّ رواقه عليهم، فمزقوا الستر، ورفعوا الرأس افتخاراً بانحرافاتهم وضلالاتهم وأخذوا يجلجلون بسوء سلوكهم وشنيع أعمالهم، أمام كل غاد ورائح.

فهؤلاء هم الذين أبوا ستر الله تعالى، فتركهم الله لما حكموا على أنفسهم به.

وأقول لمن يحلو له أن يتتبع عورات الناس، أو فئاتٍ منهم: إن بوسعك أن تفعل ذلك في حق من شئت إن أنت دفعت الثمن لذلك.

وثمن ذلك أن تسمو بنفسك إلى مستوى العصمة من سائر الآثام والذنوب. حتى يتحقق الفرق الذي يجب أن يتجلى بينك وبين من تتبع نقائصه وعوراته، فتكون منه المرشدَ الكامل المعصوم، ويكون منك التلميذَ الذي يجب أن يُلقَّن أخطاءه. وأنت تعلم أن الله عز وجل (وهو اللطيف الحكيم) سلب العصمة عن عباده وجعلهم معرضين للوقوع في سائر أنواع المحرمات، حاشا الرسل والأنبياء. فليس لك من سبيل إلى أن تزعم لنفسك العصمة منها.. بل إنك إن عدت إلى نفسك تفحص أحوالها التي سترها الله لك وأبقاها سراً بينك وبينه، ووقفت موقف العبودية لله دون استكبار ولاتشبّع بما ليس فيك، فلسوف تعود متيقناً أن كل الذين تتبع عوراتهم وتتمتع بغيبتهم والحديث عن نقائصهم، خير وأحسن حالاً منك.. ولاريب أن أولئك الذين يلذّ لك الخوض في انتقاصهم، يجب، إن عادوا إلى أنفسهم وتتبعوا أخطاءها التي أبقاها الله سراً مكنوناً بينهم وبينه، أن يتأكدوا هم أيضاً بأن كل الناس المسلمين، بما فيهم أنت، خير وأحسن حالاً منه.

تلك هي التربية الربانية المثلى التي يأخذ الله بها عباده.

فما ظنك بمجتمعُ ربيّ أفراده على هذا النهج تمثُّلاً من حيث الإدراك والتزاماً من حيث السلوك؟

* * *

إذن، فهما فريقان، لكل منهما مزيته ومكانته عند الله، فريق أقامه الله لخدمته، وفريق ثانٍ اختصه الله بمحبته.

فإن تميز الثاني بالحب الذي اختصه الله به، فقد تميز الأول بالخدمة التي أقامه الله بها.. ولعلّ المزيتين تتساويان في ميزان الله عز وجل.. وتأكيداً لهذا المعنى استدل ابن عطاء الله بقوله عز وجل: ﴿كُلاًّ نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ وَما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾ [الإسراء: ١٧/٢٠].

وأنا أسأل الله لي ولك أن يكرمنا بكل من المزيتين، فيقيمنا في خدمته ويكرمنا بذخر محبته. أما الفئة الثالثة، وهي الشاردة عن صراط الله، فأسأل الله لها ولنا الهداية إلى الرشد.

* * *

الحكمة السابعة والستون

((قلما تكون الواردات الإلهية إلا بغتة، لئلا يدّعيها العبّاد بوجود الاستعداد))

علمت مما سبق ذكره أن مرادهم بالوارد التذكرة الإلهية الوافدة إلى قلب العبد مباشرة، أي دون وساطة تأمل وتفكير.

والإنسان، أياً كان، بمقتضى الفطرة الإيمانية التي يتمتع بها، معرّض لهذه الواردات الإلهية. ولكن ما هو السبيل لنيلها، أهو جهد معين من الطاعات والقربات ينبغي أن ينهض به الإنسان، أم هو استعداد خاص يتمتع به صنف من الناس دون غيره.

والجواب: أن السبيل إلى هذه الواردات يتمثل في فضل من الله، لافي جهد أو سلوك من العباد.

وهذا هو السبب في أنها تأتي في الغالب بغتةَ، ولاتسري إلى القلب تدريجاً ولو سلكت سبيلها إليه تدريجاً لكان في ذلك ما يوهم، بأنها آثار تتجمع في الفؤاد من تزايد الطاعات وكثرة الأذكار التي يأخذ السالك بها نفسه.. في حين أن ما يسري في فؤاد الإنسان من الإشراق الذي يتزايد فيه على أعقاب ابتعاده عن المحرمات وانصرافه إلى

الأذكار والقربات ومراقبة الله شيء، والواردات التي يتحدث عنها ابن عطاء الله هنا شيء آخر.

إشراقة القلب ثمرة للاستقامة على الطاعات والقربات وذكر الله عز وجل.

أما الواردات فمنحة من الله يرسلها إلى قلب من يشاء من عباده، فيصحو بعد غفلة، ويرّق بعد قسوة، ويقبل إلى الله بعد إدبار.

ولكي يتبين صاحب هذا القلب، أنها عطية من الله جاءته، دون تسبب منه، ودون جهد أو توقع، يكرمه بها فجأة ودون ارتباط بمقدمات من الطاعات أو القربات.

وينطبق هذا على حال كثير من العصاة والفساق، يؤبون إلى الله فجأة، وعلى غير توقع، ودون تخطيط أو تدبير أو تفكير سابق.. وإنها لقصة التائبين المتكررة والمتزايدة كل يوم.

في درسي الأسبوعي الذي يغشاه الآلاف، لايمرّ أسبوع أو أسبوعان، دون أن يظهر فيه تائبون جُذِبوا إلى صراط الهداية دون مقدمات ولاتوقع!.. لم يجذبهم الدرس إلى الهداية، بل جذبتهم الهداية التي وردت إليهم بغتة إلى الدرس!..

وفي أودية التيه، حيث تعجّ بالشاردين والفاسقين والمسرفين على أنفسهم.. ما من أيام تمرّ إلا ويفاجأ المجتمع بأعداد من أسوأ هؤلاء الشاردين، قد تحولوا طفرة إلى سبيل الهداية والرشد، بل إنهم ليفاجؤون بأنفسهم وقد خُلقوا خلقاً جديداً وغاضت عن حياتهم

أفكار ومشاعر كانت إليها زمام تسيارهم وقيادتهم، لتحلّ محلّها أفكار نورانية جديدة لاعهد لهم بها، تقودهم دون توقف إلى مرضاة الله.

وفي تاريخنا الغابر نماذج كثيرة، لمن جذبتهم الواردات الربانية فجأة، من أقصى أودية الفسوق والعصيان إلى صعيد الهداية والعرفان. ولاريب أن العدّ لايحصيهم.. لعلك تذكر منهم الفضيل بن عياض الذي تنزل على قلبه الوارد الرباني، وقد تسور جدار دارٍ في جنح ليل مظلم، على موعد لقاء، مع خليلة له، ولعلك تذكر منهم عبد الله بن المبارك الذي فاجأه الوارد الرباني من خلال هاتف صك سمعه ثم سرى إلى قلبه، وقد تذكر منهم بشر بن حارث الحافي الذي انتشله الوارد الإلهي من بين أمواج لهوه وصخبه ومجونه، على حين غرة، وأخرجه حافياً من قصره، يعانق حياة جديدة من العبادة والعبودية وصدق التبتل لله.

بل انظر إلى حال هؤلاء الذين تسمع أنباء تحولهم من الكفر إلى الإسلام، إن في بقاع أوربا وأمريكا أو غيرها.. إن كثيراً منهم لم يفكروا من قبل باعتناق الإسلام، ولم يضعوا نصب أعينهم مشروعاً لهداية أو لقراءة في الدين، ولكن إشراقة الإيمان هجمت على أفئدتهم على حين غرة.. وماكان ذلك إلاّ لأن وارداً من نفحات الغيب الإلهي أوفده الله إلى قلوبهم، فشعرت بما لم تكن تشعر به من قبل، وعرفت ما لم تكن تعرفه من قبل، وأحبت حقيقة لم تكن معنية بها من قبل!..

وانظر.. تجد مصداق ما أقول، في الارتباك أو الحرج الذي يقع فيه بعض هؤلاء، عندما يواجههم صحفيون أو فضوليون بسؤالهم التقليدي لأحدهم: ما الذي حملك على الدخول في الإسلام؟

وينتظر السائل أن يحدثه المسؤول عن المشروع الذي كان قد رسمه لدراسة الإسلام ومعرفته ثم للمقارنة بينه وبين العقائد الأخرى، والصراعات الفكرية التي تناقضت في ذهنه، ثم كيف كانت الغلبة لحقائق الإسلام ومبادئه.. ولكن جواب الرجل، وربما المرأة في كثير من الأحيان، يأتي أبسط من هذا الذي ينتظره السائل، إنه لايعرف لدى إجابته عن هذا السؤال أكثر من الاستئناس الذي حلّ جوانب قلبه، بالإسلام، والانشراح الذي فاض به صدره لاعتناقه. والاندفاع الشعوري إلى تقبله.. وهذا الجواب البسيط الذي يجيب به أكثر الذين هدوا إلى اعتناق الإسلام، ليس إلا ترجمة عفوية دقيقة لقول الله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإيمانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيانَ﴾ [الحجرات: ٩/٧].

ولو أن أحدهم وقف على مصطلح كلمة ((الوارد)) هذه، لاختصر جوابه قائلاً: إنه وارد رباني أنجدني الله به على حين غرة.

ولايذهبن بك الوهم، مما أقول، إلى أن حقائق الإسلام لاتمرّ، إذن، من قناة الدلائل العلمية والمنطقية، وإنما تصافح العواطف والوجدان، شأنها كشأن تلك الأديان التي لاعلاقة لها بالعلم ولاتتفق مع شيء من قواعده ومقولاته.

فالإسلام لاينهض وجوده إلا على دعائم العلم، ولاتتألف سداه ولحمته إلاّ من حقائقه، غير أن الإدراك العلمي وحده لايكفي لحمل العالِم على اعتناقه.

إن كثيراً من المثقفين الغربيين المهتمين بحقائق العلم، يدركون الصلة الوثقى بين قواعد العلم وحقائق الإسلام، وهو حال جلّ المستشرقين المتخصصين بالدراسات والعلوم الإسلامية، ومع ذلك فإن عائقاً أقوى من سلطان العلم، حال دون قبولهم الإسلام واعتناقهم له، ألا وهو عائق العصبية والاستكبار، والخضوع لسلطان الذرائعية التي ترعى مصالح الذات وتضحي في سبيلها بكل القيم والمبادئ.

فما الذي ينتشل هؤلاء الذين قيّدهم عن اتباع الحق سلطانُ عصبياتهم وكبريائهم والتذرع لحماية مصالحهم الاجتماعية والسياسية؟.

شيء واحد ينتشلهم ويحررهم من ذلك كله - بعد الدراية العلمية التي لم تستطع وحدها أن تسعفهم - هو الوارد الإلهي الذي نتحدث عنه.

ولعلك تسأل قائلاً: فما ذنب الذين لم يكرمهم الله بنفحات هذا الوارد؟

والجواب أن الناس كلهم معرضون في الأصل لهذه النفحات أو الواردات، وذلك بحكم الفطرة الإيمانية التي فطرهم الله عليها.

ولكنهم يختلفون بعد ذلك، فيما يختارونه من المبادئ والأفكار وسبل العيش وأنواع السلوك. ولاشك أن كلاً من أنواع الثقافة التي يتأثر بها المناخ، والمناهج التربوية المختلفة التي يتلقونها، يلعب دوراً بارزاً في هذا الاختلاف، وإن كانت حرية الاختيار تظل هي الرائدة في كل الأحوال.

إن هذا التنوع في الثقافة والتربية، إلى جانب العوامل الاجتماعية النفسية المختلفة، مصحوبة بحرية الاختيار، تترك تأثيراً كبيراً على الفطرة الإيمانية الكامنة في طوايا النفس. ومن شأن هذه العوامل مجتمعةً أن تفرز طائفة من الناس حجبوا أنفسهم، بل عقولهم، عن معرفة الحق والتعامل معه بحواجز من العصبية أو الكبرياء، أو الركون إلى وحي الغرائز والأهواء والشهوات المهتاجة بين جوانحهم، فانفصلوا بذلك عن سلطان فطرتهم، وربما أصابها من ذلك ما يشبه الشلل أو الاختناق.

فهؤلاء هم الذين قد لايتعرضون لهذه الواردات الإلهية التي نتحدث عنها.. ومردّ ذلك إلى ما قد حكموا على أنفسهم به من الانقياد لوحي العصبيات والرعونات النفسية والاستكبار على الله، والابتعاد عن معين الفطرة الإيمانية التي منحها الله (إحساناً وتفضلاً منه) كل مولود من البشر يفتح عينيه على هذه الحياة، ويترعرع في جنباتها.

وبعبارة جامعة موجزة أقول: إن المعاصي، على اختلافها، لاتشكل وحدها حاجزاً يحول دون تعرض الإنسان للواردات العلوية التي تنسكب في الفؤاد فتنقل صاحبها بغتة من حال إلى حال..

ولكن الذي يحجب الإنسان عنها، ويحرمه من فرصة التعرض لها، استكباره على الله واستخفافه بما قد يتلقاه من أوامره وأحكامه وشرائعه.. ذلك قرار ألزم الله به ذاته العلية، في مثل قوله: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آياتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِها وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ

يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٦/٧].

ولقد شرحت لك هذه السنة الإلهية التي ألزم الله بها ذاته العلية في حق عباده، في أكثر من مناسبة مرت في الجزء الأول من هذا الكتاب، فلاداعي إلى أكثر من التذكير بها الآن، بهذا الإيجاز.

* * *

الحكمة الثامنة والستون

((من رأيته مجيباً عن كل ما سئل، ومعبراً عن كل ما شهد، وذاكراً كل ما علم، فاستدل بذلك على وجود جهله))

ثلاث علامات إن اجتمعن في إنسان، كان ذلك دليلاً قاطعاً، فيما يقرر ابن عطاء الله، على وجود جهله.

ولعلّ كل خصلة منها، كافية في الدلالة على جهل صاحبها، ولكن يبدو أن الحيطة في الحكم حملت ابن عطاء الله على أن يعدّ الجهل ثمرة لاجتماع هذه الخصال كلها في شخص واحد.

أما الخصلة الأولى منها، فهي أن ترى الشخص لايتردد في الإجابة عن كل ما يُسأل عنه.. ووجه دلالتها على جهل صاحبها، أن مناط الأسئلة ومتعلّقاتها، يتسع لكل ما هو موجود مما هو مرئي ومسموع ومشموم ومفهوم. إذ السؤال لايكلف صاحبه علماً ولا فهماً، ولكنه يكلفه الاستفهام فقط، وهو مما يتأتى لكل أحد، والشأن في الاستفهام أن يتعلق بكل ماهو مجهول.

إذن فالاستفهام يتعلق بقسم المجهولات، أما الجواب فلايتناول إلا قسم المعلومات، ومما لاريب فيه أن مساحة المجهولات أوسع بكثير

من مساحة المعلومات، وصدق الله القائل: ﴿وَما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ١٧/٨٥].

إن الإنسان إنما يعيش في رقعة صغيرة جداً من هذا الكون الذي لايعلم مدى اتساعه إلا الله، وهو محصور منه في مساحة ضيقة وداخل دائرة الزمن الحاضر، فمهما امتدت أشعة معارفه، فإنها لن تتجاوز المساحة الضيقة التي يتحرك فيها. ولن يدرك شيئاً وراء الزمن الحاضر الذي يتقلّب فيه. وكم من معارف مغلوطة تهجم عليه داخل هذه الحدود الضيقة من المكان والزمان، فيظن الوهم علماً والباطل حقيقة، والحقيقة باطلاً.. هذا على حين أن مجال السؤال والاستفهام لايحدّه زمان ولا مكان، إذ هو ليس أكثر من تعبير عن التطلع إلى المجهول.

فمن رأيته يجيب، أي جواب العارف، عن كل ما يُسأل عنه، فاعلم أنه يغطّي جهله بدعاوي المعرفة والعلم.. إذ قد علمت أنه لايمكن أن تتساوى مساحة المعلومات مع مساحة القضايا المسؤول عنها، حتى تغطّي هذه بتلك.

ولكن ما الذي يدعو كثيراً من الناس إلى هذا؟

إن الذي يدعو إلى ذلك، الاستكبار!.. يربأ أحدهم بنفسه أن يُنعت بالجهل، ولاحيلة له في أن يضع حقائق المكونات وأسرارها، دون استثناء، تحت سلطان معلوماته ومدركاته، فيستعيض بدعواه اللسانية العريضة عن الاستيعاب المعرفي الذي لاسبيل له إليه.

فلو لم يكن من آفات هذا التعالم إلا الاستكبار، لكفى ذلك إجراماً في حق العلم ومصدره، فكيف وإن من آفاته الكذب وخيانة الحقائق، والاستخفاف بقوانين الكون وكلمات المكون؟

على أن الجهل المتعالم يهون خطبه، عندما تستعمل له بضاعة الدنيا، وعندما يكون الخلط والخبط، في مسائل يتقارب فيها كل من وجهي الصحة والبطلان، والخطأ والصواب...

ولكنه داء لا دواء له، وخطب لا عزاء معه، عندما تكون مادّة هذا الجهل المتعالم حقائق دين الله الذي بعث به سائر الرسل والأنبياء، متمثلة في مبادئه الاعتقادية آناً، وأحكامه الشرعية آناً آخر.

بل إنك لتنظر فتجد أن أسواراً من الرقابة تحيط بمجالات العلوم والثقافات الدنيوية على اختلافها، تمنع الجهال المتعالمين من أن يخبطوا فيها خبط عشواء، وتغلق عليهم سبيل العبث والقول فيها على غير هدى.. فالعلوم الكونية المختلفة، بل حتى الأدبية أيضاً، تتمتع من المجتمعات والقادة المسؤولين بحراسة دقيقة دائبة، ومن ثم لايتأتى لأي محتال عن طريق التعالم، أن يتسلل إلى حماها، فضلاً عن أن يخترق مجالاتها.

فإذا ما تجاوزت مجالات هذه العلوم الدنيوية المختلفة، وأقبلت إلى علوم الإسلام وشرائعه، رأيت نفسك منها أمام ما يشبه كلأً مباحاً أو سفحاً مفتوحاً يجوب فيه الرائح والغادي، دون أي رسم لحدود أو اعتماد لضوابط!..

فما تجد هاوياً لشهرة صُدَّت السبل كلها في وجهه إليها، إلا ويرى في هذا السفح بغيته، وما تجد باحثاً عن مجال أوسع للرزق، دون أن يجد لبحثه الطويل من ثمرة، إلا ويعثر في مجال آرائه وأفكاره الإسلامية التي يبتدعها، على رزقه الضائع، هذا فضلاً عن أولئك الذين سدّت

أمامهم الطرق إلى الكيد للإسلام والتربص به، بشكل مباشر، فلما نظروا، فوجدوه كلأً مباحاً للغادي والرائح دون أي شروط أو ضوابط، لم يترددوا في الدخول إلى مجاله باسم الغيرة على الإسلام، والإقبال إليه بالتجديد والتطوير والتحديث..

والجامع المشترك بين أنشطة هؤلاء كلهم، الحديث عنه مع الجهل به، والدخول إلى تفسير نصوصه، مع القصد المستكنّ إلى تحطيم بنيانه؛ وتسويق الفتاوى باسمه لتلبية الطلبات والتطلعات المتبرمة بأحكامه.

ومقتضى هذا الواقع أن لاتجد بين هؤلاء، من يمسك عن اقتحام هذه المخاضة، معتذراً بالجهل. إذا الجهل لاوجود له (أي لا إقرار به) أمام هذه الأهداف.. فالأجوبة جاهزة لسائر الأسئلة الدينية، والحلول مرسومة لسائر المشكلات الفكرية أو الاجتماعية، والفتاوى مصنوعة ومهيأة حسب الطلب!.. ورحم الله العهد الذي كان حاجز الجهل، يحول دون اقتحام هذه الميادين كلها.

كان ذلك عهداً ألجم فيه المسلمون ألسنتهم عن الخوض فيما لايعرفون، بل فيما لايتأكدون من معرفتهم له، خوفاً من أن يصدق عليهم قول رسول الله ﷺ: «من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار»[1]. فكان كل منهم يردد أمام جهالته أو شكوكه قول أبي بكر رضي الله عنه: «أي أرض تقلّني، وأي سماء تظلّني، إن أنا قلت في القرآن بما لا أعلم»[2].

---

(١) رواه الترمذي وأبو داود

(٢) انظر تفسير ابن جرير الطبري ١/٢٥، الطبعة الميمنية.

روى عبد الرحمن بن مهدي أن رجلاً أُرسل إلى مالك رحمه الله، من مسيرة ستة أشهر، من المغرب، ليستفتيه في أمور، فأجاب عن بعض يسير منها، وقال له عن سائرها: لاأعلم. فقال له الرجل: فماذا أقول لأولئك الذين أرسلوني إليك بشأن هذه المسائل إن رجعت إليهم؟ فقال له: أخبر الذين أرسلوك أن لاعلم لي بها!.. فقال: ومن يعلمها؟ قال له: الذي علّمه الله.

أما جهال هذا العصر، فَيُعْمِلون أهواءهم في تفسير القرآن لعباً وتمزيقاً. لايصدّهم عن ذلك جهل، ولايردّهم عنه وجل ولاخوف، ويُعملون أهواءهم في تصدير الفتاوى الحديثة التي تحمل أحكاماً لاعهد للمسلمين من قبل بها.. وإن أحدهم ليندفع إلى الفتوى متضمنة ما يراه من الجواب عن الأحكام التي يُسأل عنها، دون أي تحفظ، كما يندفع أحدنا إلى شرب ماء عذب بارد على ظمأ.

فإن جاء من قال: ولكن المنصوص في مصادر الشريعة الإسلامية، خلاف الذي تقول: أجاب قائلاً: ((تتبدّل الأحكام بتبدل الأزمان)) وأردف ناقلاً عن رسول الله قوله: ((يسروا ولاتعسروا)).

ولقد تكونت من هذه الجرأة العجيبة في الفتاوى على غير بينة ودون التزام بالضوابط، ما يسمى اليوم بـ((فقه الأقليات)) كأن الله أنزل في قرآنه فقهين اثنين: أحدهما لأكثرية المسلمين في بلادهم، والآخر للأقليات خارج بلاد الإسلام!.. فأصبح الربا المحرم عندهم سائغاً، والنكاح الباطل كنكاح الكافر المسلمة صحيحاً، والذبيحة المختنقة طاهرة، والتعامل بالخمور في محالّها أمراً مقبولاً!..

ولست أدري فيم هاجر المسلمون في صدر الإسلام من دار الكفر إلى دار الإسلام ما دامت لهم في «فقه الأقليات» هذه السعة التي ترفع عنهم الحرج وتردّ عنهم الضيق؟!..

* * *

وأما الخصلة الثانية، فهي أن ترى الرجل يروي للناس كل ماشهده، إذ لو لم يكن جاهلاً، لعلم أن الأمانة تقتضي أن يمسك عن الحديث عن أكثر ما قد يراه. إذ كثيراً ما يكون الشيء الذي رآه ثم رواه، عائداً إلى خصوصيات بعض الناس، سواء كان خيراً يحمدون عليه أو شراً يلامون عليه.. إن نشر أخبارهم، على كلا الحالين، لايحلّ إلا بعد التأكد من رضاهم بذلك، على أن احتمال عدم الرضا في الحالة الثانية أكثر منه في الحالة الأولى.

إن ما قد تراه عيناك من خصوصيات الناس، لصدفة أو لمناسبة ما، سرّ من الأسرار التي استودعها الله عندك ابتلاءً.. وإن ما قد يصادف أن تراه من مشكلات أو خصومات، بين اثنين قد يكون دعوة من الله لك أن تكون الطرف الثالث الوحيد معهما، لتسعى سعيك في حلّ مشكلتهما أو إنهاء خصومتهما، دون ضجيج ولاحديث عنها.. وإن ما قد تقع عليه عيناك من معصية ابتلي بها أخ لك، أمانة كلّفك الشرع بصونها عن أسماع الناس بعد أن صانها الله عن أبصارهم، وإنما الواجب الذي يأمرك الله به، أن تمدّ رواق الستر على أخيك هذا، وتنفرد معه في نصيحة خالصة محببّة، لايراكما ولايسمعكما في مجالها أحد.

هكذا يقول الشرع، وبهذا جاء الإسلام.

فقارن بين هذا النهج الذي أُمِرْنا به، وبين حال من يتصيد الوقوع على الأخبار والأحداث، لينقلب فيرويها لكل غاد ورائح، وليتخذ منها موادّ وموضوعات لتسليته وعوامل لجذب الناس إلى الغريب والمستطرف من أحاديثه. إنه هو الآخر دليل ثان على جهله.. أي على جهله بآداب الشرع وأحكامه.

ولكن، أفهو الجهل وحده الذي يدفع كثيراً من الناس إلى سلوك هذا النهج؟..

الذي أعتقده وأراه أن ثمة عاملاً آخر يقود إلى هذه الرعونات، مع وجود العلم بحرمتها بل بخطورتها!. وإذا استحكمت الرعونة، شلّت قيمة العلم في صاحبها وأفقدته أهميته.

كثيرون هم الذين يعلمون أن الله ستير يحب الستر ويأمر به، وأنه لايجوز للمسلم أن يجلجل بأخطاء أخيه المسلم، مادامت ولدت في السر وبقيت في الخفاء والسرّ، وأن الإخلاص لله والغيرة على حرمات الله يدعوانه إلى أن يكون عوناً له على الستر الذي أضفاه الله عليه، وأن يهمس إليه في نصيحة حارة تشهد على ما يكنه له في قلبه من غيرة وحب.. كثيرون هم الذين يعلمون هذا كله، ومع ذلك فإنهم يتجاهلون ما يعلمون، في سبيل الاستجابة لما تنطوي عليه نفوسهم في حسد أو حقد وبغضاء.

وقد ذكرت أثناء شرحي لحكمة مضت مشكلة هذا الداء، وأشرت إلى الدواء الواقي منه، فأحيلك الآن إلى ما قد ذكرت، وأضيف إلى

العلاج الذي ذكرته لك آنذاك، العلاج الكلي الذي لاينفك عن الحاجة إليه أحد من الناس، ألا وهو ضرورة تزكية النفس وتطهير القلب من الأمراض الخفية التي سماها الله، باطن الإثم.

ومن مصائب المسلمين في هذا العصر، أنهم - أو أكثرهم - معرضون عن هذا العلاج ويستخفون به إن ذكرهم به أحد!..

ومن ثم فإن قيادة خفية تستقل بتوجيه أنشطتهم ورسم أهدافهم، ألا وهي تلك التي حذر الله منها وبالغ في التحذير، وسماها كما قلت لك: باطن الإثم.

أما سبل تزكية النفس، فالحديث عنها طويل الذيل، ولعل اتباع نصائح ابن عطاء الله في هذه الحكم، واحدة من أهم هذه السبل.

* * *

الخصلة الثالثة من الخصال التي تدلّ على جهل صاحبها، أن يتحدث للناس عن كل ما علم من شأن نفسه، أو من الشؤون الأخرى.

أما عما يعلمه الإنسان من شأن نفسه، فهو إما أن يكون من الشؤون الصالحة التي وفقه الله إليها، أو من الأخطاء التي تاه فوقع فيها.

فإن كان من الصالحات التي وُفق لفعلها، فينبغي أن تمرّ فكرة التحدث بها، برجوع دقيق إلى تلمس العامل الذي يدفع إلى ذلك، فإن أيقن أن العامل هو الإعلان عن شكر الله عز وجل على توفيقه،

والتحدث إلى الناس عن عظيم فضل الله عليه، حتى يكونوا شهداء على مننه التي تتوارد إليه، دون أن يكون أهلاً لها، فالعلم إذن يقتضي الحديث عنها، عملاً بقول الله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ٩٣/١١].

وإن ارتاب في هذا الدافع، وغلب على ظنه أنه مدفوع إلى التحدث للناس بها، تنويهاً لهم بشأن نفسه، وإعلاماً لهم عن حسن حاله، ليعظم في نفوسهم، أو لتعود إليه منهم المنح، أو ليرفعوا من شأنه في المناسبات وبصدد الأنشطة الاجتماعية، فالعلم إذن يقتضي أن يتكتم على ذلك، وأن يسدل على أعماله الصالحة تلك ستراً فوق ستر، لتبقى سراً مكنوناً بينه وبين ربه. إذ إن ذلك هو الضمانة - في هذه الحال - لقبول الله لها، ورصد المثوبة عليها.. فإن هو خالف هذا المبدأ، فأشاع وأذاع بين الناس خبر أعماله الصالحة وأنشطته المبرورة، فقد صنف نفسه، بذلك، في الجهال. إذ لو كان ذا دراية بما ينبغي أن يكون عليه حاله، لما أقدم على ما أقدم عليه.

وأما إن كان من الأخطاء أو السيئات التي تورط فيها، فينبغي أن يعود في هذه الحالة أيضاً إلى مساءلة نفسه، عن العامل الذي يدفعه إلى كشف حاله هذه للناس. فإن علم أنه مدفوع إلى ذلك، بقصد المباهاة بخطئه الذي ارتكبه، كما هو شأن بعض الناس، فليعلم أن حديثه لهم بهذا القصد، شرّ من أصل الخطيئة التي ارتكبها، بل ربما سرت المباهاة بالمعصية، بصاحبها، إلى الكفر في بعض الأحيان.

وإن علم أنه مدفوع إلى ذلك بدافع الشكوى والألم مما قد صدر منه، فذلك من الجهالة بمكان!.. إن عليه أن يعلم أن الذي ينبغي أن يتجه إليه بالألم والشكوى واحد لاثاني له، هو الله عز وجل. إذ هو الذي يملك أن يزيل ألمه وأن يستجيب لشكواه، فيغفر له ذنبه ويصلح له حاله. أما الناس، فما بين شامت يفرح بشروده وخطيئته، وعاجز يصغي السمع إليه ولكنه لايملك من أمره شيئاً. فلم يبق أمامه من باب يتجه إليه ويلوذ به إلا باب الله، وصدق سبحانه إذ قال: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الذاريات: ٥١/٥٠].

ثم إن المسلم كما يأمره الله أن يستر ما قد علمه من سوء صدر من أخيه، فإنه جل جلاله يأمره أيضاً أن يستر عن الناس السوء الذي صدر من شخصه هو. إذ المبدأ المطلوب واحد، لايختلف حكمه باختلاف الأشخاص.

وبهذه المناسبة، ألفت نظر الإخوة الذين يتوبون إلى الله بعد انغماس في حمأة المعاصي والأوزار، إلى أن التوبة الصادقة تمحو كل الخطايا والآثام، مهما كانت كبيرة، ولو كان ارتكابها يستوجب الحدّ.. ومن ثم فإن المطلوب من هؤلاء التائبين أن يستدبروا ماضي آثامهم وانحرافاتهم، وأن يستقبلوا من حياتهم عهداً جديداً يفيض بفضل الله وإحسانه وعفوه، وليعلموا أنهم قد ولدوا باصطلاحهم مع الله ولادة جديدة، فإن استطاعوا أن ينسوا ماضيهم قبل هذه الولادة فليفعلوا.. والمعاصي التي تستوجب الحد، إنما تستوجبه عند ارتفاع الأمر إلى الحاكم وثبوت المعصية أمامه بشهادة شرعية مقبولة، أو بإقرار من

صاحب المعصية.. والمطلوب شرعاً منه أن يلوذ بكنف من ستر الله، وأن لايحدث القاضي ولايخبره بمعصيته.

نعم، يستثنى من عموم هذه المعاصي التي تمحوها التوبة الصادقة، المعاصي التي فيها انتهاكات لحقوق الناس، فلابد لمغفرتها من إعادة الحقوق إلى أصحابها أو مسامحتهم وتجاوزهم لها.

وأما ما يعلمه الإنسان من المعارف والشؤون الأخرى، فقد علمت أنه لايجوز لأحد من الناس أن يفضح الناس في أسرارهم، وقد أوضحت لك ذلك عند الحديث عن الخصلة الثانية من هذه الخصال الثلاث.

بقيت المعارف العامة الأخرى التي قد يتميز بها بعض الناس.

إن العلم بمبادئ الإسلام وآدابه، وآداب الدعوة إلى الله، يقتضي أن يفرق المسلم بين المعلومات التي يُصْلِحُ الناس ويفيدهم الحديث عنها، والمعلومات التي تشوش أفكارهم وتزجهم في وساوس أو ضياع.

ليس كل مسلم مهيأ لإدراك كل معلومة تتعلق بالإسلام أو غيره. ثم إن المعارف الإسلامية ليست، كلها، منسقة في درجة واحدة من الأهمية، بل هي متفاوتة الترتيب في الإدراك، كما أنها متفاوتة في الأهمية ومدى الحاجة. ومن ثم فهي تخضع عند الإقبال إلى معرفتها لما يسمى بقانون سلّم الأولويات.

وبياناً لهذا كله يقول سيدنا رسول الله ﷺ: ((حدثوا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله))[1].

ثم إن لكل مقام مقالاً.. فالحديث الذي يواجَه به الملحد مثلاً، غير الحديث الذي ينبغي أن يخاطَب به المسلم العاصي، والمستشكل المثقف الذي يحمل في ذهنه أوقاراً من الشبهات، يحتاج إلى حجج وبيانات لايحتاج إليها الجاهل العامي الذي يسأل عما يحرره من جهالته.

وعلى سبيل المثال، فإنّ علم الكلام الذي يتضمن الحجج المنطقية والفلسفية على الحقائق الاعتقادية، دواء لايصلح إلا لمن تسربت إلى عقولهم أمراض الشبهات الفلسفية، فإن عولج به المعافَوْن من هذا الداء، تحول إلى جرثومة داء قد يستقر في عقولهم.

ومن أمثلة ذلك أيضاً، بعض الموضوعات التي يعالجها فريق من خطباء الجمعة في خطبهم. يصادف أن يكون الخطيب قد اطلع على بعض المعلومات التاريخية أو الاجتماعية أو نحوها، مما لاشأن لسواد الناس الذين يفيض بهم المسجد بشيء منها، ولكن رغبته في أن يلفت نظر الناس إلى ما يتمتع به من معارف قد لايعرفها الآخرون، تحجبه عن توجيه الناس إلى ما يفيدهم، وعن دعوتهم إلى إصلاح أمورهم وتدارك أخطائهم، ومن المعلوم أن خطبة الجمعة يجب أن تدور على محور الإنشاء المتمثل في الأمر والنهي من خلال النصح، لا على محور الإخبار والإعلام القصصي أو التاريخي أو التنويه بحال بعض الناس ثناء

---

(١) رواه البخاري من حديث علي رضي الله عنه موقوفاً - وهو في مسند الفردوس عنه رضي الله عنه مرفوعاً.

أو تجريحاً.. فإن عرض الخطيب لذكر خبر يتعلق بحادثة، فينبغي أن يكون ذلك محصوراً بالقدر الذي يجعل منه مقدمة أو عبرة بين يدي نصيحة مفيدة للحاضرين تتمثل في أمر أو نهي.

وكم هو عمل شاق وخطير، القيام بمهامّ خطبة الجمعة!!..

يدرك ذلك كل من يعلم أن خطيب الجمعة إنما يمثل شخص رسول الله، إذ كان بين أصحابه يخطب فيهم كل جمعة على منبره. أفترى أن أداء الخطيب اليوم، للدور الذي كان رسول الله يؤديه بالأمس، شكلاً ومضموناً، أمرٌ هين ويسير؟!..

* * *

وبعد، فتلك هي الخصال الثلاث التي تدل على جهل صاحبها، كما قال ابن عطاء الله.

فإن لم يكن صاحب هذه الخصال جاهلاً، وبقي متشبثاً بها، فمردّ ذلك إلى جهالة من نوع أشدّ وأخطر.

ذلك لأنه يتبع في هذه الحالة رعونة نفسه، ووحي شهواته وأهوائه. ولايصدر هذا الاتباع إلا من أشدّ أنواع الجهالة خطراً على صاحبها.

إنه لو علم مغبة انقياده لوحي أهوائه وأغراضه، معرضاً في سبيلها عن تعاليم مولاه وخالقه، لما آثر الإعراض عما فيه ضمانة سعادته ورضا مولاه عنه، في سبيل أهوائه التي لاريب في أنها ستورده المهالك، وتزجه في نيران من الندم.

* * *

الحكمة التاسعة والستون

((إنما جعل الدار الآخرة محلاً لجزاء عباده المؤمنين، لأن هذه الدار لا تسع ما يريد أن يعطيهم، ولأنه أجلّ أقدارهم عن أن يجازيهم في دار لا بقاء لها))

المراد بالجزاء هنا، ما قد وعد الله به عباده الصالحين من النعيم المقيم في جنان خلده، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولاخطر على قلب بشر، وقد أوجز البيان الإلهي ذلك بقوله: ﴿لَهُمْ ما يَشاؤُونَ فِيها وَلَدَيْنا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٥٠/٣٥].

فهذا الجزاء الذي وصف الله بعضاً يسيراً منه في محكم تبيانه، شاء سبحانه وتعالى أن يؤجل ميقاته إلى يوم القيامة، وأعلن عن مشيئته هذه بقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّما تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ﴾ [آل عمران: ٣/١٨٥].

وإنك لتلاحظ أن البيان الإلهي عبّر عن هذه المكرمة التي أعدّها الله لعباده الصالحين وادّخرها لهم إلى يوم القيامة بـ((الأجر)). ولعل الأجر أخص من الجزاء، إذ الجزاء يشمل سائر الأعطيات التي قد يتفضل الله

بها على عبـاده مقـابل استجابتهم لأوامـره وانقيـادهم لأحكامـه، أمـا الأجر فهو يطلق في الأصل على ما قـد يتـم الاتفـاق عليـه بـين العـامل ورب العمل، مـن مقـابل يدفعـه الثـاني لـلأول، مقـابل عملـه.. وهـذا الإطلاق، وإن كان لايسري على ما ادخره اللـه لعبـاده الصـالحين يـوم القيامة، لأنه التزام من طرف واحد، وهو الله عز وجـل، إلا أن البيـان الإلهي سماه، مع ذلك، أجراً على سبيل المشاكلة.

وإذا ظهر لك هذا الفرق، تبين لك الفارق الثاني أيضاً، وهو أن الله عز وجل ادخر لعباده الصالحين أجـور أعمـالهم التـي ألـزم ذاتـه العليـة بها، إلى يوم القيامة، وهو القرار الذي أعلنه عز وجـل في محكـم بيانـه، ويوضح ابن عطاء الله الحكمة منه هنا.

أما الجزاء الذي هو أعم من الأجر كما قد علمنا، فإنه يشـمل هـذا الأجر المؤجل، ويشمل ما وراءه من الأعطيات والمنـن التـي يكـرم بهـا الصالحين من عباده في دار الدنيا.. وهو ما سيشير إليه ابن عطاء الله في حكمـة آتيـة، إذ يقـول: «جـلّ ربنـا أن يعاملـه العبـد نقـداً، فيجازيــه نسيئة».

وإذ قد استعمل رحمه الله مادّة الجزاء في هـذه الحكمـة الآتيـة، فقـد كان من المناسب، لما قد ذكرت لك، أن يسـتعمل هنـا كلمـة الأجـر، فيقول: «..محلاً لأجر عبـاده المؤمنـين» حتـى لايتوهـم متوهـم أن بـين الحكمتين تعارضاً.

* * *

إذن، فقد قضى الله عز وجل أن يؤخر الأجر الذي أعده لعباده الصالحين والذي تحدث عنه أو عن طرف يسير منه في كتابه المبين، إلى ما بعد الموت... إلى اليوم الموعود الذي ينتهي فيه التكليف، ويحلّ محله الأجر الذي وعدهم به.

فلماذا؟.. وما الحكمة؟.. ألم يقل رسول الله ﷺ: أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه[1].

يذكر ابن عطاء الله لذلك حكمتين اثنتين:

أما الحكمة الأولى، فهي أن الدار الدنيا تتعارض، من حيث ذاتها، مع نوع الأجر الذي أعدّه الله لعباده، إذ إن من أخص خصائص الدنيا فناؤها وعدم بقائها، في حين أن من أخص خصائص الأجر الذي قضى به الله لعباده، بقاؤه وعدم فنائه، فكيف يكون الفاني وعاء، أو محلاً للباقي؟

ثم إن هذه الدار الدنيا تتعارض مع الأجر الذي بشر الله به عباده الصالحين، من حيث إن نظام الحياة الدنيا يتناسق مع شأن التكاليف، ونظام الحياة الآخرة يتناسق مع طبيعة الجزاء.

فإن كانت الدنيا دار تكليف ومناخاً لظهور عبودية الإنسان لله عز وجل بسلوكه الاختياري، كما هو عبد له بواقعه الاضطراري، إذن فالشأن فيها أن تكون مليئة بالابتلاءات والمنغصات التي تبرز قيمة الصبر عليها والرضا عن الله بها، وحتى النعم والخيرات الكثيرة التي

(١) رواه ابن ماجه من حديث عبد الله بن عمر، وأبو يعلى في مسنده من حديث أبي هريرة.

فيها، لاتأتي صافية عن الشوائب، وإن كان فيها ماهو صافٍ منها، فهو لايخلو من معنى الابتلاء، ولايتجرد عن جوهر التكليف، إذ المطلوب من الإنسان حيالها القيام بواجب الشكر، وذلك بأن يوظف تلك النعم التي أسديت إليه فيما قد خلق من أجله، ولايصرفها إلى ما قد حذّره منه.

إذن فهذه الدنيا، بكل ما فيها من شدة ورخاء، وخير وشر، لاتصلح أن تكون محلاً للأجر العظيم الذي وصفه الله تعالى في كتابه والذي أعده لعباده الصالحين.

وأما الحكمة الثانية، فهي أنه عز وجل، لو شاء أن يخلي الدنيا من سائر الشوائب والمنغصات، والمصائب، بالنسبة لعباده الصالحين، وأن يملأها بعد ذلك بالمبهجات والمكرمات التي وعدهم بها، ليتمتعوا بها في عاجل حياتهم، بدلاً من أن ينتظروها إلى الحياة الآخرة، إذن لكانت مفارقتهم لها، بالموت الذي قضى به عليهم، مصدراً لآلام كاوية تنسيهم لذائذ تلك المكرمات مهما عظمت.

إن روح المتعة، أياً كانت، إنما تكمن في بقائها. فإن هي زالت أعقبتها غصص خانقة في النفس، لاتغيب إلا مع غياب ذكرياتها.

وقد قضى الله عز وجل أن تكون الدنيا ممراً إلى مقر. وأن تكون مستودعاً يتم الانتقال منه إلى المقر، إذن فهي بهذا الوضع الذي قضى به الله عز وجل، لاتصلح أن تكون محلاً للجزاء.

ولعلك أدركت من هذا البيان الموجز الحكمة من وجود المنغصات في هذه الحياة الدنيا، ومن امتزاج المنح بالمحن، والمغانم بالمغارم،

والآلام باللذائذ. فبالإضافة إلى ما قد أوضحته لك، من توقف النهوض بالتكاليف الإلهية، على عنصري الصبر والشكر، وأنت تعلم أن الأول منهما لاوجود له إلا مع الشدة، والثاني منهما لامعنى له إلا مع الرخاء.. ومادمت قد علمت مما ذكرته سابقاً الحكمة من التكاليف التي خاطب الله بها، بل التي شرف الله بها الإنسان، فإن ما قد علمته من حكمة هذه التكاليف، يستلزم علمك، بل قناعتك بما تستلزمه التكاليف الإلهية من عنصري الصبر والشكر...

أقول: بالإضافة إلى هذا الذي أوضحته لك: ينبغي أن لاتنسى أن الحكمة تقتضي أن يكون الممر الذي ليس من شأن الإنسان أن يقيم فيه، خالياً عما يغريه بالبقاء فيه. فإن وجد شيء من ذلك، رعاية لما تتطلبه الرفاهية، فينبغي أن يعلم بأن ماهو مقبل عليه، بعد تجاوز هذا الممر، يفيض بأضعاف أسباب الراحة والرفاهية التي يتمتع بها أثناء اجتيازه لهذا الممر أو المستودع، حسب التعبير القرآني.

إن القاعدة النفسية والعلمية تقول: يجب أن يكون محل إقامتك الدائمة، أكثر راحة ورفاهية، من الطريق الذي تسلكه إليه.

تأمل في بيان الله عز وجل، إذ يخاطبك معرّفاً للدنيا التي تعيش فيها، كيف يحذرك من التعلق والاغترار بها، وكيف يهوّن من شأنها، ويصور لك تفاهتها، وانظر كيف يؤكد لك هوانها بأساليب شتى.

إنه يقول لك: ﴿لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ ، مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادِ﴾ [آل عمران: ٣/١٩٦-١٩٧].

ويقول لك بأسلوب آخر: ﴿قُلْ مَتاعُ الدُّنْيا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقى﴾ [النساء: ٤/٧٧].

ويقول، مجسداً حقيقتها بهذا التشبيه: ﴿اعْلَمُوا أَنَّما الْحَياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكاثُرٌ فِي الأَمْوالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفّارَ نَباتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَراهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطاماً﴾ [الحديد: ٥٧/٢٠].

ثم يقول مؤكداً في آخر الآية ذاتها: ﴿وَما الْحَياةُ الدُّنْيا إِلاّ مَتاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٥٧/٢٠].

تصور لو أنه، وهو يكرهك بها، ويحذرك من التعلق بها، جعلها مليئة بالمتع والمبهجات الصافية عن الشوائب والكدورات، إذن لناقض الواقعُ الأمرَ، ولكانت قدرة الإنسان وطبيعته عاجزتين عن الاستجابة لتلك التوصيات والتحذيرات.

ولكنه عز وجل، أقدرك، إذ أمرك، على تنفيذ أمره، وأعانك على ازدراء الدنيا والتهوين من شأنها، في كلا حالتي الإقبال والإدبار، عندما قضى بأن لايصفو خيرها من شر، وبأن لاتخلو عافيتها من سقم، وأن لايتجرد أمنها من قلق واضطراب.

ألا ترى إلى لطف الله عز وجل بك، كم يتجلى في هذا النسق الذي قضى بأن يقيم الدنيا عليه، كي يأتي ذلك مصداقاً للوصف الذي وصفها به، ولكي لاتجد عنتاً في أن تضع الدنيا من حياتك في المستوى الذي أقامها الله فيه؟!..

ثم انظر إلى حياة الإنسان، كيف يكون الشطر الأول منها في حالة إقبال، إلى نعيم الدنيا ومتعها ولذائذها، إذ يكون كل من العافية والشباب والرغبات الغريزية في إقبال وتصاعد، فإذا أقبل الشطر الثاني منها تحوّل ذلك كله عائداً إلى الذبول والتراجع، وصدق الله القائل: ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلا يَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٣٦/٦٨] فيحلّ الضعف محل القوة والعافية، ويغيب الشباب في تجاعيد المشيب، وتخمد نيران الغرائز.. ويتكون من ذلك كله عامل يدفع إلى الإعراض عما كان مقبلاً عليه، وإلى السآمة مما كان شديد التعلق به..

ومظهر اللطف الرباني في هذا، أنه يكون سبيلاً إلى تهيئة النفس للرحيل، وتمهيداً بين يدي الفطام الذي لابدّ منه، من متع الدنيا ونعيمها. إذ يزداد مللاً وسآمة من أهوائها وشهواتها، كلما ازداد قرباً من الموت، وازداد توغلاً في طبيعة هذا الشطر الثاني من الحياة.

فإذا أقبل إليه الموت ودعاه الداعي إلى الرحيل، تكون حياته الدنيا التي تقلب في نعيمها وبؤسها ما شاء له الله أن يتقلب، أمام ناظريه آنذاك، كطعام تقادم عليه العهد، وتبرّم منه من كثرة ما أكل منه، وفاحت منه رائحة الفساد، فلا يكون عندئذ في نفسه، بل أمام ناظريه، ما يشغله عن المصير الذي هو مقبل إليه.

ألا تلاحظ أن هذا هو اللطف بذاته؟.. بل ألا تلاحظ أن هذا من أجلّ النعم الباطنة التي نبه إليها الله تعالى في قوله: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظاهِرَةً وَباطِنَةً﴾ [لقمان: ٣١/٢٠].

بل كم كانت المصيبة كبيرة لو أن نذير الموت جاء إلى الإنسان، وهو أكثر ما يكون إقبالاً إلى الدنيا وتعلقاً بها، وكانت هي أكثر ما تكون زينة وبهاء ومتعة في نفسه وأمام ناظريه!.. إذن لكان انقطاعه عن الدنيا أشبه ما يكون بمجموعة من خيوط الحرير نشبت بين أغصان كثيفة من الشوك، فجاءت يدٌ قوية فاجتذبتها بشدة، فتقطع منها ما تقطع، وبقي منها ما بقي بين الشوك.

* * *

ثم اعلم أن هذا الذي قلته لك، إنما يصدق على من قد آمن بالله ورسله وكتبه، ومن ثم عرف قصة وجوده في هذه الحياة الدينا، والمقطعِ الثاني من رحلته بعدها، ثم المقطعِ الثالث والأخير، حيث المعاد والمستقر، والأجر الذي وعد الله به عباده الصالحين، وادّخره لهم إلى ذلك الميقات المحدد في علم الله عز وجل.

فمن آمن بالله هذا الإيمان، وعرف برنامج رحلته هذه، كما حددها له الله عز وجل، سيسخر نعيم الدنيا للنهوض بالواجبات التي كلف بها، وسيكون بؤسها وابتلاآتها، سبباً في تحرره من أسرها وترفعه على مغرياتها وأسباب الاغترار بها.. وسواء وافاه الأجل في الشطر الثاني حيث الضعف بعد القوة والمشيب بعد الشباب، وخمود الغريزة بعد هياجها، أم وافاه في الشطر الأول حيث مرحلة الإقبال على المشتهيات والأهواء، وجموح الغريزة بحثاً عن رغائبها، فإن نذير الموت لايقبل إليه، إلا وهو معرض عن الدينا، مشمئز مما كان مقبلاً عليه منها.

وذلك، أن الله تعالى - لطفاً منه وإحساناً بهذا الفريق من عباده - يطلعه قبيل موته على ما ينتظره من النعيم الذي يأخذ بالألباب، وتنساب من وراءه النفوس، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فتأخذه من ذلك غمرة تنسيه لذائذ الدنيا كلها، ويغدو وإن همه الأوحد أن يرحل إلى ذلك النعيم الذي أخذت تشرئب إليه روحه ونفسه.

وهذا هو المراد بالبشرى التي وعد الله أن يكرم بها عباده الصالحين في الحياة الدنيا، قبل الآخرة. وذلك في قوله عز وجل: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ، الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ، لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ [يونس: ١٠/٦٢-٦٤].

أما التائهون عن هوياتهم، الجاهلون بربهم، والحائرون في معنى وجودهم وفي حقيقة هذه الحياة الدنيا، فلن يكون الموت بالنسبة إليهم إلا شقاء فوق شقاء، ولن يقتحموه إلا على أنه ظلمات يقعون منها في تلافيف عدم موحش.. سواء أقبل الموت إلى أحدهم وهو في ريعان الشباب وقمة العافية والنشاط، أو تلبث عنه فلم يدركه إلا وهو في غمرة الضعف والعجز والمشيب.

ذلك لأنه إن تخطفه الموت وهو يتقلب من الدنيا في نعيم ورغد من العيش معافى من الأوجاع والآفات، كان فراقه لها إلى ذلك الوادي المظلم الموحش أشق عليه من سكرات الموت؛ وإن أدركه الموت وهو يتلقى من الدنيا بؤسها ومصائبها، ويعاني من أوجاع وأمراض

لاتبارحه، خرج من الدنيا وهو يندب حظه الموحش الأسود، ويبكي فرصته الوحيدة التي جرّعته ألوان الشقاء.

وهيهات أن يجد في قول الله تعالى: ﴿ وَإِنَّما تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٥/٣]، أي عزاء أو سلوى، لأنه غير مؤمن بالله الذي يقال له إنه صاحب هذا الكلام أو هو مؤمن به هذا الإيمان الشكلي الأجوف الذي يتجمل به كثير من الغربيين، دون أن يكون له أي سلطان على تفكيرهم، ومن ثم دون أن يكون له أي تأثير على سير حياتهم... إن النتيجة بالنسبة لهذين الفريقين سواء.

* * *

هذا كله، عن الأجر الذي ألزم الله به ذاته العلية، وادخره لعباده الصالحين، مما قد وصف جانباً يسيراً منه في محكم تبيانه.

أما الأعطيات التي يتكرم الله بها على عباده، علاوة على تلك الأجور التي ادخرها لهم، مما يدخل في عموم معنى الجزاء، كما قد أسلفنا من قبل، فهي نعم ومكرمات عاجلة، وسيحين الحديث عنها عندما نشرح الحكة الآتية قريباً، والتي يقول فيها ابن عطاء الله: ((جلّ ربنا أن يعامله العبد نقداً، فيجازيه نسيئة)).

* * *

الحكمة السبعون

((من وجد ثمرة عمله عاجلاً، فهو دليل على وجود القبول آجلاً))

ثمرة العمل تتنوع حسب تنوع العمل الذي يتقرب به المسلم إلى الله.

فثمرة العبادة، من صلاة وذكر ونسك وحج وصيام ونحو ذلك، تتمثل في حضور القلب وسريان الخشية إلى النفس، والشعور بلذة الإقبال إلى الله ومتعة الدخول في مناجاته، وما يتبع ذلك من صفاء السريرة والتسامي كلياً أو جزئياً على حظوط النفس وما تستلزمه من الوقوع في المنكرات.

وثمرة الأعمال الاجتماعية المبرورة تتمثل في الوصول إلى نتائجها، والمراد بالأعمال الاجتماعية كل ما عدا العبادات المعروفة والمحددة، من آداب الأسرة وحقوق أفرادها وواجبات كل منهم، وأخلاق التعامل مع الآخرين، ورعاية الأحكام الشرعية والعمل جهد الاستطاعة على حسن تنفيذها ودعوة الناس إلى الله وتعريفهم بدينه وتحبيبه إلى قلوبهم، مع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ضمن حدود الاستطاعة.

فثمرة هذه الأعمال تتمثل كما قلت لك في الوصول إلى نتائجها. وقد نبه البيان الإلهي إلى كثير من هذه النتائج، وذلك في مثل قوله عز وجل: ﴿مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ١٦/٩٧] وقوله عز وجل: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَما اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً﴾ [النور: ٢٤/٥٥].

والمراد بالحياة الطيبة في الآية الأولى، شعور الإنسان بالرضا عن الله، والقناعة التامة بما أقامه الله فيه وبما قد متعه به، وغياب الشعور بالمكدرات والمزعجات عن النفس.. والمراد بالاستخلاف في الآية الثانية، تمكين المسلمين في الأرض وردّ غائلة العدوان عنهم، ومدّ رواق الأمن والطمأنينة على حياتهم، وتقطيع أطماع العتاة والظالمين عنهم. وقد أوجز البيان الإلهي هذا المعنى في قوله عز وجل: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظّالِمِينَ ، وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خافَ مَقامِي وَخافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٤/١٣-١٤] وفي قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ﴾ [القصص: ٢٨/٥].

وتأمل في دقة التعبير لدى ابن عطاء الله رحمه الله تعالى: عبّر عن النتائج الطيبة للأعمال الصالحة التي يتقرب بها المسلم إلى الله، بالثمرات، كي لاتلتبس عليك بالأجر الذي قرر في الحكمة السابقة أنه مدّخر ومؤجل إلى يوم القيامة.

إذن، فابن عطاء الله ينبهك إلى الفرق بين الأجر الذي وعد الله به عباده على أعمالهم الصالحة، والثمرات التي من شأنها أن تظهر في حياتهم ثمرة ونتيجة لتلك الأعمال. إن هذه الثمرات ليست إلا مظهراً لصلاح تلك الأعمال. ولولا هذا الصلاح الذي فيها، والذي يتبّدى بنتائجها وآثارها، لما أمر الله عباده بها.

مثال ذلك ما يأمر به الوالد ابنه من الدراسة والجدّ فيها، وما يعده على ذلك من جائزة مالية ادخرها له.. فإذا انقاد الولد لأمر أبيه، وعكف على الدراسة كما طلب، فلسوف يرى ثمرة دراسته نجاحاً في مدرسته، وحصولاً على الشهادة التي كان يسعى إليها.. ثم إنه يتلقى إلى جانب هذه الثمرة التي جناها الأجر الذي وعده به والده أيضاً. ولن تلتبس عليك الثمرة الطبيعية لدراسته والتي كانت السبب في تكليف والده له بالجد في الدراسة، بالأجر الذي وعده به أو المكافأة التي ادخرها له.

فمسألة الأعمال الصالحة التي كلف الله بها عباده، ووعدهم بأجر جزيل عليها، كمسألة الدراسة التي يكلف الوالد ابنه بها، ثم يعده بمكافئة مالية مجزئة عليها.. إن ثمرات هذه الأعمال الصالحة ليست إلا كثمرة الدراسة التي يجدّ الطالب في الإقبال عليها، لاعلاقة لها بالأجر، وإنما هي سبب للتكليف بالأعمال والجهود المثمرة لها، وسبب للأجر الذي أناطه المكلّف بها.

وإذا تبيّن لك هذا المعنى، أدركت مدى كرم الله ولطفه بعباده إذ يأمرهم بما فيه صلاحهم وخيرهم وسعادتهم في حياتهم الفردية

والاجتماعية، ثم إنه (علاوة على ذلك) يلزم ذاته العلية بأجر وفير وعظيم لهم على سعيهم إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم!!.. ونحن نعلم أن الأجر يُعطَى عادة لمن يتعب نفسه ليقدّم خيراً وفائدة للمستأجر، لا للأجير.

ولكن ها أنت ترى أن المستفيد من تنفيذ التكاليف والتعليمات، هو الإنسان، أي الأجير إن صح التعبير، أما الله فهو الغني دائماً عن عباده وصدق الله القائل: ﴿يا أَيُّها النّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ٣٥/١٥].

فما للإنسان يتلقى كل هذا الدلال من ربه؟

يهديه الله إلى ما يضمن له أمنه وسعادته ورغد عيشه في حياته الدنيا، ثم يعده على اتباع هذه الضمانات الأجر الوفير والجزاء العظيم، والمكرمات التي لاحدّ لها؟!..

والجواب: أنها رحمة من نوع الرحمة التي بثها الله في فؤاد الأب تجاه ابنه، إذ يأمره بما فيه صلاحه وسعادته، ثم إنه يعده، إن هو سار في ذلك الطريق وحقق لنفسه السعادة التي يرجوها له، بالمكافآت المالية والهدايا الثمينة، تشجيعاً له وحماية له عن الشرود والوقوع في أسباب التيه.

ولاريب أن رحمة الوالد بابنه إذ تدفعه إلى معاملته على هذا النهج، إنما هي فرع عن رحمة الله عز وجل بالوالد وما ولد، بل بهذه الأسرة الإنسانية كلها، بل بهذه الخليقة جمعاء.

كان هذا الذي قلته لك، بياناً للفرق بين ثمرة العمل، والأجر المدّخر عليه، كي لايلتبس عليك واحد منهما بالآخر.

أما المعنى الذي تدور عليه هذه الحكمة، فهو أن العمل الصالح الذي يتقرب به العبد إلى الله عز وجل قد يكون مقبولاً عنده وقد لايكون مقبولاً، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٥/٢٧]، وقال عز وجل عن أقوام عملوا الصالحات بحسب الظاهر: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً﴾ [الفرقان: ٢٥/٢٣] ولذا فقد كان من شأن الصالحين من عباد الله، إذا وُفقوا لطاعة تقربوا بها إليه، أن يتقلبوا في هم واصب، من احتمال أن تكون طاعاتهم مردودة عليهم، وأن يتطلعوا إلى القرائن التي تطمئنهم إلى قبول الله لها.

فابن عطاء الله يلفت النظر في ذلك إلى قرينة إن وجدت، دلت على قبول الله لها، وهي أن يجد العبد ثمرة طاعته عاجلاً أي في حياة الدنيا، بل ربما أثناء تلبسه بتلك الطاعة.

فمن علائم قبول الله للصلاة أن يشعر المصلي فيها بلذة الإقبال على الله، وأن ينصرف بكليته إليه أثناء خطابه ومناجاته له، وأن يشعر بعظمة من يقف واجفاً بين يديه.. ومن علائم قبول الله لها أن تصدّه عن الوقوع في المحرمات، وأن تبعث في نفسه الرغبة في الرجوع إليها، أي إلى الصلاة مرة أخرى.

ومن علائم قبول الله لذكر الذاكرين، أن تنبعث اليقظة إلى مراقبة الله في قلوبهم، وأن لايكون حظهم من ذكره عز وجل محصوراً في

ألسنتهم، وأن يبعث الخشية من الله في نفوسهم، فيجعلهم مما هم مقبلون عليه من أمر آخرتهم على وجل... وأن يورثهم الطمأنينة على شؤون دنياهم وأسباب معيشتهم..

ومن علائم قبول الله لمناسك الحج إلى بيته الحرام، أن تقطعه عن مشاغل الدنيا وهمومها وعوائقها، فلايلتفت أثناء أداء مناسكه، لا بلسانه ولا بقلبه، إلى شيء من هموم معايشه، بل ينساها أو يتناساها، ولايخوض مع الخائضين في شيء من أمور الدنيا وأحوال الناس، وأن يكون له من إقباله الكلي على الله في طوافه وسعيه ووقوفه بعرفة، ما يملأ قلبه خشية من الله وتعظيماً له واستسلاماً لحكمه وثقة بحكمته.

ومن علائم قبول الله لتلاوته القرآن، أن يشعر أنه ماثل بين يدي الله، وأنه عز وجل يناجيه هو بهذا الكلام، فتأمل كيف يتفاعل هذا الذي يشعر بذلك مع آيات الخوف والرجاء، ومع بيانات الله عن لطفه ورحمته بعباده، وعن عظيم سلطانه وباهر سطوته وحكمه..

ومن علائم قبول الله لانقياد المسلمين للأحكام الاقتصادية والاجتماعية وانضباط علاقاتهم بالمعايير الأخلاقية، أن يتحقق لهم من ذلك عامل ينهضهم من كبوتهم ويحررهم من تخلفهم ويصرف أيدي المعتدين وأطماعهم عنهم، وأن تضمحلّ عوامل الشقاق والتدابر مما بينهم.

وأعود فألفت نظرك إلى أن هذه العلائم كلها، إنْ هي إلا ثمرات ونتائج لتلك الطاعات والسلوكات التي أمر الله بها، وهي الحكمة (أو

جزء من الحكمة) من أمر الله عباده بها.. إذن فهي ليست جزاء أو أجراً على العمل، كما قد سبق أن بينت لك الفرق بين ثمرات العمل والأجر المقرر عليه.

ولعلك تسأل: وهل يتعرض العمل الصالح لعدم قبول الله له، إن جاء وافياً لسائر الشروط والأركان، وجاء تنفيذه حسب المطلوب، حتى يحتاج العاملون إلى تلمّس علامات القبول له؟

والجواب: أن توافر الشروط والأركان وحدها، لايكفي سبباً لقبول الله للعمل الصالح أياً كان نوعه. إن توافر الشروط والأركان في عمل ما من الأعمال الصالحة، أشبه ما يكون بتوافر البنية الجسمية كاملة في كيان الإنسان، هل يكفي تكاملها شرطاً لوجود الحياة؟.. من المعلوم أنه لابدّ بعد هذا التكامل من سريان الروح في سائر أجزائها.

وروح العمل الصالح، أياً كان نوعه، الإخلاص لوجه الله عز وجل، وغياب سائر الأغيار عن قصد العامل وسعيه.

فإذا تلبس العامل بالعبادة، من صلاة أو نسك أو ذكر أو نحوها، وكانت في نفسه حوافز دنيوية أخرى للنهوض بها، فإن الشأن في ذلك العمل أن لايكون مقبولاً من الله عز وجل، ومن ثم لاتظهر آثاره وثمراته التي أشرت إلى بعض منها.

وإذا كانت الأنظمة الاجتماعية في حياة الناس أو بعضهم، متفقة مع شرائع الله وأحكامه، وكانت العلاقات فيما بينهم منضبطة بالأخلاق التي أمر بها الله عز وجل، ولكن كان الحافز إلى ذلك الاتفاق والانضباط، مصلحة من المصالح الدنيوية، أو مصانعة وتجملاً لبعض

الناس، ابتغاء مغنم، أو فراراً من مغرم، فإن تلك الأنظمة والمعاملات الأخلاقية، مهما سمت في رتبة الاتفاق مع أوامر الله تعالى، لن يكون لها أي قيمة في ميزان القبول الإلهي لها، إذ تضيع جدواها ويذبل وجودها، تحت شعاع قول الله تعالى: ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾ [الكهف: ١٨/١١٠] وقوله تعالى: ﴿وَما أُمِرُوا إلاّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٩٨/٥].

إن السرّ الذي يجعل الأعمال الصالحة مصدراً للحياة الطيبة التي وعد الله بها، والذي يجعل الانضباط بشرائعه وأحكامه سبباً لتمكين المنضبطين بها في الأرض، ولتحويل الله قيادة الدنيا إليهم، لايتمثل في الطبيعة المادية لتلك الأعمال الصالحة، ولافي طبيعة تلك الشرائع بحدّ ذاتها، وإنما يتمثل في معنى الانقياد لأمر الله من خلال الانضباط بها. فالقوة والظفر والتمكن في الأرض والتغلب على المعتدين، لايأتي شيء من ذلك نتيجة لانضباط آليّ بسلوك، وإنما يأتي نتيجة لتلبية الله فيما أمر، والقصد إلى بلوغ مرضاته في تنفيذ ما قد شرع وحكم، وانظر كيف يلفت البيان الإلهي نظر العاقل المتدبر إلى هذه الحقيقة، في قوله عز وجل: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظّالِمِينَ ، وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خافَ مَقامِي وَخافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٤/١٣-١٤].

﴿ذَلِكَ لِمَنْ خافَ مَقامِي وَخافَ وَعِيدْ﴾ هذا هو مناط النصر والتأييد وهذا هو سرّ العلوّ والتمكين في الأرض.

أي فلو أن المسلمين تقيدوا بأوامر الله وأحكامه، اقتناعاً منهم بها، أو تقليداً لأمم أخرى، لا انقياداً لأمر الله تعالى أو خضوعاً لما تقتضيه عبوديتهم ومملوكيتهم له سبحانه وتعالى، فإن تقيدهم بها لن يحقق في حياتهم هذه الثمرات والنتائج.

ضمني منذ سنوات طويلة مجلس، كانت فيه ثلة من اليساريين المعتزين بانتمائهم إلى المعسكر الشرقي، وذلك أيام كان في البسطاء من الناس من لايزالون مخدوعين به، معتزين بانتمائهم إليه، كنت أتحدث عن الإسلام وحقيقته وأهميته وضرورة العودة إليه والتمسك به، فقال لي أحدهما مستخفاً:

كم هي المدة التي يضمن لنا الإسلام (إن تمسكنا بتعاليمه خلالها)، أن يحقق لنا آمالنا في التقدم والرخاء والنصر؟

قلت له: إن كنت تشترط على الله، فاعلم أن اللهُ غني عن التزامك بتعاليمه، ومن ثم فليس لك عنده ما يمكن أن تطالبه به.. ولسوف تجترّ تخلّفك وهوانك أنت وأمثالك، ما امتدت بكم الحياة.

ولكن إن جاءك يوم عرفت فيه أنك عبد مملوك لله، وأنه وليك من دون المخلوقات كلها، فخضعت لأوامره وأحكامه لالشيء إلا لأنك عبده ولأنه سيدك ومولاك، فقد قضى الله رحمة منه وإحساناً أن يكرمك بالنصر والتأييد وإنقاذك من سائر دركات التخلف.

ثم قلت له: أنا أعلم أنك شيوعي المذهب والعقيدة، فهل سألت قادة مذهبك هذا عن المدة التي ينبغي أن تقطعها أنت وأمثالك في

خدمته والنهوض بتعاليمه، حتى يتحقق لكم على أعقاب ذلك الرخاء المنشود ويظهر الفردوس المفقود؟!.. أنا أعلم أن هذا السؤال لايخطر منكم على بال، لأن شيوعيتكم دين، والدين لايواجَهُ بمثل هذا السؤال[1].

* * *

وبعد، فهل لك أن تعجب معي من هذه الظاهرة التي ما عرفت لها سراً إلى اليوم، أو أن تكشف لي عن سرها:

يمضي أحدهم الشطر الأول من حياته، متعاملاً مع سائر الأوهام إلا مع الحقيقة، يتخذ لنفسه آلهة كثيرة متنوعة من دون الله، فإذا ذُكّر به أعرض عنه واستخف به، واعتذر بأنه ليس رجل غيبيات وإنما هو رجل علم، ثم إنه يغرق من الأوهام الباطلة التي تصاغ بصياغة العلم، في شبر من ضحضاحها.

فإذا جنحت شمس حياته إلى المغيب، وغزا الشيب رأسه، وسرى الضعف في كيانه، أقبل إلى ما كان معرضاً عنه، وتنبه إلى الحقيقة التي كان ذاهلاً عنها، وخلع عن نفسه ربقة أوهامه، وأقبل مصطلحاً مع الله وقد بايعه عبداً ذليلاً على الضراء والسراء!!..

ألم يكن الشطر الأول من حياته أولى بمعانقة هذه الحقيقة والترفع عن تلك الأوهام؟ أليس الشطر الأول من حياته هو المرحلة التي يتألق

---

(١) ثم أصبح هذا الذي كان متعجرفاً على الله بالأمس، عبداً من عباده الصالحين اليوم، ولله دائماً في خلقه شؤون وشؤون..

فيها الفكر وينضج فيها العقل، ويصل الإدراك فيه إلى القمة، كما يصل فيه النشاط الجسمي إلى الأوج؟

ففيم لايظهر الإيمان ولا التدين في حياة هؤلاء الناس إلا مع مرحلة التقاعد؟ ترى أهي تسلية يجنح إليها هؤلاء المتقاعدون المسنون عند الفراغ، أم هو التفكه بالدين، بعد الشبع من مائدة الأباطيل، والأوهام، وأمنيات النفس ورغائب الأهواء؟..

وما هو موقف الرب الرؤوف الكريم، المحسن الرحيم، من هؤلاء العائدين إليه، مع ثمالة العمر، وبقايا الأيام؟

كل ما أعلم أن لله في خلقه شؤوناً، وأي شؤون!..

* * *

الحكمة الحادية والسبعون

«إذا أردت أن تعرف قدرك عنده، فانظر في ماذا يقيمك»

ورد قريب من هذا المعنى في الحديث الذي رواه الدارقطني والحاكم، من حديث أنس أن رسول الله ﷺ قال: «من أراد أن يعلم ماله عند الله، فلينظر ما لله عنده» ورواه أيضاً أبو نعيم في الحلية من حديث أبي هريرة وسمرة مرفوعاً.

وربما ضعف الحديث بعضهم، ولكنه يقوى بطرقه وشواهده المتعددة. وعلى كلٍ فمعنى الحديث ثابت وصحيح، وهو ما يؤكده ابن عطاء الله في هذه الحكمة.

وقبل أن أبدأ بشرح الحكمة وما يرمي إليه ابن عطاء الله منها، ينبغي أن نتنبه إلى أن الفائدة التي ينبغي أن يتوخاها أحدنا، عندما يحاول أن يستبين مكانته عند الله تعالى، هي الاستغراق في شكر الله عز وجل، ومعرفة المزيد من نعمه وآلائه التي امتن الله بها عليه، دون استحقاق منه، وإنما بتفضل وإحسان منه عز وجل.

فما هو الميزان الذي يبين مقامك أو قدرك - على حدّ تعبير ابن عطاء الله - عند الله عز وجل؟

الميزان الذي يبين ذلك، هو الحال التي تسري في مشاعرك وتهيمن على قلبك، ثم الواقع الذي تنقاد إليه بسلوكك.

أما الحال، فهي تحدثك عن مقامك عند الله تعالى، من خلال ما تعرفه من مكانة الله في قلبك، حباً ومهابة وتعظيماً.

فإن راجعت حالتك القلبية، وكشفت لك هذه الحال عن مدى حبك ومهابتك وتعظيمك لله، فاعلم أن ذلك ليس إلا أثراً من آثار محبة الله لك، بالقدر الذي يهيمن من حبك له على مشاعرك وفؤادك.

ولكن، فما هو الدليل على هذا؟.. ولماذا لايكون الأمر بالعكس؟ أي لماذا لايكون حب الله لك فرعاً ونتيجة لحبك له، أو نوعاً من الأجر والجزاء على توجه قلبك إليه بالتعظيم والحب؟

إن الدليل على ما نقول - وهو ما يقرره ابن عطاء الله - قول الله تعالى: ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥/٥٤] فقد قرر البيان الإلهي محبته لهم، قبل محبتهم له، أي فهم إنما يحبونه بحبه السابق لهم.

ودليل آخر من كتاب الله أيضاً، يتلخص في التكريم الذي أضفاه الله على الإنسان متمثلاً في روحه التي نسبها إلى ذاته العلية، وفي أمره الملائكة بالسجود له، في مظهر آدم عليه السلام، وفي إعلانه البيانيِّ عن هذا التكريم بقوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْناهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ وَفَضَّلْناهُمْ عَلى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء: ١٧/٧٠]، والتكريم لايكون إلا أثراً من آثار الحب. إذن فقد كان حب الله للإنسان سابقاً على حبه له.

ثم إن مآل هذا التكريم، (بقاء، وتفاوتاً في الدرجة، وزوالاً)، إلى ما يقرره الإنسان ويصنعه بحق نفسه، فمن الناس من ازدادت مكانتهم عند الله علواً وتكريماً، ومنهم من تدنت بشكل جزئي، ومنهم من تحولت بهم إلى النقيض فردهم الله - كما قال - أسفل سافلين.

المهم أن الإنسان في أصل نشأته الفطرية مكرم عند الله، وذلك دليل على حبه السابق له.

وهذا دليل على أن في الناس من قد أحبهم الله، فكرمهم ونعمهم، ولكنهم لم يستأهلوا حبه وإكرامه، بما فعلوه في حق أنفسهم من الطغيان بنعمه، وامتطاء صهوة الاستكبار بمظاهر فضله، فسلبهم الله تلك المكرمة.. مكرمة المحبة التي شرّفهم بها.

ولعل الذين تحدث البيان الإلهي عنهم في صدر الآية السابقة، نماذج منهم، وهي قوله عز وجل: ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ...﴾ الآية.

وأما الواقع الذي تنقاد إليه بسلوكك، فهو الجزء الثاني من الميزان.

إن مشاعر الحب لله عز وجل، لاتستبين حقيقتها إلا بآثارها التي لابدّ منها. وهي إنما تتمثل في السلوك المتفق مع تلك المشاعر.. فإذا رأيت أن واقعك السلوكي الذي تنقاد إليه أعضاؤك وجوارحك، متفق مع مقتضى مشاعر حبك لله عز وجل، من الإقبال على الطاعات والقربات، والدعوة إلى الله، والتعريف بدينه وشرعته، وتحبيب ذلك كله إلى الناس، مع الابتعاد عما حرمه الله وحذر منه، فاعلم أن لك من المنزلة عند الله بمقدار ما له عندك من المنزلة التي دل عليها ميزان مشاعرك وسلوكك.

واعلم أن كل مسلم صادق في إسلامه لابدّ أن يكون له نصيب، قل أو كثر، من منزلة القرب والحب عند الله عز وجل. فأقلّ ذلك مما يدلّ عليه إسلامه وإيمانه بالله تعالى، إذ لو لم يكن له عند الله من المنزلة ما يستدعي انجذابه إلى الإسلام وتوجه قلبه إلى الإيمان، لما تمتع مظهره بتعاليمه، ولما سرت عقائده إلى قلبه، وصدق الله العلي العظيم إذ قال: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيانَ أُولَئِكَ هُمُ الرّاشِدُونَ ، فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحجرات: ٤٩/٧-٨].

ثم إن المسلم تزداد منزلته عند الله علواً، كلما ازداد صدقاً مع الله في إسلامه، وكلما ازداد فؤاده حباً وتعظيماً له.

وإذا علمت أن ما لله عندك من منزلة حب وتعظيم له في قلبك، ومن خضوع لتعليماته بسلوكك، ليس إلا ثمرة لمنزلتك عنده ولرحمته بك وفضله عليك، فإن علمك هذا لايمكن أن يدخل شيئاً من التباهي أو العجب في نفسك. وإنما يشعرك بمزيد من المنة والفضل له عليك. إذ لولا العناية السابقة من الله بك، لما تمتعت بشيء من التوفيق اللاحق في سلوكك وحياتك.. والشأن في هذا الشعور أن يزيدك حباً لله وتعظيماً له وتعلقاً به. وإنما تنساق إلى ذلك بدافع من مبادلته، جل جلاله، حباً بحب... لقد أحبك فجذبك إليه، وعرّفك على ذاته وحبب إليك الانقياد لأمره، أفلا تنبعث في نفسك النشوة من هذا الشعور، ومن ثم أفلا تلهب هذه النشوة فؤادك بمزيد من الحب له.

هذه النشوة، هي التي دفعت تلك المرأة التي حدثتك من خبرها في الجزء الأول من هذا الكتاب، إلى أن تقوم في جنح الليل تصلي وتناجي الله قائلة: «اللهم إني أسألك بحبك لي أن ترحمني وتكرمني..» إلى آخر ما كانت تدعو به الله عز وجل.. لم تتحدث عن حبها له، لأنه في نظرها شيء تافه وقليل أمام حب الله لها، ذلك الحب الذي عنه تفرع حبها له، وبه انجذبت إلى الوقوف بين يديه والتمتع بلذة مناجاته له.

فإذا عدت إلى نفسك وشعرت بأن شعاعاً من محبة الله يسري إلى قلبك، ونظرت فوجدت أن الله قد أقامك من شؤون الحياة ووظائفها فيما يرضيه وصرفك عما لايرضيه، فلترقص الفرحة بين جوانحك، إذ كنت، وأنت التافه الحقير، مكاناً لعناية الله بك والتفاته إليك وإقامتك منه في مقام الوداد والقرب، وردِّدْ مع ابن الفارض رحمه الله قوله:

أهلاً بما لم أكن أهلاً لموقعه ... قولُ المبشر بعد اليأس بالفرج

لك البشارة فاخلع ما عليك فقد ... ذُكِرْتَ ثَمَّ، على ما فيك من عوج

* * *

وأما إن عدت إلى نفسك، فرأيتها محجوبة عن شمس الهداية، غارقة في ظلمات الأوهام، تفرّ من الحديث عن الديان، وتستثقل التذكرة بالمآل، وتنتعش بالتقلب فيما هي راحلة عنه؛ ثم عدت إلى واقعك السلوكي، فرأيتَك سجيناً في أودية المعاصي والآثام، لاترتاح إلا في ظلماتها، شارداً عن ساحة العبادات والطاعات، لاتألفها ولاتركن

إليها.. فاعلم إذن أن هذا هو عنوان منزلتك عند الله. واعلم أنه إن طال بك الوضع على هذا المنوال فإنما هو نذير شقاء دائم لا مردّ له ولا رجوع عنه، ولاتفيدك الندامة إلا أن تزجك في مزيد من الآلام.

فإن كانت ذاتك عزيزة عليك، ولم تكن قد هانت لديك إلى درجة اللامبالاة بمصيرها، فتدارك شأنك اليوم، وانتهز الفرصة التي لاتزال ماثلة أمامك..

وسبيل هذا التدارك أن تبدأ فتدخل على الله من باب الفاقة والذل، وأن تشكو إليه حالك، وأن تعتذر إليه بعجزك، وأن تحدثه (وهو العليم بكل شيء) عن رغبتك في الهداية مع عجزك عن الوصول إليها، وعن كراهيتك لعصيانه مع انجذابك إليه ووقوعك في أسره، وعن ضعفك المتناهي الذي أفقدك القدرة على حماية ذاتك من أي سوء.. قل له: لئن طردتني عن منازل تكريمك وعن مدارج توفيقك، فحاشاك أن تطردني عن أبواب رحمتك المفتحة أمام سائر عبادك.. وهاأنا قد جئت إليك من بابك هذا، ارتميت بنفسي في ساحته، وكلّي ضعف وعجز، وذلّ وهوان، فاجعل من ضعفي المتهالك وذلّي المنكسر شفيعاً لي بين يديك.

ألا، ولتعلم أنك إن تداركت أمرك فدخلت على الله من هذا الباب، فلسوف يستجيب دعاءك ويقبل رجاءك، ويذيقك برد ألطافه الخفية ومغفرته الواسعة، وصدق من قال: الصلح بلمحه.

أما إن حال بينك وبين ذلك، الاستكبار، وقامت بين جوانحك من هذه الدعوة التي أذكرك بها وأدعوك إليها، عاصفة من التمرد

والعصبية للذات، ونكران واقع عبوديتك لله، إذن فاهنأ بالكرب الذي يتدانى إليك من شتى الجهات رويداً رويداً، حتى يأخذ منك أخيراً بالخناق، حيث يزجك من ملكوت الله، في سجن من العذاب الواصب الدائم، ولعلك لن تذكر آنذاك من آمال الرحمة الإلهية إلا قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْها لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوابُ السَّماءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِياطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ، لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَواشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٧/٤٠-٤١].

أسأل الله تعالى أن يقيني وإياك من جنون الاستكبار عليه، وأن لاينسينا مملوكيتنا وعبوديتنا له، وأن يجعلنا دائماً على ذُكرٍ من حالنا، ساعة الرحيل عن هذه الدنيا: كتلة من الضعف والعجز والآلام، مستسلمةً لمن بيديه مصيرها وإليه مآلها، ناسيةً ماضي ادعاآتها وسُكْرَ كبريائها، ماثلة بكل ذل وطواعية (يوم لاتغني الطواعية شيئاً) أمام قول الله عز وجل: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالأَرْضِ إِلاّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً ، لَقَدْ أَحْصاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً ، وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَرْداً﴾ [مريم: ١٩/٩٣-٩٥].

* * *

الحكمة الثانية والسبعون

((متى رزقك الطاعة والغنى به عنها، فاعلم أنه قد أسبغ عليك نعمه ظاهرة وباطنة))

تتلخص الطاعة التي يعنيها ابن عطاء الله، في اتباع الشريعة الإسلامية والتقيد بأحكام الحلال والحرام والواجبات.

وهي المنهج الوحيد للسير في الحياة الدنيا إلى الله، بعد بناء العقيدة الصحيحة في الكيان، وتكامل حقائق الإيمان بالله في الجنان.

إذن فلا وصول إلى مرضاة الله إلا على جسر من الانضباط بأوامر الله وأحكامه، بعد تكامل الإيمان بالله ورسله وكتبه.

فإذا وفق العبد لأداء هذه الطاعة، طبق ما تقضي به شريعة الله المأخوذة من قرآنه ومن سنة نبيه، فالمطلوب منه عندئذ أن لايعلق آماله إلا بمغفرة الله وعفوه.

ولنبين أولاً دليل هذا من كتاب الله عز وجل وسنة رسول الله ﷺ. ثم نجيب عن الإشكال الذي قد ينبثق من تفهم هذا المطلوب.

فأما الدليل على ذلك من كلام الله عز وجل فآيات كثيرة: منها قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ ما آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ

راجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠/٢٣] أي إنهم يؤدون ما افترضه الله عليهم من الطاعات، دون أن يشعروا أنهم قد ضمنوا لأنفسهم بها النجاة من سخطه والوصول إلى مرضاته، إنهم يرحلون إلى الله، دون أن يقيموا لطاعاتهم وزناً أو أن يعلقوا بها لأنفسهم آمالاً.

ومنها قوله عز وجل: ﴿يَخافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠/١٦] إنهم يفعلون ما يؤمرون به من الطاعات، ففيم خوفهم إذن من الله، لو كانت آمالهم متعلقة بها؟.. إن البيان الإلهي يوضح أن هذه النخبة الصالحة من عباده، تؤدي كل ماقد طلبه الله منها من القربات والطاعات، ثم ترى أنها لم تؤد شيئاً من حقوق الربوبية عليها، ولم تفعل شيئاً مما يقتضيه شكر النعم الجليلة التي غمرها الله بها، فيهيمن عليها الشعور بالتقصير ويسري في كيانها الخوف من أن يحاسبها الله على ذلك، ولايبقى لديها إلا الأمل بإحسانه ورحمته.

ومنها قول الله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفّارٌ لِمَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: ٨٢/٢٠]. تأمل في قوله: ﴿وَإِنِّي لَغَفّارٌ﴾ ثم تأمل فيمن يعدهم بهذه المغفرة. إنهم أولئك الذين تابوا، وآمنوا، وعملوا الصالحات، فإذا كان المطلوب من العبد أن يعتمد على عمله الصالح الذي قام به بعد الإيمان بالله على النحو المطلوب، فما الحاجة إذن إلى رجاء المغفرة، وإنما هي ملاذ التائهين والعاصين والمسرفين على أنفسهم؟..

ولكن هاأنت ترى كيف أن البيان الإلهي، ينبه حتى الطائعين المستقيمين على أوامر الله، إلى أن عليهم أن لاتتعلق منهم الآمال إلا بمغفرته.. وإنما يعلق أحدنا أمله بمغفرة الله، عندما يرى أنه مفلس من الطاعات، مقصر في أداء الواجبات، إذ المغفرة هي الصفح عن الآثام والتجاوز عن موجبات النكال والعقاب.

ومنها قول الله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بآياتِنا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦/٧].

ودلالة هذه الآية على المعنى الذي يذكره ابن عطاء الله، كدلالة الآية التي قبلها. إذ الرحمة والمغفرة إنما تكونان لمن استحق عقاباً لتقصير أو تفريط بدر منه، فيتداركه الله برحمته فيغفر له. أي فمن كان مؤدياً للحقوق التي عليه، منجزاً لسائر التبعات التي تلاحقه، لاحاجة به إلى الرحمة ولا إلى المغفرة.. إذ هو يملك أجره بمقتضى الحق الذي له.

وهذه الآيات كلها تدور على معنى واحد، هو أن المسلم لايتحرر من ربقة التقصير في حق مولاه، مهما أطاع الله فيما أمر، ومهما ابتعد عما نهى وحذّر. بل إنه في قرباته التي يؤديها، يزداد وقوعاً تحت أعباء المنن الإلهية، إذ وفقه الله إليها وأقدره على أدائها، وشرح صدره للثبات عليها.

إذن فالمطلوب منه أن ينهض بأداء الطاعات، ثم أن يوجه آماله إلى رحمة الله ومغفرته وصفحه، دون أن يقيم لطاعاته وزناً.

أما ما يدلّ على هذا المطلوب ذاته من حديث رسول الله ﷺ، فإن من أوضح ما يدلّ عليه قوله ﷺ في الحديث الذي مرّ ذكره في أكثر من مناسبة ((لن يدخل أحدكم الجنة عمله)) قالوا ولا أنت يارسول الله؟ قال: ((ولا أنا، إلاّ أن يتغمدني الله برحمته))[١].

ومما يدل عليه أيضاً ما صح في أحاديث كثيرة من كثرة استغفاره في البكور والآصال. ومن ذلك قوله: ((إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مئة مرة))[٢]، وقوله: ((إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة))[٣].

وقد علمت أن رسول الله ﷺ معصوم من الذنوب التي تستوجب الاستغفار، وقد كان يحمّل نفسه من عزائم الطاعات والقربات ما لايستطيع أن يتحمله الآخرون، ويقول لهم _ كي لايحمّلوا أنفسهم جهد اتباعه في خصوصياته تلك - ((إني لست كأحدكم...)) ففيم يستغفر الله إذن، لو كان يعتمد في آماله برحمة الله وفضله على طاعاته الشاقة التي كان يجهد نفسه بأدائها؟..

(١) تقدم تخريجه في الصفحة ٢٤٤ من هذا الجزء.

(٢) رواه مسلم وأحمد من حديث الأغر المزني.

(٣) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة.

إن سبب كثرة استغفاره أنه لم يكن يرى لطاعاته الكثيرة شأناً أمام عظيم حقوق الله عليه، وأمام مننه ونعمه الكثيرة التي لاتحصى، فكان لايبارحه، من جراء ذلك، خيال التقصير في جنب الله عز وجل.

* * *

ثم إنه قد يقفز إلى ذهن القارئ أحد الإشكالين التاليين:

الإشكال الأول أن الله تعالى قد جعل الجنة ومايتبعها من المكرمات جزاء للعمل الصالح أو لمن يؤدي العمل الصالح من المؤمنين، فأناط الأول بالثاني، وذلك في مثل قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ كانَتْ لَهُمْ جَنّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً﴾ [الكهف: ١٠٧/١٨] وقوله عز وجل: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢/١٦] وقوله تعالى: ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧/٣٢] وهذا الربط المتكرر من البيان الإلهي بين العمل الصالح والأجر الذي هو النعيم المقيم يوم القيامة، من شأنه أن يؤمل المسلم الذي يتقرب إلى الله بالأعمال الصالحة، بأن تكون أعماله هذه سبباً لمرضاة الله عنه ودخوله جنته، فكيف يتناساها بعد أن يؤديها مخلصاً بها لله وحده؟

والجواب: يتلخص فيما سبق أن ذكرته لك في مناسبة سبقت، من أن هذا الربط الذي تعبر عنه الآيات التي ذكرتها وآيات كثيرة أخرى، إنما هو من طرف واحد، وليس نتيجة عقد من طرفين، كما هو شأن الإنسان مع الإنسان. فقد ألزم الله ذاته العلية أن يخرج من شاء من

عباده من الظلمات إلى النور، وأن يجري الخير على أيديهم، وأن يوفقهم للقيام بالأعمال الصالحة التي ترضيه، وأن يكرمهم ويجزيهم على هذا الذي تفضل به عليهم فيسره لهم ووفقهم إليه، بما قد وعدهم به من المنن والمكرمات التي أعدها لهم يوم القيامة.

فتوفيقه لهم إلى الطاعة تفضل منه وإحسان، والثواب الذي أعده لهم، تفضل أيضاً منه وإحسان، ولكنه جعل - لطفاً منه ورحمة - مكرمته الثانية جزاء لمكرمته الأولى، ولسوف نقف قريباً، إن شاء الله، على الحكمة التي يقول فيها ابن عطاء الله: «كيف تطلب العوض على عملٍ هو متصدق به عليك، أم كيف تطلب الجزاء على صدق هو مهديه إليك».

فإذا عرفت أن عملك وجزاء عملك، كلاهما من فضل الله عليك، فكيف يطاوعك ذوقك الإنساني، فضلاً عن واقع عبوديتك لله، أن تجعل من تفضل الله عليك ثمناً لحق تطلبه لنفسك في مقابله؟!..

إذا تبين لك أن العمل الصالح الذي تقوم به والثواب الذي أعدّه الله لك، كلاهما من عظيم فضل الله عليك، فلم يبق لك إلا الافتقار المطلق إلى مغفرته وجوده، ولاسبيل لك للتوجه إليه وللدخول في رحابه، إلا من هذا الباب.

الإشكال الثاني: أن تعارضاً قد يخيل إليك وجوده، بين التوجه إلى أداء الطاعات انقياداً لأوامر الله، ثم تجاهلها وتناسيها بعد أدائها والفراغ منها.. ذلك لأن الاستجابة لأمر الله هي المدخل إلى مرضاته

والسبيل إلى ثوابه. وتذكر الاستجابة أمر لابدّ منه في هذه الحال، وذلك يعني ارتباط الاستجابة بالثواب.

فالجواب: أن الإشكال كان وارداً، لو أن استجابة العبد لأوامر الله كانت بجهد منه وباستقلالية تامة عن معونة الله وتوفيقه. ولكنك قد علمت أن خالق الفعل هو الله، وأن التوفيق بيد الله، والمتفضل بتقديم العون هو الله، إن استجابة العبد لأمر الله، في هذه الحال، ليست إلا من قبيل المثال الذي سبق أن ذكرته لك: يضع الوالد في جيب ابنه الصغير بعض النقود، ثم إنه يحبب إليه العطف على الفقراء ويوصيه بإكرامهم والتصدق عليهم، ويعده على ذلك بمكرمة وجائزة مالية سخية.. ألا ترى أن استجابة الولد لأبيه بإكرامه الفقراء، عن طريق المال الذي كان قد دسه في جيبه، تفضل من الوالد عليه؟ وإذا غاب هذا الإدراك عن الطفل لصغره، ولأنه لايعلم من الذي ملأ جيبه بالنقود، أفيغيب عنك هذا الإدراك، بعد أن علمت بأن العبد ليس له أمام الله إلا صفة الفقر المطلق، وأنه ما من نعمة يتمتع بها، أياً كانت، إلا وهي آتية من الله؟ وصدق الله القائل: ﴿وَما بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ١٦/٥٣].

فقل لي إذن، كيف يصح أن يجعل العبد من النعمة التي يشكر الله على أن تفضل عليه بها، ثمناً في الوقت ذاته يطمع أن يعطيه الله الأجر عليها؟

* * *

إذن فالمطلوب من العبد أن يحقق عبوديته لله على درجتين:

الدرجة الأولى، الاستجابة لأوامره وتنفيذ أحكامه على الوجه الذي طلب.

الدرجة الثانية، التوجه إلى الله خالي الوفاض صفر اليدين، إلا من الأمل بعفوه ومغفرته.

وإذا لم يتحقق العبد بهاتين الدرجتين من معنى عبوديته لله، لم تخل طاعاته وعباداته من شوائب الشرك مع الله عز وجل.

وقد كان في العلماء الربانيين من يقول: إذا سمعت نداء الله يأمرك أو ينهاك، فاعلم بأنك موجود ومكلف، وبادر إلى تنفيذ ما قد أمرك به ونهاك عنه. فإذا نفذت وأطعت، فاعلم بأنك لاشيء، وأن الله هو المتفضل بذلك عليك، وهو الخالق لفعلك.

فإذا تحققت بعبوديتك لله، على هاتين الدرجتين، فاهنأ بأن الله قد أسبغ عليك نعمة كلها، ظاهرةً وباطنةً.

أما أنه أسبغ عليك نعمة الظاهرة، فلأنه وفقك لطاعاته، والانضباط بشرائعه وأحكامه.. وأما أنه أسبغ عليك نعمة الباطنة أيضاً، فلأنه أغناك به عنها، أي أغناك بالاعتماد على صفحه عن تقصيرك، ومغفرته لأخطائك، وبأملك في واسع رحمته، عن الاعتماد على ما قد تفضل به عليك من التوفيق لطاعاته.

فهذا ما يعنيه ابن عطاء الله بقوله: متى رزقك الطاعة والغنى به، فاعلم أنه قد أسبغ عليك نعمه ظاهرة وباطنة.

* * *

الحكمة الثالثة والسبعون

((خير ما تطلبه منه، ما هو طالبه منك))

سبق أن علمت في مناسبات كثيرة مرت، أن كل ما قد يطلبه الله من عباده، من خلال الشرائع والأحكام التي يخاطبهم بها، مردّه إلى تحقيق مافيه خيرهم وسعادتهم، في عاجل أمرهم وآجله.

فما يكلف الله عباده، آمراً أو ناهياً، بشيء، إلا وفي ذلك التكليف خير لهم، فإما أن يكون مردّ ذلك الخير إلى الأفراد ومصالحهم الشخصية، وإما أن يكون مرده إلى الهيئة الاجتماعية، وما ينبغي أن تكون عليه علاقات الناس بعضهم مع بعض.

وما أجمل ما يقرره العز بن عبد السلام رحمه الله، في صدر كتابه: (قواعد الأحكام في مصالح الأنام)، قائلاً:

((الشريعة كلها مصالح، إما أن تدرأ مفاسد، أو تجلب مصالح. فإذا سمعت الله يقول: يا أيها الذين آمنوا، فتأمل وصيته بعد ندائه، فلاتجد إلا خيراً يحثك عليه، أو شراً يزجرك عنه، أو جمعاً بين الحث والزجر))[1].

---

(١) قواعد الأحكام في مصالح الأنام ص٩، ط مصطفى محمد.

وحسبك دليلاً على هذا قول الله عز وجل: ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٨/٢٤].

وأساس ذلك أن الإنسان لما لم يكن يتسع علمه وإدراكه للغيب الذي هو مقبل عليه، فقد كان عاجزاً عن رسم منهاج سلوكي يحمي مصالحه من الآفات والتوقعات المحتملة، إنه كثيراً ما يعتمد على توقعاته الفكرية وهواجسه النفسية، فيجتهد في رسم ما يصلح شأنه، ولكنه معرض دائماً للإصابة والخطأ.

ثم إنه بقطع النظر عما يأتي به المستقبل مما يجهله الإنسان، لايكاد أحد من الناس يدرك فرق مابين المصالح التي تسعد الأسرة الإنسانية والمفاسد التي تشقيها، عندما يعتمد في ذلك على تجاربه ومدركاته الشخصية. والدليل على ذلك أن علماء الفلسفة والاجتماع والأخلاق، بذلوا جهوداً شاقة، منذ أقدم العصور إلى اليوم، بحثاً عن ميزان يكتشفونه ويجمعون عليه، لاعتماده في التفريق بين المصالح والمفاسد، فلم يصلوا من جهودهم تلك إلى أي قرار، إنما الشيء الذي اجتمعوا واتفقوا عليه، بدءاً من أقدمهم اهتماماً بهذا الأمر، وهو الفيلسوف اليوناني أبيقور (٢٣٠ ق.م) إلى أحدث العلماء المعاصرين المهتمين بالأمر ذاته، من أمثال بنتام وهوبز وستوارت ميل، هو أن المجتمع الإنساني لايمكن أن يلتقي في عصر ما على تحديد المصالح الإنسانية والتمييز الدقيق بينها وبين المفاسد التي ينبغي أن يتجنبها(١).

---

(١) انظر ما قاله في بيان ذلك، بنتام في كتابه أصول الشرائع، ترجمة أحمد فتحي زغلول، ١/١٧.

ذلك لأنه لن يكون بصيراً بما سيأتي به المستقبل، وبما قد يفاجأ به الإنسان في تلافيف الغيب المجهول، هذا إلى جانب الأعراف والعادات المختلفة، التي كانت ولاتزال تتحكم بحياة المجتمعات الإنسانية وسيرها.

أقول: وثمة سبب آخر، هو من الأهمية بمكان، ألا وهو أن الإنسان عندما يستقل بالنظر في مصالحه، اعتماداً على تجاربه ومعلوماته الذاتية، فإن المعيار الزماني الذي يقيس به المصالح والمفاسد له أو لبني جنسه، إنما هو معيار ضيق محدود بعمر الدنيا وحدها، إذ إنه - وقد انطلق إلى هذه الدراسة من معلوماته الشخصية وتجاربه ومدركاته الذاتية - لايبصر من وراء حدود الدنيا امتداداً لمزيد من الحياة أو انتقالاً إلى حياة أخرى، بحيث يرى لنفسه أو لبني جنسه هناك آمالاً يتخذ مما بينه وبينها وسائل لتحقيقها[١].

ولكن الله الذي فطر الإنسان على ما فطره عليه من احتياجات تصلح شأنه، وأقامه في دنيا مليئة بالآفات التي تفسد شأنه وتعكر صفو سعادته، وأقامه من الزمن الذي خلقه فيه على منهاج رحلة ذات ثلاثة مقاطع، مقطع هذه الحياة الدنيا التي تنتهي بالموت، ومقطع الحياة البرزخية التي تنتهي بقيام الساعة، ومقطع اليوم الآخر الذي يسلم الإنسان إلى مستقره الأخير - أقول: لاشك بأن هذا الإله الفاطر لكيان الإنسان، الواضع والمحدد لمنهاج رحلته، هو البصير بالمصالح التي تسعده فرداً ومجتمعاً، وبالمفاسد التي تشقيه أو تسيء إليه فرداً ومجتمعاً أيضاً، هو البصير بهما على مستوى رحلته الطويلة كلها، بدءاً

(١) انظر ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية للمؤلف ص٣٤.

من وجوده في هذا المستودع الدنيوي إلى وصوله لذلك المستقر الأخروي.

وقد علمت أن الله غني عن عباده، وأنهم هم الفقراء إليه، فليس في شيء مما يطلبه منهم ما قد يعود بنفع ما إليه، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وإنما مردّ ما فيه من نفع إليهم. بل إنه عز وجل لم يطلب منهم فعل شيء أو الانتهاء عن شيء إلا لما في ذلك من خير لهم من حيث الفرد أو المجتمع. وربما خفي ذلك على الناس لقصور أفهامهم - كما قلنا - عن معرفة المستقبل، ولكن تلك هي الحقيقة. وصدق الله القائل: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢/٢١٦].

فإذا تبينت هذه الحقيقة، وتكامل يقينك بها، فإن أجمع دعاء يتضمن طلب كل ما يتوقف عليه صلاح أمرك في دنياك وآخرتك، أن تسأل الله تعالى التوفيق للنهوض بكل ما قد طلبه منك.

فإنه إن استجاب دعاءك، وفقك للنهوض بكل ما قد طلبه منك، وإذا قمت بما قد طلبه منك حق القيام، ازدهرت ثمراته في حياتك أمناً وطمأنينة وعافية ورزقاً وافراً، وانشراحاً في الصدر وسكينة في القلب.

* * *

يضاف إلى هذا الذي يدلّ عليه كلام ابن عطاء الله، جانب آخر، يمكن أن يشمله ويدلّ عليه أيضاً، وهو أن المسلم الذي يوجه كل اهتمامه للنهوض بالتكاليف التي خاطبه الله بها، فينشغل بها عن النظر

في شؤونه الشخصية وحاجاته الدنيوية، سيجد من لطف الله به ورعايته له ما لايدخل في الحسبان، إنه وقد شغل نفسه عن النظر في شؤون دنياه وأهله، بالانصراف إلى تنفيذ أوامر الله وأحكامه، والعمل على بلوغ مرضاته، سيجد أن الله عز وجل قد أقام من ذاته العلية، وكيلاً عنه في رعاية مصالحه وتحقيق متطلباته.

إننا كثيراً ما نردد هذه الكلمة القدسية «حسبنا الله ونعم الوكيل» ولكن مصداقها لايتجلى في أي من الأحوال، كما يتجلى في حال من ذهل عن دنياه بدينه، وأهمل متطلباته، في جنب متطلبات مولاه وربه. إذ إن الله أكرم من أن يهمل العبد في سبيل بلوغ مرضاته، شيئاً من أمور دنياه، ثم لايكون الله أشد غيرة عليها منه.

وفي الحديث القدسي: «من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين»[١].

ولكلمة الذكر معنى شامل يتسع لسائر الطاعات والقربات التي يبتغى بها وجه الله عز وجل. إذ هي جميعاً نوافذ وفرص لذكر الله تعالى.

* * *

ثم إياك أن تتصور من هذا الذي يذكره ابن عطاء الله، وشرحت طرفاً منه بهذه الأسطر، أنها دعوة إلى ترك الدعاء، مع أن الله يقول: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠/٤٠] أو أنها دعوة إلى

(١) رواه البخاري في التاريخ، والبزار في المسند، والبيهقي في شعب الإيمان من حديث عمر بن الخطاب.

إهمال شؤون الدنيا، والإعراض عما للإنسان من مصالح فيها، فإن ما يرمي إليه ابن عطاء الله بمعزل عن كل من هذين التصورين.

أما أنه ليس دعوة إلى ترك الدعاء، فلأن ابن عطاء الله يذكّرك بالدعاء وأهميته، ولايحذرك منه أو يغريك بتركه، وإنما يوجهك إلى أفضل ما ينبغي أن تطلبه من الله وما ينبغي أن تدعو به.

إنه يلفت نظرك إلى الدعاء الجامع لسائر الخيرات وجميع المصالح العاجلة والآجلة، ويرى أن من الخير لك إذا سألت الله أن تسأله بأقصر عبارة ما يشمل ذلك كله.

وأما أنه ليس دعوة إلى إهمال شؤون الدنيا والإعراض عن مصالح الإنسان فيها، فلأنه إنما يصرفك عن التوجه إلى الله بطلب تيسيرها وتحقيقها أي الشؤون الدنيوية ليدعوك بدلاً عن ذلك إلى التوجه إليه بأداء تعاليمه وتنفيذ أحكامه، والعكوف على ذكره، وهو إذ يدعوك إلى ذلك لايصرفك عن الاشتغال بمصالحك الدنيوية من كدح في سبيل الرزق أو انصراف إلى صناعة أو زراعة أو تجارة أو دراسة، للتفرغ للعبادة ومجالس الذكر.

أي إنه يخاطب من بذل كل ما يملك من جهد في سبيل مصلحة من مصالحه الدنيوية، ولم يقصر في ذلك قط، ثم أقبل إلى الله يدعوه أن يحقق له ثمرة سعيه، يخاطبه قائلاً: إنك قد بذلت كل ما لديك من طاقة لتحقيق مصلحتك الدنيوية هذه، فاترك الأمر إذن لتدبير الله، وتوجه إليه بأداء أوامره وتنفيذ أحكامه، وسله أن يوفقك للنهوض بها على النحو الذي يرضيه. ولسوف يتولّى عنك تدبير ما قَصُرَتْ جهودك عن تدبيره.

وهذا ما يدل عليه الحديث القدسي الذي ذكرته وذكّرتك به آنفاً وإليك ما يقوله في التنبيه إلى هذا المعنى الدقيق، سيدي الشيخ أحمد الرفاعي في كتابه البرهان المؤيد:

((علامة جهلك اشتغالك بنفسك وأهلك، لا أقول لك: دعهم على حافة الإهمال، وخذ لك صومعة في الجبال، بل أقول لك: تقرب إلى الله بخدمة عيالك، وروح نفسك وطب بربك عن الكل)) ثم يقول: ((استقم بالخدمة على قدم الشريعة، واحفظ نيتك من دنس الوساوس، وأمسك القلب عن الميل إلى الناس، وكل خبزاً يابساً وماء مالحاً من باب الله، ولاتأكل لحماً طرياً وعسلاً من باب غير الله، وتمسك بسبب لمعيشتك بطريق الشرع، من كسب حلال، واترك الحيلة بالسبب..))[1].

تأمل في قوله أولاً: تمسك بسبب لمعيشتك بطريق الشرع، ثم في قوله ثانياً: واترك الحيلة بالسبب. ولاحظ الفرق بينهما: التمسك بسبب مشروع للمعيشة، وترك التحايل على الله التسبب للمعيشة.

فابن عطاء الله إنما ينهاك عن هذا التحايل المغلف بالتسبب للمعيشة ولاينهاك عن التسبب الشرعي المطلوب لها.

* * *

(١) البرهان المؤيد لسيدي الشيخ أحمد الرفاعي ص١٠١-١٠٢ و١٠٤.

الحكمة الرابعة والسبعون

((الحزن على فقدان الطاعة مع عدم النهوض إليها، من علامات الاغترار))

عرف سيدي الشيخ أحمد زروق رحمه الله الحزن، في شرحه لهذه الحكمة، بأنه انقباض القلب لفوات محبوب، أو خوفاً من حصول مكروه. أي فهو إما أن يكون انقباضاً لأمر قد وقع أو توقعاً لمكروه قد يقع.

أقول: لعل أكثر ما يراد بالحزن انقباض القلب وتأثره لمكروه قد وقع فعلاً. أما الاضطراب الذي يساور النفس من توقع مكروه قد يحصل، فيغلب أن يعبر عنه بالغم، أما الهم فيشمل الحالين معاً، أي يكون على الماضي ويكون على المستقبل أيضاً.. وقد قال عمر بن الخطاب في خطبته التي ألقاها يوم قضى بالحجر على الأسيفع: ((ثم إياكم والدين، فإن أوله هم، وآخره حزن))[1].

والمقصود أن قيمة الحزن إذ يساور الشعور به الإنسان، إنما تتمثل في أن ينهضه إلى تدارك ما فات، بفعل متروك، أو بإصلاح فساد، أو

---

(١) الموطأ مع شرح المنتقى جـ ٦ ص١٩٦.

تكميل نقص، أو تقويم اعوجاج. فذلك هو الدواء الذي يتم القضاء به على مرض الحزن.. ومن ثم فإن الشأن فيمن ساوره الحزن، حقاً، على تقصيره في أداء الطاعات التي أمره الله بها، أن ينهض فيتداركها، بالتوبة من ماضي تقصيره، والمبادرة إلى قضاء ما فاته مما يشرع قضاؤه، وملازمة القيام بها على النحو المطلوب، فيما بقي من عمره. فبذلك يتخلص من حزنه وكربه.

ولكن في الناس من يجعل مما يبدو من مشاعر حزنه، وظيفة مقصودة لذاتها، ومن ثم فهو يتخذ منها تعويضاً عن استدراك ما فاته، وبديلاً عن إصلاح حاله والنهوض بما عليه من حقوق الله عز وجل.

ويظن هذا الفريق من الناس أن وقوف أحدهم عند جدار الكآبة والحزن بسبب ماضي تقصيره في جنب الله، هو بحدّ ذاته مصدر للمثوبة وكفارة للأوزار، وربما فهمه واستدلّ عليه من قول رسول الله في حديث «سبعة يظلهم الله..»: «ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه».

غير أن هذا التصور، من أخطر علامات الاغترار، كما يقول ابن عطاء الله.

لأن الحزن بحدّ ذاته ضرر لافائدة منه، وألم لا يمازجه خير. وإنما فائدته فيما قد يبعث إليه من إصلاح الحال وتدارك المآل، فمن اجترّه دون أن ينهض به إلى شيء من ذلك، فهو شر لاخير فيه وألم لاجدوى منه.

وأغلب الظن أن الذي تبدو لك من حاله ظاهرة الحزن، في زفرات يطلقها أو دموع يسكبها، أو كلمات حارة في باب الندامة يرددها، ثم

لايحرك ساكناً ولايصلح فاسداً مما يأسى ويتألم بسببه، إنما يفعل ذلك تمثيلاً، ويؤديه اصطناعاً، إما ليرفع بذلك لنفسه شأناً أمام الناس، أو لما استقر في نفسه جهلاً، من أن الوجل المصطنع والبكاء المجرور، يسجلان له عند الله مثوبة وأجراً، ويمحوان عنه كثيراً من الآثام والأوزار.

لاريب أن هذه الحال، إن كانت كما قد وصفت لك، مظهر من مظاهر النفاق، وقد ورد في الأثر: «إذا استكمل الرجل النفاق ملك عينيه يرسلهما متى شاء» ومما يؤثر عن أبي سليمان الداراني قوله: «ليس البكاء بتعصير العيون، وإنما البكاء أن تترك الأمر الذي تبكي منه».

وتفصيل القول في ذلك أن الحزن الذي يتحدث عنه ابن عطاء الله يستوجب الخوف، الخوف مما ينتظره يوم القيامة من جراء ما قد فرط منه وقصر فيه. وإذا تحقق لديه الخوف، فلابدّ أن يظهر أثر ذلك - كما يقول حجة الإسلام الغزالي - في جوارحه، وفي صفاته.

أما في الجوارح فبكفها عن المعاصي وتقييدها بالطاعات تلافياً لما فرط، واستعداداً للمستقبل، وقد قال العلماء الربانيون: من خاف شيئاً هرب منه، ومن خاف الله هرب إليه.

وأما في الصفات فبأن يقمع الشهوات ويكدّر اللذات، فتصير المعاصي التي كانت محبوبة عنده مكروهة، كما يصير العسل مكروهاً عند من يشتهيه إذا عرف أن فيه سماً، فتحترق الشهوات في ضرام الحزن والخوف، ويحصل في القلب الذبول والخشوع والذلة

والاستكانة، ويفارقه الكبر والحقد والحسد، بل يصير مستوعب الهم بسبب النظر في خطر عاقبة أمره[١].

ولكن أفإن وجد الحزن الذي يعقبه الخوف، حقيقةً، عند صاحبه، هل من النتائج الحتمية لذلك، الإقلاع عما مضى من السيئات، وتدارك ما بقي من العمر بالإصلاح والاستقامة على الواجبات؟

يبدو أن هذه النتيجة غير حتمية الوقوع دائماً.. أي ربما كان المسلم صادقاً في حزنه وفي خوفه الذي يساوره، ومع ذلك لايقوى على إصلاح حاله وتدارك شأنه، إذ تكون أهواؤه وغرائزه المهتاجة أقوى في سيطرتها عليه، من الحزن الذي ينتابه، فيحزن ويجزع، ثم ما يلبث أن يعود إلى سوء حاله.

وقد سبق أن ذكرت لك، أن المؤمن قد يكون قلبه فياضاً بالمحبة لله عز وجل، ولكنه يعود إلى نفسه فيرى أنه عاجز عن أداء حقوق هذا الحب لمحبوبه أي لله عز وجل. ذلك لأن مشاعر قلبه أقوى من قدرات جسمه ولواعج غرائزه.. وكثيراً ما تتبدّى هذه المفارقة في مواقف يعلن عنها المحب تعبيراً عن مشاعره الصادقة، ثم في التراجع عنها أمام ما يفاجأ به من طاقاته المحدودة، وضربت أمثلة لذلك.

فمشاعر الحزن وما يعقبها من الخوف، شأنها كشأن مشاعر الحب تماماً. قد يصدق أحدهم في الحزن الذي ينتابه من سوء حاله، ويهيمن عليه الخوف من مصيره إن هو ظل على هذه الحال، حتى إذا عزم على الإقلاع عما هو فيه، واجهته نفسه الأمارة بالسوء فوقفت له بالمرصاد، وتغلبت نوازعها وأهواؤها على مشاعر حزنه وخوفه.

(١) انظر إحياء علوم الدين ٤/١٥٦.

فهل نعده في هذه الحالة مغروراً، كما يفهم من كلام ابن عطاء الله؟

الذي تسكن إليه نفسي، أن المسلم عندما ينتابه الحزن لما اقترفه من آثام، ثم ينظر فيجد أن نفسه الأمارة متغلبة عليه لايستطيع أن يتحرر من سلطانها وأهوائها، يفترض فيه، إن كان صادقاً في حزنه ومخاوفه، أن يلوذ من ضعفه الذي يعاني منه بقوة الله وتوفيقه. فيكثر من الالتجاء إلى الله بالدعاء الضارع يداوم عليه، يسأله أن يقيه من غوائل نفسه وأن يجعله في حصنه الحصين من شر كل ما يتهدده من سوء.. فإنه إن عالج نفسه بهذا الدواء، وداوم عليه، فلسوف ينجده الله ويستجيب دعاءه ويخلصه من غوائل أهوائه، ولو بعد حين.

ولقد حدثتك في الجزء الأول من هذا الكتاب عن جار لي أمضى الشطر الأكبر من عمره مسرفاً على نفسه مرتكباً للموبقات، ثم إنه تحول فجأة إلى أعلى درجات الهداية والانضباط بأوامر الله.

ولما زرته مهنئاً بتوبة الله عليه، أخبرني أنه كان أيام فسوقه وعصيانه كثير الالتجاء إلى الله، وأنه كان يناجيه في أنصاف الليالي، والشراب المسكر أمامه، قائلاً: اللهم إنك تعلم أن هذا الجدار الذي يحجبني عنك لاقبل لي بإزالته، لأنني كما تعلم ضعيف، فمالك لاتزيله مما بيني وبينك بقدرتك التي تملك بها أن تفعل كل شيء؟.

إذن فإن أحزانه التي كان صادقاً فيها، مع ضعفه الذي كان يعاني منه، كان يوجهه إلى باب الله تعالى داعياً متضرعاً منكسراً، وكان هذا دأبه وديدنه، كما قد علمت منه.

والشأن في كل من تكون حاله كذلك، ويلوذ بباب الله كما كان يفعل ذلك الشخص، مداوماً على ذلك، أن ينتشله الله من سوء حاله وأن ينقذه من بواعث حزنه وهمه، إن عاجلاً أو آجلاً، كما انتشل جاري هذا من أسوأ ما كان يعاني منه من الفسوق والعصيان.

ولكن الذي يعبر عن مشاعر حزنه وخوفه، ثم لايدفعه ذلك إلى الدعاء والتضرع على أعتاب الله، فالذي يترجح لديّ، أنه غير صادق في التفاعل مع أحزانه ومع الخوف الذي لابدّ أن ينتابه على أعقابه، إذ لو كان صادقاً لـهُرِع إلى باب الله يلوذ به، لاسيما وإن المسلم أياً كانت حاله يعلم أن الله بيده كل شيء، وأنه يجيب دعوة الداعي إذا دعاه فكيف يجزع من السوء الذي يلاحقه، ويرى الملجأ الذي ينجيه منه أمامه، ثم لايلوذ به ولايلجأ إليه.

فلعل الذين يعنيهم ابن عطاء الله بالغرور، فيما ينتابهم من مشاعر الحزن، دون أن يصرفهم الحزن عن آثامهم ويسوقهم إلى القيام بالطاعات، أولئك الذين يركنون إلى وطأة الحزن، دون أن يدفعهم العجز عن إصلاح الحال، إلى طلب العون من الله، وكثرة الالتجاء إليه، والدعاء بأن يصلح حالهم ويقوم إعوجاجهم، إن مثل هذا الحزن يشبه أن يكون وضعاً تقليدياً، وحالاً يتعامل معها كثير من الناس، وهو شأن كثير من النساء عندما تسمع إحداهن آية مخيفة في كتاب الله، فتسكب الدموع، وتطلق الآهات، وتتحسر على مافات، دون أن تجد أي دافع يدفعها إلى إصلاح الحال والتهيء للمآل. فهي ليست أكثر من حال اعتاد عليها كثير من النساء، وربما كثير من الرجال أيضاً.

على أنه لاالحزن ولا الخوف الذي يأتي على أعقابه، يمكن لأي منهما أن يرقي بالإنسان إلى مستوى العصمة من الآثام والذنوب.

فالمسلم - حاشا الرسل والأنبياء - مهما ساوره الحزن والجزع من انحرافاته وكثرة هفواته، سيظل معرضاً لارتكاب المحرمات. ولله في ذلك حكمة كبرى ليس هذا مجال شرحها وبيانها.

ولعل من أهم ما تستلزمه هذه الحال، أن يظل المسلم نزاعاً إلى الحزن، ولقد صح أن رسول الله كان دائم الأحزان، على الرغم من أنه كان معصوماً، إذن فأحرى بنا نحن المعرضين للمعاصي والآثام، أن تكون مشاعر الحزن رفيقنا الدائم على الدرب، حتى يأتي قضاء الله الذي يحمل لنا معه البشارة بالمغفرة والرضوان.

ولو رجعت إلى تراجم الصالحين من العلماء الربانيين، لرأيت أن سيما الحزن لم يكن يفارقهم.. وكيف تفارقهم في أي من ساعات صحوهم، ووصية رسول الله: «وابك على خطيئتك» ماثلة أمام أبصارهم، وإذا كانت هذه وصية رسول الله لأصحابه البررة الكرام، فما بالك بمن جاء بعدهم، فمن بعدهم إلى يومنا هذا.

ولو كان للحزن أن يفارق عبداً من عباد الله الصالحين في هذه الدنيا لما كان انفكاك هذا الحزن عنهم يوم القيامة، عندما يتلقون نبأ رضوان الله عنهم، من أول ما يحمدون الله عليه، قائلين: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ، الَّذِي أَحَلَّنا دارَ الْمُقامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لا يَمَسُّنا فِيها نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنا فِيها لُغُوبٌ﴾ [فاطر: ٣٥/٣٤-٣٥].

اللهم اجعلنا جميعاً من هؤلاء الذين سيحمدونك على ذلك، إنك مجيب الدعاء.

الحكمة الخامسة والسبعون

((ما العارف من إذا أشار وجد الحق أقرب إليه من إشارته، بل العارف من لا إشارة له، لفنائه في وجوده، وانطوائه في شهوده))

العارف، من بلغ من توحيده لله، وثقته بالله، وتوكله على الله، وتفويضه إلى الله، درجة تفنى فيها إرادته فيما يريده الله، وتنطوي فيها الأسباب تحت سلطان الله، وتذوب فيها المشهودات في وهج من شهود الله.

وليس معنى ذلك ما قد تتوهمه من أنه ينقطع عندئذ عن التعامل بالدنيا، وتنبّت علاقته بالآخرين؛ بل يتعامل معها ومعهم كسائر الناس، وتظل علاقته بهم كما كانت، ولكنه إذ يتعامل مع الدنيا وأسبابها لايرى نفسه إلا مع الله، وهو إذ يمارس شؤونه مع الناس وينشط معهم في قضاياهم الاجتماعية وغيرها، لايعلم من حاله إلا أنه يتعامل مع الله، فهو كما قالوا: عرشي وفرشي بآن واحد، عرشي مع الله في مشاعره وباطن حاله، وفرشي مع الناس في تصرفاته وظاهر حاله، ويعبّر عن هذا كله خير تعبير ما هو مأثور من قول أبي بكر

رضي الله عنه، عن نفسه: مارأيت شيئاً إلا ورأيت الله معه وقبله وبعده، كما يعبرّ عنه قول الإمام فخر الدين الرازي رحمه الله: ((كن ظاهراً مع الخلق، باطناً مع الحق)).

وهي أعلى درجات السلوك إلى الله، بعد النبوة. وقد كانت الصفوة من أصحاب رسول الله ﷺ يتبوؤون هذه المرتبة.

ولعلك تحسب أنها ظاهرة طارئة لم تتجل إلا في حياة طائفة من السالكين بعد عصر رسول الله ﷺ، وهو وهم ينجرف فيه كثير من الناس في هذا العصر.

إن ماحدثتك عنه من صفات العارفين، وأحوالهم، التي أنستهم أنفسهم وشغلتهم عن حظوظهم ورغباتهم، ووجهت أفئدتهم إلى الله، وطوت رغائبهم وحظوظهم وأهواءهم، فيما يرضي الله وحده، هو من أخص صفات النخبة المتميزة، من أصحاب رسول الله. غير أنها كانت حالاً صامتة في حياتهم، ليس فيهم أو فيمن حولهم من يصفها أو يعبر عنها أو يحللها، ثم يدوّنها في مراجع ومؤلفات.. أما الذين بلغوا هذا الشأو من العلماء الربانيين الذين جاؤوا من بعدهم، فقد اقتضت طبيعة العصر الذي كانوا فيه، أن يوجد من حولهم من يتتبع أحوالهم بالدراية والدراسة والتحليل، كما اقتضى ذلك بروز مصطلحات لم تكن مألوفة ولا موجودة من قبل.

فهذا هو السبب الذي يخيّل إلى بعض الناس، أن كلمة ((العارف)) وما تحمله من دلالات حدثتك عنها، ظاهرة طارئة تلت عصر النبوة، وربما أقحمها بعضهم في قائمة البدع المستحدثة، وهو - كما علمت - تسرع في محاولة الفهم، وعجز عن إدراك الحقيقة.

والآن: ما المراد بالإشارة فيما يذكره ابن عطاء الله هنا؟

لعل خير تعريف بها أن نقول: هي استنباط أسرار التوحيد من وقائع الكون وأحداثه.

وهي إنما تأتي نتيجة لتتبّع أحداث الكون وتقلبات الدنيا، وتلّون أحوال النفس، ثم استنباط الإرادات الربانية منها، إذ تكون تلك الاستنباطات هي المعنية بالإشارة التي يصطلح على التعبير بها علماء السلوك.

والعارف الكامل الذي يتحدث عنه ابن عطاء الله هنا، غير معني بالالتفات إلى أحداث الكون وتقلبات الدنيا، وتطور الأحول، سواء في أمر نفسه، أو في شأن ما حوله، وغير متمكن من تتبعها والتأمل فيها، بمعزل عن شهود الله ورؤية حكمه وقضائه.

وعلى سبيل المثال، فإن أحدنا يعود إلى نفسه عندما يرى محناً تطوف به، فيتعامل مع تلك المحن بإحدى حالتي الجمال أو الجلال، فإن تغلبت عليه حال الجمال، استقبل تلك المحن على أنها سبب لعلوّ مرتبته عند الله فاستبشر بها ورأى فيها مصدر خير. وإن تغلبت عليه حال الجلال رأى فيها - أي في تلك المحن - نذير شر، إذ هي فيما غلب على ظنه ثمرة لذنوبه وإعراضه عن الله.

فهذه الحال إحدى إشارتين يتلقاها أحدنا، لدى رجوعه إلى نفسه واهتمامه بها، والنظر في حظوظها، ودورانه حول ما يهمّه من شأنها.

غير أن العارف الكامل من شأنه أن يتسامى عن هذه الحال، إذ هو في وضع لاشأن له فيه بنفسه قط، إنه مستسلم في كل تقلباته والأطوار

التي تفاجئه، لإرادة الله، ثم إنه ليس معنياً إلا بما يرضي الله عنه، ومن ثم فهو لايتلقى من المحن التي تصادفه أو من المنح التي يواجهها، أي إشارة تربط ما بين نفسه وربه، حتى ينبعث لديه الشعور بالجمال سروراً بما سيعود إلى نفسه بسبب تلك المنح أو المحن من خير، أو حتى ينبعث لديه الشعور بالجلال تألما لما استوجبته نفسه من تلك المحن أو تخوفاً لما تستبطنه له من شرٍ تلك المنح.

إنه ذاهل عن حظوظ نفسه، فكيف يلتفت إلى الإشارات التي تبعث لديه مشاعر الفرح بما سينالها من خير، أو التي تبعث لديه مشاعر الحزن بما قد ينالها من بؤس وكرب؟..

ولعلك ازددت يقيناً الآن، بأن هذه الحال التي وصفتها لك، هي بذاتها الحال التي كان الصفوة المتميزة من أصحاب رسول الله[1]، يتقلبون فيها. لم تكن اهتماماتهم بنفوسهم وحظوظها هي محور سلوكاتهم وأنشطتهم الدينية. بل كان بلوغ رضا الله، بقطع النظر عن نفوسهم، هو محور سلوكاتهم وأنشطتهم كلها. فلم يكونوا يجعلون من تقلبات الدنيا وتحولها ما بين عسر ويسر، وشدة ورخاء، مؤشراً لما يعود من ذلك إلى نفوسهم، من رعاية لحظوظها، أو إهمال لها.

واعلم أن السلّم الذي يرقى بهذه النخبة من الصحابة، ومن يليهم ممن يسمون «العارفين» إنما هو سلّم الحب. فإذا تزايد الحب في القلب

---

(١) أقول: الصفوة من أصحاب رسول الله، إذ لم يكن الصحابة كلهم على درجة واحدة، من السمو في معارج القرب من الله، وإن كانوا كلهم عدولاً، كما ذهب إليه أهل السنة والجماعة، ألا ترى أن فيهم المبشرين بالجنة، وفيهم من له فضل الأسبقية إلى الإسلام.

لمولاه وخالقه عز وجل، غابت عن مشاعر المحب حظوظ نفسه، وأعرض عن الإشارات التي قد تعود إليه بفائدة أو بخسران، واتجه القصد كله إلى سبيل القرب من الله ونيل المزيد من مرضاته.

وبهذا الشعور عاش الأنبياء والصديقون، واجتاز الربانيون معبر هذه الحياة الدنيا، وانغمسوا منها في مصائب وأوجاع، أو في نعم ومنح، فلم يستوقفهم منها هذا ولا ذاك، ومن ثم فلم يركنوا منها إلى الإشارات التي تعود إليهم بصور من أحداث الدنيا، أو حظوظ للنفس أو أي شيء من مخاوفها.

ألا ترى كيف اشتدت برحاء الموت برسول الله وأطبق عليه عذابه من كل جانب، وهو غارق في مناجاة مولاه قائلاً: اللهم بالرفيق الأعلى، اللهم بالرفيق الأعلى.

أو لاترى إلى معاذ لما نزل به الموت، وجعل النزع يتغشاه بشدة، فكان كلما أفاق من غمرات الموت فتح عينيه قائلاً: أي رب: أخنقني خنقاتك، فوعزتك إنك لتعلم أن قلبي يحبك.

وعمران بن حصين... ألا ترى كيف أثبته المرض العضال على سرير من الجريد وخوص النخل قرابة ثلاثين عاماً حتى ذاب لحمه ووهن عظمه، دون أن تفارق البسمة شفتيه!.. ولما زاره أخوه العلاء مرة ورآه على هذه الحال، بكى شفقه عليه. فقال له عمران: ما يبكيك؟ قال هذه الحال التي أنت فيها!.. قال: لاتبك، فإنّ أحبه إلى

الله أحبه إليّ![1].. والذين ارتقوا إلى هذا الشأو من أصحاب رسول الله كثير.

* * *

ثم إن ابن عطاء الله يوضح سبب هذه الحال التي يتقلب فيها هذه الطبقة من العلماء الربانيين، والتي لخصها بقوله: لا إشارة لهم، فيقول: ((لفنائه من وجوده، وانطوائه في شهوده)) أي لفناء العارف في وجود الله، وانطواء الشعور بذاته في شهوده لله.

وليس المراد بالفناء هنا الحال التي قد يمرّ بها السالك، إذ يقع فيما يشبه الغيبوبة عن ذاته، ويتقلب من ذلك في حال مما يسمونه الجذب، وهي حال ينبغي للسالك أن يتجاوزها ولايركن إليها.

وإنما المراد به هنا، فناء العبد عن أفعاله الذميمة وأحواله الخسيسة أولاً، ثم فناؤه عن نفسه وعن الخلق بزوال اهتمامه بنفسه وبالناس، بحيث يكمل انصرافه إلى ربه وشغله به، من دون الخلائق أجمع.

وليس معنى فنائه عن نفسه وعن الخلق، بعد فنائه عن أفعاله وأحواله الذميمة، أن نفسه مفقودة وأن الخلائق معدومة، بل كل ذلك موجود ((ولكنه - كما قال الإمام القشيري - لا علم له بنفسه ولا التفاتة منه إليهم، فتكون نفسه موجودة والخلق موجودين، ولكنه - أي العارف - غافل عن نفسه وعن الخلائق أجمعين، منشغل عن نفسه

(١) انظر فصل ((منطق الحب)) من كتابي أبحاث في القمة، ١٨٦/١، وهو فصل من كتيب الإنسان وعدالة الله في الأرض.

وعنهم جميعاً بالانصراف إلى مولاه عز وجل والانشغال بأسباب التقرب إليه»[١].

ومن هنا تدرك أن الفناء المقصود هنا يستلزم البقاء. ذلك لأن الفناء عن الشيء يستلزم البقاء بنقيضه، فالفناء عن الصفات المذمومة يستلزم البقاء بالصفات المحمودة أي التمسك والاتصاف بها، والفناء عن النفس وعن الأغيار يستلزم البقاء بالله عز وجل، أي الانصراف إليه وحده بالذكر والفكر والحب والمهابة والتعظيم.

* * *

بقي أن في الناس اليوم من يقول: إن هذا يتعارض مع ما نعرفه من أن الدين إنما جاء لرعاية الدنيا والآخرة، وربما استشهد في ذلك بقوله تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِي مَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا﴾ [القصص: ٢٨/٧٧]، وبقوله تعالى: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيها﴾ [هود: ١١/٦١]. ثم يقول: ولاريب أن من يُمضي حياته غافلاً عن الدنيا وشؤونها، لايستطيع أن يعمرها، ولا أن ينال نصيبه منها.

والجواب، أننا نتساءل: أفلا يأكل هؤلاء الربانيون العارفون، إذا جاعوا؟ أولا يشربون إذا ظمئوا؟ أولا يتجملون بالملابس؟ أولا يأوون إلى المساكن؟

---

(١) انظر ما قاله في ذلك الإمام القشيري في رسالته المعروفة والمشهورة، ٢/٦٠ وما بعدها طبقة بولاق العامرة.

إذن، فهم يتعاملون مع الدنيا، على الرغم من ذهولهم عنها، بل عن أنفسهم أيضاً.. ومعنى هذا أن الذهول عن الشيء لايستدعي عدم التعامل معه، بل لايستدعي أيضاً عدم استخدامه للهدف القدسي الذي من شأنه أن يكون هو المهيمن على القلب والنفس، لاسيما إن أدركت المعنى المراد هنا بغفلة هذه الطبقة من الناس عن الدنيا وبعدم التفاتهم إليها.

ليس المراد بغفلتهم أو ذهولهم عنها، عدم شعورهم بها، إلى درجة أنهم لايدركون سبيلاً للتعامل معها، لو كان الأمر كذلك لما أكلوا، ولما شربوا، ولما تجملوا بملبس، ولما آواهم مسكن..

إنما المراد بغفلتهم عنها أنهم لايقيمون لها وزناً ولايرون لها شأناً، أذهلهم عنها انصرافهم الكلي إلى الله، وصغرها في أعينهم انشغال أفئدتهم عنها بمحبة الله وتعظيمه.

فإذا تلقوا من الله الأمر بأن يعمروا الأرض التي يعيشون فوقها، وبأن يتعاملوا مع الدنيا التي يمرون بها، لبوا نداء الله، وانصرفوا إلى ما قد أمرهم به، ولكنهم لايتعاملون في هذه الحالة مع الدنيا ولا مع حظوظ أنفسهم فيها، ولايخطر ذلك منهم على بال، بل إنهم لايشعرون أثناء ما تراه من صورة تعاملهم معها وعمارتهم لها واستفادتهم منها. إلا بأنهم في حال شهود مع الله، من خلال تنفيذ أوامره وتطبيق تعاليمه.

وهذا الذي أقوله لك، ينطبق على سيرة سيد العارفين سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ومن ثم ينطبق على حال أصحابه

الذين نهجوا نهجه واتبعوا سيرته. لاشك أنهم عمروا الأرض وتعاملوا مع الدنيا، فصنعوا، وزرعوا، وتاجروا، وتعلموا، وعلّموا.. ولكنك لو رأيتهم وهم يمارسون ذلك كله، وتأملت في حالهم ونبضات قلوبهم وما تتجه إليه أفكارهم وأحلامهم، لأيقنت أنهم إنما يمارسون من خلال ذلك أعلى درجات العبودية لله، ولسمعت من خلال ضجيج أنشطتهم تسبيح الله وتوحيده وتحميده.

وكم من فرق بين من يلهو بالدنيا مندفعاً إليها بالحب محجوباً بها عن الله، وبين من يجندها ويذللها لمرضاة الله. فهو بمقدار ما يسخرها ويجندها في هذا السبيل يكون محجوباً عنها منصرفاً عنها، بإقباله إلى الله وبتعامله مع الله.

أولا تذكر قصة ربعي بن عامر التي ذكرت لك خلاصتها، يوم استجاب دعوة رستم فدخل سرادقه، مزداناً بأفخم أنواع الفرش والرياش، غارقاً في أبهى أنواع الزينة والبذخ!.. تذكّره كيف دخل وماذا صنع، ثم قل لي: أفكان ذاهلاً بتلك الفخامة الدنيوية كلها عن الله، أم كان ذاهلاً بالله عنها؟!...[1].

وهل كان يتأتى له أن يزدري تلك الفخامة الدنيوية المتألقة، وأن يفعل بها ما فعل، لو كان لها في نفسه أدنى قيمة، ولو لم يكن ذاهلاً عنها بما استقر بين جوانحه وهيمن على نفسه من محبة الله ومهابته وتعظيمه؟..

(١) انظر ص ٣٢٢ من هذا الكتاب.

ولكن انظر كيف أن ازدراءه لها وذهوله عنها، لم يصده شيء منهما عن سبيل التعامل معها طبق خطة مرسومة وتصرّفٍ يهدف إلى تحطيم ما ابتغى إليه رستم من دعوته له، ليبهر عينيه بـألق تلك الأبهة والزخارف. وليعيده إلى قائده سعد بن أبي وقاص، ضئيلاً متصاغراً من عظمة ما ينبغي أن يدهشه من مظاهر البذخ الحضاري المنبئ عن أعلى درجات القوة والغنى لدى الفرس.

وهكذا فقد كانت غفلة ربعي بن عامر بالله عن نفسه وعن الدنيا، الشرط الذي لابدّ منه لتغلبه على أحابيلها، ومن ثم فقد كان هو الشرط الذي لابدّ منه لتحول زمام الدنيا إلى يده وإلى يد أمثاله، لينهضوا بعمارتها على النحو الذي أمر به الله، وليمارسوا حركة كل من الكرّ إليها والفرّ منها، طبق ما تأمرهم به عبوديتهم لله وطبق ما تقتضيه استجابتهم لأمره.

ألا إن فناء العارفين عن الدنيا وعن أنفسهم بالله، هو الذي حررهم من مكائدها، ومن ثم فهو الذي صاغ منها مطية ذلولاً سارت بهم إلى رحاب الله، طبق النهج الذي أمر به الله.

وإني لأسألك: أفسمعت أن عاقلاً شدّت به دابته إلى لقاء ملك محبوب عظيم مهيب، ثم لم يذهل بلقياه عن الدابة التي تدنيه إليه، على الرغم من أنه يمتطي صهوتها، متمكناً منها، موقناً بوجودها؟

تلك هي الدنيا، مطية إلى الله، فمن ذهل بالله عنها أو صلته وأسعدته، ومن ذهل بها عن الله أسقطته ثم أعطبته، وتقطعت به الآمال والسبل.

وتلك هي مزية من يسمَّون العارفين، ورثوا عرفانهم من رسول الله وأصحابه، فأضافوا إلى ظاهر الالتزام بالشرع باطن الفناء عن الدنيا بشهود الله، فكان هذا الباطن في حياتهم هو أساس البناء، وكان ذلك الظاهر من الالتزام بالشرع وأحكامه هو الثمرة والقطاف. ولا يصلح حال المسلم مع الله إلا بعد أن يتوفر في حياته كلا هذين الجانبين.

* * *

الحكمة السادسة والسبعون

((الرجاء ما قارنه العمل، وإلاّ فهو أمنية))

في الحديث الصحيح ((أنا عند ظن عبدي بـي))[1]. وهو واحد من الأحاديث التي تبعث المسلم أياً كان على الاستبشار بكرم الله ومغفرته وعفوه.

ثم إن في المسلمين العصاة من يزدادون بسماع هذا الحديث وأمثاله، ركوناً إلى عصيانهم واستهانة بأوامر الله ونهيه، موقنين أن في حسن ظنهم بالله ما يمحو عنهم آثار عصيانهم ويبعث على مغفرة زلاتهم، وفيهم من إذا سمعوا هذا الحديث، وفاضت نفوسهم أملاً بمغفرة الله وعفوه، صدّهم الحياء من الله من مواصلة التنكب في طريق العصيان، والإعراض عن أوامر الله ووصاياه، فتوجوا ظنهم بمغفرة الله، بصدق التوبة إليه وتجديد المبايعة معه.

فالفئة الأولى تجنح إلى ماسماه ابن عطاء الله بالأمنية، وهي تعبير قرآني، ورد في مثل قول الله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمانِيِّ أَهْلِ الْكِتابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ٤/١٢٣].

---

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه من حديث أبي هريرة.

والمتعلق بهذه الأمنية مع عكوفه على المعاصي وابتعاده عن الطاعات مستخف بأوامر الله وأحكامه، مستهين بوعيده وعقابه.

ذلك لأن الذي يتلقى بشائر العفو والصفح من مولاه، ثم لاتزيده هذه البشائر إلا إعراضاً عن تعاليمه ووصاياه، مستخف به، بل مخادع له، وليس في قلبه أي معنى من معاني الشكر له، أو الشعور بالمثول تحت مننه وفضله.

أما الفئة الثانية، فإن شعوراً من الخجل يقودها إلى إصلاح الحال وتقويم الإعوجاج، وإلى أن تقابل كرم الله وصفحه بما يناسبهما من صدق الرجوع إليه والتوجه بالشكر له. ثم إن هذا الشعور من شأنه أن يتحول إلى حب ينبثق بالضياء في أفئدة آحاد هذه الفئة، إذ يقارن أحدهم بين ما يصعد منه إلى الله من المبارزة بالمعاصي والآثام، ومايفد إليه من الله تعالى، من بشائر الصفح والغفران.. فإن كان في نفسه مثقال ذرة من الشعور بعبوديته ومملوكيته لله، فلابدّ أن ينقدح من تلاقي تلك المقارنة بهذا الشعور، وهج من الحب مازجه قدر كبير من الحياء من مولاه عز وجل، فيقوده هذا الوهج إلى إصلاح الحال وتدارك ماقد فرط منه بالتوبة وصدق الإنابة، وهذا هو الرجاء كما قال ابن عطاء الله.

وأساس هذا كله قول رسول الله ﷺ: ((الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني))[١].

(١) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه، والحاكم في المستدرك من حديث شداد بن أوس.

غير أن في الناس من قد يستشكل هذا الذي يقرره حديث رسول الله، ويصوغه في هذه الحكمة ابن عطاء الله فيقول:

إذا كان المضمون الذي يدلّ عليه الحديث القدسي: «أنا عند ظن عبدي بي» مشروطاً بالعمل، أي باتباع الأوامر واجتناب المعاصي فأي معنى بقي إذن لخصوصية ما يدلّ عليه هذا الحديث؟ بل أي معنى يبقى لما تضمنه الحديث القدسي الآخر: «..ياعبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعاً، فاستغفروني أغفر لكم»[(١)].

إن المناط لنجاة العبد من سخط الله وعقابه، والحالة هذه، هو العمل الذي لابدّ منه، فتسقط عندئذ خصوصية ما تدلّ عليه أحاديث البشارة بصفح الله وعفوه من الآثام والذنوب.

والجواب يتمثل في أن تدرك الفرق بين المستهتَر في ارتكاب الذنوب، أي ذاك الذي يذهب في العكوف عليها مذهب اللامبالاة، والتوجه المصمم إلى الاستجابة لدواعي الشهوات والأهواء، وبين المدرك لجسامة أخطائه وانحرافاته، الراغب في الاستقامة على أوامر الله وتعاليمه، والمتألّم من ضعف إرادته وتغلب سلطان الشهوات والأهواء عليه.

فالأول يزداد طمأنينة إلى ما يتقلب فيه من حمأة المعاصي والأوزار، عندما يسمع أحاديث الرجاء والبشارة بمغفرة الله وصفحه، كما قد بينت لك، فلاتزيده هذه الأحاديث إذ يتلقاها، إلا شروداً وانحرافاً.

---

(١) من حديث طويل أوله: «ياعبادي أني حرمت الظلم على نفسي..» وقد رواه مسلم والترمذي وابن ماجه من حديث أبي ذر.

وأما الثاني فيزداد ألماً من سوء حاله عندما يسمع المبشرات من كلام رسول الله أو بيان الله عز وجل، بل لابدّ أن يزجّه ذلك في شعور حارّ من الحياء من الله تعالى كما سبق أن أوضحت لك.. فيدعوه تفاقم هذا الألم إلى الالتجاء إلى الله وبسط يد الدعاء إليه أن يعينه على الإنابة والتوبة، والشأن فيه أن يتوب إلى الله فعلاً.

وربما اهتاجت به غرائزه وأهواؤه، وعادت فتغلبت عليه، فاخترق حاجز التوبة وعاد إلى سابق انحرافاته، غير أن آلامه التي حدثتك عنها تعود فتستيقظ هي الأخرى بين جوانحه، وتعود فتستبدّ به مشاعر الخجل من الله ممزوجة بقدر كبير من الحب له، لنعمه الكثيرة التي لم تنقطع عنه على الرغم من السوء الذي هو عاكف عليه، فيدعوه ذلك إلى تجديد التوبة بإخلاص وصدق، فيتقبل الله توبته، ويغفر له سائر ذنوبه التي عاد إلى ارتكابها.

وهكذا دواليك.. يتوب إلى الله بسائق الخجل منه والحب له، فيقبل الله توبته ويغفر له سائر ذنوبه، ثم ينزلق ثانية في حمأة الأوزار، فيسوقه الخجل منه عز وجل ثانية إلى الندم والتوبة، فيتوب الله عليه ويغفر له سائر أوزاره الجديدة. فلو أنه لقي الله بملء الأرض معاصي وأوزاراً، وكان يلاحق معاصيه تلك بالتوبة الصادقة منها، لقي الله وقد غفر له ذنوبه كلها.

فهذا هو مصداق الأحاديث التي تدل على واسع كرم الله وعلى شامل مغفرته للذنوب.. وبذلك يتم التوفيق بينها وبين قول رسول الله: ((الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت..)) وقوله جل جلاله:

﴿لَيْسَ بِأَمانِيِّكُمْ وَلا أَمانِيِّ أَهْلِ الْكِتابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ٤/١٢٣].

وقيمة المغفرة التي ادخرها الله لعباده، تتجلى في تفسير قوله عليه الصلاة والسلام: «..وعمل لما بعد الموت». فلهذه الكلمة معنيان اثنان، أولهما أن يستقيم العبد على أوامر الله، فلايشرد عنها إلى أن يأتيه الموت، ثانيهما أن يستقيم ثم يشرد.. ثم يستقيم ثم يعود فيشرد.. كلما شرد أعادته التوبة إلى نهج الاستقامة، فهذه التوبة المتكررة، هي وثيقة كرم الله وصفحه، وهي منشور عفوه ومغفرته.

وصاحب هذه التوبة هو المراد بكلمة «أوّاب» في قوله عز وجل ﴿هَذا ما تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوّابٍ حَفِيظٍ﴾ [ق: ٥٠/٣٢] إذا الأواب صيغة مبالغة من آيب أي راجع، ولايكون العبد كثير الأوبة إلى الله إلا إن كان كثير الشرود عنه.

* * *

غير أن في الناس من لايشفي غليله هذا البيان، فيقول: إن رحمة الله أوسع مما تصف، وأشمل مما تحدد. وربما استشهد على مايقول بقول رسول الله، وقد رأى امرأة بين السبي تسعى، فوجدت صبياً في السبي، فأخذته وألصقته بصدرها ترضعه: «أترون هذه المرأة طارحة وليدها في النار؟ قالوا: لا يارسول الله. قال: «لله أرحم بعباده من هذه بولدها»[1].

(١) الحديث متفق عليه، من رواية عمر بن الخطاب.

فيقول هذا المعترض: هل رأيت امرأة تفرق بين أولادها، فتشمل بعضاً منهم برأفتها وعنايتها، وتزج آخرين منهم في أودية الشقاء والهلاك، مهما اختلفوا عن بعضهم في البر بها والطاعة لها؟ فكذلك الله عز وجل، طبق ما ينصّ عليه هذا الحديث الصحيح.

والجواب أنا نقول لهذا السائل: هل رأيت صغاراً سلكوا مسلك التمرد على آبائهم وأمهاتهم، ثم واظبوا على هذا التمرد، وثبتوا عليه، لايلويهم عنه خطر يحدق بهم ولا عذاب يتهددهم؟ إن الطفل مهما سيطرت عليه طبيعة الشقاوة على حدّ تعبيرهم، ومهما عاث فساداً فيما حوله، ما إن يشعر بشيء من الخوف أو الخطر يدنو إليه، حتى يلجأ متضائلاً إلى أحضان أمه وأبيه، فهو الملاذ الذي لابديل له عنه كلما نابته شدّة أو ألمّ به خوف أوعنّت له حاجة.

فعندما يكون شأن الناس كلهم مع الله، كشأن الأطفال كلهم مع أمهاتهم وآبائهم، ستجد أن الله أرأف بعباده من رأفة أي أم بوليدها، وهذا ما عناه رسول الله ﷺ في الحديث الذي استدل به هؤلاء المستشكلون.

ولكن في عباد الله من يتمرد على الله في الشدة والرخاء، فلايتعرف على الله في أي من حالتي اليسر والعسر، لا لطائف الإحسان تجذبه، ولا سلاسل الامتحان تردعه!.. أولئك هم الذين حجبوا أنفسهم عن الله بحجاب استكبارهم عليه، وهم الذين قال الله عنهم:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٧/٤٠].

*   *   *

وجملة القول أن كل من اصطبغت مشاعره بحقيقة العبودية لله عز وجل، لن يكون رجاؤه بمغفرة الله وصفحه إلا حافزاً لإصلاح الحال وتجديد التوبة والعزم على العمل، والاستقامة.

أما الذين غابت عنهم مشاعر العبودية لله، فاتجهت منهم الأمانيّ إلى تمتيع أنفسهم بمزيد من المتع والرغائب الذاتية، دون أي حساب لشيء آخر، فلن يكون رجاؤهم بمغفرة الله إلاّ أمنية باطلة كما ذكر ابن عطاء الله، وصاحب هذا النوع المزيف من الرجاء هو الذي عناه رسول الله بقوله: ((..والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنّى على الله الأمانيّ)).

*   *   *

الحكمة السابعة والسبعون

((مطلب العارفين من الله الصدق في العبودية، والقيام بحقوق الربوبية))

مرّت بك الحكمة التي يقول فيها ابن عطاء الله: خير ما تطلبه منه، ما هو طالبه منك.

وقد علمت مما سبق بيانه أن ما قد طلبه الله من عباده، يتلخص بكلمة مجملة جامعة، هي التشبع بحقيقة العبودية لله، ويتفرع إلى تفاصيل كثيرة، وأوامر ونواه متنوعة، كلها ضمانات لتحقيق سعادة الإنسان في معاشه الدنيوي ومعاده الأخروي.

فإذا تبين لك أن ما قد طلبه الله من عباده يتلخص في ضرورة تشبع العبد بهويته ألا وهي عبوديته لله عز وجل، وتذكرت ما قاله ابن عطاء الله من قبل: أن خير ما تطلبه منه ما هو طالبه منك، فإن بوسعك إذن أن تدرك النتيجة المنطقية لهاتين المقدمتين، وهي هذه الحكمة: مطلب العارفين من الله الصدق في العبودية والقيام بحقوق الربوبية.

فكيف يكون الصدق في العبودية؟ وكيف يتأتى للإنسان أن يعلن عن عبوديته لله دون أن يكون صادقاً فيها؟

إن كل مسلم صادق في إسلامه، لابدّ أن يكون موقناً بكونه عبداً لله. إذ لايتأتى له أن يعبد الله بتنفيذ أوامره واجتناب نواهيه، إلا بعد أن يعلم أنه عبد لله عز وجل. أي إن أداء المسلم للعبادات التي كلفه الله بها في مثل قوله عز وجل: ﴿وَما أُمِرُوا إلاّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفاء﴾ [البينة: ٥/٩٨] فرع عن يقينه بأنه عبد لله عز وجل.

فهذا جامع مشترك بين المسلمين كلهم، ماداموا صادقين في إسلامهم.

ثم إنهم يتفاوتون في مدى سلطان هذه العبودية عليهم، وفي مدى قيامهم بحقوقها ، حسب ما يتفاوتون به، من شهودهم لله، ومن مدى حضور صفات الله تعالى في أفكارهم ومدى تجلياتها على قلوبهم.

فأقل هذه المراتب أن لايشرك المسلم بعبادة ربه أحداً، بأن يتنزه عن الشرك الظاهر المتمثل في اتخاذ شريك أو شركاء مع الله، وبأن يتنزه عن الشرك الباطن بأن يتجنب الرياء ويجعل عمله خالصاً لله.

وأعلى هذه المراتب أن لايقصد المسلم من عباداته إلا أداء حق العبودية لله في عنقه، دون أن يطمع بأجر ما عليها، إذ الأجير إنما يستحق أجره على العمل، لأن موجب العمل هو التزام المستأجر بالأجر الذي طلبه الأجير على العمل الذي اتفق معه عليه. فلولا الارتباط بالأجر، لما وجد الأجير ما يدعوه إلى النهوض بعمل ما لإنسان مثله ليس له أي سلطان ذاتي عليه.

والعمل الذي يؤديه العبد للرب أبعد ما يكون عن الدخول في هذا النوع المألوف من أعراف الاستئجار وقوانينها بين الناس بعضهم مع بعض.

إذ العبد مملوك لله عز وجل، ومملوكيته له تستدعي أن يكون قائماً بأمره خاضعاً لحكمه، وليس للمملوك أن يطالب مالكه على خدماته له بأي أجر مما من شأن الناس أن يتعاقدوا فيما بينهم عليه. ورحم الله من قال: ((العبد وما ملكت يداه ملك لسيّده)).

فهذا هو مراد ابن عطاء الله بصدق العبودية.

وقبل أن أتجاوز بك هذه النقطة في شرح هذه الحكمة، ينبغي أن أزيد معنى كمال العبودية لله تعالى جلاء، إذ مازال في الناس، بل في بعض من علماء هذا العصر، من يظلّ يختلط عليهم هذا الأمر، ولايسلمون بهذا الحق الذي هو مطمح أنظار العارفين.

إن مدار الأمر كله في هذه المسألة، على توحيد الله تعالى في العبادة انطلاقاً من صفاء العبودية لذاته العلية.

ولبيان ذلك أعيد إلى ذاكرتك قول الله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ...﴾ [البينة: ٩٨/٥]، ومثله في المعنى ذاته قول الله تعالى: ﴿فَمَنْ كانَ يَرْجُو لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾ [الكهف: ١٨/١١٠].

فالمطلوب من العبد إذن، أن يخلص عبادته لله وحده، ولايدخل معه في ذلك أي شريك.

وقد قلت لك إن أدنى مراتب هذا الإخلاص المطلوب، أن يتخلص العبد من آفات الشرك الظاهري، فلايشرك مع الله في عبادته صنماً ولا حجراً ولاإنساناً ولا كائناً ما.. إذ هو المدخل الأول الذي لابدّ منه إلى مدارج الإخلاص لله والقرب منه.

ثـم إن درجـات التوحيـد في العبـادة والعبوديـة تتفـاوت وتتلاحـق. فأولها التخلص من آفات الرياء، ثم التخلص من آفة العجب بـالذات، إذ هو نوع من الشرك الخفي؛ يليها التخلص مما قد يهدف إليه - أثنـاء أداء طاعاته وعباداته - مـن مصـالح الدنيـا ومغانمهـا ورغائبـه العاجلـة فيها، يليها - وهذه أعلى درجات التوحيد والإخلاص لله - التخلـص مـن التطلـع إلى الأجـر الأخـروي الـذي ادّخـره اللـه لعبـاده الصـالحين ووعدهم به.

فإذا صلى وصام وحج وأدى سائر فرائض اللـه، لايدفعـه إلى شـيء من ذلك إلا القيام بحقوق الربوبية، وأداء ما تقتضيه عبوديتـه للـه. دون أن يمتزج بهذا الدافع دافع الرغبـة في الأجـر، والوصـول إلى شـيء مـن المبتغيات النفسية الآجلة منها والعاجلة.

وأنت خبير أن الذي يطيع اللـه بدافعين اثـنين: أداء حـق الربوبيـة، والوصول إلى المبتغيات والحظـوظ النفسـية، لاتخلـو عبادتـه مـن شـائبة شرك. ومن ثم فهو لم يرتق بعـد إلى المقـام الـذي يعبر عنـه قـول الله تعالى: ﴿وَما أُمِرُوا إلاّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ...﴾ وقوله تعالى: ﴿...وَلا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾ إذ من الواضح أن ما قد يهدف إليـه العبد، إلى جانب الوصول إلى مرضاة الله وأداء حـق العبوديـة لـه، مـن تحقيق مبتغياته وحظوظه النفسية من جنـان ومتـع ومشـتهيات، شـريك مع الله في دافع التوجه إلى طاعاته وتنفيذ أحكامه.

ولايوهمنك هذا الذي أقول، وقاله من قبلي سائر العارفين والعلمـاء الربـانيين، أن مقتضـى عبوديـة الإنسـان للـه أن لايطلـب منـه جنـة

ولايستعيذ به من نار، بل العكس هو المطلوب، وهو الذي تقتضيه مشاعر العبودية لله.

إن العبد فقير دائماً إلى مولاه، ومن ثم فشأنه الطلب والاستجداء، لاسيما عندما يعلم الكثير من كرم مولاه وجوده وواسع مننه وفضله.

ولكنّ العبد إذ يطلب ويستجدي، إنما يجعل من فاقته فقط شفيعاً بين يدي استجدائه. وهو مهما سعى في خدمة مولاه وإنجاز أوامره، لايرى أنه أدى شيئاً من حقوقه المترتبة عليه. فكيف يطالبه بالأجر على ما هو حق لمولاه وليس حقاً له؟.. فهو إذ يطلب، إنما يطلب منه استجداء، واسترحاماً بين يدي فاقته وحاجته، لاأجراً على حق ثبت له أي للعبد عليه، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

* * *

وإذا تبين لنا الآن معنى «صدق العبودية» في هذه الحكمة، فلنعلم إذن، أن قصارى ما تطمح إليه أنظار العارفين وهممهم، أن يقدرهم الله على ممارسة عبوديتهم لذاته العلية، بصدق، أي خالصة من شوائب الشرك بأنواعه كلها، ما خفي منها وما ظهر.

والدعاء المتجه إلى الله بهذا الطلب ينبئ عن أمرين اثنين:

الأمر الأول: أن هؤلاء المتجهين إلى مولاهم بهذا الدعاء - وهم العارفون - لايرون لأنفسهم حقاً في الطمع بشيء مما وعد الله به عباده الصالحين، من نعيم الآخرة جزاءً على أعمالهم. لأنهم مهما أجهدوا أنفسهم في أداء الطاعات والقيام بالواجبات، فالفضل فيه

لمولاهم الذي وفقهم لذلك، فالمنّة في أدائها إنما هي لله في أعناقهم، إن الذي يستحق الأجر إذن عليها إنما هو الله الذي حببها إليهم وأعانهم عليها. إذن فهم مطالبون بأداء حقوق العبودية التي لاسبيل لهم إلى أداء شيء منها، وليسوا في وضع يخولهم أن يكونوا مطالبين بأجورهم على أدائها.. واعلم أن يقين المسلم بأن هذه هي حاله مع ربه، هي العبودية الكاملة التي ينبغي أن يشدّ كل مسلم نفسه لبلوغ مرقاتها.

الأمر الثاني: أن الدعاء المتجه إلى الله بهذا الطلب، تعبير عن عجز الداعي عن المثول بين يدي الله في محراب هذه العبودية الصادقة والخالصة عن الشوائب. وهذا هو المطلوب من العبد، في كل الأحوال.

إن الذي يقول إنه ماثل بين يدي الله في ساحة هذه العبودية، وإنه إذ يعبده ويسعى في امتثال أوامره، إنما يعبد الله لذاته هو، لأنه عبده ولأن الله الذي يعبده ربه، فليس في نفسه مع هذا الدافع مقصد آخر، من الوصول إلى متع النفس وحظوظها في جنان الخلد، أقول: إن الذي يدّعي هذا، ينسب إلى نفسه قدرة ذاتية على بلوغ هذا الشأو، وعلى المثول في هذا المحراب.

غير أن هذه الدعوى أيضاً تخالف واقع عبودية الإنسان لله، تلك العبودية المنبئة عن كامل فقره وعجزه.. إن العبودية الصادقة والصافية إذ تستيقظ حقيقتها بين جوانح الإنسان، تنبه صاحبها إلى عجزه المطلق، وإلى أنه اللاشيء إذا انفك عنه حوْل الله وقوته، فأنّى له إذن أن يدّعي لنفسه القدرة على أن لايبتغي بعبادته لله إلاّ أداء حق الله في عنقه وأداء ضريبة العبودية له في كيانه؟

إذن فصدق العبودية لله، لاينطق صاحبها بهذه الدعوى مهما بلغ من أمره، ولكنه ينطقه بالدعاء متوجهاً به إلى ربه أن يعينه على صدق العبودية، والقيام بحق الربوبية.

أي إن توجه العبد إلى الله بهذا الدعاء جزء لايتجزأ من معنى التوحيد الصافي عن الشوائب، والمتسامي على رؤية الذات.

وهكذا فإنك لن تجد عارفاً، مهما تدرج في عرفانه إلى مرتبة الكمال(١)، يدعي لنفسه مقام العبودية الصادقة والقيام بأداء حقوق الربوبية التامة، بل يظل في موقف الافتقار إلى الله بأن يكرمه بهذه الرتبة، ومن ثم فهو يظل متجهاً إلى الله بالدعاء... يدعوه أن يقدره على ممارسة العبودية الصادقة الخالصة، وعلى القيام بحقوق الربوبية الكاملة.

* * *

بقي أن تعلم أن هذه هي المرتبة التي يجدر بكل مسلم صادق في إسلامه وعبوديته لله، أن يشدّ نفسه إليها، لتكون عبادته لله تعالى صافية عن سائر شوائب الشرك، مهما دقت وخفيت.

فإن استطاع بلوغ هذه الرتبة فذاك، وإلا فإن له الوقوف عند الرتبة التي تليها، وهي أن يطمع عند السعي إلى القيام بأوامر الله وتنفيذ أحكامه بالأعطيات والأجور التي أناطها الله به.

---

(١) اعلم أنني لا أعني بالكمال هنا مرتبة العصمة، فلاكمال بهذا المعنى إلا للرسل والأنبياء، وإنما أعني كمال التنزه عن شوائب الشرك في الطاعات والعبادات وهي شوائب كثيرة ومتنوعة، كما قد علمت.

والوقوف عند هذه الرتبة لايحمل صاحبها وزراً، ولاينقص لـه على طاعاته أجراً. بشرط أن يتحرر من الرياء ومن العجب عند أداء الطاعات، وبشرط أن لايجعل من قصور رتبته التي هو فيها، حجة على من تجاوزه إلى الرتبة العليا وسما إلى حيث العبودية الصافية الخالصة من شوائب الازدواج والإشراك، فينحط بالنقد عليه، كما هو شأن كثير من الجاهلين المتعالمين اليوم، وقد كان الأحرى به أن يخجل من تقصيره وسوء حاله..

ولعلي أوضحت، في شرح حكمة مضت، سوء حال هؤلاء الناس، إذ ينكرون - وهم في قاع تقصيرهم وانحرافاتهم - على الربانيين، توجههم بالعبادة إلى الله لا ابتغاء شيء إلاّ لأنه ربّهم المعبود بالحق، ولأنهم عبيده، فعليهم القيام بحق هذه العبودية ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.. وأجبت عن الشبهات التي يتعلقون بها، من مثل قوله عز وجل: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ١٦/٣٢].

فاجهد جهدك أيها القارئ أن تعرف حق الله عليك رباً، وأن تعرف واجباتك له عبداً، ثم أن تقبل ما استطعت إلى أداء هذه الحقوق والواجبات، لالشيء إلا لأنه ربك ولأنك عبده..

ثم أقبل إليه مذعناً بفقرك الكلي المطلق، موقناً بأنه المالك والغني الأوحد، فابسط يد الذل والمسألة إليه، واستجد منه الجنة التي وعد بها عباده الصالحين، واستعذ به من ناره التي توعد بها العتاة، والمستكبرين، لالشيء إلاّ لأنك العبد المفتقر إليه، ولأنه الرب الغني عنك والمحسن إليك والرحيم بك.

فإنك إن وُفِّقت لذلك، علوت إلى سدّة الأدب مع الله، وارتديت جلبات العبودية الحقيقية لله، ورحلت إليه مع الصدّيقين والربانيين وجملة عباده الصالحين، اللهم اجعلنا منهم بمحض منك وفضلك.

* * *

خاتمة الجزء الثاني

هذه هي نهاية الجزء الثاني من شرح حكم ابن عطاء الله السكندري رحمه الله، تم الفراغ منه بتوفيق الله وفضله عشية يوم الجمعة الواقع في ٢٤ربيع الثاني عام ١٤٢٢هجري الموافق لـ١٥ حزيران عام ٢٠٠١ميلادي.

وأسأل الله أن لا يقطع عني رفده وتوفيقه وأن يعينني لشرح ما قد تبقى منها، على أحسن حال ترضيه، كما أرجو من إخواني القراء أن لايضنو عليّ بالدعاء الدائم أن يكرمني الله مع التوفيق بالقبول، والحمد لله رب العالمين الذي بنعمته تتم الصالحات.

* * *

المحتوى

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع **الصفحة**

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع — الصفحة